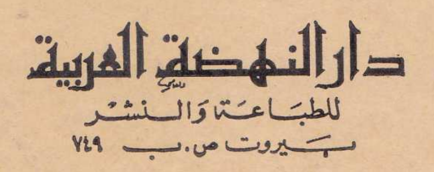
تاريخ النقد الأدبي

عند العرب

الدكتور عبد العزيز عتيق

أستاذ بجامعة بيروت العربية

١٩٧٢




رَفْعُ
عبد الرَّحمن النَّجْدِيّ
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com

تاريخ النقد الادبي عند العرب

الطبعة الثانية

١٣٩١هـ – ١٩٧٢ م

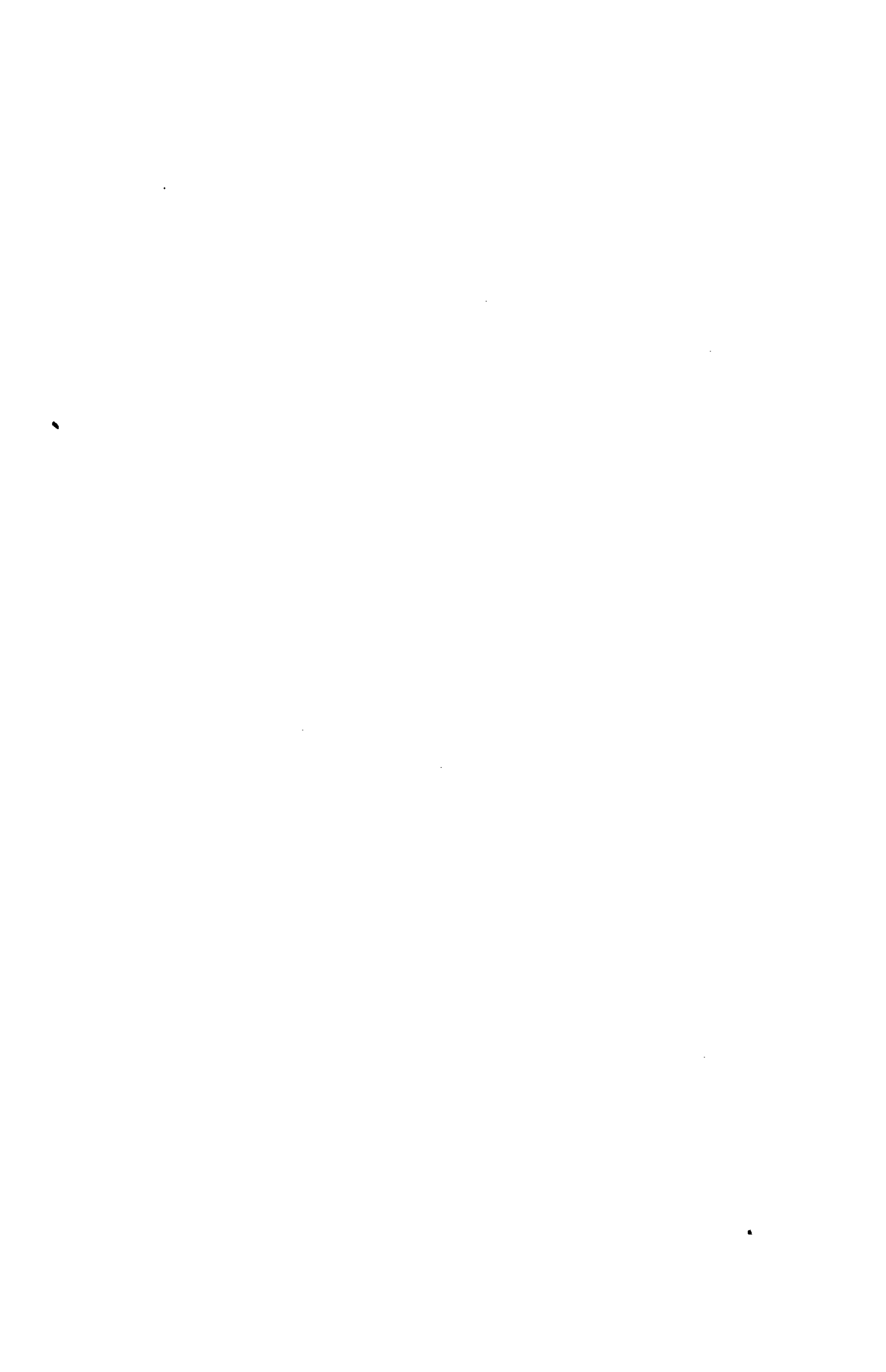
تاريخ النقد الأدبي

عند العرب

الدكتور عبد العزيز عتيق
أستاذ بجامعة بيروت العربية

١٩٧٢

دار النهضة العربية
للطباعة والنشر
بيروت ص. ب ٧٤٩



بسم الله الرحمن الرحيم

مقدّمة

تاريخ النقد الأدبي عند العرب هو موضوعُ هذه المحاضرات التي ألقيتُها على طلبة السنة الثالثة في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة بيروت العربية .

والأدب هو موضوعُ النقد وميدانُه الذي يتحرك فيه ، فهو يبحث في الأدب وصناعتِه وأنواعه ، وفي الأدباء ونتاجهم ، وفي مميزات الشعراء والكتاب ، وفي السّمات المميزة للعصور الأدبية .

كذلك يتصدّى لرصد الظواهر الأدبية وتعليلِها وتفسيرها ، كما يتصدى لتحليل عناصر الأدب تحليلاً يعتمد على الذوق السليم .

وعلى هذا فتاريخ النقد الأدبيّ عند أي أمة هو في الواقع جزء من تاريخ أدبها العام . إنه تاريخ التغيّرات التي تطرأ من عصر الى عصر على فهم الناس للأدب وتذوقه .

ويدخل في ذلك تاريخُ النظريات والمذاهب النقدية المختلفة ، وتاريخُ رجال النقد ومناهجهم وآثارهم العلمية التي أسهموا بها في نهضة النقد وإثرائه وتطويره .

وعلى الإجمال إنه عرضٌ تاريخيٌّ للنقد الأدبي منذ نشأته ، وتتبعٌ لحركاته ، مع الإلمام بالمؤثرات التي أثّرت فيه، والتجارب التي مرّ بها ، والقواعد والمبادىء التي استنّها النقادُ له ، واتخذوا منها مقاييس لتقدير الأعمال الأدبية ، والتمييز بين جيدها ورديئها ...

ونحن في الفصول التي يَضمُّها هذا الكتابُ ، قد عرضنا لتاريخ النقد الأدبيّ عند العرب من الزوايا التي أشرنا إليها آنفاً. ولما كان هذا التاريخ طويلاً، وكان رجالُه في كل عصر عديدين ، وكتبُهم شتى ، فقد قصرنا البحث هنا على تاريخ النقد الأدبي عند العرب ابتداء من نشأته في العصر الجاهلي حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، آملين إتمام هذا التاريخ في بحث آخر .

ولعل في هذه المحاضرات ما يغري بالتوسع في دراسة تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، والتعرف الى جهود رجالنا فيه .

والله الموفق ...

المؤلف

الفصل الأول

النقد الأدبي

الأدب هو موضوع النقد وميدانه الذي يعمل فيه ...

وأدب أي أمة هو المأثور من بليغ شعرها ونثرها ، والأدب عملية خلق وإبداع ، ومنه ما يسمو صعداً إلى الكمال ، وما يقصّر دون ذلك .

والنقد هو الذي يستكشف أصالة الأدب أو عدم أصالته ، ويميز جيده من رديئه . وسواء كان النقد علماً أو فناً فإنه ليس قائماً بذاته ، وإنما هو متصل بالأدب ، يستمد منه وجوده ، ويسير في ظله ، يرصد خطاه واتجاهاته .

وإذا كان الأدب بطبيعته ينزع إلى الحرية والتجديد واكتشاف آفاق جديدة يحلّق فيها ويعبّر عنها ، فإن النقد على العكس من ذلك . إنه محافظ مقيد ، يقف عند حدود دراسة الأعمال الأدبية بقصد الكشف عما فيها من مواطن القوة والضعف ، والحسن والقبح ، وإصدار الأحكام عليها .

ولهذا فالنقد قلما أوحى الى الأديب بتجارب جديدة ، أو اكتشف له أرضاً وآفاقاً جديدة ، وإنما العبقرية الخالقة هي التي تتقدم دائماً على الطريق كشفاً

وريادة ، والنقد يتبعها ..

*

وكلمة « النقد » كما تنبئنا المعاجم العربية مأخوذة في الأصل من « نَقَدَ الصيرفيُّ الدراهم والدنانير وانتقدها » ، أي ميّز صحيحَها من زائفها وجيدَها من رديئها . ومن معانيها أيضاً « النـّقاش » يقال ناقد فلان فلاناً في الأمر ، إذا ناقشه فيه .

ومن هذا المعنى الأصلي للكلمة جاء معنى النقد في الأدب . ذلك لأن ما يفعله الناقد من محـاولة التمييز بين جيد الكلام ورديئه ، ليس إلا من جنس ما يفعله الصيرفيُّ في نقد الدراهم والدنانير .

والنقد في ذاته قديم قدمَ الإنسان الذي خُلِق نزّاعاً الى الكمال ، ومِن ثَمّ مُنقاداً بطبعه الى إدراك ما في الأشياء من وجوه كمال يستريح إليها ووجوه نقص يسعى الى كمالها .

وإدراك الكمال في الأشياء ليس مقصوراً على من سمتْ عقولـُهم ومداركهم ، وإنما هو أمر يدركه عامة الناس كذلك ، وإن كان ذوو العقول الراجحة ، بطبيعة الحال ، أدرى الناس بالكمال وأقدرَ من غيرهم على بلوغه ، والتمييز بينه وبين النقص .

ومن الناس مَن لديهم استعداد فطريٌّ للنقد ، أي للتمييز بين ما هو حسن أو غير حسن في الأشياء ، ولكن لا بد لهذا الاستعداد الفطري من أن يُنمّى ويُصقَل بالتربية والمران .

وهذا أمر اكتسابي يتطلب من الناقد الموهوب أن يكون على حظ كبير من العقل والذوق ورهافة الحس ، بالإضافة الى ثقـافة منوعة ، واطـلاع واسع على الآداب .

فكل ذلك مجتمعاً من شأنه أن يوسِّعَ من أفق الناقد ، ويزيد في تجـاربه ، ويجعلـَه أقدر على تقويم الأعمال الأدبية ، وإصدار الحكم عليها .

مما تقدم نستطيع أن نتبين فروقاً أخرى بين الأدب والنقد . فالأدب أسبق الى الوجود من النقد ، وهذا يعني أن الشاعر الأول قد سبق الى الوجود الناقدَ الأول سواء كان نقده سلبياً يقف عند تذوق الشعر فحسب ، أم إيجابياً يتجاوز ذلك الى التعبير عن انطباعاته والتعليل لها .

والأدب يتصل بالطبيعة اتصالاً مباشراً ، والنقد يراها من خلال الأعمـــال الأدبية التي ينقدها .

والأدب ذاتي من حيث أنه تعبير عما يحسه الأديب ، وعما يجيش بصدره من فكرة أو خاطرة أو عاطفة نابعة من تجربته الشخصية أو من تجارب الآخرين .

أما النقد فذاتي موضوعي ، فهو ذاتي من حيث تأثره بثقافة الناقد وذوقه ، ومزاجه ووجهـة نظره ، وهو موضوعي من جهة أنه مقيدٌ بنظريات وأصول علمية .



والتفرقة بين الأدب والنقد على النحو السابق ، تجرُّنا الى التفرقة كذلك بين تاريخ الادب وتاريخ النقد ، حتى تتضح أمامنا الحدود الفاصلة بين التاريخين .

فتاريخ آداب اللغة في كل أمة راقية هو تاريخ عقول أبنائها ومـــا أنتجته قرائحهم من أدب وعلم .

هو تاريخ المأثور من بليـغ شعرها ونثرها ، وهو تاريخ علومها المختلفة ، وما عرض لكل ذلك من تطور ، ومن أسباب الصعود والهبوط في مختلف العصور ، مع الإلمام بصنـّاع هذا التاريخ ، من حيث حياتـُهم ، وآثارُهم الادبية والعلمية ، وتأثيرُ بعضهم في بعض فكراً وصناعة وأسلوباً .

ولمؤرخي الأدب في عرض هذا التاريخ منهجان : المنهج الزمني ومنهج الأحداث .

ففي المنهج الأول يعرض المؤرخ لتاريخ الأمة الأدبي على أساس تقسيمه الى عصور زمنية تتطابق مع عصور تاريخها السياسي ، ثم يعرض بالبحث والتأريخ لنتاج الأمة العقلي في كل عصر على حدة .

وفي المنهج الثاني يعالج المؤرخ كل نوع من أنواع الأدب والعلوم من مبتدئه الى منتهاه على أساس الأحداث التي أدت الى تغيير محسوس في شكله ، أو ألحقت تنوعاً خاصاً بمادته . وبهذا يخرج الدارس لأي علم أو فن أدبي بصورة واضحة متكاملة ، تُريه تطوراته وأطوارَه ، وكلَّ ما عرض له إيجاباً وسلباً منذ نشأته حتى نهاية مسيرته . هذا عن مفهوم تاريخ الأدب ومناهج دراسته بإيجاز .

أما تاريخ النقد الأدبي الذي هو جزء من تاريخ الأدب العام ، فهو تاريخ التغيّرات التي تطرأ من عصر الى عصر على فهم الناس للأدب وتذوقه .

ويدخل في ذلك تاريخُ النظريات والمذاهب النقدية المختلفة ، وتاريخُ رجال النقد ومناهجهم وآثارهم العلمية التي أسهموا بها في نهضة النقد وإثرائه وتطويره .

وعلى الإجمال إنه عَرْضٌ تاريخيّ للنقد الأدبي منذ نشأته وتتبع لحركاته ، مع الإلمام بالمؤثرات التي أثّرت فيه ، والتجارب التي مرّ بها ، والقواعد والمبادىء التي استنّها النقاد له ، واتخذوا منها مقاييس لتقدير الأعمال الأدبية ، والتمييز بين جيدها ورديئها ...

والسؤال الذي يرد على الخاطر الآن هو : هل عرف النقاد العرب اصطلاح « النقد الأدبي » الشائع الآن واستعملوه ...؟

إذا رجعنا الى علوم العربية في جميع تقسيماتها عند المتقدمين من علمائنا فإننا

لا نجد « النقد الأدبي » واحداً منها ، ولكن ذلك لا يعني بحال من الأحوال أن العرب كانوا يجهلون النقد الأدبي .

نقول ذلك ، لأننا نجد في تراثنا الأدبي كتباً للمتقدمين تطرّقت للنقد الأدبي من زوايا وجوانب مختلفة . فمن هذه الكتب على سبيل المثال لا للحصر : كتاب طبقات الشعراء لابن سلام ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وعيار الشعر لابن طباطبا ، والموازنة بين أبي تمام والبحتري الآمدي ، والوساطة بين المتنبي وخصومه للقاضي الجرجاني ، والأغاني للأصفهاني ، والذخيرة لابن بسّام .

فالدارس لمثل هذه الكتب حَري بأن يرى أن العرب قد عرفوا « النقد الادبي » معنى لا اسماً ، أو عرفوه ، كما يقول الاستاذ طه إبراهيم كنهاً وحقيقة، وإن لم يعرفوه عنواناً لطائفة من المسائل [1] .

*

والنقد لا ينفصل أبداً عن البلاغة شقيقتِه الكبرى ،فهو في جزء منه بلاغةٌ محدودة ، وفي جزء آخر بلاغةٌ موسّعة . لقد نبعا من أصل واحد ، وسارا معاً شوطاً بعيداً في المراحل الاولى من تاريخهما ، ثم أخذ كل منهما بحكم وظيفته يشق لنفسه طريقاً خاصة ، ويكتسب سِماتٍ وصفات معينة انتهت بهما الى الانفصال كعلمين مستقلين .

ولكن هذا الانفصال والاستقلال لا يعني الانقطاعَ التام بينهما ؛ لأن النقد كان ولا يزال يقوم في بنائه على أسس بلاغية .

فإذا أدركنا ذلك كان من الضروري أن نفرق بين النقد والبلاغة حتى لا يتداخل تاريخاهما أثناء عرضنا لتاريخ النقد الأدبي عند العرب .

---

(١) تاريخ النقد الأدبي لطه إبراهيم ص ٦ .

فالبلاغة تغلب فيها الناحية الفنية ، بمعنى أنها تُمِدّ المتعلم بكل القواعد والعناصر البيانية التي تساعده على جودة التعبير عن أفكاره ، أما النقد فيوضح النظريات والاصول التي يقاس بها قيمة التعبير من الناحية الجمالية .

والبلاغة تُعنى أكثر ما تُعنى بقوالب الكلام وصوره ، فهي تفترض أن المعاني حاصلة في ذهن الكاتب، ثم تعلّمه كيف يصوغها ويخرجها في قوالب بليغة من الكلام .

أما النقد فيتعلق بما وراء قوالب الكلام وأشكاله وصوره ، إنه يتعلق بالعناصر الاساسية التي هي أدوات الناقد ، والتي بها يستطيع أن يقدّر العمل الادبي ، وبالتالي يحكم له أو عليه بالحسن أو القبح .

فإذا عُنيت البلاغة بالنظم وتأليف الكلام وعناصر الاسلوب، فالنقد يُعنَى بمصادر الاسلوب من فكر وعاطفه وخيال ، وغير ذلك مما لا يمت الى الشكل بصلة . كذلك يُعنَى بمدى نجاح نظم الكلام وتأليفه في تأدية المعاني ...



وبعد ... فلما كان موضوع هذا البحث هو « تاريخ النقد الادبي عند العرب » فإننا في جولتنا التاريخية سنحاول الإلمام بالنقاط التالية :

- نشأة النقد عند العرب وتطوره وسماته المميزة .
- آراء العرب ونظراتهم في أدبهم وشعرائهم وكتابهم .
- فنون الادب التي كانوا يؤثرونها .
- مدى فطنتهم الى تعليل الظواهر الادبية ، ومبلغ قدرتهم على تفسيرها.
- أهم نقاد العرب ، وآثارهم العلمية ، ونظرياتهم واتجاهاتهم في النقد ، ومدى تأثر كل واحد منهم بآراء سابقيه ، وتأثيره بآرائه فيمن جاءوا بعده .

هذا وسوف يكون عرضنا لتـــاريخ النقد الادبي عند العرب على أساس العصور ، حتى نُلِمّ بكل ما جدّ على النقد وتمّ له في كل عصر ، وحتى تتضح لنا المساهمةُ التي أسهم بها علماءُ كل عصر ونقادُه في سبيل تطويره ، والانتقالِ به من نقد تأثري ، الى نقد بياني ، الى نقد أدبي ...

والآن ، وبعد هذه المقدمة ، لم يبق أمامنـــا إلا أن نشرع في عرض تاريخ النقد الادبي عند العرب ، بادئين بتاريخه في العصر الجاهلي ...

الفصل الثاني

النقد في العصر الجاهلي

من الحقائق المسلَّم بها أن أدب كل أمة هو ابنُ بيئتها الطبيعية والاجتماعية ، وطبقاً لذلك فالأدب الجاهليّ وليدُ الصحراء ،بيئةِ العرب الطبيعة والاجتماعية .

فهذه الصحراء بأرضها وسمائها ، بحيوانها ووحوشها ،بجدبها وشظفها ، بقيظها وبردها ، بخشونتها وقسوتها ، أجل هذه الصحراء بكل ذلك ، وبكل ما كان يجري في حياتها من غزو وحرب ونهب وسلب ، هي التي شكّلت سلوك عرب الجاهلية .

فكل ما في حياة العربي في الجاهلية راجع إلى الصحراء، فمنها استمد نظامَ معيشته وأسلوبَ حياته ، كما استمد عقليته وعواطفه وأخلاقه التي كان يعتز بها ويفخر غاية الفخر ...

كان يَكدّ ويَكدَح طلباً للرزق ، ومن أجل البقاء كان عليه أن يقضي معظمَ حياته ظاعناً غيرَ مقيم ، إن أقام في مكان حيناً فسرعان ما يرحل عنه ، إما فراراً من عدو أو التماساً للمرعى أو الماء أو نحو ذلك .

وكان في تنقّلاته ورحلاته على ناقته في مسالك الصحراء الموحشة لا يجدُ

غيرَ الغِناء شيئاً يأنس بـه ، فهو يُغنـّي ليهوّن على نفسه مشاقّ الطريق ووعثاء[1] السفر ، وهو يُغنـّي ليسرّيَ عن ناقته اللاغبة ، ويستحثـّها على المسير . ولما كان الشعر والغناء من أصل واحد عند جميع الأمم ، فقد كان يُغنـّي شعراً .

*

وأغلب الظن أن الشعرَ العربي قد بدأ أولَ ما بدأ بالكلام المقفـّى غيرِ الموزون ، أي بالسجع بلا وزن على نحو ما وصل الينا من سجع الكهّان ، وربما كان الكاهن يُغنـّيه توقيعياً على القافية ، نحو : « إذا طلع السرطان[2] ، استوى الزمان ، وحضر الأوطان ، وتهادت الجيران » .

ثم تطور هذا السجع بلا وزن إلى سجع موزون ، ممثـّلاً في أبسط أوزان الشعر العربي وأقدمِها ، وهو « الرجز » يقول منه الراجز البيتين أو الثلاثة إذا حارب أو فاخر ، ثم صاروا تدريجياً يُطيلون النظم فيه .

ومن الرجز انفتح الطريق أمام أوزان أخرى من أوزان الشعر يضعونها حسب الاقتضاء ، كلّ وزن منها يوافق نوعاً خاصاً من الشعر ، كموافقة وزن الطويل وطواعيته للشعر الحماسيّ ، وكموافقة وزن الوافر للفخر ، والرّمَـل للفرح والحزن ، والسريع لتمثيل العواطف ، وهكذا ...

وكانوا في أول الأمر ينظمون قِطَعاً قصيرةً على أوزان البحور التي اهتدَوْا إليها بعد الرجز ، ثم ظل الأمر كذلك ، حتى تحركت نفوس العرب بالحروب وظهر فيهم الأبطـال والفرسان ، فاحتاجوا إلى الشعر والإطالة فنظموا القصائـد .

---

(١) وعثاء السفر : شدته ومشقته .

(٢) السرطان : من بروج الفلك .

وزعم الرواة أن الشعر كلّه إنما كان رجزاً وقِطَعاً ، وإنما قُصِّد على عهد هاشم بن عبد مناف ، وكان أولَ من قصَّدَه مُهلهلٌ وامرؤ القيس ، وبينهما وبين مجيء الإسلام مائة ونيِّف وخمسون سنة ، ذكر ذلك الجُمَحِي وغيره [1] .

ومُهلهِلٌ هذا ، واسمه عديّ بن ربيعة التغلبيّ ، قد حرّكه الثأر لمقتل أخيه كليب ، فنظم الشعر . ويقال : إنه أول شاعر أطال القصائد وبلغ بها إلى أكثر من ثلاثين بيتاً ، كقصيدته التي يقول في مطلعها :

جارتْ بنو بكر ولم يَعْدِلوا والمرءُ قد يعرف قصْدَ الطريقْ [2]

وبهذا فتح السبيلَ أمام الشعراء لإطالة القصيد ، ثم أخذوا ينوّعون بين الطول والقِصَر على حسب المقتضيات والأغراض .

سُئل أبو عمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ فقال : نعم ، ليُسمَع منها ، قيل : فهل كانت توجِز ؟ قال : نعم ، ليُحفَظَ عنها ...

وقال الخليل بن أحمد : « يطول الكلام ويكثر ليُفهَم ، ويُوجَز ويُختصَر ليُحفَظ ، وتُستحَبُّ الإطالة عند الإعذار والإنذار ، والترهيب والترغيب ، والإصلاح بين القبائل ، كما فعل زهير والحارث بن حِلِّزة ومَن شاكلهما ، وإلاّ فالقِطَع أطيرُ في بعض المواقف ، والطِّوالُ للمواقف المشهورات [3] .



وفي معرض كلامه عن الشعر يقول ابن خلدون : « ولعمري إنه ديوان

(١) كتاب العمدة لابن رشيق ج ١ ص : ١٦٤

(٢) جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص : ١٠٧ .

(٣) العمدة ج ١ ص : ١٦١ - ١٦٢ .

العرب ، وجامع أشتات المحاسن التي سلفت لهم في كل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء وسائر الأحوال »[1] .

ولكن لا ينبغي أن يُفهم من كلام ابن خلدون أن الشعر وحدَه هو كلّ أدب الجاهليين ، وإنما هو بالقياس إلى نثرهم أكثرُ ما وصل إلينا من أدبهم ، وهذه الكثرةُ النسبية لا تنفي ضياعَ جزء من شعرهم مع ما ضاع من نثرهم .

قال أبو عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقلُّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير »[2] .

وقيل : « ما تكلمتْ به العربُ مِن جيد المنثور أكثرُ مما تكلمت به من جيد الموزون ، فلم يُحفَظ من المنثور عُشرُه ، ولا ضاع من الموزون عُشرُه »[3] .

ونظرية القدماء التي تمثلها الكلمة الأخيرة هنا تشير الى أنه كان للعرب في جاهليتهم نثر ، وأنه كان أكثرَ من الشعر وأغزرَ مادة . فأيُّ نثر هذا الذي كان أكثرَ من الشعر ؟

أيقصدون بالنثر هنا ما كان يستعمله الناس من كلام في حياتهم اليومية ومطالبهم العادية ؟ إن كان الأمر كذلك فمما لا شك فيه أن هذا النوع من النثر كان أسبقَ الى الوجود من الشعر وأغزرَ منه ، وأن الرُّواةَ لم يحفظوا منه إلا القليل بالقياس الى ما حفظوه من الشعر الذي يساعد الوزن والقافية على حفظه .

أما إذا كان المقصودُ النثرَ الفنيَّ الذي يُجوِّده صاحبُه ويَبغي به التأثيرَ في النفس على نحوٍ ما ، فليس من شك في أنه قد كان عند الجاهليين أحدثَ من من الشعر وأقلَّ مادة .

وسببُ ذلك أن متطلبات النثر الفني من العقل والتفكير والرويّة والإرادة

(١) مقدمة ابن خلدون ص : ١٠٧٠ .
(٢) نزهة الألباء في طبقات الأدباء للأنباري ص ٢٧ .
(٣) كتاب العمدة ج ١ ص : ٨

أكثرُ من متطلبات الشعر ، كما أنه يحتاج الى مجتمع تشيع فيه الكتابة حتى يتسنّى تدوينُه وحفظُه من الضياع .

ومهما قيل عن بداية الشعر عند العرب وتطوره ، ومهما قيل عن بواعث نظمه التي تتمثل في الرغبة والرهبة والطرَب والغَلَب ، فإن العرب من أقوى الأمم شاعرية وأقدرِها على قول الشعر .

وقد ساعدهم على ذلك لغتُهم الشعرية وما فيها من أساليب البيان المختلفة وكثرةِ المترادفات التي تُسهّل وجودَ القافية وإطالةَ القصيد ، كما ساعدهم أيضاً طبيعتُهم الشعرية ، وما فُطِروا عليه من نفوسٍ حسّاسة ، وخيالٍ صاف ، ومشاعرَ رقيقة ، تُقنعدهم الكلمة وتقيمهم ، شأن أهل الفروسية والنجدة.

ولعلنا ندرك من ذلك مكانةَ الشاعر ومنزلتَه في نفوسهم . كانت القبيلة تنتقي من شعرائها مَن تتوسم فيه الشاعرية الممتازة ، فتقدّمُه وتخلعُ عليه لقبَ « شاعرِ القبيلة » وهو لقب كان يَدُلُّ إذ ذاك على الثقافة الواسعة ، الى جانب دلالته على الحس الصادق المرهف .

وكانت تهتم بإعداد هذا الشاعر اهتمامَها بإعداد القائد والخطيب ، فيقال : قائدُ القبيلة الفلانية فلان ، وخطيبُها فلان ، وشاعرُها فلان . وسبب ذلك أنهم كانوا ينظرون الى الشعراء على أنهم حُماة الأعراض ، وحَفَظَة الآثار ، ونَقَلة الأخبار .

كذلك كانوا يوسّطونهم في الاسترضاء أو الاستعطاف ،أو يتخذون منهم وسيلة لإشعال الحماس وإثارة الحرب ، وبهذا يكون الشاعرُ لسانَ حالِ القبيلة الناطقَ باسمها والمعبّرَ عن كل أغراضها واهتماماتها في جميع الأحوال .

وما أشبه دَوْرَه في تلك العصور السحيقة القدم بدَوْرِ الصحف اليومية الرسمية التي تنطق باسم الحكومات في العصر الحاضر.ولم يكن اهتمامُهم بالشاعر وتقديمُهم له من أجل ذلك فحسب ، ولكن لأنهم كانوا أيضاً يُجلّون الشعرَ نفسَه ، لمَا كان له من الوقع الحسَن في نفوسهم.

من هنا تأتي أهمية الشاعر ، وربما فَضَّلت القبائلُ نبوغَ الشاعر على نبوغ القائد والفارس والخطيب .

يقول ابن رشيق في باب احتماء القبائل بشعرائها : « كانت القبيلة من العرب إذا نبغ فيها شاعر أتت القبائلُ فهنأتها ، وصُنِعت الأطعمةُ ، واجتمع النساء يلعبن بالمزاهر ، كما يصنعون في الأعراس ، ويتباشر الرجال والولدان ؛ لأنه حمايةٌ لأعراضهم وذَبٌّ عن أحسابهم ، وتخليدٌ لمآثرهم ، وإشادةٌ بذكرهم . وكانوا لا يهنئون إلا بغلام يُولَد ، أو شاعر ينبغ ، أو فرس تُنتَج »[1] .

فالحفاوة بالشاعر الجاهلي إلى هذا المدى لم تكن وليدةَ الحاجة إليه كمتكلم باسم القبيلة في كل ما يُهمها فحسب ،وإنما كانت أيضاً وليدةَ ما فُطِر عليه العربي من طبيعة شعرية تتذوق الكلام الجميل وتطرب له وتنفعل به .

ولهذا كان طبيعياً أن يوجد النقاد بجانب الشعراء يُسدّدون من خطاهم ويدفعونهم نحو الإجادة والكمال بما يوجهون الى شعرهم من ملاحظات نقدية .

*

تلك نبذة وجيزة عن نشأة الأدب الجاهلي بعامة والشعر منه بخاصة .

والواقع أن الشعر وهو أكثر وأغزر مادة الأدب الجاهلي قد انتهى إلينا بعد أن بلغ غايته من التطور والنضج والكمال على نحو ما نراه في المعلقات وغيرها من شعر الجاهليين .

وإذا كانت قد تسرّبت إلى الشعر من ثقافات الأمم القديمة المجاورة بعضُ الأفكار وصورِ البيان كالتشبيه ،فإن ذلك قليل لم يؤثر في نشأته العربية الخالصة ، ولم يخرج به عن طابعه وتقاليده ، وعن أغراضه وروحه العربية .

---

(١) كتاب العمدة ج ١ ص : ٤٩ ، وفرس تنتج بضم التاء الأولى وفتح الثانية تلد يقال : نُتِجت الفرس والناقة : ولدت ، وأنتجت : دنا واقترب وِلادها .

ونظرةٌ في شعر مَن شهدوا أخريات العصر الجاهليّ كامرئ القيس وعلقمة وعمرو بن كلثوم والنابغة وعنترة ، أو في شعر المخضرمين كأمية بن أبي الصّلت والأعشى وزهير والخنساء وحسان ولبيد تُرينا أنه شعر بلغ غاية الإتقان ...

وهذا الإتقـان إن دلّ على شيء فإنما يدل على أن الشعر الجاهليّ قد مرّ في تاريخ تطوره بضروب كثيرة من التهذيب ، فبـين طفولته ، ممثلةً في البيتين والثلاثة من الرجز ، إلى القصيدة الطويلة المحكمة النسج ، مرّ عصر طويل قام فيه النقدُ الأدبيّ بإصلاح الشعر وتقويم معوجّه وتهذيبه حتى وصل الى ما نرى فيه من الصحة والجودة والإحكام والإتقان ...

فتقاليد القصيدة العربية من التزام الوزن الواحد ، والقافية الواحدة، وحركة الروي الواحد في جميع القصيدة ، ومن التصريع في أولها، ومن مقدمات النسيب أو المقدمات الطلليّة التي تُستَهلّ بها الى غير ذلك، كلّ هذه التقاليد التي صارت الطابعَ المميّز للقصيدة العربية ، لم يهتد إليها الشاعرُ العربي مرة واحدة ، وإنما عرفها بعد تجارب شتى ، وبعد تقويم وتهذيب تكفّل به النقد الأدبي .

وإذا كان الناقد الأول قد ظهر الى الوجود بعد الشاعر الأول ، وإذا كانت أوليات الشعر العربي غيرَ معروفة لنا ، فإن أوليات النقد الأدبي تبعاً لذلك قد غابت عنا .

ولما كانت معرفتنا بالشعر العربي المتقن المحكم ترجع الى أواخر العصر الجاهليّ ، فإن تاريخ النقد المعروف يبدأ في ذلك العهد أيضاً .

وأقدم النصوص التي تجلّى فيها نقد الشعر الجاهلي تُعزَى الى شعراء هذا العصر الذين نهضوا بالشعر وارتقَوْا به ، كما سنرى ...

*

والذي يتتبع حركةَ النقد الأدبي في أخريات العصر الجاهلي يرى أن ميادين نشاطه كانت تتمثل في أسواق العرب ، وفي المجالس الأدبية العامة، وفي ارتحال

الشعراء الى ملوك الحيرة والغساسنة .

ففي كل هذه الأماكن والبيئات المختلفة كان العرب يجتمعون ويتناشدون الأشعار ويتناقدون ، فكان ذلك عاملاً اجتماعياً في ترقيق ألفاظ الشعر ،وإحكام معانيه ، وتهذيب حواشيه ، ونهضة النقد المتصل به .

ونواةُ النقد العربي الأولى تُلتَمس في الملاحظات النقدية التي رُويت وقيلت في بعض ما وصل إلينا من الشعر الجاهليّ .

ومن النظر في هذه الملاحظات يمكن القول بأن ملكة النقـد عند الجاهليين كانت مبنية على الذوق الفطري لا الفكر التحليليّ .فهو نقد ذوقيّ غيرُ مسبب ، نقدٌ يقف عند الجزئيات ، فإذا ما انفعل بها الناقدُ اندفع الى التعميم في الحكم ، فجعل من شاعر أشعر الناس لبيت أو أبيات أو قصيدة واحدة قالها .

ومع هذا النقد المبني على الفطرة التي تتأثر بما تسمع من قول فتصدر الحكم عليه غيرَ معلَّل أو غيرَ مشفوع بحيثياته ، فإننا نرى أن النقد عند نقاد العرب في الجاهلية قد اتخذ صوراً مختلفة .

(١) فمن صور النقد هذه ما تناول اللفظ أو الصياغة ، الأمر الذي يدل على عدم تمكن الشاعر من دلالات الألفاظ .

من ذلك ما يُروَى أن طرَفة بن العبد سمع المسَيَّب بن عَلَس يقول :

وقد أتناسى الهمَّ عند احتضاره بناجٍ عليه الصَّيْعَرِيَّةُ مُكدَمِ[1]

فقال له طرَفة : اِستَنوَقَ الجملُ ، أي أنت كنتَ في صفة جمل ، فلما قلت « الصَّيعَريَّة » عُدت الى ما تُوصَف به النوقُ ، لأن « الصَّيْعَرِيَّة » سِمَة حمراء تعلق في عنق الناقة خاصة .

---

(١) لسان العرب ج ٤ ص : ٤٥٧ ، وينسب هذا البيت أيضاً إلى المتلمس ، وناج :سريع، والمراد جمل سريع ، والمكدم : الصلب القوي .

فهذا نقد توجه من طرَفة الى المُسَيَّب في ناحية الألفاظ، وهو نقد يدل على بَصَر طرَفة بمعاني الألفاظ ومواضع استعمالها، كما يدل على ذوقه النقدي وفطنته الى أن مثل هذا الخطأ اللفظي مما يعيب الشعر ويُقلّل من درجة جودته .

(٢) ومن صور النقد الجاهلي ما تنــاول المعنى ، كقول الأعشى من قصيدته التي مدحَ بها قيسَ بنَ معد يكرب الكندي ، أحدَ أشراف اليمن :

وُنبِّئْتُ قيساً ولم أَبْلُهُ　　كما زعموا خيرُ أهلِ اليمنْ

فجئتُك مُرتادَ ما خَبَّروا　　ولولا الذي خَبَّروا لم تَرَنْ

ففي البيت الأول خطأ معنوي لأن عدم اختبار الممدوحِ يُضعف الحكم ، ولأن الزعم في عُرف العرب مطية الكذب .

(٣) كذلك التفت النقد في الجاهليــة الى الصورة الشعرية من حيث قدرةُ الشاعر أو عدمُ قدرته على أدائهـــا . من ذلك خبرُ احتكام علقمة بن عَبَدَة وامرىء القيس الى امرأته أم جُندَب في أيهما أشعر .

قال ابن قتيبة في ترجمة علقمة : « وسُمِّيَ بالفحل لأنه احتكم مع امرىء القيس الى امرأته أم جُندَب لتحكم بينهما ، فقالت : قُولا شعراً تصفان فيه الخيل على رويٍّ واحد وقافية واحدة ، فقال امرؤ القيس :

خليليَّ : مُرّا بي على أم جُندَبِ　　لنقضيَ حاجاتِ الفؤادِ المعذَّبِ

وقال علقمة :

ذهبتِ من الهجران في كل مذهبِ　　ولم يك حقا كلُّ هذا التجنُّبِ

ثم أنشداها جميعاً ، فقالت لامرىء القيس : علقمةُ أشعر منك .

قال : وكيف ذاك ؟ قالت : لأنك قلت :

فللسوط أُلْهوبٌ وللساق دِرّةٌ   وللزجر منه وقعُ أهوجَ مِنْعَبِ [1]

فجهِدتَ فرسَك بسوطك ومَرَيْته [2] بساقك . وقال علقمة :

فأدركهنّ ثانيا من عِنانه   يَمُرُّ كمرّ الرائح المتحلّبِ

فأدرك طريدته وهو ثان من عِنان فرسه ، لم يضربه بسوط ، ولا مراه بساق ولا زجره . قال : ما هو بأشعر مني ، ولكنك له وامقة فطلقها ، فخلف عليها علقمةُ فسُمّي بذلك الفحل » [3] .

فأم جُندَب قد قارنت بين صورتين شعريتين : صورة فرس امرىء القيس الذي راح يزجره ويضربه ويستحثه على العدو كي يدرك طريدته ، وصورة فرس علقمة الذي أدرك طريدته وعلقمةُ ثان من عنانه ، لم يضربه بسوط ، ولا مراه بساق ، ولا زجره . ولا شك أن صورة علقة أوضح وأكمل وأجمل .

واشتراط أم جُندَب للحكم أن يكون الموضوعُ واحداً ، والرويُّ واحداً ، والقافيةُ واحدةً ، ثم إصدارُ حكمها بعد الموازنة معلّلاً قد يُلقي ظلاً من الشك على صحة هذه القصة لقربها من صنيع المتأخرين في النقد والموازنة ، وبُعدِها عن النقد الجاهلي المبني على الذوق الفطري الخالي من التعليل .

ولكننا مع ذلك لا نستبعد صدور مثل هذا النقد عن عربية جاهلية لأن الحياة الأدبية في عصر امرىء القيس لم تكن من البساطة الى حد عدم القدرة

---

(١) المعنى : إذا ضربه بالسوط ألهب الجري ، أي أتى بجري شديد كالتهاب النار ، وإذا استحثه بساقه درّ بالجري ، وإذا زجره وقع منه موقعه من الأهوج الذى لا عقل معه، أي كأن هذا الفرس مجنون لما يبدو من شدة حركته ونشاطه عند الزجر، والمِنعب ، الذي يستعين بعنقه في الجري وغيره .

(٢) مريت الفرس : إذا استخرجت ما عنده من الجري بسوط أو غيره .

(٣) كتاب الشعر والشعراء ، طبعة ليدن ص : ١٠٧ - ١٠٨

على إدراك مثل هذه الملاحظات النقدية .

لقد طلب الشاعران من أم جُندَب أن تحكم بينهما، فلم يكن من الطبيعي بعد أن تستمع إليهما أن تقول لأحدهما : أنت أشعر من صاحبك ثم تقف عند هـذا الحد . وإنما كان الطبيعي أن تُصدر حكمها معلّلاً حتى تنفيَ عن نفسها شبهـة التحيز التي تطعن في عدالة الحَكَم، ومع هذا فقد اتهمها زوجها بالتحيز لعلقمة. ولعل الحكم المعلّل هنا مما يرجح صحة هذه القصة عندنا .

(٤) كذلك تطرق النقدُ في العصر الجاهلي الى الغلوّ في المبالغة وعَدّها من عيوب الشعر . وقديماً عابت العربُ على مهلهل بن ربيعة الغُلُوّ في القول بادعاء ما هو ممتنع عقلاً وعادة ، واعتبروه أول من سنّ هذه السنّة في الشعر كقوله :

كأنا غُدوةً وبني أَبينا.. بجنب عُنَيْزَةٍ رَحَيا مُديرِ

فلولا الريحُ أُسمِعَ من بحِجْرٍ صليلُ البيض تُقرَعُ بالذكورِ (١)

فقد كان بين حِجْر – وهي قصبة اليمامة – وبين عُنيزة محلّ الوقعـة والتي فيها قيلت القصيدة مسيرةُ أيام . وهذه من المبالغـات الغالية المُغرقة التي من شأنها إفسادُ المعنى . وقد عُدّ بسبب إكثاره من الغلو في شعره أولَ مَن كذَب في شعره .

ويروى أن امرأ القيس كان أول من تأثر به في المبالغات الشعرية ، كقوله :

تنوّرتُها من أذرعاتَ وأهلُهـا بيثرب أدنى دارِها نظَرٌ عالِ

وقد فاضلوا بين البيتين فقالوا : إن مهلهلا أشدّ غلواً من امرىء القيس ،لأن

---

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير ج١ ص : ٣١٩ ، وحجر بكسر الحاء وسكون الجيم : قرية صغيرة قليلة السكان ، وهي من وادي القرى ، وبها كانت منازل ثمود ، والبيض : جمع الأبيض ، وهو السيف ، والذكور : السيوف الصقيلة الصارمة .

حاسة البصر أقوى من حاسة السمع وأشدُّ إدراكا .

ومن هذا القبيل ما يُروى أن رجلاً قال لزهير : إني سمعتك تقول لهَرِم :

وَلأنتَ أشجعُ من أسامةَ إذ دُعِيَتْ نزالِ ولُجَّ في الذُّعرِ

وأنت لا تكذب في شعرك ، فكيف جعلتَه أشجع من الأسد ؟ فقال : إني رأيته فتح مدينة وحدَه ، وما رأيت أسداً فتحها قط !! وقد علّق ابن رشيق على هذا الخبر بقوله : فقد خرّج – زهير – لنفسه طريقاً الى الصدق وعَدَا عن المبالغة »[1] .

ففي الخبرين السابقين ما يؤكد نظرة الجاهليين إلى المبالغة ، فهي عندهم ليست مما يفسد المعنى فحسب ، وإنما هي أيضاً منافيةٌ للصدق ، وكأن في ذلك التفاتاً مبكراً من جانبهم إلى عنصر الصدق في الشعر واتخاذه أصلاً من أصول النقد .

ومن الشعراء المخضرمين مَن أدرك هذا المعنى وأفصح عنه في شعره ، كحسان ابن ثابت الذي يقول :

وإنما الشعرُ لُبُّ المرءِ يَعرِضه على المجالس إن كَيْساً وإن حُمُقَا
وإن أشعرَ بيتٍ أنت قائلُه بيتٌ يقال إذا أنشدته : صَدَقَا[2]

(٥) ومن صور النقد الجاهلي الحكمُ على الشاعر جملة بوصف الطابع العام له.

من ذلك ما رُوي أن بعض شعراء تميم اجتمعوا في مجلس شراب ، وكان بينهم الزِّبْرِقَانُ بنُ بدر والمُخبَّل السعديّ وعَبَدَةُ بن الطبيب وعمروُ بن الأهتم وتذاكروا في الشعر والشعراء ، وادّعى كلٌّ منهم أسبقيته في الشعر ، فقال

---

(١) كتاب العمدة ج ١ ص ٨١ .

(٢) ديوان حسان ص : ١٦٩ ، والكيس : بسكون الياء : العقل ، والحمق بضم الحاء والميم ، والحمق بضم الحاء وسكون الميم : الحماقة ، وهي ضد العقل أو قلة العقل .

المحكَّم ربيعةُ بن حِذار الأسدي ، أما عمرو فشعره برود[1] يمانيـة تُطوى وتُنشر ، وأما الزّبرقان ، فكأنه أتى جزوراً[2] قد نُحِرت فأخذ من أطايبها وخلطه بغيره، وأما المخبّل فشعره شُهُب من الله يُلقيها على مَن يشاء من عباده، وأما عَبَدةُ فشعره كمزادة أُحكِم خرزُها فليس يَقطـُر منها شيء[3] .

فهذا لون من النقد يقوم على تذوق الروح العامة للشعر ، وفيه يعطي الناقـد انطباعه عن الشاعر جملة .

(٦) كذلك من صور نقدهم الحُكـْم على بعض القصائد بأنهـا بالغةٌ منزلةً عليا في الجودة بالقياس إلى غيرها ، فقد كانوا يتخيرون قصائد بأعيانها،ويخلعون عليها ألقاباً تـُجمِل رأيَ الناقد أو الحَكَم فيها .

رَوى أبو عمر الشيباني أنّ عمرو بن الحارث الغساني أنشده علقمةُ بن عَبَدة قصيدتَه :

طحابك قلبٌ في الحسان طروبُ   بُعَيْدَ الشبابِ عصرَ حانَ مَشيبُ

وأنشدَه النابغة :

كليني لِهَمٍّ يا أميمةَ[4] ناصبِ   وليلٍ أُقاسيه بطيءِ الكواكبِ

وأنشده حسّان قصيدته :

أسألتَ رسمَ الدار أم لم تسألِ   بين الجوابي فالبُضَيْع فحَوْمَلِ

ففضل حسّاناً عليها ودعا قصيدته « البتارة » لأنها بترت غيرهـا من

---

(١) البرود : الثياب ، جمع برد بضم فسكون ، وهو ثوب موشّى فيه خطوط .
(٢) الجزور : الناقة المذبوحة المنحورة .   (٣) النقد الأدبي لأحمد أمين ص : ٤٤٧ .
(٤) يا أميمةَ منادى مرخّم ولحاجة الوزن للتاء لم تحذف وأجري الترخيم على لفظها بالفتح .

القصائد [1] .

ومن هذا النوع قصيدة سُوَيْد بن أبي كاهل التي مطلعها :

بسطتْ رابعةُ الحبلَ لنـــا فوَصلْنا الحبلَ منها ما اتَّسعْ

فقد قال الأصمعي : إن العرب كانت تفضلها وتَعُدُّها في حِكَمها ، وأنها كانت تُسمى في الجاهلية « اليتيمة » [2] .

ومن ذلك أيضاً اختيارهم القصائد المشهورة التي سموها « المعلقات » إن صحت هذه الرواية .

(٧) وكان لقريش دورٌ ملحوظ في رقيّ هذا النقد ، فهي في سبيل بَسْط لغتها على القبائل الأخرى وقفت موقف المتخير الناقد، تختار من كل قبيلة أحسنَ ما عندها من ألفاظ وأساليب ، وتبعاً لذلك كان الشعراء ينظمون بلغتها .

ذكر حماد الراوية أن العرب كانت تَعرِض أشعارها على قريش ، فما قبلوه كان مقبولاً ، وما ردُّوه كان مردوداً . وذكر أن علقمة بن عَبَدة لما أنشدهم قصيدته :

هل ما علمتَ وما استُودعتَ مكتومُ
أم حبلُها إذ نَأَتْكَ اليومَ مَصرومُ ؟

قالوا : هذه سِمْطُ [3] الدهر . فلما عاد وأنشدهم قصيدته :

طحابك قلبٌ في الحسان طروبُ بُعَيْدَ الشبابِ عصرَ حانَ مَشيبُ

---

(١) تاريخ القصة والنقد للسباعي بيومي ص : ١٠٧ ، أراد بالجوابي : جابية الجولان ، والجولان ما بين دمشق والأردن ، والبضيع : جبل بالشام .
(٢) الأغاني ج ١١ ص : ٣٣٣ .
(٣) السمط : الخيط ما دام فيه الخرز ، والمراد بالسمط هنا العقد أو القلادة ،

قالوا : هاتان سمطا الدهر .

*

وفي أخريات العصر الجاهلي كان الأدب من سِلَع الأسواق التجارية ،ولا سيما سوق عكاظ . ففي موسم هذه السوق خاصة من كل عام كان شعراء القبائل يجتمعون فيها يتناشدون أشعارهم ويتفاخرون بأمجادهم .

وكانت لغةُ قريش حينذاك قد صارت لغةَ الجزيرة كلّها ، فكان الشعر يُنظَم أكثر ما يُنظَم بها ليكون أذْيَعَ وأشيعَ ،وأقربَ إلى فهم كل القبائل.

وكان من الطبيعي خلال هذه المساجلات الشعرية أن يَنقد الشعراءُ بعضُهم بعضاً من الناحية الفنية التي يتسابقون على بلوغ شأوها . وكان للشعراء في هذه الأسواق حُكّامٌ من ذوي البَصَر بالشعر والمكانة فيه يتحاكمون إليهم فيما يُنشِدون .

ومن هؤلاء الحكام النابغةُ الذبيانيّ المشهودُ له من معاصريه بالتفوق الشعري ، والقدرةِ على تذوّق الشعر ونقده .

قال صاحب الأغاني : أخبرني حبيبُ بن نصر وأحمدُ بن عبد العزيز قالا ، حدثنا عمرُ بن شَبّة قال ، حدثنا أبو بكر العليمي ، قال حدثني عبد الملك بن قُرَيب — الأصمعي — قال :

« كان يُضرَبُ للنابغة قُبّةٌ من أدَم [١] بسوق عكاظ ، فتأتيه الشعراء فتعرض عليه أشعارها . قال : وأول من أنشده الأعشى ثم حسانُ بن ثابت ، ثم أنشدته الشعراء ، ثم أنشدته الخنساءُ بنتُ عمرو بن الشريد :

وإنَّ صخراً لتأتَمّ الهُداةُ به كأنه عَلَمٌ في رأسه نارُ

(١) الأدم : الجلد.

فقال : والله لولا أن أبا بصير – الأعشى – أنشدني آنفاً لقلت : إنك أشعر الجن والإنس . فقام حسان فقال : والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ! فقال له النابغة : يا ابن أخي ، أنت لا تُحسن أن تقول :

فإنك كالليل الذي هو مُدركي ... وإنْ خِلتُ أنّ المُنتأَى عنك واسعُ

قال : فخَنَس حسان لقوله : [1] .

من هذا الخبر ندرك منزلة النابغة عند معاصريه ، وما احتكامُهم إليه دون غيره إلا اعترافاً بشاعريته ودليلاً على ما كان يتمتع به من علم بصناعة الشعر ، ومن ملكة خاصة في النقد يميّز بها بين جيد الشعر ورديئه .

ورَوى أبو عمرو بن العلاء أن الأعشى أتى النابغة ذات مرة فكان أول من أنشده ، ثم أنشده حسان بن ثابت الأنصاري :

لنا الجَفَناتُ الغُرُّ يلمعن في الضحى ... وأسيافُنا يَقطُرن من نَجدةٍ دَما

وَلدنا بني العنقاء وابنيْ مُحَرِّقٍ ... فأكرمْ بنا خالاً وأكرم بنا ابنما

فقال له النابغة : أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفانك وأسيافك ، وفخرتَ بمن ولدتَ ، ولم تفخر بمن ولدك [2] .

وقد شك بعضُ النقاد في صحة ورود مثل هذا النقد من النابغة بدعوى أن الجاهلي لم يكن يعرف جمعَ التصحيح وجمعَ التكسير ، وجموعَ القلة وجموعَ الكثرة ، وأنه لم يكن له ذهن علمي يفرّق بين هذه الأشياء كما فرّق بينها ذهنُ

---

(١) الأغاني ج ٩ ص : ٣٣٠ « وخنس : تراجع .

(٢) الموشح للمرزباني ص : ٦٠ ، والجفنات : القصاع ، والغر : البيض من كثرة الشحم الذي فيها ، وكثرته دليل على الكرم ، والعنقاء : هو ثعلبة بن عمرو بن مزيقياء بن ماء السماء ، ومحرق هو الحارث أخو العنقاء ، وكان أول من عاقب بالنار ، وابنما : ابن بزيادة الميم .

الخليل وسيبويه وغيرِهما من النحاة ، وأنّ مثلَ هذا النقد لا يتأتى صدورُه إلا عن رجل عرف مصطلحات العلوم وحدودَها .

ولكن كلمة النابغة لحسّان التي أثارت الشك في صحة هذا الخبر ، وهي « أقللتَ جفانَك وأسيافك » لا يفهم منها أن قائلها لا بد أن يكون على علم بمصطلحات الجموع المختلفة كعلم النحاة بها .

وإنما يُفهَم منها أن عرب الجاهلية ، ومنهم النابغة، كانوا بطبيعتهم وحِسّهم اللغوي يفرّقون بين الكلمات الدالة على القلة والدالة على الكثرة ، لأنهم كانوا ينطقون لغتهم عن سليقة ، ولهذا فهم أدرى بمعاني مفرداتها، وبالفروق الدقيقة التي بينها .

وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فمن أين كان للنحاة أن يستنبطوا قواعدهم الخاصة بجموع التصحيح وجموع التكسير ، وجموع القلة وجموع الكثرة ، إن لم يلتمسوا شواهدها من كلام العرب الموثوق بصحته كشعر حسّان مثلاً ؟

ولعل عبد القاهر الجرجاني خيرُ مَن أدرك هذا المعنى وعبّر عنه بقوله : « إن الاعتبار بمعرفة مدلول العبارات لا بمعرفة العبارات » [1] . فقد نُنكر على النابغة معرفةَ العبارات والمصطلحات ولكننا لا نستطيع أن ننكر عليه معرفةَ مدلولها والفروقِ المعنوية بينها .

ومما يدل كذلك على علم النابغة بصناعة الشعر ، ذلك الخبر الذي أورده أبو الفرج الأصبهاني نقلاً عن الزبير عن محمد بن الحسن قال :

« قال حسان : جئت نابغة بني ذبيان ، فوجدت الخنساء بنت عمرو حين قامت من عنده ، فأنشدته ، فقال : إنك لشاعر ، وإن أخت بني سليم لبكّاءة » [2] .

---

(١) دلائل الاعجاز ص : ٣٠٠ (٢) الأغاني ج ٤ ص : ٢٩

فتَحُكّمُ النابغة هنـا لحسان بالشاعريّة يعني أنه عليم بالصفات التي يجب توافرها للشعر حتى يصح أن يُطلق على صاحبه لقب « شاعر » ، كما أن في الحُكْمِ على الخنساء بأنها « بَكّاءة » إشارةً من طرَف خفي إلى أن النابغة كان يرى أن الشاعر لا ينبغي أن يقصِر شعره أو معظمه على غرض واحد ، كما فعلت الخنساء بالإكثار من مراثيها الباكية في أخيها صخر ، وإنما ينبغي أن يجول بشاعريته في أغراض شتى .

من ذلك نرى أن تنوع أغراض القول عند الشاعر هو أصل آخر من أصول النقد التي كان يأخذها النابغة في اعتباره عندما يُحَكّم في الشعر .

والنابغة الشاعر لا الناقد كان كمعاصريه يتخيّر الجيد من شعره ثم يُنشده في الأسواق .

جاء في الأغاني أن حسّان بن ثابت قال : « قدم النابغة المدينة ، فدخل السوق ، فنزل عن راحلته ، ثم جثا على ركبتيه ، ثم اعتمد على عصاه ، ثم أنشأ يقول :

عَرفتُ منـازلاً بِعُرَيْتَنات ٍ فأَعْلَى الجِزْعِ للحَيِّ المُبِنِّ [1]

فقلت : هلك الشيخ ، ورأيته تَبِـع قافية مُنْكَرَة . ويقال : إنه قالها في موضعه ، فما زال يُنشِد حتى أتى على آخرها ، ثم قال : ألا رجلَ يُنشِد ؟ فتقدم قيس بن الخطيم فجلس بين يديه وأنشد :

أتعرف رسما كاطراد المذاهبِ لِعَمْرَةَ وَحْشاً غيرَ موقفِ راكبِ؟

ومنها :

---

(١) الحي المبنّ : الحي المقيم .

أجالدهم يومَ الحديقــــة حاسرا . كأن يدي بالسيف مِخراقُ لاعبِ [١]

حتى فرغ منها ، فقال : أنت أشعر الناس يا ابن أخي ؛ قال حسان : فدخلني منه ، وإني في ذلك َلأجد القوة في نفسي عليهما ، ثم تقدمتُ فجلستُ بين يديه فقال : أنشِدْ ، فوالله إنك لشاعر قبل أن تتكلم ، قال : وكان يعرفني قبـــل ذلك ، فأنشدته فقـــال : أنت أشعر الناس . قال حسين بن موسى ، وقالت الأوس : لم يزد قيسُ بنُ الخطيم النابغةَ على « أتعرف رسما كاطراد المذاهب » نصفِ البيت ، حتى قال له – النابغة – : أنت أشعر الناس » [٢].

فهذا الخبر الذي أوردناه بنصه كاملاً هنا يُظهرنا على عــدة حقائق . فمنه ندرك أولاً أن نشاط النابغة النقديّ لم يقتصر على سوق عكاظ وحدها ، وإنمـــا تجاوزها إلى أسواق أخرى كسوق المدينة التي كان يرحل إليها ويستمع إلى بعض الشعراء المجتمعين فيها ويبدي رأيه في أشعارهم .

ومنه ندرك ثانياً أنه كان كغيره من معاصريه يتخير الجيد من شعره ثم يُنشِده في الأسواق إشاعة له .

ومنه ندرك ثالثاً أنه بحكم ممارسته لصناعة الشعر ونقده كان يعرف قيمة القافية النادرة في دلالتها على قدرة الشاعر الفنية وسعة إحاطته بمفردات اللغة . ومن هذا النوع قصيدته التي أنشدها في سوق المدينة ، والتي لم يكد حسان يسمع مطلعها حتى صاح : « هلك الشيخ .. وتبع قافية منكرة » .

وكأني بحسان وهو الخبير أيضاً بمضايق الشعر وأسرار صناعته أشفق على النابغة عند سماع قافيته الأولى الصعبة المنكرة ، فقال كلمته . وكأني به أيضاً

---

(١) أجالدهم : أضاربهم بالسيف في القتال ، والحاسر ، خلاف الدارع ، وهو الذي لا بيضة أي خوذة على رأسه ، والمخراق : ما تلعب به الصبيان من الخِرَق المفتولة ، وقيل هو منديل أو نحوه يُلوَى فيضرب به الصبيان بعضهم بعضاً .

(٢) الأغاني ج ٢ ص : ٣٠٨

يرى أن صعوبةَ القافية وسهولتها أمر يُحسَب للشاعر أو عليه في ميزان النقد.

ويحدثنا الخبر السابق أن النابغة لم يكد يسمع قيس بن الخطيم يُنشِده « أتعرف رسما كاطراد المذاهب » نصفَ البيت حتى قال له: أنت أشعر الناس.

فماذا في هذا الشطر من البيت ؟ إن فيه تشبيهاً ، فقد شبّه ابنُ الخطيم الرسمَ أو ما بقي لاصقاً بالأرض من آثار المنازل التي عفَت ودرست بالمذاهب المطردة ، أي بالجلود المُذهَّبة بخطوط يُرى بعضُها في إثر بعض مطردة متتابعة . وهذا تشبيه حسن يدل على سعة خيال الشاعر وقوة ملاحظته لوجه الشبه بين الرسم واطراد المذاهب .

فما معنى هذا ؟ معناه أن النابغة المتمرّس بنظم الشعر ونقده يكفيه أن يسمع ولو نصفَ بيت يتضمن تشبيهاً حسناً كهذا التشبيه حتى يتبين مقدرة صاحبه الشعرية ، فيحكم له بأنه شاعر أو أنه أشعر الناس .

ومن الخبر السابق ندرك أخيراً تقليداً من تقاليد الإنشاء في العصر الجاهلي ، وهو أن من الشعراء من كان يُنشِد شعره وهو جالس بين يدي الحَكَم ،ومنهم من كان يُنشده جاثياً على ركبتيه معتمداً على عصاه، كما فعل النابغة عندما أنشد إحدى قصائده في سوق المدينة .

ومع تفوق النابغة الذبياني في الشعر وفي نقد الشعراء وتفضيل بعضهم على بعض ، فإن شعره هو أيضاً لم يسلم من العيوب . فقد عِيب عليه « الإقواء » وهو اختلاف حركة الروي في القصيدة ، وذلك في قوله :

أمن آل ميّةَ رائحٌ أو مُغتِدي عجلانَ ذا زادٍ وغيرَ مُزوّدِ
زعم البوارحُ أن موعدَنا غداً وبذاك خبّرنا الغرابُ الأسودُ(١)

---

(١) البارح ضد السانح ، والبارح : ما مر من الطير والوحش من يمينك إلى يسارك ،والعرب تتطير به لأنه لا يمكنك أن ترميه حتى تنحرف ، والسانح ما مرَّ بين يديك من جهة يسارك إلى يمينك ، والعرب تتيمَّن به لأنه أمكن للرمي والصيد .

ذكر المَرزباني أن النابغة قدم المدينة فعيب عليه هذا الإقواء فلم يأبه ، أو أنهم جعلوا يُفهمونه ويحاولون أن يجعلوه يُدرك هـذا العيب في شعره وهو لا يستطيع أن يفهم ما يريدون ، حتى جاءوه بقَـيْنة فجعلت تغنيه « أمن آل ميّة رائح أومغتدي » وتُشبع حركةَ الدال وتـطيلها في « مُغتدي » و«مُزوّدِ » ، ثم غنّت البيت الآخر فبيّنت الضمة في قوله « الأسودُ » ، ففطن بذلك لمـا يريدون ، فغيّر عروضه وجعله : » وبذاك تَنعابُ الغرابِ الأسودِ » . وكان من أجل هذا يقول : « دخلت يثربَ وفي شعري شيء ، وخرجت وأنا أشعر الناس »[1] .

*

ذلك عرض تاريخي لحركة النقد الأدبي في العصر الجاهلي ، وهي حركة تُمثّل نشأة النقد العربي والمحاولات الأولى التي بذلت في سبيل بنائه .

ومن خلال هذا العرض التاريخي أدركنا أن ملكة النقد عند الجاهليين كانت مبنية على الذوق الفطري لا الفكر التحليلي .

فالملاحظات النقدية التي رُوِيت وقيلت في بعض ما وصل إلينـا من الشعر الجاهلي تؤكد أن نقدهم كان مبنياً على الذوق والفطرة التي تتأثر بما تسمع منقول فتصدر الحكم عليه غيرَ مُعلّل ، أو غيرَ مشفوع بجيثياته .

فالناقد إذا ما استساغ بذوقه الفطريّ قصيدةً أو جزءاً من قصيدة ، أو بيتاً أو حتى نصف بيت منها ، فما أسرع ما يتأثر ويندفعُ إلى التعميم في الحكم ، ويجعلُ من الشاعر أشعرَ الناس . وقـد علّق بعضُهم على هذا الاتجاه في النقد بقوله : « الناس أشعر الناس ! » .

هذا بالنسبة لملكة النقد عند الجاهليين ، أما نقدهم فقد تحرّك في ميدانين :

---

(١) الموشح للمرزباني ص : ٣٩ ، وانظر كذلك الأغاني : ج ٩ ص : ٣٣٣

ميدان الحُكْم على الشعر ، وميدان الحُكْم على الشعراء وتفضيل بعضهم على بعض وتلقيب بعض القصائد الجيدة .

ففي ميدان الحكم على الشعر اتجه نقدهم الى الألفاظ والمعاني وبناء الصور الشعرية . فنظم الكلام عندهم مُحكَم أو غير مُحكم ، والمعاني مقبولة أو غير مقبولة ، والصورة الشعرية كاملةُ البناء أو ناقصةُ البناء .

فالمُسيَّب بن عَلَس قد أخطأ في لفظة « الصَّيْعَرِيَّة » وصفاً للجمل ، لأنها من صفات النُّوق لا الجمال .

والأعشى أخطأ معنوياً حين حكم على قيس بن معد يكرب بأنه خيرُ أهل اليمن ، لأنه بنى حكمه في ذلك على السماع لا على خبرته الشخصية بالممدوح .

ومعاني مُهلهل التغلبيّ التي خرج بالمبالغة فيها إلى حد الغلو فاسدةٌ ، لأنه يدّعي ما هو ممتنع عقلاً وعادة ، حتى لقد عُدَّ بسبب الإكثار من المبالغة أولَ مَن كذَب في شعره .

وصورة فرسِ امرىء القيس في نظر امرأته أمّ جُندَبَ صورة ناقصة غيرُ مستكملة البناء بالقياس إلى صورة فرس علقمة . ذلك لأن امرأ القيس اضطر أن يَزجرَ فرسَه ويضربَه ويحثّه على العَدْوِ كي يُدركَ طريدتَه ، على حين أدرك الفرسُ الآخر طريدتَه ، وعلقمةُ ثانٍ من عِنانه لم يضربه بسوط ، ولا مَراهُ بساق ولا زجرَه .

والإقواءُ الذي وقع فيه من شعرائهم أمثالُ النابغةِ وبشرِ بن خازم عيبٌ دقيق من عيوب الشعر ، لأن فيه انتقاصاً لأحد عناصر القافية التي تُلتزم فيها من أول قافية في القصيدة إلى آخر قافية فيها ...

*

أما تحرُّك النقد العربي في الميدان الثاني ، ميدانِ الشعراء والمفاضلة بينهم وخَلْعِ ألقاب خاصة على بعض القصائد ، فقد كان صنيعُ النقاد فيه شبيهاً

بصنيعهم في الميدان الأول ، ميدانِ الحُكْم على الشعر .

فالحُكْمُ لشاعر بالشاعرية ، أو الحكمُ بتفضيله على غيره ، أو الحكمُ بجودة قصيدة وتلقيبها بلقب خاص ، لم يكن حكماً مُسبَّباً مُعَلَّلاً ، وإنما كان حكماً تأثرياً قِوامه الذوقُ الفطريّ . فالناقد يُصغي للقول فإذا أعجب به وطرب له ، فهو عنده أحسنُ ما قيل أو أحسنُ ما سمِع !

وقد مَرّ بنا كيف كان النابغة يستمع إلى إنشاد الشعراء فإذا أعجبه شعر أحدهم قال له : أنت شاعر ، أو أنت أشعر الناس ، أو أنت أشعر الجِنّ والإنس !

كذلك مَرّ بنا كيف أن عمرو بن الحارث الغسّاني استمع إلى كل من علقمة والنابغة وحسان ، وهم يُنشِدونه أشعارهم ، ثم فضّلَ حسّاناً على صاحبيه ، ودعا قصيدته « البتّارة » .

ومن هذا القبيل ما رواه الأصمعي من أن العرب كانت تفضل قصيدة سُوَيْد ابن كاهل ، وتقدّمها ، وتَعُدُّها من حِكَمِها ، وتسميها « اليتيمة » ، وهي القصيدة التي مطلعها :

بسطتْ رابعـةُ الحبلَ لنا فوصلنا الحبلَ منها ما اتّسعْ

ولكن ما الغرض المنشود من وراء اهتمام النقاد بمثل هذه الأحكام؟ قد يكون الغرضُ من الحكم على شعر شاعر، أو من الحكم بتفضيله نوعاً من الإشادة بالمنزلة التي يستحقها ، أو نوعاً من التمييز بين صغار الشعراء وكبارهم ، حتى لا يتقدم الضعافُ الفحولَ .

وقد يكون الغرضُ من تلقيب قصيدة بلقب خاص ما تضمنته من بعض حِكَم العرب ، على حد رواية الأصمعي . فإن صَحّ إن في مثل هذه الأحكام نوعاً من التعليل، فهو تعليل ضمني يُفهم من سياق الروايات وتعليقات الرُّواة...

*

وخلاصة القول أن النقد الأدبي في العصر الجاهلي كان نقداً جزئياً تأثرياً ينطلق من العاطفة والذوق الفطري ، وتصدر الأحكام فيه مجردة عن ذكر العلل والأسباب .

ومن يدري ..؟ فلعل سكوتَ هؤلاء النقادِ عن تعليل أحكامهم كان ناشئاً عن إيثارهم للإيجاز في مثل هذه المواقف . ولعله كان ناشئاً عن شعورهم بأنهم كانوا يتوجهون بأحكامهم النقدية إلى قوم يتكلمون العربية مثلَهم عن سليقة ، ويعرفون من بلاغتها مثلَ ما يعرفون . فلم يكن من حق الناقد أن يقف من الجمهور الأدبي المتحلّق حوله موقفَ المعلم الذي يفسّر ويعلّل .

وإذا كان الناقد الأول قد ظهر إلى الوجود بعد الشاعر الأول ، فإن النقد يقف من الشعر موقف التابع الذي يستوحيه دائماً ويوحي إليه .

فالشعر الجاهلي كان إحساساً أكثر منه عقلاً ، وكذلك كان النقد . والشاعر تستثيره الأحداث التي تقع في محيط حياته فيندفع إلى التعبير عنها بعاطفته وشعوره ، والناقد يصغي في نقده إلى ما تمليه عليه عواطفه ومشاعره .

والعربي بطبعه مُرهَف الإحساس ، فهو يغضب ويرضى ، ويثور ويهدأ لأقل الأسباب . وكما ينفعل الشاعر بعواطفه فيشعر ، ينفعل الناقد بحسه . وكلاهما كان في الجاهلية بدائياً ساذجاً . هذا في أدبه ، وهذا في نقده .

والواقع أن نقاد العرب في العصر الجاهلي قد وقفوا بالنقد عند هذا الحد البدائي الفطري ، فلم يتجاوزوه إلى الناحية العلمية التحليلية .

أجل ... وقفوا به عند ذلك الحد الذي هدتهم إليه في المعاني فطرتُهم السليمة ، كما هداهم إليه في الألفاظ ذوقٌ صادق ، ذوقٌ تربّى فيهم بما اطمأن إليه الشعر حين جادت صياغتُه ، وعمّ تهذيبه ، وانتهى إلى ما انتهى إليه من

تقصيد القصيد على وزن وقافية .

وإذا تذكرنا أن النقد الذي تمخّضت عنه قرائح النقاد في هذا العصر إنما يمثل نشأة النقد العربي ومراحله ، فإنه يكون من التجنّي أن نتوقع منهم أن يحلّلوا ويعلّلوا ، وأن يخوضوا في قضايا النقد الأخرى ، تلك القضايا التي أخذت قروناً من العلم والعمل والبحث حتى ظهرت وتبلورت وتطورت ، كما سنرى من خلال عرضنا المتصل لتاريخ النقد الأدبي عند العرب ...



النقد في صدر الاسلام

- عصر الرسول
- عصر الخلفاء الراشدين



الفصل الثالث

عصر الرسول

في هذا الفصل نواصل عرضنا التاريخي للنقد الأدبي عند العرب ، محاولين أن نرسُم له صورة تبيّن الحالة التي كان عليها ، والمدى الذي بلغه من تطور أو جمود في صدر الإسلام .

وصدر الإسلام يعني عصر الرسول والخلفاء الراشدين ، أو الفترة الزمنية التي بدأت بظهور الإسلام وانتهت بقيام الدولة الأموية على يد معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ للهجرة .

ولما كان النقد الأدبي بحكم نشأته تابعاً للأدب يتأثر به ويؤثر فيه ، فإن الإلمام بحركة النقد العربي في عصر صدر الإسلام يتطلب التعرف أولاً إلى الحياة الأدبية فيه .

وتجدر الإشارة من البدء إلى أن الحياة الأدبية في عهد البعثة الإسلامية قد تأثرت إلى حد كبير بالإسلام ، وبالقرآن الكريم معجزتِه الخالدة .

فالإسلام ظهر أولَ ما ظهر في جزيرة العرب ببعثه محمد في مُستَهلّ القرن السابع الميلادي « ٦٠٩ » م ، وكان ظهوره حدثاً جليلاً خطيراً غيّر حياة العرب

تغييراً تاماً من النواحي الدينية والسياسية والاجتماعية والأدبية .

ولم تكن الدعوة الإسلامية موجهة إلى العرب وحدهم ، وإنما كانت دعوة لهم ولكافة الناس جميعاً إلى كلمة الحق والتوحيد .

وبفعل الإسلام تغيرت قيم الأشياء والأخلاق في نظر العرب ، فارتقت قيم أشياء وانخفضت قيم أخرى ، وأصبحت مقومات الحياة عندهم غيرَها بالأمس .

وإذا كان الرسول قد نجح في نقلهم من العقلية الجاهلية إلى عقليتهم الإسلامية ، فإن ذلك لا يعني أنهم قد تخلَّوْا جملة عن نزعات الجاهلية بمجرد اعتناقهم للإسلام . وذلك أمرٌ طبيعي ، لأن الصراع بين الجديد والقديم من شأنه أن يستمر طويلا ، حتى يَحلَّ الجديدُ محلَّ القديم الذي قلَّ أن يتلاشى تماماً ...

لقد ظهر الاسلامُ والبلاغةُ العربية في ذروتها ، ولكنْ لم يكد العرب يستمعون إلى القرآن الكريم حتى اعتراهم الانبهار أمام بلاغته التي تتحدّى العقول والأفهام . ومن ثَمَّ لم يكن عَجَباً أن تعجَز قريشٌ عن معارضته ، وأن يسجد لبلاغته لا للإيمان به مَن سجد منهم له !

*

وبعد ... فلما كان الأدب في عصر الرسول يتمثل أكثر ما يتمثل في الشعر ، فإننا نحاول أن نتبين هنا أولاً موقف كلٍّ من الرسول وشعراء عصره من الشعر ، ثم نشفعَ ذلك بالتعرف إلى موقف النقد من هذا الشعر .

أما عن موقف الرسول من الشعر فنحن نعلم أن الله قد نزّه نبيَّه عن تعاطى الشعر ، قال تعالى : « وما علمناه الشعر وما ينبغي له » . وهو على كونه أفصحَ العرب إجماعاً ، لم يكن يُنشِد بيتاً تاماً على وزنه ، وإنما كان قُصاراه [1] أن

(١) قصاراه : أقصى غايته وجهده .

يُنشِدَ الصدرَ أو العَجُزَ فحسب ، ولم يكن إذا تمثل ببيت كامل يقيم وزنه ، وإنما يَخرج به عن الشعر إلى النثر .

وقد أُثِر عن الرسول بعضُ كلمات تعبر عن رأيه في الشعر ، يُخيِّل لمن يستقرئها أن الرسول قد وقف من الشعر موقفين متناقضين .

فهو في موقف يَنعَى على الشعر ويذمه ، ومن أقواله في ذلك : « لأنْ يمتلىءَ جوفُ أحدكم قَيْحاً حتى يَرِيه خيرٌ له من أن يمتلىءَ شعراً »[1] . وقوله : « لمّا نشأتُ بُغِّضَتْ إليَّ الأوثانُ وبُغِّض إليَّ الشعر » .

ثم يأتي القرآن مؤيداً هذا الموقفَ ومُزرياً على الشعراء، وذلك حيث يقول: « والشعراء يتبعهم الغاوون ، ألم تر أنهم في كل واد يَهيمون ، وأنهم يقولون ما لا يفعلون ، إلاّ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا الله كثيراً » .

والموقف الثاني أن الرسول كان فيما وراء عملِ الشعر وتعاطيه وإقامةِ وزنه، يحب الشعر ويستنشده ، ويَعرف قيمته وتأثيره ، ويُثيب عليه ويمدحه . ومن كلماته الدالةِ على إعجابه بالشعر وعرفانِ قيمته قولُه: « إن من الشعر لحكمة »، وقولُه : « أصدق كلمة قالها لبيد : ألا كلُّ شيء ما خلا اللهَ باطل » .

فالرسول ، كما يبدو هنا ، يذم الشعر مرة ويمدحه مرة أخرى. فكيف نوفق بين هذين الموقفين المتناقضين ؟ حقاً إن ظاهر هذه الأقوالِ يُشعر بالتناقض ، ولكنّ الواقعَ ينفي ذلك نفياً باتاً .

فالرسول إذ يذم الشعر لا يذمه على إطلاقه ، وإنما يذم نوعاً خاصاً منه ، هو ذلك الشعر الذي يُجافي روحَ الإسلام وتعاليمَه ، ويباعد بين العرب ، ويُفرّق كلمتهم ، ويُذكي فيهم روحَ العصبية بكل أنواعها وآثامها .

---

(١) كتاب العمدة ج ١ ص : ١٨ ، والقيح : المدّة ، وقد قاحت القرحة وتقيحت . ورَىَ القيحُ جوفَه يَرِيه : أكله.

والقرآن الكريم إذ يهاجم الشعراء إنما يهاجم الوثنيين منهم وشعراء قريش ممن تناولوا النبي بالهجاء ، وكذلك كلّ مَن غلب الشعرُ على قلبه ونفسه حتى شغله عن الدين وفروضه .

والرسولُ إذ يمدح الشعر إنما يمدح ما يَغلِب عليه روحُ التديُّن ، وما يَنبري للدفاع عن الإسلام والانتصارِ للحق ، وما يدعو للفضائل ومكارم الأخلاق . وهو إذ يستمع إلى هذا اللون من الشعر ويُبدي إعجابه أو تأثره به ، إنما يشجع أصحابه على المضيّ فيه لاتفاقه وتعاليمَ الإسلام .

من ذلك يتضح ألاّ تناقضَ مطلقاً في موقف الرسول من الشعر ، وأن موقفه منه موقف واحد ، وأن مقياس استحسانه أو عدم استحسانه له إنما هو بمقدار قربه من روح الإسلام أو بُعده عنها . هذا عن موقف الرسول من الشعر ...

*

أما عن موقف شعراء عصره منه ، فأولُ شيء نلحظه بالنسبة لهم هو أن بواعث الشعر أخذت تَفتُر لدى مَن شرح الله صدورهم للإسلام من شعراء الجاهلية . وزاد في ذلك الفتورِ اشتراكُ مَن اشترك منهم في الجهاد. فقد خلقهم الإسلام خلقاً جديداً ، وصبغهم صِبغة جديدة حتى انقطعت الصلة بينهم جاهليين وبينهم إسلاميين . وبذلك صار حماسُهم الإسلام في نشر الدين الجديد أشدّ وأقوى من حماسهم للشعر يقولونه في الغزل والمهاجيات والمفاخرات وإذكاء العصبيات .

كذلك كان القرآنُ من العوامل التي صرفت هذا النفرَ عن الشعر ، فقد بهرهم القرآنُ بروعة أساليبه وبلاغته ، فآثروه على الشعر ، وعدَلوا عنه إلى الخطابة للحاجة إليها في استنهاض الهمم لنُصرة الإسلام ، وتحريك النفوس والخواطر للجهاد . والخطابة شعر منثور .

ولكن لا ينبغي أن يُفهَم من ذلك أن جميع الشعراءِ ممن دخلوا في الإسلام قد صمتوا ، وانصرفوا انصرافاً تاماً عن الشعر ، فالواقع أن جماعةً منهم ظلوا يقولون الشعر دفاعاً عن الرسول .

فعندما اشتدت الخصومة بين قريش والرسول ، راح شعراءُ قريشٍ بإيعاز من زعمائها يَهجون الرسول ، ويحاربونه باللسان كما تحاربه قريشٌ بالسنان .

وكان شعراء قريش قِلـّةً قبـــل الإسلام ، ثم صاروا كثرةً بعد الإسلام لدواعي النزاع والمعارضة . وكان أشدُّ شعراءِ قريش حملةً على الرسول وهجاءً له عبدَالله بن الزِّبَعْرَى ، وعمرو بن العاص ، وأبا سفيان بن الحارث .

ولمـّا أسرف هؤلاء الشعراءُ وأمثالـُهم في هجاء الرسول ، قال للأنصار : « ما يمنع الذين نصروا الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ » . وكأنَّ هـــذه الكلمةَ كانت دعوةً من الرسول لشعراء المدينــة بالرد على خصومه ، فانطلقوا يدافعون عنه بألسنتهم ، وينصرونه بشعرهم . وكان من أشد شعراء المدينـــة إيجاعاً لقريش حسانُ بن ثابت ، وكعبُ بن مالك ، وعبدُالله بن رَواحة .

وهكذا نرى الشعر يدخل المعركة ، فهنـاك في صفوف قريش يقف شعراءُ مكةَ والطائف يثيرهم قومـُهم أو يستثيرون هم قومـَهم ، ويـُحـَمـِّسـُونهم بالقول ضدَّ الرسول ، وضدَّ رسالة الإسلام التى قام بتبليغها .

وهناك في صفوف المسلمين يقف شعراءُ المدينة ينتصرون للرسول، ويـُجيبون المشركين عنه ، ويـُوجعونهم بالشعر في غير فـُحـْش ولا هـُجر .

وكان الرسول يرى لأشعـــار أنصاره تأثيراً قوياً على أعدائه ، ومن أقواله فيهم : « هؤلاء النـَّفـَر أشدُّ على قريش من نـَضْح النـبـْل » [1] وقال لحسان بن ثابت : « اهجـُهم – يعني قريشاً – فوالله لـَهـِجاؤك عليهم أشدُّ من وقع السـِّهام

(١) كتاب العمدة ج ١ ص : ١٨ ، ونضح النبل : الرمي بها .

في غلَس الظــــلام . اهجُهم ومعك جبريلُ روحُ القُدُس ، والقَ أبا بكر يعلّمْك تلك الهَنات » (١) .

ولا ريب في أن هذه المعركة التي دارت رحاها بين شعراء المسلمين والمشركين قد أرهفت قرائح المشتركين فيها ، ونهضت بالشعر إلى حد ما ، كما أظهرت على كلا الجانبين شعراء جُدُداً كانوا مغمورين أو لم يُعرَفوا بالشعر من قبل .

*

وإذا نظرنا إلى الشعر في عصر الرسول من حيث موضوعاتُه ومعانيه وروحُه رأينا أنه في كل ذلك لا يخرج عما كان عليه الشعر الجاهلي . ولعل ما بينه وبين سابقه من فرق هو أن الشعر الجاهلي مُنوّعُ الأغراض ، على حين نرى شعرَ هذه الفترةِ يكاد يكون مقصوراً على الهجاء والمدح .

فكل مــا صدر عن شعراء المشركين من شعر هو في حقيقته امتدادٌ للشعر الجاهلي في صورته ومعانيه وروحه وكلّ خصائصه ، لأنهم كانوا لا يزالون وثنيين جاهليين في تفكيرهم ونزعاتهم وتقاليدهم. ولا يمكن القول بأنهم تأثروا في شعرهم بالإسلام ، لأنهم لم يؤمنوا بهذا الدين حتى يتأثروا بروحه وتعاليمه .

كذلك كان هجاء شعراء المسلمين للمشركين جاهلياً في كل شيء ، لأن الهجاء الجاهلي هو الذي كانت تفهمه قريش وتخشاه وتتألم منه .

وما كان لشعراء المسلمين أن يُعيّروهم بعبادة الأصنام والأوثان ، ولو فعلوا لما وجد المشركون في ذلك اللونِ من الهجاء شيئاً يَخزَوْن به أو يستحون منه ، فقد كانوا فعلاً يعبدون الأوثان ولا يرون في عبادتها عيباً أو حطّاً من قدرهم .

وما كان لهم أن يهجوهم بالكفر ، لأنهم كانوا يرون في التّمسّك بدين آبائهم غايةَ الفخر . وما كان لهم أن يتوعدوهم بالنار في الآخرة ، لأنهم لم يكونوا

(١) كتاب العمدة ج١ ص:١٨ .

يؤمنون بالجنة والنار ، ولا بحياة أخرى بعد الحياة الدنيا .

لكل هذه الاعتبارات كان طبيعياً أن يتحرّك هجاءُ حسّانٍ وصحبه من شعراء المسلمين في إطار الهجاء الجاهلي ، وأن يقوم على معانيه القديمة التي تنال من نفوس العرب ما تناله السهام من الأجسام ، والتي كانت لا تزال متمكنةً من نفوس أولئك الشعراء رغم إسلامهم .

وإذا تدبّرنا كذلك معانيَ المدح الذي تَوَجّه به شعراءُ المسلمين إلى الرسول وجدنا أن هذه المعانيَ لم تتطور كثيراً عما كانت عليه في العصر الجاهليّ . فهي هي نفس المعاني التي كانوا يمدحون بها رؤساءَهم وسادتَهم ، خلعوها بعد الإسلام على محمد القرشي وقبيلته ، لا محمد النبي الذي أتى بأكبر انقلاب دينيٍّ إنسانيٍّ عرفه التاريخ !

وخلاصة القول هنا أن الشعرَ على عهد الرسول قلّ كمّاً وكَيْفاً وموضوعاً ، وأنه ظل جاهلياً في صورته ومضمونه وروحه ، وأنه لم يتطور عن نهجه القديم إلا قليلاً ، وإذا كان قد تأثر بالإسلام فهو تأثر عرضيٌّ في مجال ضيق ، من حيث التطرّقُ إلى بعض المعاني الدينية .

*

تلك كانت حالَ الأدب والشعر خاصة في عهد الرسول ، فماذا كانت حالُ النقد الأدبيّ فيه ؟

إن الحياة الأدبية ، كما رأينا ، كانت في جملتها حياةً ضيقةَ النطاق تتمثل غالباً في شعر الهجاء والمفاخرات والمدح . ولمّا كان النقد يتبع الأدب ويترسّم خطاه ، فإنه كان يتحرّك في هذا النطاق الضيق .

ولهذا لا نتوقّع أن نجد في عصر الرسول حركة نقدية نشيطة ، وإن كنا نتوقع أن نجد ما قد يكون فيه من آثار النقد الأدبي متأثراً بالمُثُل الجديدة التي جاء بها الإسلام .

ولعل الرسولَ خيرُ مَن اتجه بالنقد في عصره هذا الاتجاه الجديد ، كما يشهد بذلك بعضُ ما أُثِر عنه من أقوال وأفعال تتعلق بالشعر ونقده .

فالرسول وهو أفصح العرب كان يتذوّق الكلامَ الجيد ، ويخوض في حديث الشعر مع الوافدين عليه ممن أسلموا ، كما كان يُؤْثر منه ما لاءم دعوتَه ، وأرضى مكارم الأخلاق .

ومن ثَمَّ لم يكن عجباً أن يتحدث الناس في الشعر بمجلسه ، وأن يَكثر اجتماعُ الشعراء به ، وأن يُعجَب بالشعر إعجابَ أصحاب الذوق السليم .

أنشده النابغة الجَعدي :

ولا خيرَ في حلم إذا لم يكن له بوادِرُ تَحمي صفوَه أن يُكَدَّرا
ولا خيرَ في جهل إذا لم يكن له حليمٌ إذا ما أَوْرَدَ الأمرَ أَصْدَرا

فأعْجب الرسول بجودة شعره وقال له : « أجدت لا يَفْضُضِ اللهُ فاك » [١] .

وأنشده كعبُ بنُ زُهير قصيدتَه « بانت سعاد » فأعْجب بها الرسول ، وبلغ من إعجابه بها أن صفح عن كعب ، وخلع عليه بردته التي اشتراها منه معاوية ثم توارثها الخلفاء من بعده في الجُمَع والأعياد تبركاً بها . ولما بلغ كعب في قصيدته إلى قوله :

إن الرسولَ لَسيفٌ يُستضاءُ به مُهَنَّدٌ من سيوف الله مسلولُ
في فتيةٍ من قريش قال قائلها ببطن مكةَ لمَّا أسلموا زُولوا

أشار الرسول إلى الخلق أن يسمعوا شعر كعب بن زهير [٢] .

---

(١) الأغاني : ج ٤ ص: ١٢٧ . (٢) الأغاني : ج ١٥ ص: ٣٤٥ .

وكانت تحدث المساجلاتُ والمحاكمات في الشعر أمامه. من ذلك ما يُروَى أن وفداً من عرب بني تميم المعادين له قدموا عليه ومعهم من شعرائهم الزِّبْرِقانُ بن بدر والأقرعُ بن حابس ، ومن خطبائهم عطاردُ بن حاجب ، ثم راحوا ينادونه من وراء الحجرات : يا محمد اخرجْ إلينا نُفاخرْك ونُشاعرْك ، فإن مدحَنا زَيْنٌ وذمَّنا شَيْنٌ . فرماهم الرسول بخطيبه ثابت بن قيس وشاعره حسّان بن ثابت ، فساجل ثابتٌ عطاردا خطابةً ، وساجل حسّانٌ الزِّبرقانَ شِعراً ، وردَّا عليهما ردًّا بليغاً مُفحِماً ، دفع الأقرعَ بن حابس لأن يقول : « والله إن هذا الرجلَ – يعني الرسول – لَمُؤْتيٌّ له ، لَخطيبُه أخطبُ من خطيبنا ، ولَشاعرُه أشعرُ من شعرائنا ، وأصواتُهم أعلى من أصواتنا » ، ثم أسلم القوم جميعاً [1] .

*

وقد أُثِر عن الرسول بعضُ كلمات تُعبّر عن مفهومه للشعر ، وعن الميزان الذي يرتضيه لتقديره ، والتمييز بين ما يستحسنه وما لا يستحسنه منه .

من هذه الكلمات قوله : « الشعر كلام من كلام العرب جَزْلٌ تتكلم به في بواديها وتَسُلُّ به الضغائنَ مِن بينها » [2] ، وقوله : « إنما الشعر كلام مُؤلَّف فما وافق الحقَّ منه فهو حسَن ، وما لم يوافق الحقَّ منه فلا خيرَ فيه » [3] وقوله : « إنما الشعر كلام ، فمن الكلام خبيثٌ وطيب » [4] .

فالشعر عنده كلام من جنس كلام العرب يتميز بالتأليف أي النظم ، كما تمتاز ألفاظه بصفة الجزالة ، وقوة الأسر .

أما ميزان الشعر عنده فيتمثل في مدى مطابقته للحق أو عدم مطابقته .

---

(١) الأغاني : ج ٤ ص : ١٤ - ١٧
(٢) كتاب العمدة : ج ١ ص : ١٥
(٣) المرجع السابق : ج ١ ص : ١٤
(٤) المرجع السابق .

فالحسَنُ منه ما وافق الحق ، وما لم يوافقه فلا خير فيه فأحسنُ الشعر وأطيبُه في رأيه هو مـــا يدعو الى الفضائل ومكارم الأخلاق ، وهو ما يستل الضغائن والأحقاد من القلوب ويُحِلُّ محلّهـــا المودةَ والإخاء ، أما الشعر الذي يُولّد الضغائنَ أو يزيد من حِدّتها فهو ما لا خير فيه . إنه الشعر الخبيث !

وما من شك في أن الرسول قد استمد ميزانَه للشعر من تعاليم الإسلام ، فالحق أو الصدق لا الكذب هو مقياسُ جودةِ الشعر وحُسْنِه عندَه . وكأني به إذ اتخذ الحق أو الصدق أساساً للتقدير والحكم على الشعر ، إنما يبغي أن ينحرف به عن طريق قِيَمِه الجاهليـــة ، وأن يجعله إسلاميَّ الروح والمضمون والاتجاه ...

ويبدو أن حسّان بن ثابت كان أول شعراء المسلمين تأثراً برأي الرسول القائل بأن أحسن الشعرهو مـــا وافق الحق والصدق ، وذلك لأننا نراه يقول في شعره :

وإنما الشعرُ لبُّ المرءِ يَعرِضه على المجالس إن كَيْساً وإن حُمُقَا
وإن أشعرَ بيتٍ أنت قائلُه بيتٌ يقال ـ إذا أنشدته ـ صَدَقَا (١)

وتُحدِّثُنا كتب التاريخ أن النضر بن الحارث كان من شياطين قريش ومن أشدّ أعداء الرسول الذين جاهروا بعداوته وإيذائه .كان إذا تلا النبيُّ القرآنَ يقول لقريش : ما يأتيكم محمد إلا بأساطير الأولين. وقد حارب المسلمين في غزوة بدر الكبرى حتى أُسِر فأمر الرسول علياً بضرب عنقه (٢) .

---

(١) ديوان حسان ص : ١٦٩ .

(٢) ارجع في أخبار النضر بن الحارث الى تاريخ الكامل لابن الأثير : ج ٢ ص : ٩١ ، والمختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء ج ٢ ص : ٣١ ، ونهاية الأرب للنويري ج ١٦ ص: ١٩٨ وص : ١٢٠ ، وج ١٧ ص : ٤٦ -٤٨ .

ويُروَى أن قُتَيْلةَ بنتَ النضر بن الحارث بعد مقتل أبيها عرضت للنبي وهو يطوف فاستوقفته وجذبت رداءه حتى انكشف عن مَنكبه ثم أنشدته قصيدةً منها :

أمحمدٌ وَلَدَتْكَ خيرُ نجيبة	في قومها والفحلُ فحلٌ مُعرِق
ما كان ضرَّكَ لو مننتَ وربما	مَنَّ الفتى وهو المَغيظُ المُحنَقُ؟
فالنضرُ أقربُ مَن قتلتَ قرابةً	وأحقُّهم إنْ كان عِتْقٌ يُعتَقُ

ويُروَى أن الرسول لما سمع شعرها رقَّ لها حتى دَمَعتْ عيناه وقال : « لو سمعتُ شعرها هذا قبل قتله لَمَنَنْتُ عليه » [1] .

فالرسول يتأثر بشعر قُتَيْلة الى الحد الذي لو كان سمعه قبل مقتل أبيها لَعفا عنه، ومعنى هذا أنه مقتنع بأن كلّ ما جاء في شعرها موافق للحق الذي اعتمده مقياساً لجودة الشعر وحُسنه . ثم ما كان أدقَّ الرسولَ في تخيُّر قوله « لَمننتُ عليه » على قوله مثلاً « ما أمرت بقتله » لما تدل عليه العبارة الأولى من أن القتل كان بحق ، وأن تركه لم يكن ليكون إلاّ عن عفو .

والرسول خيرُ مَن يدرك ما يعنيه الشعر بالنسبة للعرب ، فهو عميق متأصّل في نفوسهم ، وجزء من طبيعتهم التي فُطِروا عليها . نفهم ذلك من قوله : « لا تدعُ العربُ الشعرَ حتى تدعَ الإبلُ حنينَها » [2] .

كذلك أبدى الرسولُ رأيَه فيمن هو أشعر شعراء الجاهلية والمشركين ، فقد رُوي عنه في امرىء القيس « أنه أشعر الشعراء وقائدهم الى النار » [3] . فامرؤ القيس في رأيه أشعر شعراء الجاهلية من حيث تقدمُه وتفوُّقه عليهم في

---

(١) تاريخ الكامل : ج ١ ص : ٩١ ، والمعرق : الكريم ، من عراقة الأصل .
(٢) كتاب العمدة ج ١ ص : ١٥ . (٣) المرجع السابق ج ١ ص ٧٦ .

فنه وصناعته الشعرية ، ولكنه في الوقت ذاته يعتبره قائدهم الى النار لما تضمنه شعرُه من معانٍ تجافي الحقّ الذي اعتمده مقياساً للشعر .

وهكذا من كل ما تقدم يتضح لنا موقفُ الرسول من الشعر العربي ونقده . ومن الملاحظات النقدية التي استقيناها من بعض كلماته السابقة ندرك مدى فهمه لطبيعة العرب الشعرية ، ومدى علمه بأهمية الشعر وخطره وأثره في نفوسهم .

ومن كلمات الرسول التي مرت بنا قولـُه : « إنما الشعر كلام مؤلـَّف فما وافق الحقّ منه فهو حسن ، وما لم يوافق الحقّ منه فلا خيرَ فيه » . وهذه الكلمةُ لا تتضمن المقياس الذي يراه لتقدير الشعر والحكم عليه فحسب ، وإنما هي أيضاً دعوة لشيء آخر . إنهــا دعوة الى العُدُول بالشعر عن طريقه الجاهلي بكل قِيَمه ، وصبغِه بالصِّبغة الإسلامية ككل شيء آخر في حياة العرب بعد الإسلام .

وكأني بالرسول أراد من كلمته أيضاً أن يبدأ الشعرُ بالإسلام مرحلةً جديدة تتبدّلُ فيها وظيفتُه وتنقطع الصلةُ بينه وبين قديمه ، مرحلةً يستقى فيها من نَبْع الإسلام الصافي ثم ينطلق في جميع المجالات على هَدْي من تعاليمه ومبادئه ، وبذلك يَصحّ اتجاهه ، ويظل على الدوام الصوتَ البليغ الذي يدعو الى المثل العليا ، ويعمل على تعميق معانيها في النفوس .



وتتمةً لحركة النقد في عصر الرسول نذكر أنه انفتح في نقد الشعر أمام رجال هذا العصر ميدانان .

أحدهما بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين وفيـــه حَكَم القومُ حق الخصومُ للأولين على الآخرين . وقد مرّ بنا في هذا الصدد خبرُ المساجلة الشعرية التي دارت أمام الرسول بـين خطيب وفد بني تميم وشاعرهم من جهة وخطيب الرسول وشاعره حسان من جهـــة أخرى ، ثم تعليقُ الأقرع بن حابس أحدِ شعراء بني تميم على هذه المساجلة بقوله : « والله إن هذا الرجل ـ يعني الرسول ـ

لَمُؤْتىً له ، لَخطيبُه أخطبُ من خطيبنا ، ولَشاعرُه أشعرُ من شعرائنا ، وأصواتُهم أعلى من أصواتنا » .

أما الميدان الثاني فيتمثل فيما كان بين حسانٍ وسائرِ شعراء المسلمين ، فقد دان القومُ بالتفوق لحسان لما كان له من قوة الشاعرية .

رُوِي عن عائشة أن النبي بنى لحسان بن ثابت في المسجد مِنبراً يُنشِد عليه الشعر [1] . ورُوِي أن الرسول دعا حساناً لهجاء قريش بقوله : « اهجُهم – يعني قريشاً – فوالله لَهِجاؤك عليهم أشدُّ من وَقْعِ السهـام في غَلَس الظلام » [2] .

كذلك رُوِي أن الرسول قال : « أمرتُ عبدَالله بن رواحة فقال وأحسنَ ، وأمرت حسّان بن ثابت فشفى واشتفى » [3] . وعن الشعبي قال : « لمّا كان عامُ الأحزاب ، وردّهُمُ اللهُ بغيظهم لم ينالوا خيراً ، قال النبي : مَن يحمي أعراض المسلمين ؟ فقال كعب بن مالك : أنا يا رسول الله ، وقال عبدالله بن رواحة : أنا يا رسول الله ؛ وقال حسان بن ثابت : أنا يا رسول الله ، فقال : نعم اهجُهم أنت ، فإنه سيُعينك عليهم روحُ القُدُس » [4] .

وحسبنا بهذه الأخبار دليلاً على تقديم الرسول لحسان وتفضيله على معاصريه من شعراء المسلمين . فلو لم يكن رأيُ الرسول هكذا ما بنى له وحده منبراً في المسجد يُنشِد عليه الشعراء ، وما انتدبه دون غيره لهجاء قريش والمشركين .

وشيء آخر هو أنّ القرآن قد تحدّى العرب ببلاغة نظمه ، وإنّ عجزَهم عن الإتيان بمثله من نوعه حملهم على الإقرار بأن هناك كلاماً أبلغ من كلام ، وإنْ

---

(١) العمدة : ج ١ ص : ١٤ .
(٢) المرجع السابق : ج ١ ص : ١٨ .
(٣) الأغاني : ج ٤ ص : ١١ .
(٤) المرجع السابق : ج ٤ ص : ١٣ .

يكن من جنس هذا الكلام . وقد كان ذلك مَدْعاةً الى انصرافِ مَن انصرف من شعراء المسلمين عن الشعر الى القرآن .

ومن هؤلاء الشعراء لبيد بن ربيعة الذي قال إن الله أبدله القرآن مكان الشعر . ويَروي صاحبُ الأغاني أن لبيداً لم يُؤثَر عنه في الإسلام إلا بيتٌ واحد هو :

الحمدُ لله إذْ لم يأتِني أَجلي حتى لَبِسْتُ من الإسلام سِربالا [1]

ولكن بروكلمان يُخَطِّيء هذه الرواية ، ويزعم أن كثيراً من شعر لبيد مطبوع بطابع الوحي ، ويَبعُد أن تكون كل هذه الأبيات منحولة ، وإن ظهر فيها شيء من التزَيُّدِ عليه [2] .

*

من كل ما تقدم يَظهر أن النقد الذي شهد العصرُ الجاهليّ نشأتَه قد استمر في عصر الرسول ، وأن العرب لم يَكُفّوا عن النظر في الشعر والمفاضلة بين الشعراء .

ومع ذلك فهناك شيء جديد تَمّ للنقد الأدبي في هذه الفترة وتميّز به عن النقد في العصر الجاهلي . وهذا الجديد يتمثل في عُدول الرسول بالشعر عن طريقه الجاهليّ بكل قِيَمه ، والاتجاهِ به اتجاهاً إسلامياً يكون مقياسُ الحُكْم فيه على العمل الأدبي بمقدار مطابقته أو عدم مطابقته للحق ...

أجل هذه هي الخطوة الوحيدة التي خطاها النقد الأدبي الى الأمام هنا على

---

(١) الأغاني : ج ١٤ ص : ٢١٨ — ، والسربال : ما يُلبَس من قميص أو دِرْع .

(٢) كتاب تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلمان : ج ١ ص : ١٤٥ .

طريق التطور . ولكنْ يبقى بعد ذلك أنه ظل في عصر الرسول كما كان في العصر الجاهلي نقــداً فطرياً مجرداً عن التعليل ، نقداً يفاضل بين الشعراء ويحكم لشاعر على آخر أو على آخرين دون أن يشفع الحُكْمَ بأسبابه أو حَيْثيّاته .

تلك كانت حالة النقد الأدبي في عصر النبوّة أو الوحي ، فماذا كانت حالته في عصر الخلفاء الراشدين ؟ ذلك موضوع بحثنا في الفصل التالي . . .



الفصل الرابع

عصر الخلفاء الراشدين

ذكرنا في مُستهلّ الفصل السابق أن « صدر الإسلام » يُطلَق على عصر الرسول والخلفاء الراشدين، أو بعبارة أخرى على الفترة الزمنية التي تبدأ بظهور الإسلام وتنتهي بقيام الدولة الأموية على يد معاوية بن أبي سفيان .

ومن قبلُ عرضنا لتاريخ النقد الأدبي عند العرب في عصر الرسول . واستكمالاً لعرض تاريخه في صدر الإسلام الذي يزيد قليلاً على نصف قرن من الزمن ، ننتقل إلى الكلام عن حالته في عصر الخلفاء الراشدين .

ولمّا كان النقد الأدبي عند العرب في عصوره الأولى يدور في فَلَك الشعر لغلَبته على سائر أنواع الأدب الأخرى ، فإن الأمر يستأدينا أولاً أن نتبين حالة الشعر في عصر الراشدين ، توطئةً للكلام عن حالة النقد فيه ، واكتشافاً لما طرأ عليه من تطوُّر .

والآن ... ماذا كانت حالة الشعر في عصر الراشدين ؟

عرفنا فيما سبق أنّ الشعر قد ظلّ على عهد الرسول جاهليـاً في تقاليده ومضمونه وروحه ، وأنّ تأثرَه بالإسلام كان تأثراً عرَضياً وفي مجال ضيق ، أما في عصر الراشدين فلم تكن حالةُ الشعر خيراً مما كانت عليه في عهد الرسول .

فالخلفاء الراشدون لم يشجعوا الشعراء كثيراً على القول حتى ينهضَ الشعرُ ويتطوَّرَ تبعاً لذلك ، ولكنهم على العكس كانوا يشجعون مَن يعدِل عنه إلى القرآن ويكافئونه .

وهُمْ بذلك قد نهجوا منهجَ الرسول في حث المسلمين على حفظ القرآن . رَوَى صاحبُ الأغاني أن غالباً أبا الفرزدق الشاعر جاء الى علي بن أبي طالب بالفرزدق بعد موقعة الجمل بالبصرة فقال : إن بُنيَّ هذا من شعراء مُضَر فاسمع منه . فقال عليٌّ : علِّمْه القرآن . فكان ذلك في نفس الفرزدق ، فقيَّد نفسه وآلى أن لا يُحلّ قيدُه حتى يحفظ القرآن [1] .

كذلك شجّع عمرُ بنِ الخطاب مَن يعدل عن الشعر الى القرآن، ومِن كلماته في ذلك : « اقرءُوا القرآن تُعرَفوا به ، واعملوا به تكونون من أهله » [2] . وقوله : « كونوا أوعية الكتاب ... » [3] أي احفظوه في صدوركم .

ولكن ذلك لم يمنعه أن يَحُثّ المسلمين على تلقين أبنائهم أسيرَ الأمثال وأحسنَ الشعر وأعفّه . ومما أُثِر عنه في ذلك قوله : « علموا أولادكم العوم والفروسية ، ورَوُّوهم ما سار من الأمثال وحَسُن من الشعر » [4]. وقوله : « ارْوُوا من الشعر أعفّه ، ومن الحديث أحسنه ، ومن النسب ما تواصَلون عليه ، وتُعرَفون به ، فرُبَّ رَحِمٍ مجهولةٍ قد عُرِفَت فوُصِلَتْ ، ومحاسنُ الشعر تدل على مكارم الأخلاق وتَنْهَى عن مساويها » [5] .

ومن قوله لابنه عبد الرحمن : « يا بُنيَّ ! انسُب نفسك تصلْ رحمك واحفظْ محاسنَ الشعر يحسُن أدبُك، فإنّ مَن لا يَعرِف نسَبه لم يصلْ رَحِمَه ، ومن لم يحفظ محاسنَ الشعر لم يُؤدِّ حقاً ، ولم يَقترف أدبا » [6] .

---

(١) الأغاني : ج ١٩ ص : ٩
(٢) البيان والتبيين : ج ٢ ص : ٧٠
(٣) المرجع السابق : ج ١ ص : ١٩٥
(٤) المرجع السابق : ج ٢ ص : ١٨٠
(٥) جمهرة أشعار العرب : ص ٣٦
(٦) المرجع السابق : ص ٣٥

وكتب عمر إلى أبي موسى الأشعري : مُرْ مَن قِبَلَك بتعلم الشعر ، فإنه يدل على معالي الأخلاق ، وصواب الرأي ، ومعرفة الأنساب [1] .

وعندما قصدوا إلى تفسير القرآن شعروا بحاجتهم إلى الشعر . قال ابن عباس : « إذا قرأتم شيئاً من كتاب الله فلم تعرفوه فاطلبوه في أشعار العرب ، فإن الشعر ديوان العرب » [2] وكان إذا سئل عن شيء من القرآن أنشد فيه شعراً وكانت عائشة كثيرةَ الرواية للشعر . يقال : إنها كانت تَروي شعر لبيد [3] .

ذلك مجمل موقف الخلفاء الراشدين والصحابة من الشعر : تشجيع على العدول عنه إلى القرآن ، وحَثٌ على أن يُلَقِّنَ الأبناءُ أحسنَه وأعفَّه تقويماً لألسنتهم وتهذيباً لنفوسهم ، واستعانةٌ به عند الاقتضاء في تَفهُّم القرآن كتاب الله .

وقد حدثَتْ في عصر الراشدين عواملُ قلَّلت من دواعي الشعر وزادتْ من خفوت صوته وانصراف المسلمين عنه .

فبانتصار الإسلام آخر الأمر ، ودخولِ العرب في دينِ الله أفواجاً وقفت المساجلاتُ الشعرية التي شبَّتْ في عصر الرسول بين شعراء المشركين من قريش وشعراء الإسلام . ومهما قيل في أمر هذه المساجلات فإنهـا بلا شك قد نهضت بالشعر إلى حدٍّ ما ، وأرهفت قرائح الشعراء المعروفين وقتئذ ، وأظهرتْ على كلا الجانبين شعراء كانوا مغمورين أو غيرَ معروفين بالشعر من قبل .

وانصرافُ العرب في عصر الراشدين الى الفتوح الإسلامية واشتراكُ الشعراء فيها جعل المحلَّ الأول للعمل دون القول ، وللسيف دون الكلمة .

قال عمر بن الخطاب : « كان الشعر علم قوم لم يكن لهم عِلْمٌ أصحُّ منه فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب ، وتشاغلوا بالجهاد وغزو فارس والروم ، ولَهِيَت عن الشعر وروايته ... » [4]

---

(١) العمدة : ج ١ ص: ١٥ (٢) المرجع السابق : ج ١ ص ١٧

(٣) المرجع السابق

(٤) طبقات الشعراء لابن سلام : ص ١٠ طبعة ليدن

وليس معنى ذلك أن الشعراء الذين خرجوا للجهاد في سبيل الله ونشر دينه لم ينفعلوا بأحداث تلك المواقع والحروب وبمشاهداتهم الجديدة فيها . فالواقع أن هذه المواقف الجديدة قد هزّت شاعريتَهم فانطلقوا يفخرون بشجاعتهم ، ويتباهَوْن بالنصر ، ويَصِفون المعارك وأحوالَ الحصار ، وآلاتِ القتال ، وغُنْمَ الغنائم ، ومقاساةَ أحوال الحر والبرد ، والدوابّ الغريبة التي شاهدوها [1].

وعلى كثرة ما قيل في كل ذلك من شعر يطالعنا في كتب الفتوح والمغازي ، فإن الروح الدينية فيه ضعيفةُ النبض . وقلما نرى فيه حماساً دينياً ، أو تمدُّحاً بفضائل الإسلام وإشادةً بتعاليمه ومثله العليا، مع أن مواقف الجهاد في سبيل الله كانت كفيلة أن تُضفِيَ عليهم روحانية ، وأن تثير وجدانهم الديني، وتطلقَ على ألسنتهم شعراً يشرق بنور العقيدة والإيمان .

كذلك قلّ شعر الهجاء حتى كاد ينعدم، فقد كان الخلفاء يُحذّرون من الهجاء لمنافاته لروح الإسلام وتعاليمه ، وكان عمر أشدّهم وطأةً على شعراء الهجاء ، كما سنرى فيما بعد .

مِن كل ما تقدم ندرك أن كل العوامل في عصر الراشدين لم تكن مشجعةً للشعر على النهوض والتطور . وما خلّفته لنا المغازي والفتوح الإسلامية من شعر لا يخرج في معظمه عن نهج الشعر الجاهلي في كل شيء .

قد نلتقي في هذا الشعر ببعض الألفاظ الإسلامية ، وببعض الأساليب التي تنحو مَنحَى الأساليب القرآنية . وقد نلتقي فيه ببعض القصائد والمقطوعات التي تعالج موضوعات لم يَطْرُقْها الجاهليون من قبلُ كالموضوعات التي سبقت الإشارة إليها . وقد نلتقي فيه بلمسات دينية ضعيفة العاطفة .

ولكنّ هذا الظواهرَ قليلةٌ لم تَقْوَ على أن تُعبّدَ لشعر الشعراء المخضرمين

---

(١) الوسيط للسكندري : ص ١٤٠

طرُقاً جديدة ، وتفتحَ له آفاقاً جديدة يتميَّز بها عما قبله وما بعده. فشعرُهم في جملته امتدادٌ للمذهب الجاهلي ، لم يتطور بالإسلام ولم يتأثر به إلا تأثراً عَرَضياً من حيث بعضُ الألفاظ والأساليب والأغراض .

ولعل ذلك هو ما حدا بابن سلام في كتابه طبقات الشعراء إلى أن يَعُدّ شعراء صدر الإسلام ممن يُعرَفون بالمخضرمين ضمن طبقات الجاهليين ، إذ لم يجد لهم طابعاً خاصاً يميِّزهم عن سابقيهم من شعراء الجاهلية .

ذلك مُجمَل حالة الشعر في عصر الخلفاء الراشدين ، فماذا كانت حالة النقد الأدبي فيه ... ؟

*

إن حركة النقد الأدبي في هذا العصر تُلتمَس أكثر ما تُلتمَس في مواقف الراشدين أنفسِهم من الشعر والشعراء وآرائهم في ذلك ، كما تُلتَمس في الملاحظات النقدية التي صدرت عن بعض معاصريهم من الصحابة والشعراء .

واهتمامُ خلفاءِ الرسول في هذا الميدانِ لم يكن مقصوراً على النقد وحدَه ، وإنما تجاوزه إلى الاهتمام باللغة العربية عامة ، والغيرة على صحتها وسلامتها من اللحن وخاصة في قراءة القرآن .

فالعرب عند ظهور الإسلام كانوا يُعربون كلامهم على نحوِ ما في القرآن ، إلاّ مَن خالطهم من الموالي فإن هؤلاء كانوا حتى في أيام النبي يُخْطئون في الإعراب ، وقد ذكروا رجلاً لحَن بحضرة النبي فقال : « أرشدوا أخاكم فقد ضلّ » .

وعلى سَنَن الرسول وهَدْيِه سار خلفاؤه في رعاية اللغة والدعوة إلى سلامتها من شوائب اللحن قولاً وعملاً .

أُثِر عن الصديق أبي بكر قوله : « لأنْ أقرأ فأُسقِطَ أحبُّ إليّ من أن أقرأ فألحَن »[1] . وروَى عنه الجاحظ أن رجلاً مرّ به ومعه ثوب ، فقال له

---

(١) الزهر : ج ص ١٩٩

أبو بكر : أتبيع الثوب ؟ فقال الرجل : لا عافاك الله . فقال أبو بكر : « لقد عُلِّمتم لو تعلمون . قل : لا وعافاك الله »[1] .

وقال عمر : « تعلَّموا النحو كما تعلَّمون السُّنَنَ والفرائض »[2] . وكتب إليه الحصينُ بن الحُرّ عاملُه على ميسان كتاباً فلَحَن في حرف منه ، فكتب إليه عمر : « أنْ قَنِّعْ كاتبك سوطاً »[3] أي اضربه سوطاً .

والجمهور من أهل الرواية على أنّ أولَ مَن وضع النحو الإمامُ عليٌّ بن أبي طالب ، وذلك عندما لاحظ ظهور اللحن في اللغة[4] .

*

ذلك عن اهتمام الخلفاء الراشدين باللغة وغَيرتهم على سلامتها من اللحن ، أما عن الشعر ونقده فقد ساروا فيه سيرة الرسول ، ونهجوا نهجه . كانوا يُميّزون بين شعر وشعر ، فيحضون على ما هو حسَن مفيد ، ويعاقبون على ما هو شائن ضار ، وما منهم إلاّ مَن تمثّل بالشعر أو دعا إلى روايته واعتَدّها من تمام المروءة والمعرفة .

وإذا نظرنا إلى نشاط هؤلاء الخلفاء في ميدان النقد الأدبي رأينا أن الخليفة عمر كان أكثرهم أثراً وتأثيراً فيه، حتى ليُعدّ بحق الناقدَ الأول في هذه الفترة.

وعن عمر الناقد يقول الحسن بن رشيق القيرواني : « كان مِن أنقد أهل زمانه للشعر وأنفذَهم فيه معرفة »[5] .

ولعل ثقافته الأدبية هي التي أهّلته لأن يتبوّأ مكانة عالية في النقد وتطويره

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص : ٢٦٢ (٢) المرجع السابق : ج ٢ ص ٢١٨

(٣) المرجع السابق : ج٢ ص : ٢١٦

(٤) إنباه الرواة على أنباه النحاة للقفطي : ج١ص : ٤

(٥) العمدة : ج ١ ص : ٢٠

فقد كان رضي الله عنه أعلم النـــاس بالشعر ذا بَصَر فيه ، يحب الاستماعَ إليه والاستراوحَ به .

وكانت معرفتُه بالحياة العربية معرفةً دقيقة شاملة ، كما كان راويةً للشعر جيِّدَ الاستحضار له ، « لا يكاد يعرِض له أمرٌ إلاّ أنشد فيه بيتَ شعر » على حدِّ قول ابن سلام [١] .

فإذا أضفنا إلى كل ذلك تشبعَه بروح الإسلام وتعاليمِه ، وشعورَه بمسئولية الحاكم المطالَب بحماية المجتمع الإسلامي الجديد من الانحراف ، فإننا نستطيع أن نتَمثل شخصيةَ عمر الأدبية ،واتجاهَه النقديَّ الذي لا يخرج عن كونه امتداداً لاتجاه الرسول ومنهجه في نقد الكلام والحكم عليه .

والواقع أن عمر ظل في إسلامه كما كان في جاهليته حَفِيًّا بالشعر شديدَ الشغف به ، بل ظل كذلك بعد اضطلاعه بأعباء الخلافة ،واشتغاله بمهامِّها التي لا تدع له من وقته فراغاً لغيرها ، فكان يتمثل بالشعر ويَرويه ، ويَستنشده من أصحابه وحُفَّاظه ، ويستقبـــل الوفود ويخوض معهم في الحديث عن شعر شعرائهم .

وكل ما أُثِر من كلماته في الشعر يشير إلى أنه كان يعجب بالشعر الذي يَدخل بالمتعة على النفس ، ويلتقي مع تعاليم الإسلام في الدعوة إلى السُّموِّ ومكارم الأخلاق .

فالشعر الذي يُحقق المُتْعة الأدبية ، ويَسكُن به الغيظُ ، وتُطْفَأ به الثائرةُ ، ويُعطَى به السائلُ ، ويَنزِعُ إلى الفضائل بصفة عامــة هو الشعر الذي يَرُوق له ويستحق التقدير والتشجيع .

أما الشعر الذي يهدف إلى عكس ذلك فهو في نظره انتكاسةٌ ورِدَّةٌ إلى

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص : ٣٤١

الجاهلية يأباها الإسلام ويجب مقاومتها .

يقول عمر : « نعم ما تعلمتْه العربُ الأبياتُ من الشعر يُقدّمها الرجلُ أمامَ حاجته »[1] ويقول في نفس المعنى : « خيرُ صناعات العرب أبياتٌ يُقدّمها الرجلُ بين يدي حاجتِه يستميل بها الكريم ويستعطف اللئيم »[2] .

وفي حياة عمر مواقف كثيرة تؤكد أن أقواله المأثورة عن الشعر كانت تنبع من تجربته الشخصية الخالصة ، ومن قِيَمه الإنسانية ومعرفته بأثر الشعر وفاعليته في النفوس الكريمة .

رَوَى ابن سلام عن أميةَ بنِ حَرثان الأشكُري أحدِ الشعراء المخضرَمين أن ابنه كِلابا وأخاه هاجرا إلى البصرة في خلافة عمر ، بعدما كبِر أميةُ وكُفَّ بصرُه . وترامى إلى عمر قول أمية :

لمَن شيخان قد نَشَدا كِلابا ... كتابَ الله إنْ حَفِظ الكتابا ؟

إذا هتفتْ حمامةُ بَطْنِ وادٍ ... على بَيْضاتِها ذكَرا كِلابا

تركتَ أباكَ مُرْعَشَةً يداهُ ... وأمَّكَ ما تُسيغُ لها شَرابا

وقوله :

سأستأوي على الفاروق رَبًّا ... له عَمَدَ الحجيجُ إلى سباقِ

إنِ الفاروقُ لم يَرْدُدْ كلاباً ... على شيخين هامُهما رِواقي[3]

فتأثر عمر بهذا الشعر ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري بإشخاص كلاب إلى

---

(١) العمدة : ج ١ ص : ٦٥ (٢) البيان والتبيين : ج ٢ ص : ١٠١

(٣) سأستأوي : سأستعين وسأستعدي ، والهام : جمع هامة الرأس : والرواق : الستر .

أبيه ، فلم يشعر أميةُ إلاّ ببـــابه يُقـْرَع ، فقال : إنْ كان كلابٌ في الناس حَيًّا إنه هو [1] .

ومن هذا القبيل قصتـُه مع الحطيئة . جاء في الأغاني أن يزيدَ بن أسلم روى عن أبيه قولـَه : « أرسل عمرُ إلى الحطيئة وأنا جالس عنده ، وقد كلـَّمه فيه عمرو بن العاص وغيرُه ، فأخرجه من السجن فأنشده قوله :

ماذا تقول لِأَفراخٍ بذي مَرَخٍ   زُغْبِ الحواصل لا ماءٌ ولا شجرُ ؟

ألقيتَ كاسِبَهم في قَعْرِ مُظلِمةٍ   فاغفرْ . عليك سلامُ اللهِ يا عمرُ

أنت الإمامُ الذي مِن بعد صاحبه   أَلقَى إليك مقاليدَ النُّهَى البشرُ

لم يُؤثروك بها إذ قدَّموكَ لهـا   لكنْ لأنفسهم كانت بك الإثَرُ [2]

فَامْنُنْ على صبيةٍ بالرمل مَسكَنُهم   بين الأباطح تغشاهم بها القِرَرُ [3]

أهلي فداؤكَ كم بيني وبينهمُ   مِنْ عُرْضِ داويةٍ تَعْمَى بها الخَبَرُ

قال فبكى عمر حين قال : « ماذا تقول لأفراخ بذي مرخ »، فقال عمرو بن العاص : ما أظلـَّتِ الخضراءُ ولا أقلـَّتِ الغبراء أعـدلَ من رجل يبكي على تركه الحطيئة ... » [4] .

فعمر يتأثر بشعر أمية الأشكري فيردُّ إليه ابنه ، وعمر الأبُ الرحيمُ الرقيقُ القلب لا يحتمل أن يرى أبناء الحطيئة الصغارَ الجياعَ يسألونه في براءة الطفولة عن سبب إلقاء عائلهم وكاسبهم في ظلمة السجن ، فيبكي ويعفو لهم

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام : ص: ٤٤ طبعة ليدن .

(٢) الإثـَر : جمع الإثرَة ، وهي بمعنى الأثـَرة والإيثار .

(٣) القِرَر : جمع القِرَّة وهي البرد .   (٤) الأغاني : ج ٢ ص: ١٠٧ .

عن أبيهم بعد أن أخذ عليه المواثيق بألاّ يعود إلى الهجاء .

فشعر الأشكري والحطيئة في نظر عمر من النوع الذي يقدمه الرجل بين يديْ حاجته استمالةً للكريم واستعطافاً للئيم . وقد استمال هذان الشاعران عمرَ بشعرهما .

*

والشعر الخالد خلود الدهر عند عمر هو ما ينبعث من عاطفة صادقة ، ويُطوِّعُ نفسَه في الوقت ذاته لخدمة الحق والخير ، كشعر زهير بن أبي سُلمى.

وزهير ، كما سنرى فيما بعد ، هو شاعر عمر المفضّل ، وتفضيلُه إياه على غيره لا يرجع إلى ما يمتاز به شعرُه من جودة وإتقان فحسب ، وإنما يرجع كذلك إلى الصوت الذي كان ينبعث من خلاله داعياً إلى السلام والوئام في مجتمع قَبَليٍّ جاهلي تتجاوب فيه كل أصوات الشعر إشادةً بالحرب وإذكاءً لسعيرها .

فزهير يعجب بموقف الحارث بن عوف وهَرِم بنِ سنان من حرب عبس وذبيان وتحمّلِها للدّيَات من أجل الصلح بين القبيلتين وإقرار السلام بينهما .

ولهذا يجد نفسه مدفوعاً إلى مدحهما على هذا الصنيع ، ومتخذاً من ذلك منفذاً إلى تصوير مآسي الحروب وويلاتها ، لعل حِدّتَها تفترُ في النفوس ويَحُلُّ محلَّها الإخاءُ والسلام . فمثل هذا النوع من الشعر في نظر عمر هو ما يبقي على الأيام ولا يُبليه الدهر .

قال عمر لابن زهير : « ما فعلت الحُلَلُ التي كساها هَرِمٌ أباك : قال : أبلاها الدهر . قال : لكنْ الحُلَلُ التي كساها أبوك هَرِماً لم يُبْلِها الدهرُ » [١].

وقال عمر لبعض ولَدِ هَرِم : « أنشِدْني بعضَ مدح زهيرٍ أباك ، فأنشده. فقال عمر : إنْ كان لَيُحسِنُ فيكم القولَ . قال : ونحن والله إنْ كُنا

---

(٢) الأغاني ج ١٠ ص : ٣٠٥ طبعة دار الكتب .

لَنُحسِنُ له العطاء . فقال : قد ذهب ما أعطيتموه وبَقِيَ ما أعطاكم »[1] .

*

وفي عهد الخلفاء الراشدين ظلت وفود العرب كما كانت في عهد الرسول تختلف إلى المدينة يؤمون أنديتها ومساجدها ، وهناك كانوا بدافع الحنين إلى الماضي يخوضون في أحاديث الشعر والشعراء .

وكثيراً ما كان يشاركهم في تجاذب الحديث الخلفاءُ أنفسُهم ، فقد يتحدث الخليفةُ مع الوفد القادم عليه عن شاعر له مؤانسةً وتكريماً . وأخصُّ الخلفاءِ في ذلك عمرُ بنُ الخطاب الذي عُرِف بذوقه الأدبيّ وعلمه بالشعر ومناحي النقد فيه .

تحدث مرةً مع وفد غطفان وقد نزل ببابه فقال : يا معشرَ غطفان ، أيُّ شعرائكم الذي يقول :

حلفتُ فلم أتركْ لنفسك ريبةً ... وليس وراءَ الله للمرء مذهبُ

لئن كنتَ قد بُلِّغتَ عنِّي خيانةً ... لَمُبلغكَ الواشي أغشُّ وأكذبُ

ولستَ بمُسْتَبْقٍ أخاً لا تَلُمُّهُ ... على شَعَثٍ أيُّ الرجالِ المهذَّبُ ؟

قالوا : النابغةُ يا أمير المؤمنين . قال : فأيُّكم الذي يقول :

فإنك كالليل الذي هو مُدركي ... وإنْ خِلتُ أنَّ المُنتأَى عنكَ واسعُ

خطاطيفُ حُجْنٌ في حبالٍ متينةٍ ... تمُدُّ بها أيدٍ إليكَ نوازعُ[2]

قالوا : النابغةُ . قال : فأيُّكم الذي يقول :

---

(1) الأغاني : ج ١٠ ص : ٣٠٤

(2) أنت في قدرتك عليّ كخطاطيف عُقْفٍ يُمدُّ بها، وأنا كدَلْوٍ تُمَدّ بتلك الخطاطيف

إلى ابنِ مُحَرِّقٍ أعملتُ نفسي   وراحلتي وقد هَدَتِ العيونُ
أتيتُك عارياً خَلَقاً ثيابي   على خوف تُظَنُّ بيَ الظنونُ
فألفيتُ الأمانة لم تخنها   كذلك كان نوحٌ لا يخونُ

قالوا : النابغةُ يا أمير المؤمنين . قال : هذا أشعرُ شعرائكم [1] .

فعمر في هذا الموقف مثلُه مثلُ نقاد عصر الرسول والعصر الجاهلي يُصدر حكماً غيرَ مُعلَّل . فالنابغة في رأيه أشعر غطَفان ، أي أشعر من شعراء عبس وذبيان من أمثال عنترة ، والربيع بن زياد ، والحطيئة ، وعروة بن الورد ، والشماخ بن ضِرار ، وابن ميّادة ، ممن يرجعون بأصلهم الى غطفان .

وقد جاء الخبر السابق في الأغاني مَرْوِيّاً عن الشّعبيّ بصورة أخرى مفادها أن عمر سأل عن أشعر الناس ، فلما لم يجبه أحد ، أنشد هو الأبيات السابقة مع شيء من التغيير بالزيادة والحذف ، ولما قيل له : إنها للنابغة ، قال : هو أشعر العرب [2] .

وإذا كان الحكم هنا قد جاء أيضاً مجرداً من التفسير والتعليل ، فإننا نفهم من الخبرين أن عمر كان معجباً بالنابغة الذبياني ، يفضله مرة على شعراء قومه من غطَفان خاصة ، ويفضله مرة أخرى على شعراء العرب أجمعين .

*

وكل أحكام عمر النقدية تشير إلى أنه كان يقدّر الشعر ويقيسه بمقياس الرسول . فالحسن منه في رأيه ، وكما كان عند الرسول ، هو ما وافق الحق ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه .

ومعنى ذلك أنه كان يفضل الشعر الذي يجمع بين القِيَم الأخلاقية والقيمة

(١) الأغاني : ج ١١ ص : ١٢ طبعة دار الكتب.   (٢) المرجع السابق : ج ١١ ص ٤

الأدبية ، فهو يفضّل من الشعر ما يقوم على عنصر الحق أو الصدق ، مع الجودة والإتقان في أسلوب الأداء أو الصنعة الشعرية .

أما الشعر الذي يدعو إلى عكس ذلك كشعر الهجاء والمناقضات والمفاخرات والغزل الإباحي ، فإنه كان ينهى عنه ويعاقب عليه ، لأن فيه عودةً إلى روح الجاهلية التي تأباها تعاليم الإسلام .

ومن أخبار عمر مع الشعراء الكثيرُ الذي يُعزّز ذلك . روى ابن سلام أن سُحَيْماً [1] عَبْدَ بني الحسحاس أنشد عمر بن الخطاب قوله :

عُمَيْرَةَ وَدِّعْ إن تجهَّزْتَ غاديا ... كفى الشيبُ والإسلامُ للمرء ناهيا

فقال عمر : لو قلت شعرَك كلَّه مثلَ هذا لأعطيتُك عليه . وذكر الجاحظ أن عمر قال له : لو قدّمتَ الإسلام على الشيب لأجزتك . فقال سُحَيم : ما سَعَرت . يريد ما شعرت ، جعل الشين سيناً [2] .

ولما أنشد سُحَيْم قوله :

وبِتْنا وسادانا الى عَلَجانَةٍ ... وحِقْفٍ تهاداه الرياحُ تهاديا [3]

(١) شاعر جاهلي من أصل حبشي ، كان ينطق الحاء هاء والشين سيناً، فيقول مثلاً «أهسنت» بدل « أحسنت » و « سعرت » بدل « شعرت » . عرضه صاحبه على عثمان بن عفان ليشتريه ورغّبه فيه قائلاً : إنه شاعر . فقال عثمان : « لا حاجة لي إليه ، فإنما حظ أهل العبد الشاعر إنْ شبع أنْ يشبّب بنسائهم ، وإن جاع أن يهجوهم » . وكان سحيم رقيق الشعر حلو الحواشي ، وفي سواده يقول :

أشعارُ عبدِ بنى الحسحاس قُمْنَ له ... عند الفخار مقامَ الأصل والورِقِ
إنْ كنتُ عبداً فنفسي حُرّةٌ كرَماً ... أو أسودَ اللون إني أبيضُ الخُلُقِ

(٢) البيان والتبيين : ج ١ ص : ٧١-٧٢ .

(٣) العلجانة : شجرة تنبت في الرمال . والحِقْف: حبل من الرمل محقوقف أي مُعوجّ، وتهاداه الرياح : تنقله من موضع الى موضع .

وهبَّتْ شِمالاً آخرَ الليل قِرَّةٌ ولا ثوب الاّ بُرْدُها وردائيا [1]

فما زال بُردِي طَيِّباً من ثيابها الى الحول حتى أنْهَجَ البُرْدُ باليا [2]

ويضيف الأغاني إلى ذلك بيتاً آخر هو :

تُوسِّدني كفًّا وتَثْني بمِعْصَمٍ عليَّ وتَحوِي رجلَها من ورائيا

فقال له عمر : ويلك إنك مقتول [3] . وقد قُتِل بسبب تشبيبه بنساء مولاه !

فعمر يُعجَب ببيت سُحيْم الأول ويَعِدُه بالعطاء لو كان كل شعره من هذا النوع المتأثر بروح الإسلام ، ولكنه في الوقت ذاته ينهره وينهاه عن التشبيب بالمحصَنات عند سماع الجزء الثاني من شعره ، ويتنبأ له بالقتل إنْ هو تمادى في هذا اللون من الشعر الذي يُزيِّن المعصية ويُغرِي بالفساد .

وأنشد رجلٌ عمرَ قول طرَفة :

فلولا ثلاثٌ هُنَّ من عيشة الفتى وجَدِّكَ لم أَحفِلْ متى قام عُوَّدي

فقال عمر : « لولا أن أسيرَ في سبيل الله ، وأضعَ جبهتي لله ، وأجالسَ أقواماً ينتقون أطايبَ الحديث كما ينتقون أطايبَ التمرة ، لم أبال أن أكون قدْ مِتُّ »[4].

فالخصال الثلاث التي كان يُحبُّها طرَفة ويعيش من أجلها ولا يبالي الموت إذا تحققت له قد فصَّلها في معلقته في الأبيات التالية لبيته الآنف الذكر.وهذه هي:

---

(١) القِرَّة والقُرّ : البرد .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام : ص ٤٣ طبعة ليدن ، وأنهج الثوب : أخلَق وبَلِيَ .

(٣) الأغاني : ج ٢٠ ص : ٦ (٤) البيان والتبيين : ج ٢ ص : ١٩٥

مباكرته الشراب قبل انتباه العواذل، وإغاثة المستغيث، والتمتع بالنساء.

وقد كان عمر يعلم هذه الخصال الثلاث التي يعنيها طرَفة، فقابلها بخصال ثلاث يحبها هو، وهذه هي: السير في سبيل الله، والصلاة له، ومجالسة أهل الأدب المُنتقَى وهنا نشعر أن عمر أمين مع نفسه ودينه، فهو يُنكر من القِيَم الجاهلية ما يتعارض والدين ويحاول أن يُبدِّلَها ويُحِلَّ محلَّها قِيَماً مستوحاة من الإسلام.

ويروي صاحب الأغاني: «أن عمر مرَّ بحسان وهو يُنشِد شعراً في مسجد الرسول فأخذ بأذنه وقال له أرُغاءً كرُغاء البعير؟ فقال حسان: دعنا عنك يا عمر! فوالله لَتعلم أني كنت أُنشِد في هـذا المسجد مَن هو خير منك فلا يُغَيِّرُ عليَّ! فصدَّقه عمر»[1]

فما معنى هذا؟ معناه أولاً أن عمر يصدق حساناً في أن الرسول كان يستمع إلى إنشاده في المسجد دون أن يُغَيِّر عليه، ولكنه وهو الحامل لعبء الدولة القائمة على الدين الجديد، كان يرى من واجبه أن يراقب الشعر مراقبة يقظة صارمة، حتى لا يكون ذريعةً لإحياء ما أماته الإسلام من نزعات الجاهلية.

وعلى هذا فهو إذْ قال ما قال لشاعر الرسول لم يكن ليُنكر عليه الإنشادَ في المسجد، وإنما كان يخشى أن ينزلق حسان بدافع الحنين إلى الماضي فيُنشِد من شعره القديم الذي يُجَدِّدُ الإحَنَ، ويُثير الحمية الجاهلية التي عمِل الإسلامُ للقضاء عليها.

ومما يؤكِّد ذلك ما جاء في الأغاني من نهي عمر للناس عن إنشاد شيء من مناقضة الأنصار ومشركي قريش. فقد رُوي عنه أنه قال: «في ذلك شتمُ الحي بالميت، وتجديدُ الضغائن، وقد هدم اللهُ أمرَ الجاهلية بما جاء في الإسلام»[2].

---

(١) الأغاني: ج ٤ ص: ١٤٤ طبعة دار الكتب. (٢) المرجع السابق ص: ١٤٠

ورغم ذلك قدم المدينة عبدُ الله بنُ الزِّبَعْرَى وضرارُ بنُ الخطاب الفهري لمناقضة حسان ، وقد أنشداه حتى فار وصار كالمرجل غضباً ، ثم انصرفا دون أن يستمعا إلى إنشاده . فخرج حسان حتى دخل على عمر ومعه بعض الصحابة فقصّ عليه قصتها وقصته .

فهدّأ عمر من ثائرته، وأرسل في أثرهما مَن استدعاهما، ثم دعا لهما بحسان وقال له : أنشدهما ، ولما فرغ حسان مما قال لهما وقف ، فقال له عمر : أنشداك في الخلاء وأنشدتهما في الملا [1] . وقال لهما عمر : إن شئتما فأقيما وإن شئتما فانصرفا، ثم قال لمن حضره :

« إني قد كنت نهيتكم أن تذكروا مما كان بين المسلمين والمشركين شيئاً دفعاً للتضاغن عنكم وبثّ القبيح فيما بينكم ، فأما إذ أبَوْا فاكتبوه واحتفظوا به . فدَوّنوا ذلك عندهم [2] » .

وقد امتدت رَقابة عمر على الشعر إلى المدح مخافة أن ينزلق الشاعر بدافع الحاجة أو أي دافع آخر فيمدحَ الناس بغير ما فيهم ، وبهـذا يأتي شعره غير مطابق للحق ، وفي ذلك ما فيه مِن كذبٍ على التاريخ ، وامتهانٍ لكرامة المادح ، واستعلاءٍ بغير حق للممدوح ، وشرّ على المجتمع ، كما كان الشأن مع الأعشى الذي « جعل الشعر متجراً يتجّر به نحو البلدان » .

رُوِي أن الحطيئة مدح أبا موسى الأشعري وقد جمع جيشاً للغزو بقصيدة منـها :

وَجَحْفَلٍ كبَهِيمِ الليل منتجِعٍ أرضَ العدو ببُؤْسٍ بعد إنعامِ [3]

---

(١) الملأ والملا مهموز ومقصور : الجماعة ، وقيل أشراف القوم ووجوههم ورؤسائهم ومقدّموهم ، الذين يُرجَع الى قولهم .

(٢) الأغاني ج ٤ ص: ١٤٠ - ١٤١ طبعة دار الكتب .

(٣) الجحفل : الجيش الكثير ، ولا يكون كذلك حتى يكون فيه خيل .

جمعتَ من عامرٍ فيه ومن جُشَمٍ ومن تميمٍ ومن سَامٍ ومن حَامِ
مستحقَبَاتٍ رَوَاياها جحافلَها يسمو بها أَشْعَرِيٌّ طرْفُه سامي

فوصله أبو موسى ، فكتب إليه عمر يلومه على ذلك، فكتب إليه أبو موسى: إني اشتريتُ عِرضي منه بها . فكتب إليه عمر : إن كان هذا هكذا ، وإنما فديتَ عِرضكَ من لسانه ولم تعطه للمدح والفخر ، فقد أحسنت [١] .

*

وإذا كانت رَقابةُ عمرَ على شعر المدح تصل إلى هذا الحد ، فإن رقابته على شعر الهجاء كانت أشدّ وأقسى ، لأنه بطبيعته يقوم على النَّيل من أخلاق المهجوّ ومروءته وعِرضه ، وهذا نوع من القذف يُحرّمه الإسلام ويعاقب عليه .

أتاه الزّبْرِقان بن بدر بالحطيئة وقال له : إنه هجاني . قال عمر : وما قال لك : قال : قال لي :

دَعِ المكارمَ لا ترحلْ لبُغْيتِها واقعدْ فإنك أنت الطاعمُ الكَاسِي

فقال له عمر الذي يقف هنا موقف القاضي لا موقف الأديب العليم بالشعر : ما أسمع هجاء ولكنها معاتبة . فقال الزّبرقان : أوما تبلغُ مروءتي إلاّ أن آكل وألبس ؟ فاستدعى عمرُ حساناً وسأله ، فقال : لم يهجُه ولكنه سَلَحَ عليه ، أي هجاه وأفحش في هجائه .

ولم يكن عمر يجهل موضع الهجاء في هذا البيت ، ولكنه كره أن يتعرّض لشأنه فبعث إلى شاعر مثله [٢] .

---

(١) الأغاني : ج ٢ ص : ١٧٥ - ١٧٦ . مستحقبات : من استحقب الشيء إذا احتمله من خلف ، والروايا : الإبل التي تحمل أزوادهم وأثقالهم .
(٢) كتاب العقد الفريد : ج ٥ ص : ٣١٨ .

ويقال إنه سأل لبيداً عن ذلك فقال : ما يسرني أن لحِقني من هـذا الشعر ما لحِقَه وإنّ لي حُمْرَ النَّعَم [1]. وقد أخذ عمر القاضي في هذه القضية بشهادة حسان ولبيد على أن البيت مؤلم فأمر بحبس الحطيئة ، وقـال : يا خبيث ! لأشغلنَّك عن أعراض المسلمين .

وقد ظل في محبسه حتى تشفّع له عمرو بن العاص فأخرجه عمر وقال له : « إياك وهجاءَ الناس ! قال : إذن يموت عيالي جوعاً ، هذا مكسبي ومنـه معاشي . قال عمر : فإياك والمُقذِعَ من القول ! قال : وما المقذع ؟ قال : أن تخاير بين الناس فتقولَ فلانٌ خير من فلان وآلُ فلان خير من آل فلان . قال : فأنت والله أهجَى مني . فقال عمر : والله لولا أن تكون سُنَّةً لقطعت لسانك ... » [2] . ويقال : إن عمر لما أطلق الحطيئة أراد أن يؤكّد عليـه الحجة فاشترى منه أعراض المسلمين جميعاً بثلاثة آلاف درهم ، فقـال الحطيئة في ذلك :

وأخذتَ أطراف الكلام فلم تدع ... شَتماً يضرُّ ولا مديحاً ينفع
وحميتني عِرضَ اللئيم فلم يخف ... ذَمِّي وأصبح آمناً لا يفزع [3]

وقد كفَّ الحطيئة عن الهجاء طوال حياة عمر ، ثم عاد الى الهجاء بعد وفاته .

وأمرُ عمرَ بحبس الحطيئة بعد سماع رأي اثنين من فحول الشعراء المعاصرين له فيه تقديرٌ ضمني لشعره واعتراف بقوةِ معانيه وشدةِ إيلامها للنفوس .

ويذكر ابن رشيق القيرواني أن بني العَجلان رهط ابن مقبل كانوا يفخرون بهذا الاسم لقصة كانت لصاحبه في تعجيل قِرَى الأضياف ، إلى أن هجاهم النجاشيُّ الشاعرُ فضَجروا منه ، وسُبُّوا به ، فاستعدَوْا عليه عمر وقالوا :

---

(١) النَّعَم : الإبل خاصة ، وحمر النَّعَم : أصبر الإبل على الهواجر .
(٢) الأغاني : ج ٢ ص : ١٨٦ دار الكتب . (٣) المرجع السابق : ج٢ ص: ١٨٩

يا أمير المؤمنين ، إنه هجانا ، فقال : وما قال فيكم ؟ فأنشدوه :

إذا اللهُ عادى أهلَ لُؤْمٍ ورِقَّةٍ   فعادى بني عَجلانَ رهطَ ابنِ مُقبِلِ

فقال عمر : إنه دعا عليكم ولعله لا يجاب . وفي رواية ابن عبد ربه أن عمر قال : هذا رجل دعا ، فإن كان مظلوماً استجيب له ، وإن لم يكن مظلوماً لم يُستَجب له . قالوا : فإنه قد قال بعد هذا :

قبيلتُه لا يغدرون بذمةٍ   ولا يظلمون الناسَ حبَّةَ خَرْدَلِ

فقال عمر : ليتني من هؤلاء ، أو قال : ليت آل الخطاب كذلك . قالوا : فإنه قد قال بعد هذا :

ولا يَرِدُونَ الماء إلاَّ عَشِيَّةً   إذا صدَر الوُرَّادُ عن كل مَنْهَل

فقال عمر : ذلك أقلُّ للسكاك ، يعني الزحام . قالوا : فإنه قال بعد هذا :

تعاف الكلابُ الضارياتُ لحومَهم   وتأكل من كعب بن عَوْفٍ ونَهْشَلِ

فقال عمر : كفى ضياعاً بمن تأكل الكلاب لحمه . قالوا فإنه يقول بعد هذا :

وما سُمِّيَ العَجلانَ إلاّ لقولهم
خُذِ القَعْبَ واحلُبْ أيها العبدُ واعجَلِ (1)

فقال عمر : سيدُ القوم خادمهم ، وكلُّنا عبيد الله . ما أرى بهذا بأساً فقالوا : يا أمير المؤمنين هجانا . فقال عمر : ما أسمع ذلك . فقالوا : فاسأل حسان بن ثابت ، فسأله فقال : ما هجاهم ولكن سلح عليهم . فلما قال حسان

(1) القعب : إناء ضخم كالقصعة .

ما قال سجن عمرُ النجاشيَّ ، وقيل : إنه حدَّه [1] .

وهذا النوع من الشعر له باطن وظاهر ، فباطنه ما عناه الشاعر وهو هجاء بني العَجلان ، وما فهموه هم منه أيضاً ، وظاهرُه ما عناه عمر ، وقد كان أبصر الناس بما قال النجاشي ، ولكنه أراد أن يدرأ الحدود بالشُّبُهات .

وروى الجاحظ تعليق العائشيّ على موقف عمر من الهجاء والهجائين فقال : « كان عمر بن الخطاب – رحمه الله – أعلمَ الناس بالشعر ، ولكنه كان إذا ابتُلِيَ بالحُكْم بين النجاشيّ والعَجلانيّ ، وبين الحطيئة والزّبرقان ، كره أن يتعرّض للشعراء ، واستشهد للفريقين رجالاً مثلَ حسان بن ثابت وغيرِه ، ممن تهون عليه سِبالُهم ، فإذا سَمِع كلامَهم حَكم بما يعلم ، وكان الذي ظهر من حُكْم ذلك الشاعر مُقنعاً للفريقين ، ويكون هو قد تخلّص بعِرضِه سليماً . فلما رآه مَن لا عِلم له يسأل هذا وهذا ظنّ أنّ ذلك لجهله بما يعرف غيرُه »[2].

وما من شك في أن كلّ مواقف عمر بالنسبة لشعراء المدح والهجاء كانت مواقفَ الملتزم بمقياس الرسول ، هذا المقياس الذي يقول : « إنما الشعر كلام مؤلف فما وافق الحق منه فهو حسَنٌ ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه » .

وبالإضافة إلى ذلك كان موقفه من الشعر عامة موقفاً إيجابياً ، بمعنى أنه حاول جاهداً وبشتى الوسائل أن يُطوّرَ مفهوم الشعر ، وأن يتجه به اتجاهاً جديداً يفصله عن ماضيه الجاهلي ويصله بحاضره الإسلامي ، فيستلهمَ تعاليم الإسلام ويدعُوَ لها ، وبذلك يكون من عوامل البناء لا الهدم في المجتمع الجديد .

*

ومن أقوال عمر عن الشعر والشعراء يتضح أنه كان معجباً بشاعرين ، هما

---

(١) كتاب العمدة : ج ١ ص : ٣٧ — ٣٨ ، وانظر كذلك كتاب العِقد الفريد : ج ٥ ص : ٣١٨ ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ص : ١٨٧ .

(٢) البيان والتبيين : ج ١ ص : ٢٣٩

النابغة الذبياني وزهير بن أبي سُلْمَى ، وإذا كان إعجابه بالنابغة قد دعاه للحُكم عليه مرة بأنه أشعر شعراء غطَفان ، وأخرى بأنه أشعر العرب ، فإن إعجابه بزهير كان أشد وأعظم .

رَوَى أبو الفرج الأصبهاني عن ابن عباس قوله : « خرجت مع عمر في أول غزوة غزاها ، فقال لي ذات ليلة : يا ابن عباس ، أنشِدني لشاعر الشعراء . قلت : ومَن هو يا أمير المؤمنين ؟ قال : ابن أبي سُلْمَى . قلت : وبِمَ صار كذلك ؟ قال : لأنه لا يتتّبع حوشيّ الكلام ، ولا يعاظِل في المنطق ، ولا يقول إلاّ ما يعرف ، ولا يمدح الرجل إلاّ بما يكون فيه . أليس الذي يقول :

إذا ابتدرَتْ قيسُ بنُ عَيْلانَ غايةً ... مِن المجد مَن يَسْبِقْ إليها يُسَوَّدِ [1]

سبقتَ إليها كلَّ طَلْقٍ مُبَرِّزٍ ... سَبُوقٍ إلى الغاياتِ غيرِ مُزَنَّدِ [2]

كفعلِ جوادٍ يَسبقُ الخيلَ عفوُه الـ ... سّراعَ وإن يَجْهَدْ ويَجْهَدنَ يَبْعُدِ [3]

ولو كان حمدٌ يُخْلِدُ الناسَ لم تمت ... ولكنَّ حمدَ الناس ليس بمُخْلِدِ !

أنشِدْني له ، فأنشدته حتى برَق الفجر . فقال : حسبك الآن . اقرأ القرآن. قلت : وما أقرأ ؟ قال : اقرأ الواقعة ، فقرأتها ونزل فأذّن وصلّى » [4] .

ولعل هذا الخبرَ هو أهمُّ الأخبار الأدبية المَرْوِيّةِ عن عمر لما تضمنه من دلالات كثيرة .

---

(١) يقول : إذا تسابقت قبيلة قيس بن عيلان لإدراك غاية من المجد تسوّد من سبق إليها كنت السابق إليها.

(٢) يقال : رجل طلق اليدين إذا كان معطاء ، وظاهر أنه يريد أن يصف الجواد بأنه ماض يجود بما عنده من العَدْو . والمبرّز : الذي سبق الناس إلى الكرم والخير . والمزنّد هنا : البخيل أو اللئيم .

(٣) عفو الجواد هنا : جَرْيُه . (٤) الأغاني : ج ١٠ ص ٢٩٠ - ٢٩١ طبعة دار الكتب .

فهو أولاً يدل أكثر من أي خبر آخر على شخصية عمر الأدبية ومدى حبه للشعر وتذوُّقِه للجيد منـه ، والنزوع للاستماع إليه ، وآيةُ ذلك طلبه من ابن عباس أن يُنشِده من شعر زهير شاعر الشعراء ، وأن يظل ابن عباس يُنشِده منه حتى مطلع الفجر ، فيعدلَ عن الشعر إلى القرآن والصلاة .

والنقد بهذا الخبر يدخل على يد عمر في طور جديد لا عهد لنا به من قبل ، فكل الأحكام النقدية التي مرّت بنا منذ العصر الجاهلي حتى الآن كانت أحكاماً غيرَ مُعلّلة . أما في هذا الخبر فنحن إزاء حكم أدبيٍّ مُفصّل يَقضي فيه عمرُ بأفضلية زهير على سائر الشعراء ، مع ذكر الأسباب الفنية التي بنى عليها حكمه .

وهنا نسأل: ما هي الأسباب أو الاعتبارات الفنية التي جعلت زهيراً شاعرَ الشعراء في رأي عمر ؟ بعض هذه الأسباب أو الاعتبـــارات الفنية يرجع إلى الصياغة اللفظية وبعضها الآخر يرجع إلى المعاني .

فالصفات أو الخصائص التي تميزت بها صياغة زهير اللفظية عند عمر على وجه التحديد هي : تَجنُّبُ حوشي الكلام ، وتجنُّبُ المعاظلة .

وحُوشيُّ الكلام ووحشيُّه هو الذي لا يتكرر في كلام العرب كثيراً ، فإذا وَرَدَ ورد مستهجناً ، أي هو الغريب المستهجَن من الألفاظ ، والذي إذا ورد في الكلام أخلَّ بفصاحته .

أما المعاظلة في الكلام فهي إركاب بعض ألفاظه رقاب بعض ، أو هي شدة تعليقِ الشاعر ألفاظ البيت بعضها ببعض ، ومداخلةِ لفظة من أجل لفظـــة أخرى تشبهها أو تجانسها ، وإن اختل المعنى بعض الاختلال .

وخلو شعر زهير أولاً من الغريب المستهجَن ، يعني أنـه كان بذوقه الأدبي يتخيّر ألفاظه وينتقيها ، وخلوه ثانياً من المعاظلة ، يعني أنه كان ينأى بشعره عند التعقيد اللفظي الذي يؤدي بدوره إلى التعقيد المعنويّ .

وكأن عمر الناقد إذ يذكر حُوشيَّ الكلام والمعاظلة كان يريد أن يقرر أن

صفاتِ الألفاظ ونظمَ الكلام وتلاحمَ أجزائه من الأمور التي ينبغي أخذها في الاعتبار عند الحكم على الشعر وتقديره .

وقد التفت رجال البلاغة فيما بعد إلى ذلك وعَدّوا غرابة الألفاظ والمعاظلة من العيوب التي تُخِلُّ بفصاحة الكلام ، وأنه بمقدار خُلُوّه أو عدمِ خُلُوّه من هذين العيبين تكون درجته من البلاغة والفصاحة .

فالجاحظ مثلاً متأثر برأي عمر في ذلك ، فهو يرى أن فصاحة الكلام إنما هي في بُعده عن الغرابة والحوشية ، وفي تلاحم أجزائه وائتلافِ ألفاظه ، حتى كأنّ البيتَ بأسره كلمةٌ واحدة ، وحتى كأنّ الكلمةَ بأسرها حرفٌ واحد [1] .

ومن قَبْل الجاحظ قال حماد الراوية : « وأجودُ الشعر ما رأيتَه متلاحمَ الأجزاء ، سهلَ المخارج ، فتعلم بذلك أنه أُفرغ إفراغاً واحداً ، وسُبِكَ سبكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان » [2] .

هذا ما يرجع إلى صياغة زهير اللفظية أو خصائص ألفاظه عند عمر ، ومنها يُفهم مذهبه الأدبي في إيثار الألفاظ السهلة المألوفة والصور القريبة ، والعبارات الدالة على صدق التجربة ، إلى جانب تقدير الشعر المعبر عن القِيَم الجديدة التي جاء بها الإسلام ودعا إلى إقرارها . أما ما يرجع إلى معانيه فصفتان أيضاً : إحداهما أنه لا يقول إلاّ ما يعرف ، والثانية أنه لا يمدح الرجل إلاّ بما يكون فيه .

ومعنى ذلك أن عنصر الصدق أصل من أصول النقد والحكم عند عمر الذي كان يرى أن الشعر وسيلة من وسائل التهذيب الخلقي والسمو بالنفس ، ولهذا لا يجوز أن يقوم على الكذب والهوى والتملّق ، وإلا كان ضررُه أكثرَ من نفعه مهما علت درجته من البلاغة .

وهنا يبدو تأثُّرُ عمرَ والتزامُه برأي الرسول القائل بأن أحسن الشعر ما

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص : ٦٥ - ٦٧ (٢) المرجع السابق

وافق الحق ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه . والواقع أن الروح الإسلامية كانت عميقة في نفس عمر ، وأنه حاول أن يطبع الحياة الجديدة بطابعها، وأن يكون المعبِّرَ عن هذه الروح في مجال الأدب والنقد الأدبي ، كما كان المعبِّرَ عنها في مجال السياسة والحكم .

ومما أثر عنه أيضاً ويدل على إعجابه بشعر زهير ومَن على شاكلته ممن يتوخَّوْن الحق والصدق في قولهم ما رواه الجاحظ . فقد رَوَى عن العائشيّ قوله : « ولقد أنشدوا عمرَ شعراً لزهير – وكان لشعره مُقدِّماً – فلما انتَهوْا إلى قوله :

وإنَّ الحقَّ مَقطعُهُ ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءُ[1]

قال عمرُ كالمتعجِّب مِن علمه بالحقوق وتفصيلِه بينها ، وإقامتِه أقسامَها :

وإنَّ الحقَّ مَقطعُهُ ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءُ

يردد البيت من التعجب .

وأنشدوه قصيدة عَبْدَةَ بنِ الطبيب الطويلةَ التي على اللام ، فلما بلغ المنشد إلى قوله :

والمرءُ ساعٍ لشيءٍ ليس يدركهُ والعيشُ شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

قال عمر متعجباً : « والعيشُ شُحٌ وإشفاقٌ وتأميلُ » يُعجِّبُهم من حُسْنِ ما قسَّم وفصَّل .

وأنشدوه قصيدة أبي قيس بن الأسلت التي على العين ، وهو ساكت ، فلما انتهى المنشد إلى قوله :

---

(١) النفار : أن يتنافروا إلى حاكم يحكم بينهم ، والجلاء بالكسر : البينة والشهود .

الكَيْسُ والقوَّةُ خيرٌ مِنَ الـ إشفـاقِ والفَهَّةِ والهَاعِ [1]

أعاد عمر البيت وقال :

الكَيْسُ والقوَّةُ خيرٌ مِنَ الـ إشفـاقِ والفَهَّةِ والهَـاع

وجعل عمر يرد البيت ويتعجب منه [2] .

وبالنسبة لبيت زهير هنا وهو :

وإنَّ الحقَّ مَقطعُهُ ثلاثٌ يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءُ

يقول أبو الهلال العسكري : « وكان عمر رضي الله عنه يتعجب من صحة هذه القسمة ، ويقول : لو أدركت زهيراً لولَّيْته القضاء لمعرفته » [3] .

والتقسيم الذي أشار إليه هنا كلٌّ من الجاحظ وأبي هلال العسكريّ يُقصَد به استيفاءُ المتكلم أقسامَ المعنى الذي هو آخذ فيه . وقد عدّه البلاغيون المتأخرون فنّاً من فنون البديع المعنوي .

وهذا التقسيم الذي وقف أمامه عمر يردّده معجباً به وأن لم يُفصح عنه ، له من غير شك دلالته . فهو يدلُّ على ذوقه الأدبي ، وعلمه بالعناصر البلاغية التي تُكسب الكلام حسناً ، كما أنه يرى في هذا التقسيم تحقُّقَ مبدأ من مبادئه في النقد ، وهو أن يصدر الشاعر فيما يقول عن علم وتجربة . ولعل ذلك هو تفسير قوله : « لو أدركت زهيراً لولَّيْتُه القضاء لمعرفته » .

*

وقد أسهم الخلفاء الراشدون الآخرون في الكلام عن الشعر ونقده ، وإن

---

(١) الكيس : العقل ، والفهّة : العِيّ والسقطة والجهلة ، والهاع : شدة الحرص .

(٢) البيان والتبيين : ج١ ص : ٢٤٠ - ٢٤١ (٣) كتاب الصناعتين : ٣٤٢

ظلَّ عمرُ أرجحَهم كِفةً في ذلك ، ولكنهم جميعاً متأثرون برأي الرسول في أن أحسن الشعر ما وافق الحق . ومنهم مَن اقتدى بعمر فأصدر أحكامه على بعض الشعراء مُعلَّلة ، وإن لم يبلغ في ذلك مبلغه ولم يتوسّع توسُّعَه في التفسير والتفصيل .

قال ابن رشيق القيرواني : « وكان أبو بكر رضي الله عنه يُقدّم النابغة ويقول : هو أحسنُهم شعراً ، وأعذبُهم بحراً ، وأبعدُهم قعْراً » [1] .

فأبو بكر في كلمته هذه يفاضل بين النابغة وغيره من الشعراء ، ثم يحكم له بأنه أحسنهم شعراً من حيث المعاني . وقد علّل لحكمه بأن النابغة في نظره يستقي معانيَه من مَعين عَذْبٍ سائغ ، فتتقبلها النفوس تقبُّلاً حسناً ، كما أنه في معانيه بعيد العمق والغَوْر ، وأنه يظلُّ يُرَوّي فيما يغمض منها حتى يستخرجَها استخراجاً واضحاً .

وعثمان بن عفان يعجب بشعر زهير لما يتجلى فيه من الصدق . رَوَى الأغاني عن أبي زياد الكلابي : « أُنشِد عثمانُ بنُ عفان قولَ زهير :

ومهما تكن عند امرىءٍ من خليقةٍ وإن خالها تَخفَى على الناس تُعلَمِ

فقال : أحسن زهير وصدق . لو أن رجلاً دخل بيتاً في جوف بيت لَتَحدّث به الناس . قال : وقال النبي صلى الله عليه وسلم : لا تعملْ عملاً تكره أن يُتَحدّث عنك به » [2] .

فالصدق الذي أعجب به عثمانُ في بيت زهير يشير إلى أن مقياس عثمان في الحُكْم على الشعر هو مقياس الصدق في القول وهنا يظهر تأثره كسائر أصحابه برأي الرسول المستمد من تعاليم الإسلام ، والذي حاولوا بمقتضاه أن يتجهوا بالشعر اتجاهاً إسلامياً ، بحيث يعبر عن كل ما هو حق وصدق .

---

(١) العمدة : ج ١ ص : ٧٨ (٢) الأغاني : ج : ٩ ص : ٣١٢ طبعة دار مكتبة الحياة

كذلك نجد الإمام عليّ كلمة نقدية تَنمُّ عن ذوقه الأدبي ، وتعبّر عن رأيه في السابق من الشعراء المتقدمين .

فقد حُكِيَ عنه أنه قال : « لو أن الشعراء المتقدمين ضمّهم زمانٌ واحد ونُصِبتْ لهم رايةٌ فجرَوْا معاً عَلِمْنا مَن السابق منهم ، وإذا لم يكن فالذي لم يَقُلْ لرغبة ولا لرهبة ، فقيل : ومن هو ؟ فقال : الكِنْدي . قيل : ولمَ ؟ قال : لأني رأيتُه أحسنَهم نادرة ، وأسبقَهم بادرة »[1] .

وقد رُوِيَتْ كلمةُ الإمام علي هذه بصورة أخرى مع اختلاف في اللفظ واتفاق في المضمون . فابن رشيق القيرواني يروي عن عبد الكريم أنه قال : « وامرؤ القيس يمانيّ النسب نزاريّ الدار والمنشأ ، وفضّله عليٌّ رضي الله عنه بأن قال : رأيتُه أحسنَهم نادرة وأسبقَهم بادرة ، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة »[2] .

ومن هاتين الكلمتين نرى أن الإمامَ عليّاً لا يجري مع النقاد الذين يُصدرون الأحكام النقدية غير معلّلةٍ ، ويقفون عند القول بأن هذا أو ذاك هو أشعر العرب أو أشعر الناس .

وإنما أساسُ الحكم عنده هو الموازنة بين الشعراء لمعرفة السابق منهم . وسوف نرى فيما بعدُ كيف أن بعض النقاد اعتمد هذه الموازنة منهجاً له في النقد ، كالحَسَن بن بشر الآمديّ في الموازنة بين أبي تمام والبحتري .

فإذا لم تتحقق الموازنة بين الشعراء على النحو المقترح ، فالسابق منهم في نظره هو الذي لم يقل الشعر لرغبة أو رهبة كامرىء القيس الكندي .

ومعنى ذلك أن الإمام عليّاً يرى أن الشاعر الذي ينبعث إلى القول بدافع الرغبة أو الرهبة قد ينزلق إلى الكذب تحقيقاً لرغبته أيّاً كانت ، أو دَرْءاً لخطر متوقع يرهبه ويخشاه .

---

(١) العمدة : ج ١ ص : ٢٧ - ٢٨ (٢) المرجع السابق ٧٧ص

من ذلك يتضح أن الشاعر المقدَّم عنده هو من تجرّد عن الهوى والخوف وكان شعره وليد المشاعر الصادقة . وهنا نرى تأثر الإمام عليّ أيضاً بمقياس الرسول للشعر ، هذا المقياس القائم على أساس أن ما وافق الحق منه فهو حسن وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه .

وشيء آخر يتمثل في موقف الإمام عليّ من امرىء القيس ، فهو إذْ أصدر حكمه عليه بأنه أفضل الشعراء المتقدمين لم يكتف بحُكم غير معلّل ، كما كان الشأن بالنسبة لنقّاد الجاهلية وعصر الرسول ، وإنما نراه قد تأثر بمنهاج عمر في النقد ، فأردف حُكمه بأسبابه وحيثياته ، وذلك حيث قال : « رأيته - امرَأَ القيس - أحسنَهم نادرة وأسبقَهم بادرة ، وأنه لم يقل لرغبة ولا لرهبة » .

فأسباب الحكم التي قضَى بها لامرىء القيس على غيره من الشعراء المتقدمين تتمثل في أنه أحسنُهم نادرةً وأسبقُهم بادرةً ، أي أنه أحسنُهم التقاطاً لجواهر المعاني ، وأسبقُهم بديهةً وابتكاراً في طرائق الشعر .

وقد قال العلماء بالشعر في تفسير كلمة الإمام عليّ السابقة : « إن امرأ القيس لم يتقدم الشعراءَ لأنه قال ما لم يقولوا ، ولكنه سبق إلى أشياء فاستحسنها الشعراء واتبعوه فيها ، لأنه - قيل - أولُ من لطّفَ المعانيَ ، واستوقف على الطلول ، ووصف النساء بالظّباء والمَها [1] والبَيْض [2] ، وشبّه الخيل بالعِقبان [3] والعِصِيّ ، وفرّقَ بين النسيب وما سواه من القصيد ، وقرّبَ

(١) المها : جمع المهاة ، وهي البِلّورة والدّرّة وبقرة الوحش ، فإذا شُبهت المرأة بالمهاة في البياض ، فإنما يُعنَى بها البِلّوْرة والدّرّة ، وإذا شُبهت بها في العينين ، فإنما يُعنَى بها بقرة الوحش .

(٢) البيض : جمع البيضة ، وبها تشبه المرأة في صفاء اللون ونقائه إذا كانت تحت الطائر ، وبالصيانة والستر ، لأن الطائر يصون بيضه ويحضنه .

(٣) العِقبان : جمع العُقاب، من الطيور الكاسرة ، وهي طائر خفيف الجناح سريع الطيران، وبها يضرب المثل في العزة والمنعة ، فيقال « أمنع من عُقاب الجو » .

مآخذ الكلام ، فقيّد الأوابد [1] ، وأجاد الاستعارة والتشبيه » [2].

وبقية أسباب حكمه بأفضلية امرىء القيس أنه لم يقل ما قال من الشعر لرغبة أو لرهبة ، وإنما قاله بوحي من مشاعره الصادقه . وهذا بدوره يعني أنه كسائر الخلفاء الراشدين ، متأثر برأي الرسول في أن عنصر الصدق ينبغي أن يكون أصلاً من أصول النقد التي تؤخذ في الاعتبار عند الحكم على الشعر وتقديره.

*

هذا هو موقف الخلفاء الراشدين من النقد الأدبي ومدى إسهامهم في حركته. أما عن موقف الشعراء في عصرهم فإننا لا نجد لهم نشاطاً ملحوظاً في ميدان النقد . وكل ما وصل إلينا من ذلك قد أُثر عن الحطيئة ولبيد ، وهو يتمثل في بعض ملاحظات نقدية مجملة ، وبعض أحكام أدبية غير معلّلة تذكرنا بالنقد الجاهلي ، وتُعتبر امتداداً له .

فالحطيئة ، وهو من فحول الشعراء المخضرمين ، معروف بتصرّفه وإجادته في جميع فنون الشعر من المديح والهجاء والفخر والنسيب ، وقد أُثر عنه قوله : « خيرُ الشعر الحَوْلِيُّ المُحَكَّك » [3] .

وهذا يعني أنّ جيدَ الشعر في رأيه هو ما رَوّى فيه صاحبه وهذّبه وثقّفه ، ووقف عند كل بيت قاله ، وأعاد فيه النظر حتى يُخرجَ أبياتَ القصيدة كلّها مستوية في الجودة .

ولمّا كان الحطيئة راوية زهير وآلِ زهير ، فقد تأثّر بلا شك في مفهومه للشعر باتجاه أستاذه زهير وصناعته الشعرية ، حتى لنرى الأصمعيّ فيما بعد يقول

---

(١) الأوابد : الوحوش . وفرس قيد الأوابد : يعني أنه لسرعة إدراكه الصيد من الوحوش يكون كالقيد لها ، لأنه لا يمكّنها الفوتَ منه ، لأن المقيّد غير متمكن من الفوت والهرب .

(٢) العمدة : ج ١ ص ٧٧

(٣) البيان والتبيين : ج ٢ ص ١٣

عنهما : « زهير بن أبي سُلمى والحطيئة وأشباههما عبيدُ الشعر »[1] .

وقد كان كعب بن زهير ممن تأثّروا باتجاه والده في تنقيح الشعر وتهذيبه . جاء في الأغاني أن الحطيئة قال لكعب : « قد علمتَ روايتي لكم أهلَ البيت وانقطاعي إليكم ، وقد ذهب الفحول غيري وغيرَك . فلو قلتَ شعراً تذكر فيه نفسَك وتضعُني موضعاً بعدك ، فإن الناس لأشعاركم أرْوَى وإليها أسرع . فقال كعب :

فمَن للقوافي شانَها مَن يحوكها ⁂ إذا ما ثَوَى كعبٌ وفَوَّزَ جَرْوَلُ ؟[2]

كفيتُكَ لا تَلقَى من الناس واحداً ⁂ تَنخَّلَ منها مثلَ ما نتنخَّلُ[3]

نقول فلا نَعْيا بشيء نقوله ⁂ ومِن قائليها مَن يُسيء ويعملُ[4]

نثقِّفُها حتى تلين مُتونُها ⁂ فيَقصُر عنها كلُّ ما يُتَمَثَّلُ[5]

فكلمةُ الحطيئة : « خير الشعر الحَوْلِيُّ المُحَكَّك » وأبياتُ كعب السابقة كل منهما تحمل في ثناياها ملاحظة نقدية مجملة تشير إلى الاتجاه الذي ابتدعه زهير في صناعة الشعر . وأعني بذلك الاتجاهَ إلى تنقيح الشعر وتثقيفه ، مع النظر في متونه وأعطافه من حيث الفصاحةُ والجزالة ، وبَسْطُ المعنى

---

(١) البيان والتبيين : ج ٢ ص ١٣

(٢) شانها : من شان الشيءَ يشينه ، أي عابه . والمعنى جاء بالقوافي شائنة مَعيبة ، وفوّزَ جَرول : أي مات ، وجرول يعني الحطيئة .

(٣) تنخّل منها ، أي اصطفى واختار من القوافي مثل ما نفعل أنا والحطيئة .

(٤) مَن يُسيء ويعمل : يريد من يتصنّع ويتكلّف .

(٥) الأغاني : ج ٢ ص ٨٥ ، ويُتمثّل : يضرب مثلاً ، يقال : تمثّل هذا البيت وتمثّل به : ضربه مثلاً .

وإبرازُه ، وإتقـــانُ بنيةِ الشعر ، وإحكامُ عِقدِ القوافي ، وتلاحمُ الكلام بعضِه ببعض .

فالشعراء الذين يأخذون بمذهب زهير هذا يجمعون إلى شاعريتهم ضرباً من المعرفة بمواقع الكلام ومواطن القوة والضعف والحسن والقبح فيه ، مع إدراك الفروق الدقيقة بين لفظة ولفظة ، وصورة وأخرى .

فممارسة الشعر على هذا النحو عند مدرسة زهير تجعل من الحطيئة ناقداً إلى جانب كونه شاعراً ، وإن كان قليلاً ما وصل إلينا من ملاحظاته النقدية .

كذلك نرى الحطيئةَ الناقدَ يُصدِر على بعض الشعراء المتقدمين أحكاماً غير مُعَلَّلة على طريقة نقاد الجاهلية .

جاء في الأغاني أن أبا عبيدة قال : « بينا سعيد بن العاص يُمَشّي النـــاس بالمدينة والناس يخرجون أولاً أولاً إذْ نُظِر على بساطه إلى رجل قبيح المنظر ، رَثّ الهيئة جالس مع أصحاب سَمَره ، فذهب الشُرَطُ يقيمونه ، فأبى أن يقوم ، وحانت من سعيد التفاتة فقال : دَعوا الرجل ، فتركوه ، وخاضوا في أحاديث العرب وأشعارها ملياً ؛ فقال لهم الحطيئة : واللهِ ما أصبتم جيِّد الشعر ولا شاعر العرب . فقال له سعيد : أتعرف من ذلك شيئاً ؟ قال : نعم . قال : فمن أشعر العرب ؟ قال : الذي يقول :

لا أُعدُّ الإقتارَ عُدْماً ولكنْ فَقْدُ مَن قد رُزِئتُهُ الإعدامُ

وأنشدها حتى أتى عليها ، فقال له : مَن يقولها؟ قال ، أبو دُؤَاد الإيادي ، قال : ثم مَن ؟ قال الذي يقول :

أَفلِحْ بما شئتَ فقد يُدْرَكُ بال جَهْلِ وقد يُخَدَّعُ الأريبُ[1]

(١) أفْلِحْ : فُزْ واظفرْ . والمعنى عِشْ بما شئت من عقل وحمق فقد يُرزق الأحمق ويُحرم العاقل .

ثم أنشدها حتى فرغ منها ، قال : ومن يقولها ؟ قال عَبِيد بن الأبرص ، قال : ثم من ؟ قال : والله لَحسبك بي عند رغبة أو رهبة إذا رفعت إحدى رِجْليّ على الأخرى ، ثم عَوَيْتُ في أثر القوافي عُواء الفصيل [1] الصادي . قال : ومن أنت ؟ قال : الحطيئة ... الخ » [2] .

فأشعرُ العرب الذي ينطق بالجيد من الشعر في رأي الحطيئة هو أبو دُؤَاد الإيادي ، ثم يليه في الرتبة عَبِيدُ بن الأبرص فالحطيئة نفسُه ، وهذا كما نرى حُكْم مجرد من التفسير والتعليل يذكرنا بالنقد الجاهلي .

ولعل تقديمَ الحطيئة لأبي دُؤَاد وتفضيلَه على غيره من الشعراء راجع إلى تأثره بفَنّه الشعريّ وأخْذِه منه . نفهم ذلك من كلام ابن قتيبة في ترجمة أبي دُؤَاد ، فقد قال : « ومما سَبَق إليه فأُخِذ منه قوله :

ترى جارَنا آمِناً وَسْطَنا ... يَروح بِعَقْدٍ وَثيقِ النَّسَبْ
إذا ما عَقَدْنا له ذِمَّةً ... شَدَدْنا العِناجَ وعَقْدَ الكَرَبْ [3]

أخذه الحطيئة فقال :

قومٌ أذا عَقَدُوا عَقداً لجارِهِمُ ... شَدُّوا العِناجَ وشَدُّوا فَوْقَه الكَرَبا [4]

ولكنه في خبر آخر يجعل نفسه أشعر الناس . روى حماد عن أبيه أنه قال: « بلغني عن عبد الرحمن بن أبي بَكْرةَ أنه قال : لَقِيتُ الحطيئة بذات

---

(1) الفصيل : هو ما يُفصل عن أمه بالفطام من أولاد الإبل .
(2) الأغاني : ج ٢ ص ١٦٩ طبعة دار الكتب .
(3) العِناج : خيط أو سير يُشَدّ في أسفل الدّلو ثم يُشَد في عُروتها وإحدى آذانها . والكَرَب : الحبل الذي يُشد على الدّلو بعد المنين ، وهو الحبل الأول ، فإذا انقطع المنين بقي الكَرَب . وفي اللسان : « وهذه أمثال ضربها لإيفائهم بالعهد .
(4) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ج ٢ ص ٢٤٠ .

عِرق [1] فقلت : يا أبا مُلَيْكة مَن أشعر الناس ؟ فأخرج لسانه كأنه لسان الحية ثم قال : هذا إذا طَمِع » [2] .

وفي خبر ثالث يضع الحطيئةُ زهيراً والنابغة في المرتبة الأولى بين الشعراء المتقدمين ، وذلك إذ سأله ابن عباس: «يا أبا مُلَيكةَ من أشعر الناس؟قال : أمِن الماضين أم مِن الباقين ؟ قال : من الماضين ، قال : الذي يقول :

ومَن يجعل المعروف من دونه عِرضه يَفِرْهُ ومَن لا يتقِ الشَّتْمَ يُشْتَمَ

وما بدونه الذي يقول :

ولستَ بمستبقٍ أخاً لا تَلُمُّه على شَعَثٍ ، أيُّ الرجالِ المهذَّبُ ؟

ولكن الضراعة أفسدتْه كما أفسدت جَرْولاً - يعني نفسه - والله يابنَ عمّ رسولِ الله لولا الطمعُ والجشَعُ لكنتُ أشعرَ الماضين . فأما الباقون فلا تشك أني أشعرُهم وأصْرَدُهم سهماً إذا رَميت » [3] .

فالحطيئة في نظر نفسه هنا أشعرُ الماضين من حيث الصناعةُ والفن ولكنّ الطمعَ والجشع ينزلان بقيمة شعره ، وهذا يعني أن نقاد الشعر القدامى كانوا يُدخلون القِيَم الأخلاقية في ميزان النقد . أما عن المقارنة بينه وبين معاصريه فقد قضى لنفسه بأنه أشعرهم .

وفي الوصية التي طُلِب إليه أن يوصي بها لما حضرته الوفاة نراه يحكم لأربعة من الشعراء : ثلاثة من معاصريه وشاعر من الماضين .

جاء في الأغاني : « لما حضرت الحطيئةَ الوفاةُ اجتمع إليه قومُه فقالوا :

---

(١) ذات عرق : مكان، وهو الحد بين نجد وتهامة .
(٢) الأغاني : ج ٢ ص ٢٨٠ دار الكتب .
(٣) الأغاني : ج٢ ص ١٩٣ ، وأصردُهم سهما : أنفذهم سهما .

يا أبا مُلَيكةَ أوْصِ . فقال : وَيْلٌ للشعر من راويةِ السوء . قالوا : أوْصِ رحمك الله يا حُطَيْءُ . قال : من الذي يقول :

إذا أَنْبَضَ الرامون عنها تَرَنَّمَتْ ترَنُّمَ ثَكْلَى أوْجَعَتْها الجنائزُ ؟[1]

قالوا : الشمَّاخ . قال: أبلغوا غطَفانَ أنه أشعر العرب. قالوا : وَيْحَكَ! أهذه وصية ؟ أوْصِ بما ينفعك ، قال : أبلغوا أهل ضابىء « البرجمي » أنه شاعر حيث يقول :

لكل جديدٍ لَذَّةٌ غيرَ أنني رأيتُ جديدَ الموتِ غيرَ لذيذِ

قالوا : أوْصِ وَيْحَكَ بما ينفعك ! قال أبلغوا أهل امرىء القيس أنه أشعر العرب حيث يقول :

فيا لك مِن ليل كأنَّ نجومَه بكل مُغارِ الفَتْلِ شُدَّتْ بيَذْبُلِ[2]

قالوا : اتقِ اللهَ ودَعْ عنك هذا . قال أبلغوا الأنصار أن صاحبَهم -يعني حسان بن ثابت - أشعرُ العرب حيث يقول :

يُغْشَوْنَ حتى ما تَهِرُّ كِلابُهم لا يَسألون عن السَّوادِ المُقبِلِ

قالوا : هذا لا يُغْني عنك شيئاً ، فقُلْ غيرَ ما أنت فيه ، فقال :

الشعرُ صَعبٌ وطويلٌ سُلَّمُهْ

إذا ارتقى فيه الذي لا يعلمهْ

---

(١) أنبض القوسَ : جذب وترها لتصوت .

(٢) مغار الفتل : محكمه ، وهو اسم مفعول من أغار الحبل إغارة : شدّ فتله . ويذبل : جبل لباهلة .

زلّتْ به إلى الحضيض قَدَمُهْ
يريد أن يُعربَهُ ... فيُعْجِمُهْ[1]

قالوا : هذا مِثلُ الذي كنت فيه ... »[2]

ففي هذا الجزء من وصية الحطيئة التي تعكس أخلاقه وعقيدته وطبيعته الساخرة ، نراه يُصدِر أحكاماً غير معلّلة لأربعة من الشعراء، فكل من الشمّاخ وامرِئ القيس وحسان بن ثابت أشعرُ العرب . أما ضابئ البُرجُمِي فشاعر فقط .

ولعله عند الحُكْم لهم بما حكَم كان متأثراً بالحالة النفسية المسيطرة عليه ساعة احتضاره ، ذلك لأن الأبيات التي استشهد بها على شاعرية هؤلاء الشعراء تتحدث عن ترنُّم الثكلى التي أوجعتها الجنائز ، وعن الموت غير اللذيذ،والليل الذي لا ينقضي لطوله وثقله وبطئه .

وتجدر الإشارة إلى أن أحكام الحطيئة هنا ليست أحكاماً كلية مطلقة ، وإنما هي في الواقع أحكام جزئية نسبية . فالشمّاخ عنده أشعر العرب في جزئية بعينها وهي الصورة التي صوّر بها قوسه ، وضابئ شاعر في تصويره للموت ، وامرؤ القيس أشعر العرب في تعبيره عن تطاول الليل وثقله وبطء حركته في إحساس مَن يقضيه ساهداً مِن مرض أو نحوه .

فكلٌ من هؤلاء قد بلغ في التعبير عن معناه درجة من الجودة والإتقان والإبداع استحقّ عليها أن يلقّبَه الحطيئة بأنه شاعر أو أشعر العرب .

هذا عن الحطيئة،أما عن لبيد بن ربيعة العامريّ الشاعر المخضرم الذي عاش

---

(١) فيعجمه : الفاء هنا للاستئناف ، والمعنى فإذا هو يعجمه ولا يصح نصبُ الفعل هنا عطفاً على « يعربه » لأنه لا يريد إعجامه .
(٢) الأغاني : ج ٢ ص ١٩٥ — ١٩٦

إلى أول خلافة معاوية فقد عبّر عن رأيه في بعض الشعراء المتقدمين في حكم مجمل غير مُعلّل على غرار مـــا كان يفعل النابغةُ وغيرُه من نُقّاد الشعر في الجاهلية .

رَوَى الأغاني عن عبد الملك بن عُمَير قال : « أخبرني مَن أرسله القُرّاءُ الأشراف إلى لبيد بن ربيعة وهو في المسجد ، وفي يده مِحجَنٌ فقلت : يا أبا عَقيل ، إخوانُك يقرئونك السلام ويقولون : أيُّ العرب أشعر : قال : الملك الضِّلِيلُ ذو القروح . فردُّوني إليه وقالوا : ومَن ذو القروح ؟ قـال : امرُؤُ القيس . فأعادوني إليه وقالوا : ثم من ؟ قال : الغلامُ ابنُ ثمانيَ عَشْرةَ سنة . فردُّوني إليه فقلت : ومن هو ؟ فقال : طَرَفة . فردوُني إليه فقلت : ثم من ؟ قال : صاحب المِحْجَن[1] حيث يقول :

إنَّ تَقْوَى ربِّنا خيرُ نَفَلْ ... وبإذن الله رَيْثي والعَجَلْ[2]

أحمدُ اللهَ ولا نِدَّ له ... بيديه الخيرُ ما شاء فَعَلْ

مَن هداه سُبُلَ الخيرِ اهتدى ... ناعِمَ البال ومَن شاء أَضَلّ

يعني نفسه . ثم قال : استغفر الله »[3] .

فأشعرُ العرب عند لبيد ثلاثة ، هم على الترتيب من حيث الشاعرية : امرُؤ القيس ، وطرَفةُ بنُ العبد ، ولبيد نفسه . وهـذا كما نرى حكم مجمل لم يتطرّق فيه لبيد إلى تفسير أو تعليل ، ولم يكن القوم بحاجة إلى ذلك ، وحسبُهم اقتناعاً أن يَصدُرَ هذا الحكم من شاعر عليم بالشعر وأقدار الشعراء .

ولعلنا نلاحظ أن لبيداً إذْ عدّ نفسَه واحداً من أشعر العرب لم يستشهد

---

(١) المحجن : عصا مُعَقّفة الرأس كالصولجان .

(٢) النفَل : الغنيمة والهبة . والريث: الإبطاء .

(٣) الأغاني : ج ١٥ ص ٣٧٢

بشيء من شعره الجاهليّ مع أن فيه ما يرجّح الأبياتَ التي استشهد بها من حيث الجودةُ ومتانةُ الصياغة ، ولكنه آثر الاستشهاد بهذه الأبيات التي تعبر عن تأثُّره بروح الإسلام وقِيَمه الجديدة .

وكأنه وهو الشاعر المسلم قد أصبح يفضل الشعر الخالص من نزعات الجاهلية وشوائبها ، الشعرَ الذي يستمدُّ مضمونه من تعاليم الإسلام ، ويتمشّى دائماً مع منطق الحق والصدق .

*

تلك كانت حالةالنقد عند الخلفاء الراشدين وعند بعض معاصريهم من الشعراء. وبالإضافة إلى ذلك كان هناك المجالس الأدبية التي يعقدها أهل الثقافة في المسجد وما إليه ، حيث يستمعون إلى تناشد الأشعار ، ويخوضون في أحاديث الأدب والشعر والنقد والمفاضلات بين الشعراء من جاهليين ومخضرمين. ومن أمثلة ذلك مجلسُ حسانِ بن ثابت وغيرِه من الشخصيات الأدبية .

ولعل عبدَالله بنَ عباس هو أعظمُ شخصيات هذه الفترة علماً وأدباً ، ولم يكن علمُه بالشعر وتذوقُه للأدب بأقل من فقهه في الدين وتأويل القرآن الذي كان يقال عنه فيه : نعم ترجمان القرآن ابنُ عباس .

وبسبب تبحُّره في العلم والدين والأدب كان يُلقّب بِحَبْرِ العرب ، وحَبْرِ هذه الأمة ، وربانيّ هذه الأمة ، وعالِم الإسلام .

قال عنه عمر بن الخطاب : « ذاكم فتى الكهول ، له لسان سَئُول ، وقلب عَقُول » . وروَى الصّولي في أماليه عن مسروقٍ قولَه : « كنت إذا رأيت ابن عباس قلت : أجملُ الناس ، فإذا نطق قلت : أفصحُ الناس ، فإذا تحدّث قلت : أعلمُ الناس » .

ومن الكلمات المضيئة التي تصور شخصيته أبلغ تصوير وتلخص خلاله خير تلخيص تلك الكلمة التي أُثِرت عن عبدالله بن بُرَيْدَة وهي : « شَتَمَ رجلٌ

ابنُ عباس فقال : إنك تشتمني وفيَّ ثلاث : إني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأحبُّه ، ولعلّي لا أقاضي إليه أبداً ، وإني لأسمع بالغَيْث يصيب البلاد من بُلدان المسلمين فأفرحُ به ، وما لي بها سائمة ولا راعية ، وإني لآتي على آية من كتاب الله فَوَدِدْتُ أن المسلمين كلَّهم يعلمون منها مثلَ ما أعلم » .

ورَوَى ابنُ عائشة عن أبيه قولَه : « نظر الحطيئة الى ابن عباس في مجلس عمر وقد قَرَعَ [١] بكلامه ، فقال : من هذا الذي علا الناسَ بقوله ؟ فقالوا : هذا ابنُ عباس . فأنشأ يقول :

إني وجدتُ بيانَ المرءِ نافلةً ... تُهدَى له ووجدتُ العِيَّ كالصَّمَمِ [٢]

وكان لحسان وجماعة عند عثمانَ أو غيرِه من الأمراء حاجةٌ فطلبوها مستعينين ببعض الصحابة وكانت حاجةً صعبة شديدة ، فاعتلَّ عليهم فراجعوه إلى أن عَذَرُوه ، وقاموا إلى ابن عباس فلم يزل يراجعه بكلام جامع حتى سَدَّ عليه كل حجة ، فلم يَرَ بُدًّا من أن يقضيَ حاجة حسانٍ وجماعتِه . وقد مدحه حسانٌ على هذا الموقف ، وأثنى على بلاغته وقوة منطقه بقوله :

إذا قال لم يترك مقالاً لقائلٍ ... بمُلتَقَطاتٍ لا تَرَى بينها فَصْلا [٣]

كفَى وشفَى ما في النفوس، فلم يَدَعْ ... لذي إرْبَةٍ في القول جِدًّا ولا هَزْلا [٤]

---

(١) قرع بكلامه : أي كفّ سامعيه وكبحهم عن الكلام ببلاغته .

(٢) النافلة : الغنيمة والهبة .

(٣) الملتقطات : المتخيّرات . وقوله : لا ترى بينها فصلا ، أراد أنه لا يلجأ في أثناء كلامه إلى حشو الألفاظ ، وقوله للمصغي إليه : أفهمت ، أو غير ذلك .

(٤) الإربة : الحاجة .

سَمَوْتَ الى العليا بغير مَشَقَّةٍ   فنِلْتَ ذُراهالا دَنِيًّا ولا وَغْلا [1]

تلك نبذة عن ابن عباس تكشف لنا عن شخصيته العلمية والأدبية ، وقد مرّ بنا من قبل نبأ خروجه مع عمر في أول غزوة غزاها وكيف أنه ظل ذات ليلة يُنشده من شعر زهير حتى بَرَق الفجر .

ولأنه كان من ألمع شخصيات العصر علماً وأدباً فإن الناس كانوا يختلفون إلى مجلسه ، فمنهم مَن يستفتيه في أمور الدين ومشكلات تأويل كتاب الله ، ومنهم من يستفتيه في الأدب والشعر والنقد .

ولما كان النقد موضع اهتمامنا هنا فإن دوره فيه لم يكن دورَ النــاقد الذي يوازن بين الشعراء ويقضي بينهم بمقدار ما كان دورَ المُوَجِّه .

أجل كان دورُه دورَ المشارك مع الخلفاء الراشدين في توجيه الشعراء وجهة إسلامية تباعد بينهم وبين ماضيهم الشعري الجاهلي ، وتقارب تدريجياً بينهم وبين حاضرهم الإسلامي ، كي يستلهموا تعــاليم الإسلام السمحة ، ويتخذوا من شعرهم أداة للتعبير عن قِيَمه الأخلاقية ومُثُلِه العليا .

ومن الشعراء مَن كانيقصد مجلسَ ابن عباس بُغْية الاسترشاد برأيه فيما يصح وما لا يصح له أن ينظم فيه من الموضوعات .

جاء في الأغاني أن عبدالله بن عيّاش المنتوف قال : « بينا ابنُ عباس جالس في مجلس رسول الله ﷺ بعدما كُفَّ بَصَرُه وحـــوله ناسٌ من قريش ، إذ أقبل أعرابيٌّ يَخْطِر [2] وعليه مِطْرَفٌ [3] وجُبَّةٌ وعِمامةُ خَزٍّ ، حتى

(١) الوغل : النذل ، الساقط ، وانظر ترجمة عبدالله بن عباس في كتاب الإصابة في تمييز الصحابة لابن حَجَر العسقلاني : ج ٢ ص ٣٢٢ – ٣٢٦

(٢) يخطِر : يمشي متبختراً .

(٣) المطرف بكسر الميم وضمها : ثوب مربّع ، من خزّ له أعلام .

سلَّم على القوم فردُّوا عليه السلام ، قال :يا ابنَ عَمِّ رسولِ الله أفْتِني. قال: فماذا ؟ قال : أتخاف عليَّ جُناحاً إن ظلمني رجلٌ فظلمتُه وشتَمني فشتمته وقصَّر بي فقصَّرتُ به ؟ فقال : العفوُ خير ، ومَن انتصر فلا جُناحَ عليه .

فقال : يا ابنَ عَمِّ رسولِ الله،أرأيتَ امرَأً أتاني فوعدني وغرَّني ومَنَّاني ثم أخلفَني واستخفَّ بحُرْمَتي ، أيسَعُني أن أهجوه ؟ قال : لا يَصلح الهجاءُ، لا بُدَّ لك من أن تَهْجُوَ غيرَه من عِشيرته فتظلمَ مَن لم يظلمْك ، وتشتُمَ مَن لم يشتُمْك ، وتبغي على مَن لم يَبْغِ عليك ، والبَغيُ مَرْتَعٌ وخيم ، وفي العفو ما قد علمتَ من الفضل ، قال : صدقتَ وبَرِرْتَ . فلم يَنشَبْ أن أقبل عبدُ الرحمن بنُ سَيْحان المحاربيّ حليفُ قريش ، فلما رأى الأعرابيَّ أجلَّه وأعظمَه وألطفَ في مسألته ، وقال : قرَّبَ اللهُ دارَك يا أبا مُلَيْكة .

فقال ابن عباس : أجَرْوَلٌ؟ قال : جَرول ، فإذا هو الحطيئة ، فقال ابنُ عباس : لله أنت ! أيُّ مِرْدَى قِذافٍ [1] ،وذائدٍ عن عشيرة ، ومُثْنٍ بعارفةٍ تُؤْتاها أنت يا أبا مُلَيْكة ! والله لو كنتَ عركت [2] بجنبك بعضَ ما كَرِهْتَ من أمر الزِّبرقان كان خيراً لك . ولقد ظلمت من قومه مَن لم يظلمك ، وشتمتَ مَن لم يشتمْك .

فقال : إني والله بهم يا أبا العباس [3] لعالم . قال : ما أنت بأعلم بهم من غيرك ، قال : بلى والله ! يرحمك الله ! ثم أنشأ يقول :

---

(١) المِردَى في الأصل : الحجر تَرمي به ، وأكثر ما يقال في الحجر الثقيل . والقِذاف : ما أطقت حمله بيدك ورميته . ومنه قيل للرجل الشجاع : إنه لمردى حروب .

(٢) عرك بجنبه ما كان من صاحبه : احتمله . وأنشدوا على هذا :

إذا أنت لم تعرك بجنبك بعضَ ما ... يُريب من الأدنى رماك الأباعد

(٣) كنية عبدالله بن عباس.

أنا ابنُ بَجْدَتِهِم[1] علماً وتجربةً ... فسَلْ بسَعدٍ تجدْني أعلمَ الناسِ

سعدُ بنُ زيد كثيرٌ إنْ عَدَدْتَهمُ ... ورأسُ سعدِ بنِ زيد آلُ شمّاسِ

والزِّبْرقانُ ذُناباهمْ وشرُّهمُ ... ليس الذُّنابى أبا العباس كالراسِ[2]

فقال ابن عباس : أقسمتُ عليك ألاّ تقولَ إلاّ خيراً ، قال: أفعل..»[3]

من هـــذا الخبر نرى كيف أن نفوس الشعراء بفعل الإسلام بدأت تهتز وتضطرب بين قديم موروث من الصعب التخلي عنه وجديدٍ مكتسب يخالفه في كل قِيَمه ويحاول أن ينسخَه ويحتلّ مكانه .

فهذا الحطيئة زعيمُ الهجاء في عصره قد أخذ ضميرُه يستيقظ ويراجعه بشأن هجاء الناس وقَذْفِهم ، فلا يملك في حيرته هذه إلاّ أن يَفزَع إلى ابن عباس يعرضُ عليه قضيته ويلتمسُ منه الفتوى التي يرجو أن تضع نهاية لحيرتِه في هذا الأمر .

ومع دفاعه عن وجهة نظره وتبرير موقفـه ، فإنَّ الفَتـوَى تأتيه من ابن عباس بأن الهجـــاء لا يصلح ، إذ لا مفر للشاعر فيه من أن يظلم من لم يظلمه ، ويبغيَ على من لم يبغ عليه ، والظلم وخيم ، والعفو أفضل .

ولا يفوت ابنَ عباس أن يُلقي عليه درساً في الحلم وضبط النفس، فيذكّرَه بهجائه للزّبرقان بنِ بدر ، وأنه لو احتمله لكان خيراً له ولما انزلق في هجائه إلى هجاء قومه ظلماً .

ويردعليه الحطيئة بأبيات يُفهم منها أنه قادر على هجاء من شاء دونالتعرض

---

(١) البجدة : دخلة الأمر وباطنه . ومن الأمثال : « أنا ابن بجدتها » يقال ذلك للعالم بالشيء المتقن له .

(٢) الذُّنابى: الذَّنَب . (٣) الأغاني : ج ٢ ص ١٩٢ – ١٩٣ طبعة دار الكتب

لقومه ، ولكنّ ابنَ عباس لا يقتنع بذلك عملاً بقول الرسول : « من حام حول الحِمَى يوشك أن يقع فيــه » ، ويقسم عليه ألاّ يقولَ إلاّ خيراً ، فيَعِدَ الحطيئة بذلك ..

فابنُ عباس كما يُفهَم من هذا الخبر ومما سبق أن ذكرنا عنه يقف من الشعر موقف المُوَجِّه الذي يحاول أن يعدل به إلى الطريق السَّوِيّ .

وما من شك في أنّ المجالسَ التي كانت تعقد للشعراء بالمسجد كمجلس حسان بن ثابت وأنّ أحاديثَ الشعر التي كانت تثار في مجلس ابن عباس وغيره من أهل الثقافة الأدبية كان لها أثرها أيضاً في نقد الشعر وتوجيهه ، وتبديلِ نظرات الشعراء ، وتعميق مفهوم الشعر الجديد في نفوسهم ، هذا المفهومِ المستَمدّ من روح الإسلام وأخلاقياته ، والقائمِ على أساس أن الشعر ينبغي أن يكون أداةً للبنــاء لا الهدم وللخير لا للشر .

*

وبعد ... فهذه صورة لحالة النقد وما كان عليه في عصر الخلفاء الراشدين ، وهي صورة تظهرنا على أهم رجال النقد في هــذه الفترة ، كما تظهرنا على مدى المساهمة التي أسهموا بها في نهضة النقد وتوسيع أفقه وتوجيهه .

والخلفاء الراشدون الذين ألقيت إليهم مقــاليدُ الحكم الإسلامي وامتدت يدهم بالإصلاح إلى كل مناحي الحياة في الدولة الجديدة كانوا من أهل البلاغــة والفصاحة ، ولهذا أولَوْا الحياة الأدبية في عهدهم اهتماماً خاصاً .

ولم يكن هذا الاهتمام مقصوراً على الأدب والشعر والنقد ، وإنما تجاوز ذلك إلى الاهتمام باللغة العربية عامة ، والعملِ على بقائها سليمة من اللحن والشوائب .

وقد رأينا كيف أنهم جميعاً كانوا يتذوقون الشعر ، ويتمثلون به ، ويدعون إلى روايته ، ويُعجبون بالجيد منه ، وينهجون في نقده منهج الرسول القائم على أساس أن الحسَنَ منه ما وافق الحق وما لم يوافق الحق فلا خير فيه .

كذلك عرفنا في شيء من التفصيل أن عمر كان أكثر الخلفاء بل أكثر رجال عصره أثراً في ميدان النقد الأدبي والتأثير فيه حتى ليعد بحق الناقدَ الأول في هذه الفترة. وقد أهّله لذلك استعدادُه الأدبي الفطري، وعلمُه بالشعر وتذوّقه له.

ومما سبق أن ذكرناه عنه يمكننا القول بأن المساهمة التي أسهم بها في تطوير النقد وتوجيهه تتمثّل في موقفه من الشعر، ورقابته عليه، والأحكام النقدية التي أُثِرت عنه.

أما عن موقفه من الشعر فقد كان موقفاً إيجابياً حاول فيه جاهداً وبشتى الوسائل أن يُطوّر مفهوم الشعر وأن يتجه به اتجاهاً جديداً يَفصِله عن ماضيه الجاهلي ويصله بالحاضر الإسلاميّ بكل قِيَمِه.

كذلك كانت مراقبته للشعر مراقبةً يقظة صارمة، فهو يستجيد منه ما يدعو إلى مكارم الأخلاق، ويشجعه ويُثيب عليه، كما يحاسب ويعاقب على كل شعر يؤدي إلى إحياء ما أماته الإسلام من نزعات الجاهلية.

ولعل أهم ما يُحسب لعمر في ميدان النقد هو أنه كان أول مَن عَرَض للأحكام النقدية بالتعليل والتفسير. ففي الخبر الذي طلب فيه عمرُ من ابن عباس أن يُنشِده من شعر زهير، نراه يحكم لزهير بأنه شاعر الشعراء، ثم يَشفع حكمه بأسبابه في رأيه، وهي «أنه كان لا يتتّبع حُوشيّ الكلام، ولا يعاظل في المنطق، ولا يقول إلاّ ما يعرف، ولا يمدح الرجل إلا بما فيه».

فهنا يُصدِر عمرُ حكماً أدبياً مُفصّلاً يُفضّل فيه زهيراً ويُعليه على جميع الشعراء، لاعتبارات يَرجع بعضُها إلى الصياغة اللفظية كما يَرجع بعضُها الآخر إلى المضمون.

ومعنى هذا أنه كان يؤثر من الألفاظ كلّ ما هو سهلٌ مألوف، ومن الصور كلّ ما كانت قريبةَ المنال بَيّنةَ الملامح، ومن العبارات كلّ ما أبرز المعنى ودَلّ على صدق التجربة.

ولا يفوتنا أن نشير هنا إلى أنه كان يعتبر عنصر الصدق في الشعر أصلاً من أصول النقد والحكم ، وهذا يُفهَم استنتاجاً من قوله في تفضيل زهير : « إنه كان لا يمدح الرجل إلاّ بما هو فيه » .

وقد جارى عمرَ بعضُ الخلفاء الآخرين في تطوير الأحكام النقدية من أحكام غير معلّلة إلى أحكام معلّلة ، ولكنهم لم يتوسّعوا في هذا الاتجاه توسُّعه .

أما عن مشاركة شعراء هذا العهد ومعاصريهم من أهل الثقافة الأدبية في النقد الأدبي ، فقد اقتصر نشاطهم في هذا الميدان على أحكام نقدية مُجملَة .

فإذا استثنينا المحاولات التي بذلها عمرُ وجاراه فيه إلى حدٍّ ما بعضُ الخلفاء ومعهم ابنُ عباس في توجيه الشعر وجهة إسلامية يكون فيها المعبّرَ عن قِيَمِه الأخلاقية ومُثُلِه العليا .

وإذا استثنينا كذلك المساهمة التي أسهم بها عمرُ في سبيل تطور النقد الأدبي وفَتْحِ آفاقٍ جديدةٍ أمامه ، فإن ما بَقِيَ بعد ذلك مما استَجدّ من نقد في عصر الراشدين لا يختلف كثيراً عما كان عليه النقد في عصر الرسول والعصر الجاهلي . . .





النقـد في العصـر الأمـوي

- النقد في الحجاز
- النقد في العراق والشام

الفصل الخامس

تمهيد تاريخي

يُطلق العصرُ الأموي على الفترة التي تبدأ بخلافة معاوية سنة ٤١ هـ وتنتهي بغلبة العباسيين على بني أمية وانتزاعهم الخلافة منهم سنة ١٣٢هـ

ولعل من المفيد هنا أن نشير إجمالاً إلى أسباب قيام الدولة الأموية ، لما كان لذلك من آثار بعيدة المدى في جميع جوانب الحياة الإسلامية من دينية وعقلية وسياسية واجتماعية واقتصادية .

لقد جاء الإسلام ليُخرج برسالته السماوية الناس كافة من الظلمات إلى النور ؛ من ظلمات الجاهلية الوثنية وعبادة الأوثان والأصنام إلى نور الإيمان والاعتقاد بإله واحد .

وكان من آثار الإسلام على العرب أنْ عَمِل على وحدتهم وجَمْع كلمتهم ،وأنْ دعاهم إلى التخلـّي عن كل أنواع العصبية لمنافاتها لتعاليم الإسلام وروحه .

وقد نجح الإسلام إلى حد كبير في القضاء على روح العصبية البغيضة ،وظلت هذه الروح إلى عهد الشيخين أبي بكر وعمر مكبوتة ، لأخذهما الأمورَ بالعدل والحزم من ناحية ، ولانشغال العرب بالجهاد والفتوح الإسلامية من ناحية أخرى.

وحدث عندما ولِيَ عثمانُ الخلافة أنِ استعان بآل بيته فحكموا الناس بعصبيتهم الأموية لا بقوميتهم العربية ، مما أغضب نفوس العرب وأدى إلى تحرُّك الفتنة الكبرى التي انتهت بمقتل عثمان .

عندئذ نشأ الخلاف بين المسلمين على الخلافة ، وظهرت الحزبية ، ثم تطور الخلاف إلى حرب بين معاوية والإمام عليٍّ قُتِل فيها الإمامُ وظفِر معاويةُ بالخلافة . وكان من نتائج ذلك أنِ انقسم العرب أحزاباً وشيعاً بعضُها للدين وبعضُها للدنيا .

ففي الشام حزب يشايع بني أمية ويعمل على تثبيت دعائم دولتهم ، وفي الحجاز حزب يؤيد عبدَالله بنَ الزبير ، وفي العراق حزب يشايع العلويين ويعمل لاسترداد حقهم في خلافة الرسول . وإلى جانب ذلك هناك حزب الهاشميين ، وكذلك حزب الخوارج الذي ينظر إلى الخلافة نظرة ديمقراطية تقوم على الشورَى ، وينكر ما عداه من الأحزاب ويكفّر زعماءها .

وبين هذه الأحزاب كانت تتوزّع أهواءُ المسلمين وآراؤهم إلاّ طائفة قليلة التزمت الحياد ، وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى الله ، وهم طائفة المرجئة .

لم تكن الخلافة الإسلامية قبل معاوية وقفاً على بيت دون سائر البيوت ، بل كانت خلافة شورية . ولكنه لم يكد يتولاّها حتى راح يحوّلُها إلى ملك عضود يُتَوارث ، على غرار مُلْك الأكاسرة والقياصرة في الفرس والروم .

وقد جرى معاويةُ في تثبيت مُلْكه على سياسة التفرقة بين القبائل العربية ، وعلى إحياء روح العصبية وإرجاعها إلى ما كانت عليه قبل الإسلام . ولم يقتصر الأمر هنا على بعث العصبية القبلية التي أدّتْ إلى انقسام العرب وتناحرهم في جميع الأقطار الإسلامية ، وإنما تجاوزها إلى العصبية العنصرية بين العرب والعجم !

وبإحياء هذه العصبيات وتشجيعها وإفساح السبيل أمامهـا تقوّض الحاجز الذي أقامه الإسلام دون المُثُل الجاهلية لمنعها والحد من شرورها وآثامهـا . ومن جديد أخذت العصبيات التي بُعِثت من مرقدها تُطفِيء ظمأها ، وتتسلل إلى المجتمع الجديد لتفرض نفسَهـا عليه ، وتزاحمَ الروحَ الإسلامية والمُثُل الإسلامية التي ظل الرسول ومن بعده خلفاؤه ولا سيما عمر يعملون جاهدين على تحقيقها وإقرار سلطانها وحياطة المجتمع الإسلامي بها .

وإلى جانب إحياء العصبيات اصطنع معاوية مع معارضيه سياسةَ الدهاء والعطاء والإغضاء والحزم حتى استقر له الأمر طوال خلافته إلاّ مِن جهـة الخوارج . ولكن سرعان ما ثار خصومُه بعد موته ، فزعزعوا قوائم ملكه حتى تداركه مروانُ وبنوه فسندوه وثبّتوه .

وفي خلافة عبد الملك بن مروان اشتدت المعارضة، وكثر المطالبون بالخلافة، وامتد سلطانُ العرب ، وزاد دخل الدولة ، واكتمل شباب الجيل الذي نشأ في الإسلام ، وبدأ يستمتع بخيرات الفتوح وجمال الحضارة ، ويختلط بأجناس شتى من النـاس ، ويساهم بسنانه ولسانه في الفتن والثورات التي واجهت الدولة الأموية .

*

كل ذلك كان له أثره في نهضة الأدب العربي الإسلامي إلى أبعد غاية ، وقـد زحم الشعر الأموي بنفسه في هذه الحياة المضطربة الصاخبة بالعصبيات والأحزاب المتحاربة والأهواء المتضاربة .

وما كان للشعر أن يقف بمعزل عن كل هذه المثيرات للقول ، بل على العكس كان مؤرّخَ هذه الفتن ، ولسانَ الأحزاب ، حيث كان لكل حزب شعراؤه الذين يناضلون عنه ، ويعبرون عن آرائـه ، ويصطبغ شعرُهم بصبغة العقيدة

التي يدعو إليها الحزب ويدافع عنها .

وإذا عرفنا أن العرب جميعاً ساهموا في هذه الحركات والخصومات ، وأن أكثرهم يقول الشعر ، وأن الأمويين استمالوا بالمال والعطاء هَوَى كثيرٍ من الشعراء ، وأشعلوا بينهم روح المنافسة والهجاء ، وأن الشعر أصبح في هذا العصر صناعة يَتكسَّب بها بعضُ الشعراء ، إذا عرفنا كل ذلك أدركنا سبب وفرة الشعر و كثرة الشعراء في العصر الأموي .

على أن هذه الحياة لم تكن كلـُّها صراعاً سياسياً وجدلاً دينياً حتى يقف الشعر عند هذا الحد ، وإنما كان لهذه الحياة جوانبُ أخرى تأثر بها الشعر وعبّر عنها .

أجل كان هناك شعراء نأَوْا بأنفسهم عن مُعترَك السياسة أو حيل بينهم وبين معتركها ، أو بينهم وبين الجد والعمل ، فراحوا يغرِّدون لأنفسهم ، ويصنعون شعراً غنائياً عاطفياً ، لا يزال إلى اليوم له تأثيرُه وجمالُه وقيمتُه الأدبية .

على ضوء هذه النبذة التاريخية نرى أن الادب العربي قد أتيحت له في العصر الأموي عواملُ جديدة أدت إلى نشاطه ونهضته وتنوع مجالاته وآفاقه وبيئاته ، حتى لـَيُعَدُّ العصرُ الأموي بحق من أخصب العصور في تاريخ الادب العربي ، ومن أحفلها بألوان النشاط الادبي .

وإذا كان النقد يساير الادب في كل اتجاهاته وتحركاته ، ريتأثر به ويؤثر فيه ، فماذا كانت حالة النقد الادبي في العصر الاموي ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال تقتضينا من البدء أن نقرر بأن البيئات العربية التي نما فيها النقد الادبي وازدهر في العصر الاموي هي نفسُ البيئات التي أخصب فيها الشعر وارتقى .

وهذه البيئات على التحديد هي : بيئة الحجاز وباديتهـا ، وبيئة العراق ، وبيئة الشام . أما مــــا عداها من بيئات الشعر العربي كفارس واليمن ومصر والمغرب والأندلس فلم يُزهر فيها في العصر الاموي أدب ولا شعر ولا نقد .

وعلى هــــذا فسوف نقصر بحثنا هنا على تعرُّف حالة النقد الادبي وحركته في المواطن التي أزهر فيها الشعر الاموي ، وهي : الحجـــاز والعراق والشام .

النقــد في الحجــاز

حالة النقد في الحجاز :

إذا نظرنا إلى الحجاز في العصر الاموي رأينا أن الحياة فيه قد تغيرت كثيراً عما كانت عليه في صدر الإسلام . وتتجلى مظاهر هذا التغير في انتقالِ الخلافة منه إلى الشام وانتقالِ المعارضة إلى العراق ، وفي سياسة أموية تحدّد إقامةَ أبناء الهاشميين فيه ، مع تسليط الترَف عليهم وشَغْلِهم بالمال والعطايا عن الملك حتى لا ينازعوهم فيه أو يَشغَبُوا عليهم .

كذلك تتجلى مظاهر التغير في ثراء باذخ من مغانم الفتوح ورِثه أبناءُ الهاشميين عن آبائهم المجاهدين ، وفي سكنى للقصور ، وأناقةٍ في اللباس والحلى ، وترف في الأطعمة والأشربة وأدواتها ، وفي أخلاط شتى من الرقيق متباينة الالوان واللهجات والعادات والطباع تبث فيه دَماً جديداً وتخلع عليه ظلاً جميلا .

ومن مظاهر التغير أيضاً شيوعُ الغناء وانتشار دُوره ومجالسه . وقد اجتمع للحجاز في زمن واحد عشراتُ المغنين والمغنيات ، منهم : معبد ، والغريض ، وسائب خاثر ، وابن سريج ، والدلال ، وأبو سمح الطائي ، وابن طنبورة ، ومالك ، وابن عائشة ، وجميلة ، وبرد الفؤاد ، ورحمة ، ونومة الضحى ، وعزة الميلاء ، وحبابة ، وبُلبلة ، وسعيدة ، ولذة العيش، وسلاّمة الزرقاء .

ويروي أبو الفرج الأصفهاني أن مكة والمدينة وضواحيَهما قد امتلأت بالمغنين والمغنيات ، وأنهم كانوا يخرجون إلى الحج قوافل . وقد شغف أهل الحجاز بالغناء ، فأقبلوا عليه يسمعونه ويغشون مجالسه .

وكانوا يعقدون للغناء مجالس يتنادى إليها محبوه حتى من الفقهاء ، ولم تكن هذه المجالس للغناء فحسب وإنما كانت أيضاً مجالس للأدب يهذَّب فيها الشعر ويُنقَّح ويُرَقَّق بما يتمشى والذوقَ الموسيقي .

ومنهم من دفعه الشغف بالغناء إلى التردد على ربّاته خارج الحجاز . روى الأغاني عن عبدالله بن مصعب قال : « قدم عمر بن أبي ربيعة الكوفة فنزل على عبدالله بن هلال الذي كان يقال له « صاحب إبليس » وكان له قينتان حاذقتان، وكان عمر يأتيهما فيسمع منهما ، فقال في ذلك :

يا أهل بابل ما نَفِسْتُ عليكمُ من عيشكم إلَّا ثلاثَ خلالِ

ماءَ الفراتِ وطيبَ ليل باردٍ وغناءَ مُسمعتين لابن هلالِ [(١)] »

وإلى جانب هذه الحياة التي يشيع فيها الطرب واللهو والشراب ، ظهرت بمكة والمدينة في العصر الاموي مدرستان للقرآن والحديث والفقه والتشريع الإسلامي والادب والتاريخ .

وهكذا كان بجانب هذه الحياة العلمية الجادة الوقورة حياة أخرى من الفرح والمرح . أجل كان بالحجاز حديث وفقه وزهد وورع ، وكان به كذلك لهو وطرب وشراب وتشبيب بالنساء حتى في موسم الحج . وكما أنتجت الحياة الاولى علماً غزيراً أنتجت الثانية فناً بديعاً من غناء ومنادرة [(٢)] . هذا مع ما في أهل الحجاز من ملاحة وظرف ، ولطافة حس ، وفصاحة لسان، ومحبة لهو.

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ١٢١ .

(٢) المنادرة : التطارح بغرائب الكلام والأخبار .

كل ذلك كان له أثره في تغيير وجه الحجاز والانتقال به من دور البداوة إلى دور الحضارة ، وفي ظهور ألوان جديدة من الترف والادب والفن .

ومن ثَمّ نرى شباب الحجاز وقد واتتهم كلُّ هذه الفرص التي تستثير العواطف وتغريها على الانطلاق يعكفون على متع الحياة ولذاتها ، ويستنيمون للبذخ والنعيم ؛ ويغشون مجالس الغناء والطرب ، ويذهبون في حياة اللهو والمجون كل مذهب ، ويتعرضون للحسان والقيان في مواسم الحج . لذلك شاع الحب والغزل الإباحي في مدن الحجاز ، واضطرمت عواطف بنيه، ورقّت مشاعرهم ، كما شاع الغزل العفيف بين شعراء بادية الحجاز من أمثال جميل ومجنون ليلى وذي الرُّمة .

والآن إذا نظرنا على ضوء كل ذلك إلى الحجاز كبيئة من بيئات الشعر في العصر الأموي فإن صورة هذه البيئة تبدو واضحة كل الوضوح .

فهي بيئةٌ أخذت بأسباب حضارة جديدة هي مزيجٌ من الحضارة العربية والحضارات الأخرى التي اتصلت بها وتفاعلت معها . بيئةٌ تختفي من حياتها قِيَمٌ جاهلية قديمة لتحل محلها قِيَمٌ جديدة تصقل النفوس وترهف الحس ، وتذكي العواطف ، وتكسب الخيال شفافية وصفاء .

في هذه البيئة المترفة الآخذة في التحضر انفصل الشعر الحجازي إلى حد كبير عن الشعر الجاهلي ، ففترت فيه دواعي الفخر والحماسة، وكاد يختفي الهجاء لاختفاء كثير من مثيراته ، وقلّ المدح لأن أغلب شعراء الحجاز في هذا العصر كانوا في رَغَد من العيش ، ومن ثَمّ لم يكونوا بحاجة إلى التكسُّب بشعرهم .

أما الشعر الذي غلب على هذه البيئة واستبد بطاقات شعرائها الفنية فهو الغزل الحضريُّ . وهو شعر فيه دعابةٌ ، وفيه وصفٌ للنساء صريح ، وفيه قَصص يحكي تجارب الشعراء مع النساء ، وفيه جرأةٌ على التقاليد القديمة ، وخروجٌ على مألوف ما اعتاده الشعراء السابقون في الغزل ، ثم فيه محاولات للتجديد

بالتنويع في أساليب التعبير ، ومحاولات أخرى تهدف إلى تبديل نظرة كل من الجنسين إلى الآخر .

وقد فُتِن المجتمع الحجازي على اختلاف طبقاته بهذا اللون الجديد من الغزل. ولعل مردّ ذلك هو أن هـــذا الغزل على حدّ قولِ الدكتور طه حسين : « لم يخلُص من السذاجة البدوية ولم يبرأ من تأثير الحضارة الجديدة . ففيه من البداوة سذاجة تستخفُّك وتستصبيك ، وفيه من الحضارة ِطلاء يبعث في نفسك الميل إلى الاستقصاء والاستطلاع . وأنت تجد بعد هذا كلّه عذوبةً ولذة في هـذا المزاج الذي يتألّف منه الغزل الأموي ، والذي يمثّل لك الشعب العربي الباديَ وقد أخذ يتحضر ويترف ، ويُحسُّ على بداوته كما يُحسُّ المتحضرون والمترفون. . . فهذا الغزل الأموي يُمثّل نفسَ الشاعر والجماعة التي كان يعيش فيهـــا تمثيلاً صادقاً صحيحاً »[1] .

وكان عمرُ بنُ أبي ربيعة أولَ من حمل لواءَ هذا الشعرِ في الحجاز ، ثم سار على دَرْبه ونهجَ منهجَه كثيرون غيرُه من شعراء مكة والمدينة ، من أمثال العَرْجي وأبي دَهبل ، والحـــارثِ بن خالد المخزومي ، وعُبَيدِ الله بن قيس الرقيات ، والأحوص ، ونُصَيْبِ بن رباح ، وقيس بن ذُريح .

ومما يدل على مكانة ابن أبي ربيعة لدى العرب ما رواه صاحب الأغاني عن يعقوب بن إسحاق قال : « كانت العرب تُقِرُّ لقريش بالتقدم في كل شيء عليها إلاّ الشعر ، فإنها كانت لا تُقِرُّ لها به ، حتى كان عمر بن أبي ربيعة ، فأقرّتْ لها الشعراءُ بالشعر أيضاً ، ولم تنازعها شيئاً »[2] .

فالمجتمع الحجازي لم يقر لقريش بالشاعرية إلاّ لإعجابـــه بشعر ابن ربيعة القرشي وفنه .

---

(١) حديث الأربعاء : ج ١ ص ٢٩٥ (٢) الأغاني . ج ١ ص ٦١

والواقع أن عمر بن أبي ربيعة قد طلع على الحجاز بفن شعري تغلب عليه سيماء الحضارة ، ويتسم بالجدة في كل شيء . فهو جديد في اتجاهه وروحه ، جديد في رقة معانيه ودماثة ألفاظه ، جديد في أسلوبه الحواري الشيق ، وصوره المرحة المبهجة !

لقد وقف عمرُ شعرَه على الحب والغزل لم يتجاوزه إلى غرض آخر. سأله سليمان ابن عبد الملك : ما يمنعك من مدحنا ؟ فقال عمر : إني لا أمدح الرجال ! إنما أمدح النساء [1] .

وخرج مرة مع الحارث بن خالد المخزومي وجماعةٍ من الشعراء يشيّعون بعض خلفاء بني أمية ، فلما انصرفوا نزلوا بمكان اسمه « سَرَف » فلاحَ لهم برْق ، فقال الحارث : كلنا شاعر ، فهلُمُّوا نصف البرق ، فوصفه كل واحد منهم في بيت شعر إلاّ عمر فإنه قال :

أيا ربِّ لا آلُو المودةَ جاهداً لأسماءُ فاصنعْ بي الذي أنت صانع [2]

فأسماءُ أو المرأة عامة هي شغله لا البرق !

وإذا كان مُصعب بن الزبير قد قتل امرأة المختار بنِ عُبيد والي عبدالله بن الزبير على الكوفة لأسباب سياسية ، فإن ابن أبي ربيعه يرثيها ، والرثاءُ أخو المدح ، لأسباب عاطفية ، لأن المرأة الجميلة التي هي معبوده لم تُخلق للقتل ، وإنما كُتب القتل والقتال على الرجال وحدَهم ، وفي ذلك يقول :

إنَّ مِن أعظمِ المصائب عندي قَتْلُ حسناءَ غادةٍ عُطْبُولِ [3]

قُتِلتْ باطلاً على غيرِ ذنبٍ إن لله درَّها مِن قتيل !

---

(١) الأغاني : ج ص ٦١ (٢) المرجع نفسه : ج ١ ص ١٢١-١٢٢ .

(٣) العطبول والعيطبول : المرأة الفتية الجميلة الممتلئة الطويلة العنق .

كُتِب القتلُ والقتالُ علينا   وعلى الغانيات جرُّ الذيولِ [1]

ومع فتنة المجتمع الحجازي على اختلاف طبقاته بشعر عمر الذي يصف فيه النساء وحسنَهن وجمالَهن ، فقد كان في هذا المجتمع من يعارض هذا الشعر التحرُّري ويخشى منه على الأخلاق ، كابن جُريج الذي يقول : « ما دخل على العواتق في حجالهن شيء أضرُّ عليهن من شعر ابن أبي ربيعة [2] » .

وعلى الرغم من معارضة ابن جُريج لشعر ابن ربيعة والإشفاقِ من تأثيره السيىء على أخلاق الفتيات القابعات في خدورهن ، فإن في كلمته اعترافاً ضمنياً بأن في هذا الغزل من الجمال وقوة التأثير ما يسحر قلوب النساء ويخلب ألبابهنّ .

ذلك الاتجاه الجديد من الغزل الإباحي التحرُّرى هو الذي غلب على المجتمع الحجازي في العصر الأموي . وقد عبَّد طريقه واسترعى الأنظارَ إليه عمرُ بنُ أبي ربيعة فاقتفى أثرَه فيه طائفة من شعراء مكة والمدينة من أمثال العرجى والأحوص ونُصيب والحارث بن خالد المخزومي .

وإلى جانب ذلك كان هناك لون آخر من الغزل هو الغزل العفيف الذي عُرِف به شعراء أهل البادية الحجازية من أمثال جميل بن معمر ، وقيس بن ذُرَيْح ، ومجنون ليلى وذي الرُّمَّة . وهو شعر يتصف بسمة العاطفة القوية المؤثرة ، كما يتسم بالبداوة التي تكسب لفظه جزالة في غير عنف ومعناه سذاجة في غير سخف .

ثم كان هناك أيضاً الغزل التقليدي الذي يمثل لهو البادية وعبث شبابها ، ويُذَكِّر بغزل العصر الجاهلي .

---

(١) العقد الفريد : ج ٤ ص ٤٠٧ ، وانظر أيضاً ديوان عمر ص ٤٩٨ .

(٢) الأغاني : ج ١ ص ٦١ . العواتق : جمع عاتق ، وهي الشابة أول ما تدرك أو التي قد أدركت وبلغت فخُدِّرت في بيت أهلها ولم تتزوج . والحِجال : الستر والخدر .

حركة النقد في الحجاز :

فالشعر الحجازي كما ترى قد نهض وتطور في العصر الأموي ، وقد غلب عليه الغزل الحضري الذي أخذ بفعل العوامل الجديدة التي طرأت على بيئته ومجتمعه ينزع عن نفسه رداء البداوة شيئاً فشيئاً ، ويدخل في رداء الحضارة شيئاً فشيئاً كذلك .

وقد استتبعت هذه النهضةُ الشعرية الجديدة في بيئة الحجاز الظريفة المرحة اللاهية نهضةً أخرى في النقد الأدبي تجاريها في روحها ، نهضةً تدل إلى حد ما على رقي في الذوق ، واتساع في الأفق والنظرة ، والتفات إلى بعض جوانب النقد التي لم يلتفت إليها النقاد السابقون .

والمطلع على تاريخ النقد الأدبي في العصر الاموي يدهشه ما يرى من اهتمامٍ عام بالنقد على جميع المستويات وبين مختلف الطبقات . فالنقد الادبي في هذا العصر قد أسهم فيه الرجال والنساء والشعراء وغير الشعراء ، كلٌ على قدر ذوقه وفهمه وروحه ونوع ثقافته .

ولعل هذا الاهتمامَ بالنقد والإقبالَ عليه كان وليدَ الاهتمام بالشعر ذاته ، وبما يدور حوله من جدل ونقاش بين الناس أنفسهم في مجالسهم ومنتدياتهم . ومن عجيب الامر أن نجد هذا الحماس الشديد للنقد حتى بين موالي بعض الشعراء !

فكل هذا النشاط النقدي المتنوع الصور والاساليب ، كما سنرى ، يؤهلنا للقول بأن النقد العربي قد أخذ يشق طريقة الصحيح ابتداء من هذا العصر ، وأن ما سبقه من نقد لم يكن إلاّ نواة أو محاولاتٍ للريادة والكشف في اتجاه طريق النقد القويم .

(١) نقد الشعراء :

وأول صورة من صور النقد الادبي في العصر الاموي نقف أمامها للتعرف

إليها هي صورة نقد الشعراء بعضهم بعضاً. ولعل أوفاهم نصيباً من ذلك عمرُ بنُ أبي ربيعة ، فقد أبدى أربعةٌ من معاصريه رأيَهم في شعره ، وهـؤلاء هم : نُصيب بن رباح ، والفرزدق ، وجرير ، وجميل .

فنُصَيْب يقول عنه : « لَعمرُ بن أبي ربيعة أوصفُنا لرَبَّات الحِجال [1]» . فعمر هنا في رأى نُصَيب أحسن معاصريه وصفاً لمحاسن المصونات المخدرات من القرشيات وغيرهن من نساء بيوتات العرب .

والذي يستقرىء ديوان عمر يجد مصداق قول نُصَيب ، هذا القول الذي علّق عليه الدكتور طه حسين بقوله : « ولم يخطىء نصيب حين قال : عمر بن أبي ربيعة أوصفنا لربات الحجال . فلم يَعرِف العصرُ الاموي كلّه شاعـراً وصف المرأة جملة وتفصيلاً بمثل ما وصفها عمر بن أبي ربيعة جودةً وكثرة ودقة بنوع خاص [2] » .

وسمع الفرزدق شيئاً من تشبيب عمر فقال: « هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديارَ ووقع هذا عليه [3] » .

وأورد الاغاني الخبر السابق منسوباً إلى المدائني بعبارة أخرى فقال :« سمع الفرزدق عمر بن أبي ربيعة يُنشد قوله :

جرى ناصحٌ بالود بيني وبينها فقرَّبني يومَ الحصَاب إلى قتلي [4]

ولما بلغ قوله :

فقُمْنَ وقد أفهمنَ ذا اللُّبِّ أنما أتَيْنَ الذي يأتين من ذاك من أجلي

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ٦١ (٢) حديث الأربعاء : ج ١ ص ٣٠٨ .

(٣) الأغاني : ج ١ ص ٦٢ .

(٤) يوم الحصاب : أراد به يوم رمى الجمار في موسم الحج ، وذلك في مِنىً . والجمار : جمع جمرة ، وهي هنا مَجمع رمي الحصى بمنى : والجمار تُرمى بالحصباء وهي صغار الحصي .

صاح الفرزدق : هذا والله الذي أرادته الشعراء ، فأخطأته وبكت على الديار [1] » .

والذي يقرأ كل القصيدة التي منها هـذان البيتان يتبين له رأيُ الفرزدق في عمر واضحاً . فالقصيدة تصور إحدى مغامرات عمر العاطفية بكل خصائص فن عمر الشعري الجديد لفظاً ومعنى وأسلوباً وتصويراً وحواراً وحرية تعبير .

وكأن الفرزدق برأيه هنا يريد أن يعزو إلى ابن أبي ربيعـة نشأة الغزل كما ينبغي أن يكون ، وأن ما سبقه من غزل لم يكن إلا محاولات قام بها الشعراء في سبيل اكتشاف هذا الغزل فأخطأت طريقه وبكت الديار واكتشفه عمر .

ويحدثنا عبد الله بن مَسلمة بن أسلم عن رأي جرير في عمر فيقول : « لقيت جريراً فقلت له : يا أبا حَزرة ، إن شعرك رُفِع إلى المدينة ، وأنا أحب أن تسمعني منه شيئاً ، فقال : إنكم يا أهل المدينة يعجبكم النسيب ، وإن أنسب الناس المخزومي ، يعني : ابن أبي ربيعة [2] » .

فجرير إذ يحكم لابن أبي ربيعة المخزومي بأنه أحسن الشعراء في باب الغزل والنسيب إنما يلتقي مع الفرزدق في رأيه .

أما عن جميل بن معمر ورأيه في شعر عمر بن ربيعة ، فيحدثنا الأغاني أن الشاعرين اجتمعا بالأبطح فأنشد جميل قصيدته التي يقول فيها :

لقد فرِح الواشون أن صَرَمَتْ حَبْلِي
بُثَينةُ أو أبدتْ لنا جانبَ البُخْلِ
يقولون مهلاً يا جميلُ وإنني

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ٩٠ .
(٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٦٣ .

لأقسم مالي عن بُثَينةَ من مَهْلِ

حتى أتى على آخرها ، ثم قال لعمر : يا أبا الخطاب ، هل قلت في هـذا الروي شيئاً ؟ قال : نعم ، قال فأنشِدْنيه ، فأنشده قصيدته التي مطلعها :

جرى ناصح بالود بيني وبينها فقرَّبني يومَ الحصاب إلى قتلي

فقال جميل : هيهات يا أبا الخطاب ! لا أقول والله مثلَ هـذا سَجِيسَ الليالي ! والله ما خاطب النساء مخاطبتَك أحدٌ ! وقام مشمراً [1] .

فجميل بن مَعمر يرى أن البَون شاسعٌ جداً بينه وبين أبي الخطاب عمَر في الغزل ، ولهذا يفضله على نفسه فيه ، ثم يحكم له بالتفوق على سائر الشعراء في مخاطبة النساء والحديث إليهن .

مما تقدم نرى أن أربعة من كبار الشعراء المعاصرين لعمر بن ربيعة قد حكموا له بأنه إمامٌ مُجدِّدٌ في شعر الغزل، وأنه قد استحدث فيه اتجاهاً جديداً غيرَ مسبوق ...

هذا عن ابن أبي ربيعة أما جميل فيحكم له كلٌ من عبدِ الرحمن بن أزهر وعبدِ الرحمن بن حسان بعد أن يستمعا إلى بعض أشعاره بحكم غير معلل أشبهَ بأحكام نقاد الجاهلية .

فابن أزهر يحكم له بأنه أشعر أهل الإسلام ، ويحكم له ابن حسان بأنه أشعر أهل الإسلام ، وأشعر أهل الجاهلية [2]. ولكُثَيِّر حكم فيه غير معلل

(١) الأغاني : ج ١ ص ٨٨-٨٩ . وسجيس الليالي : طِوال الليالي .

(٢) الأغاني : ج ٧ ص ١٤١-١٤٢

أيضاً ، فهو بعد أن يكرر بعض ما يعجبه من شعر جميـــل يحكم بأنه أشعر النـــاس [1] .

وقد اجمع الفرزدق وجرير على أن « الأحوص » أنسبُ النـــاس [2] . ولجرير رأي خاص في « نُصَيب » يتمثل في أنه أشعر أهل جلدته ، أي أشعر السودان فقط . رُوي أن نُصَيبا أنشد جريراً شيئاً من شعره ، فقال له : كيف ترى يا أبا حَزرة ؟ فقال : أنت أشعر أهل جلدتك [3] .

*

(٢) ابن أبي عتيق الناقد :

ولعل أكبر شخصية ناقدة ظهرت بالحجاز في العصر الاموي وأُثِر عنهـــا الكثيرُ من النقد هي شخصية ابن عتيق .

وهو عبدُ الله بنُ أبي عتيقٍ محمدِ بنِ عبدِ الرحمن بنِ أبي بكر الصديق ابن أبي قحافة ، وأبوه وأجداده من صحابة الرسول .

ويحدثنا أبو العباس المبرد أن ابن أبي عتيق هذا غلبت عليه الدُّعابةُ وشُهر بها ، وأنه كان من نُسّاك قريش وظرفائهم ، بل كان قد بَذّهم ظَرفـــا [4] . وكُتب الأدب مليئة بالنوادر التي تدل على ظَرف هذا النبيل القرشيّ ودعابته وسعة حيلته .

فمن ظريف أخباره وطريفها أن عثمان بن حيّان المُرّي لما دخل المدينـة والياً عليها اجتمع إليه الأشراف من قريش والانصار ، فقالوا له : إنك لا تعمل

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ١٦٩ .

(٢) المرجع السابق : ج ٤ ص ١٠٣

(٣) المرجع السابق : ج ١ ص ٢٥٧ .

(٤) الكامل للمبرد : ج ٢ ص ١٧٠

عملاً أَجْدَى ولا أَوْلى من تحريم الغناء ... ، ففعل واجلسهم ثلاثا . وقدم ابن أبي عتيق في الليلة الثالثة وكان غائباً ، فحَطَّ رحله بباب سَلاَّمة الزرقاء ، وقال لها : بدأتُ بك قبل أن أصير إلى منزلي .

قالت : أو َما تدري ما حدث بعدك ؟ وأخبرته الخبر . فقال : أقيمي إلى السَّحَر حتى ألقاه ، فلقيه فأخبره أنه إنما أقدمه ُحبُّ التسليم عليه، وقال له: إن أفضل ما عملتَ تحريمُ الغناء .. ، فقال : إن أهلك أشاروا عليَّ بذلك ، فقال : إنهم وُفِّقُوا ووُفِّقْتَ ، ولكني رسولُ امرأة إليك تقول: قد كانت هذه صناعتي فتُبتُ إلى الله منها ، وأنا أسألك أيُّها الأمير ألاَّ تحول بينها وبين قبر النبي ﷺ .

فقال عثمان : إذَنْ أدَعها لك ، قال : إذَنْ لا يدَعها الناس ، ولكن تدعو بها فتنظرُ إليها ، فإن كان يجوز َترْكُها تركتَها . قال : فادْعُ بها ، فأمر بها ابن أبي عتيق فتنقبَّتْ وأخذت ُسبْحَةً في يدها وصارت إليه، فحدَّثته عن مآثر أبائه ففكِه لها .

فقال ابن أبي عتيق : أريد أن أُسمع الأميرَ قراءتها ففعلتْ ، فحرَّكه ُحداؤها ، فقال له ابن أبي عتيق : فكيف لو سمعتها في صناعتها التي تركتْها ، فقال له : قلْ لها فلتُغَنّ ، فغنَّت :

سدَدْنَ َخصاصَ البيت لما دخلنه بكل َبنانٍ واضحٍ وَجبينِ [1]

فنزل عثمان بن حيَّان عن سريره حتى جلس بين يديها ، ثم قال : لا والله ، ما مثلُكِ يخرج عن المدينة ! فقال له ابن أبي عتيق : إذنْ يقول الناسُ أذِن

---

(١) الخصاص : شبه كُوَّة في ُقبَّة أو نحوها إذا كان واسعاً قدر الوجه . وبعضهم يجعل الخصاص للواسع والضيق حتى قالوا لخروق المصفاة والمُنخُل َخصاص. وَخصاص الباب والمنخل والبرقع وغيره : َخلَلُه ، واحدته خصاصة .

لسلامة ومنع غيرها . فقال له عثمان : قد أذنتُ لهم جميعاً [1] » .

ومن نوادره الظريفة أيضاً أن مروان بن الحكم قال يوماً : إني لمشغوف ببغلة الحسن رحمها الله ، فقال له ابنُ أبي عتيق : إنْ دفعتُها لك أتقضي لي ثلاثين حاجة ؟ قال : نعم . قال : إذا اجتمع الناس عندك العشية فإني آخذ في مآثر قريش ، ثم أمسك عن الحسن ، فلُمْني على ذلك .

فلما أخذ الناسُ مجالسهم أخذ في مآثر قريش ، فقال له مروان: ألا تذكر أوّليّةَ أبي محمد ، وله في هذا ما ليس لأحد ؟ فقال : إنما كُنّا في ذِكْر الأشراف ، ولو كُنّا في ذكر الأنبياء لَقَدّمْنا ما لأبي محمد !

فلما خرج الحسن ليركب تبعه ابنُ أبي عتيق، فقال له الحسن ـ وتَبَسّم ـ: ألَكَ حاجة ؟ فقال : ذكرتُ البغلة ، فنزل الحسن ودفعها إليه [2] .

وذُكِر لابن أبي عتيق أن المخنثين من المغنين خُصوا ، وأنه خُصِي فلانٌ فيهم ، لواحد منهم كان يعرفه ، فقال ابن أبي عتيق : إنا لله ! لئن خُصِي لقد كان يُحسن :

لِمَنْ رَبْعٌ بذات الجَيْـ ـشِ أمسَى دارساً خَلَقا ؟

ثم استقبل ابن أبي عتيق القِبْلة ، فلما كبّر سلّم ، ثم قال لأصحابه :

أما إنه كان يُحسِن خفيفه ، فأما ثقيله فلا والله ، ثم كبّر [3] .

هذا طَرَف من أخبار ابن أبي عتيق لم نذكره للتفكّه وإنما للدلالة به على روح الدّعابة التي كانت تغلب عليه واتّسَم بها نقده لشعراء عصره .

لقد ملأ ابن أبي عتيق الحجاز في عصره نقداً ظريفاً لكثير من الشعراء ،

---

(١) العقد الفريد : ج ٦ ص ٤٩ـ٥٠ ، وانظر كذلك الكامل للمبرد : ج ٢ ص ٢٣٧ .
(٢) الكامل للمبرد : ج ٢ ص ٢٣٧ (٣) العقد الفريد : ج ٦ ص ٥٠

وكان يعتمد في نقده على ذوق مُرهف وحسّ مُترَف ، وبصيرة نافذة في التمييز بين جيد الشعر ورديئه . وإلى جانب ذلك كان وثيقَ الصلة بالحياة الأدبية في عصره ، عارفاً بتياراتها واتجاهاتها .

وكأني به وقد اعتمد الدعابة والفكاهة أسلوباً له في النقد الأدبي ، إنما أراد أن يمثّل الروح الحجازية بما فيها من رقة وظَرف ، وأن يجاريَ روح الشعر المعبر عن حياة الحجاز المرِحة اللاهية .

وقد كان يجمع بين عمرَ بنِ أبي ربيعة الشاعرِ وابنِ أبي عتيق الناقدِ صداقةٌ متينةٌ وإعجابٌ متبادَل .

يسمع ابنُ عتيق وهو في المدينة قصيدةَ عمر التي يقول فيها :

مَن رسولي إلى الثرّيّا فإني ضقتُ ذرعاً بهجرها والكتابِ ؟

فتدفعه المروءة والأريحية العربية أن يتجشّم المشقة من المدينة إلى مكة حيث يأخذ عمرَ معه إلى الطائف فيصلحَ ما بينه وبين صاحبته الثريا [1] .

ويُنشده عمرُ أبياتَه التي مطلعُها :

لم تر العينُ للثرّيّا شبيهاً بمَسيل التّلاع يوم التقينا

فيشتد به الطرب حتى ليقول مخاطباً عمر : « لئن مُتّ لأموتنّ معك ! أفٍّ للدنيا بعدك يا أبا الخطاب ! فيقول عمر : بل عليها بعدك العفاءُ يا أبا محمد » [2]

إلى هذا الحد كانت الصداقة وكان الإعجابُ المتبادَلُ بين الرجلين ، ولكنّ ذلك لم يمنع ابنَ أبي عتيق أن يتعقب شعرَ صاحبه بالنقد ، وأن يكون

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ١٦٠

(٢) المرجع نفسه : ج ١ ص ١٦٤ ، ومسيل التلاع مَكان ، والتلاع : جمع تلعة ، وهي مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض .

فيه موضوعياً .

ومما يلاحظ على نقده سواء ما اتصل منه بشعر عمر أو شعر غيره من معاصريه أنه كان نقداً نزيهاً بنّاء يهدف من ورائه إلى التصحيح والتوجيه . وما من شك في أنه كان لآرائه الثاقبة وملاحظاته الذكية أثرٌ ملحوظ في تطور النقد ورقيه.

وأكثرُ ما أُثِر من آرائه وملاحظاته النقدية متصلٌ بشعر عمر ، لأنه ، على ما يبدو ، كان في نظره الشاعرَ المعبّرَ عن نزوع العصر وأهوائه واتجاهاته .

ومن صور نقده لشعر عمر هـذا الخبرُ الذي أورده صاحب الأغاني قال :

« ذُكِر شعر الحارث بن خالد وشعر عمر بن أبي ربيعة عند ابن أبي عتيق ، في مجلس رجل من ولد خالد بن العاصي بن هشام ، فقال المتحدث : صاحبُنا — الحارث بن خالد — أشعرُهما . فقال له ابن أبي عتيق : بعضَ قولك يا ابن أخي! لِشعرِ عمرَ بنِ أبي ربيعة نَوْطةٌ في القلب ، وعُلوقٌ بالنفس ، ودَرْكٌ للحاجة ليست لشعر . وما عُصِيَ اللهُ جلّ وعزّ بشعر أكثرَ مما عُصيَ بشعر ابن أبي ربيعة . فخُذْ عنّي ما أصف لك : أشعرُ قريش من دقّ معناه ولطُفَ مَدخلُه ، وسَهُل مَخرَجُه ، ومَتُن حَشْوُه ، وتعطّفت حواشيه ، وأنارتْ معانيه ، وأعرب عن حاجته .

فقال المُفَضّلُ للحارث : أليس صاحبُنا الذي يقول :

إني ومـا نحروا غداةَ مِنًى ... عند الجِمـار يَؤودُها العَقْلُ[1]

لو بُدّلتُ أعلى مساكنِهـا ... سُفْلاً وأصبح سُفْلُهـا يَعْلُو

فيكاد يعرفُها الخبيرُ بهـا ... فيردُّه الإقواءُ والمَحْلُ[2]

لَعرفتُ مَغناها بمـا احتملتْ ... مِنّي الضلوعُ لأهلهـا قَبْلُ

---

(١) يؤودها : من آده الأمر يؤوده ويئده إذا دهاه ، والعقل : الحبس .

(٢) أقوت الدار : أقفرت وخلت من أهلها ، والمحل : الجدب .

فقال له ابن أبي عتيق : يا ابن أخي ، استُرْ على نفسك ، واكتمْ على صاحبك ، ولا تشاهد المحافل بمثل هذا ، أما تطيّر الحارثُ عليها حين قلبَ ربعَها فجعل عاليَه سافله؟ما بقي إلا أنْ يسأل اللهَ تبارك وتعالى لها حجارةً من سجيل ! [1] إنّ ابن أبي ربيعة كان أحسنَ صحبةً للربع من صاحبك ، وأجملَ مخاطبةً حيث يقول :

سائلا الرَّبعَ بالبُلَيِّ وقولا هِجتَ شوقاً ليَ الغداةَ طويلا [2]

أين حيٌّ حلُّوكَ إذْ أنتَ محفو فٌ بهم آهِلٌ أراك جميلا ؟

قال : ساروا فأمعنوا فاستقلُّوا وبرَغمي لو استطعتُ سبيلا

سئمونا وما سئمنا مُقاماً وأحبُّوا دماثةً وسُهولا [3]

قال : فانصرف الرجل خجِلا مُذْعِناً » [4] .

فهذا الخبرُ كما نرى يشتمل على صورة من نقد ابن أبي عتيق للشعر . فهو إذ يقول : « لِشعرِ عمرَ بنِ أبي ربيعة نَوْطَةٌ في القلب وعُلوق بالنفس ودَرْكٌ للحاجة » إنما يرمُز بذلك إلى دور العاطفة وأثرِها في جمال الشعر وقيمتِه.

فالشعر الجيدُ في نظره هو الذي يُعبّر في قوة وصدق عن عاطفة صاحبه ، ويُؤثّر كذلك في عواطف سامعيه ، بمعنى أن يكون له موقعٌ في القلب وعُلوقٌ في النفس ، وأن يكون بليغاً في الوفاء بغرضه والتعبير عنه .

وفي قوله : « وما عُصِيَ اللهُ جلّ وعزّ بشعر أكثرَ مما عُصِيَ بشعر ابن

---

(١) السجيل : الطين المتحجِّر ، وهو فارسيٌّ معرَّب .

(٢) البُلَيّ : اسم موضع . وهجت : أثرت.

(٣) يقال : « دَمِثَ المكان دَمَثاً » إذا سَهُل ولان . ويقال :« دَمُثَ فلان دماثة » إذا سَهُل خلقه.

(٤) الأغاني : ج ١ ص ٨٤

أبي ربيعة » إشارةٌ إلى تحول مقياس النقـد عما كان عليه في صدر الإسلام إلى مقياس آخر يتمشّى مع طبيعة الشعر الذي غلب على المجتمع الحجازي المترَف !

وإذا كان مقياس الشعر الذي استوحاه الرسولُ من تعـاليم الإسلام وتبنّاه الخلفاءُ الراشدون من بعده يتمثل في مدى مطـابقته للحق أو عدم مطابقته . وإذا كان أحسنُ الشعر طِبْقاً لهذا المقياس هو مـا يدعو إلى الفضائل ومكارم الأخلاق ، فإن أحسن شعر عند ابن أبي عتيق الناقدِ أو عند مجتمعه الذي يمثل هو ذوقَـه وأهواءه ، إنما هو الشعر الذي يدعو إلى عصيان الله أو الإغراء به !

وهكذا صار الفسوق عن أوامر الدين وتعـاليم الإسلام مقياساً جديداً من مقاييس النقد الأدبي في الحجاز ، لا يتحرج ابن أبي عتيق من المجاهرة بـه في المجالس العامة ، ومن المفاضلة به بين شعر وشعر !

وإلى جانب ذلك فان هذا الخبر يُظهرنا على أن النقد في العصر الأموي قد بدأ يتجه نحو الأحكام المعلّلة . وعلى سبيل المثال فان ابن أبي عتيق هنـا يحكم لعمر بن أبي ربيعة بأنـه أشعر شعراء قريش ثم يُردف هذا الحكم بأسبابه وحيثياته .

وتتمثل هذه الاسبابُ في تحديد الخصائص والسمات التي يمتاز بهـا فنُّه الشعري ، وهي دِقّةُ المعنى ، ولُطف المدخل ، وسهولة المخرج ومتانـة الحَشْوِ ، وتعطُّف الحواشي ، وإنارة المعاني ، والإعراب عن الحاجة .

ومن هذه السِّمات ما يَمُتُّ إلى المعاني ، ومنها ما يمُتُّ إلى الألفاظ ،ومنها يمُتُّ إلى إصابة الغرض . وهذا كلام أشبه بكلام النقاد المحدثين في المعـاني والألفاظ والبدء والختام .

وفي الخبر بالإضافة إلى ما تقدم مفـاضلةٌ بين شعر كلٍّ من عمر بن أبي ربيعة والحارثِ بن خالد المخزومي في موضوع واحد هو رَبْع الحبيبة أو منزلُها الذي لا يكاد يراه الشاعر أو يتذكره حتى تهتاج عواطفه فيتوجه إليه بالخطـاب كما

لو كان يخاطب صاحبته وجهاً لوجه .

فابن أبي عتيق في هذه المفاضلة يُعَلِّق على شعر الحارث بقوله : « أما تطَيَّر الحارث عليها حين قلب ربعها فجعل عاليَه سافله ! ما بَقِيَ إلا أن يسأل الله تبارك وتعالى لها حجارةً من سجيل ! » .

فهذا النقد الذي يغلب عليه روح الفكاهة والتهكم يدل على فطنة ابن أبي عتيق إلى « الإيحاءات الشعرية » كعنصر من عناصر النقد . فمما يُحسَب للشعر في ميزان النقد أن يُوحِيَ بالمعاني السارة لا المعاني المؤلمة أو التي تدعو إلى التطير ، كما هو الشأن بالنسبة لأبيات الحارث بن خالد .

ومن أجل هذا نرى ابن أبي عتيق يقول لمن فضّل شعر الحارث : « ابن أبي ربيعة كان أحسن صحبةً للربع من صاحبك ، وأجمل مخاطبة » .

وفي خبر آخر : « حضر ابنُ أبي عتيق عمرَ بن أبي ربيعة وهو يُنشد قوله :

وَمَن كان محزوناً بإهراق دمعة ... وَهَى غَرْبُها فلْيأتِنا نَبْكِه غَدا [1]

نُعِنْه على الإثكال إن كان ثاكلاً ... وإن كان محزونا وإن كان مُقصَدا [2]

قال : فلما أصبح ابن أبي عتيق أخذ معه خالداً الخِرِّيت وقال له : قم بنا إلى عمر ، فمضيا إليه فقال له ابن أبي عتيق قد جئناك لموعدك . قال : وأيُّ موعد بيننا ؟ قال : قولُك : « فليأتنا نبكه غدا » قد جئناك . والله لا نبرح أو تبكيَ إنْ كنتَ صادقاً في قولك ، أو ننصرف على أنك غيرُ صادق ، ثم مضى وتركه » [3] .

فابن أبي عتيق في نقده هنا يأخذ على عمر أنه في قوله : « فليأتنا نبكه غدا »

---

(١) وهي غربها : ضعف دمعها .

(٢) والمُقصد : القتيل ، والمطعون ، والمريض الذي شارف الموت .

(٣) الأغاني : ج ١ ص ١٢٠

لم يكن يُعبِّر عن شعور صادق ، وكأنه بهـذا النقد الذي صبَّه في قالب من السخرية يريد أن يُوجِّهَ عمرَ وغيرَه من الشعراء إلى أن الصدق الشعريَّ عنصرٌ من عناصر جماله ، وأنَّ على الشاعر أن يكون أميناً مع نفسه وعواطفه ، فلا يُعَبِّر إلا عما يشعر به حقاً.

وسمع وهو في المدينة قولَ ابن أبي ربيعة :

وما نِلْتُ منها مَحرَماً غيرَ أننا ⁂ كلانا من الثوب المُطرَّف لابسُ

فقال : أبِنا يلعب ابنُ أبي ربيعة ؟ فركب بغلته وتوجه إلى مكة حتى إذا لَقِيَ عمرَ قال له : أما زعمتَ أنك لم تركب حراماً قط ؟ قال : بلى . قال : فما قولك : « كلانا من الثوب المطرَّفِ لابسُ ؟ » .

فقال له : إذَنْ أخبرك ! خرَجتْ — يعني صاحبتَه — بِعِلَّة المسجد ، فصرنا إلى بعض الشِّعاب فأخذَتنا السماءُ ، فأمرتُ بمُطرَفي فستَرَنا الغِلمانُ به ، لئلا يَروْا بها بِلَّةً فيقولوا : هَلاَّ استَتَرَتْ بسقائف المسجد ! فقال له ابنُ أبي عتيق : يا عاهر ! هذا البيتُ يحتاج إلى حاضنة [1] .

كذلك التفت ابن أبي عتيق في نقده إلى « غموض المعنى » وعدَّه عيباً في الشعر . ومن هـذا القبيل نقدُه لعبيد الله بن قيس الرقيات في بيته الذي يقول فيه :

تقدَّتْ بيَ الشهباء نحو ابن جعفرٍ ⁂ سواءٌ عليها ليلُها ونهارُها [2]

قالوا : إن ابنَ قيس الرقيات مرَّ به فسلَّم عليه ، فقال له ابن أبي عتيق :

---

(١) الكامل للمبرد : ج ٢ ص ٢٣٥ — ٢٣٦

(٢) تقدَّت : سارت سيراً ليس يَعجَل ولا يُبطىء ، فيقال : تقدَّى فلان إذا سار سير مَن لا يخاف فوت مقصده فلم يعجل .

وعليك السلام يا فارس العمياء . فقال له : ما هذا الاسمُ الحادثُ يا أبا محمد بأبي أنت ؟ قال : أنت سمّيْتَ نفسك حيث تقول: « سواءٌ عليها ليلُها ونهارُها» ، فما يستوي الليل والنهار إلاّ على عمياء . قال : إنما عَنَيتُ التعب. قال: فبيتك هذا يحتاج إلى ترجمان يترجم عنه (١) .

فهو بأسلوبه الساخر يأخذ على الشاعر غموضَ المعنى وعدمَ وضوحه .وليس شعراً عنده هذا الذي يحتاج إلى ترجمان يترجم عنه .

ويقول الزبير : هذا البيت مما عيب على ابن قيس، لأنه نقض صدره بعجزه ، فقال في أوله : سار سيراً بغير عجل ، ثم قال : « سواء عليها ليلها ونهارها » ، وهذه غاية الدّأب في السير ، فناقض معناه في بيت واحد (٢) .

ومن مآخذه على بعض الشعراء جهلُهم بما يستحسنه المحب أو لا يستحسنه من طبائع النساء وصفاتهن زاره في المدينة مرة كُثير عزة فاستنشده فأنشده كُثيّر قصيدته التي مطلعها :

أبائنـةٌ سُعدَى ؟ نعم ستبينُ كما انْبَتَّ من حبل القرين قرينُ

حتى بلغ إلى قوله :

وأخلَفْنَ ميعادي وخُنَّ أمانتي وليس لمـن خان الأمانة دِينُ

فقال له ابن أبي عتيق : أعلى الأمانـــة تبِعتَهَا ؟ فانكف واستغضب وصاح وقال :

كذَبْنَ صفاءَ الوُدِّ يومَ مَحِلِّه وأنكَدْنَني مَن وَعْدُهُنَّ دُيونُ

فقال له ابن أبي عتيق : ويلك! ذاك والله أشبهُ بهِـن وأملحُ لهُـنّ وأدعى

---

(١) الأغاني : ج ٤ ص ٣١٥ (٢) المرجع السابق : ج ٤ ص ٣١٤

للقلوب إليهِنّ . وإنما يُوصَفْنَ بالبخل والامتناع ، وليس بالأمانة والوفاء . وابنُ قيس الرقيات كان أعلمَ منك وأوضعَ للصواب موضعَه فيهِنّ . أما سمعت قوله :

حَبَّ ذاكَ الدَّلُّ والغُنُجُ … والتي في عينها دَعَجُ

والتي إن حدَّثتْ كَذَبَتْ … والتي في وعدها خَلَجُ

خَبِّرُوني هل على رَجُلٍ … عاشقٍ في قُبْلَةٍ حَرَجُ ؟

فقال كُثَيِّر للسائب راويتِهِ الذي كان معه : قمْ بنا من عند هذا ، ثم نهض[1] .

ومن هذا القبيل نقدُه لمن يُنطق غيرَه بكلام لا يُتوقع صدورُه عنه ، وكأني به يريد أن يقول إن مثل هذا الكلام ينمّ عن قلة خبرة صاحبه بما ينبغي أو لا ينبغي أن يُطلقه على ألسنة شخصياته . وإذا كان هذا الكلام شعراً فإنه ليس عنده من بليغ الشعر ولا جيده ، لعدم مطابقته لحال المتكلم أو نوع ثقافته .

أنشده ابن جُندَب الهُذَلِيّ قولَ العَرْجيّ :

وما أنسَ مِ الأشياءِ لا أنسَ قولَها … لخادمها قُومي اسألي لي عن الوِتْرِ[2]

فقالت : يقول الناسُ في سِتَّ عَشْرَةً … فلا تعجلي منه فإنك في أجْرِ

فما ليلةٌ عندي وإن قِيلَ جُمْعَةٌ … ولا ليلةُ الأضحى ولا ليلةُ الفِطْرِ

بعادلةِ الاثنين عندي وبالحَرَى … يكون سواءٌ منهما ليلةُ القدرِ[3]

---

(١) كتاب الأغاني : ج ٤ ص ٣٢٣ ، وانظر أيضاً العقد الفريد : ج٦ ص ٢١ . الغُنُج : حسْن الدَّلّ والتكسُّر والتدلُّل ، وامرأة غَنِجةٌ : حسنة الدل . والدعج : شدة سواد العين مع سعتها . والخَلَج هنا : يعني الفساد وعدم الوفاء بالوعد .

(٢) الوِتر هنا : يوم عَرَفة . (٣) وبالحَرَى أن يكون كذا : أي جدير وخليق .

فقال ابن أبي عتيق : أُشهدكم أنها – الخادمَ – حُرّةٌ من مالي إن أجاز ذلك أهلُها ! هذه والله أفقَهُ من ابن شهاب [1] .

فهو بعبارته الساخرة هنا يشير إلى هـذه الصورة التي أظهر فيها العرجي خادم صاحبته ، وهي صورة أقرب ما تكون إلى صورة فقيه كابن شهاب لا إلى صورة خادم !

كذلك أخذ على الشعراء « المبالغة في المعنى » التي تُبعِد الشعرَ عن الصدق وتدنيه من الكذب . أنشده نُصَيبٌ قوله :

وكِدْتُ ـ ولم أُخلَقْ من الطير ـ إن بدا
لهـا بارقٌ نحوَ الحجازِ أطيرُ !

فقال له ابن عتيق في أسلوب تهكميّ ساخر : يا ابنَ أمّ ، قلْ : « غاق » فإنك تطير ! يعني أنه غراب أسود [2].

*

(٢) المفاضلات بين الشعراء :

وفي هذا العصر نرى « المفاضلات والموازنات » بين الشعراء تتطور إلى حد ما ، وذلك بالالتفات عند المفاضلة أو الموازنة إلى جوانب من الشعر لم يكن النقاد السابقون ينظرون إليها .

روى صاحب الأغاني عن مسلم بن وهب قال : « دخلت مسجد الرسول ﷺ مع نوفل بن مساحق وإنه لمعتمر ، إذ مررنا بسعيد بن المسيب في مجلسه ، فسلمنا عليه فردّ سلامنا ، ثم قال نوفل : يا أبا سعيد من أشعرُ : أصاحبُنا أم صاحبُكم؟

(١) الأغاني : ج ١ ص ٢٨٩ (٢) المرجع السابق : ج ١ ص ٢٦٤

يعني : عُبَيْدَ الله بن قيسٌ الرقيات أو عمر بن أبي ربيعة ؟ فقال نوفل : حين يقولان ماذا ؟ فقال : حين يقول صاحبنا :

خليليّ ما بَال المطيّ كأنما.. نراها على الأَدبار بالقوم تنكُصُ ؟
وقدأبعدالحادي سُرَاهُنَّ وانتحى لهنَّ فما يألو عجولٌ مُقَلِّصُ
وقد قُطِّعتْ أعناقُهنَّ صبابــةً فأنفسُهـا مِمّا تُكلَّفُ شُخَّصُ
يَزِدْن بِنا قُرْباً فيزدادُ شوقُنا إذا زادطولُالعهد والبُعد يَنقُصُ

ويقول صاحبكم ما شئت . قال : فقال له نوفل : صاحبكم أشعر بالقول في الغزل أمتع الله بك ، وصاحبنا أكثر أفانين شعر . قال : صدقت ..... »[1].

فسعيد بن المسيب الذي هو أحد فقهاء المدينة السبعة ومن المكثرين لإنشاد الشعر واستنشاده يحكم لعمر بأنه أشعر في الغزل ولابن قيس بأنه أكثر أفانين شعر . ومعنى هذا أن نقاد العصر الأموي أخذوا ينظرون في الموازنات الشعرية إلى تنوع القول في الاغراض كإحدى المزايا التي تُحسَب للشاعر في ميزان النقد .

كذلك تطرّق نُقّادُ هذا العصر في الموازنات الشعرية إلى الصدق الشعري في المعنى والعاطفة ، أو إلى الشعر الذي يوحيه العقل والمنطق والشعرِ الذي يوحيه القلب والعاطفة وتفضيلِ الثاني على الاول .

« أنشد كُثيِّر ابنَ أبي عتيق كلمته التي يقول فيها :

ولست براضٍ من خليل بنائلٍ قليلٍ ولا أرضى له بقليلِ

فقال له : هذا كلامُ مكافىءٍ ليس بعاشق ! القرشيان أقنع وأصدق منك :

---

(١) الأغاني : ج ٤ ص ٣١٨ و ج : ١ ص ٨٧ انتحى لهن : اعترض أو عـاد لهنّ أو قصدهن . ومقلِّص : مُشمّر ماضٍ في سيره .

ابنُ ربيعة حيث يقول :

ليت حظّي كلحظة العين منها … وكثيرٌ منها القليلُ المهَنّـا [1]

وقوله :

فَعِدِي نائلاً وإنْ لم تُنيلي … إنه يُقنِعُ المحبَّ الرجـاءُ

وابن قيس الرقيات حيث يقول :

رُقَيّ بعيشكم لا تَهجُرينا … ومَنّينـا المُنَى ثم امطُلينا
عِدِينا في غدٍ ما شئتِ إنّـا … نُحب ـ وإنْ مطلتِ ـ الواعدينا
فإمّا تُنجِزِي عِدَتي وإمّـا … نعيش بما نؤمّـل منكِ حِينا [2]

ومن المفاضلات في هذا العصر ما جاءت عامة غيرَ مسببة، كتفضيل كُثيّر جميل على نفسه واتخاذه إماماً في الشعر . قال جُوَيْرِيَةُ بن أسمـاء : « ما استنشدتُ كُثيّرا قطُّ إلاّ بدأ بجميل وأنشدني له ثم أنشدني بعده لنفسه ، وكان يفضله ويتخذه إماماً [3] » .

والمقصود بهذه الإمامة إمامة النسيب . سأل رجل نُصيبا : أجميلٌ أنسب أم كُثيّر ؟ فقال أنا سألت كُثيّرا عن ذلك فقال : وهل وطّأ لنا النسيبَ إلاّ جميل ؟

ومن الموازنات ما تأتي على صورة مفاضلة بين شاعر وشاعر في قصيـدة أو

---

(١) ضرب عمر « لحظة العين» مثلاً للزمن القصير الذي يتمنى رؤيتها فيه ، ثم ذكر أن هذا القليل كثير منها إذا وقع موقعه . والمهنّا : أصله المهنأ فسهّلت الهمزة ، وهو كل ما أتاك بغير تعب ولا مشقة .

(٢) الأغاني : ج ٤ ص ٣٢١ … (٣) الأغاني : ج ٧ ص ١٤٥

قصائد معينه . يُرْوَى أن عمر كان يعارض جميلا ، فإذا قال هذا قصيدة قال هذا مثلها ، فيقال إنه في الرائية والعينية أشعر من جميل ، وإن جميلا أشعرُ منه في اللامية [1] .

ورائيةُ عمر هي التي مطلعها :

أَمِنْ آلِ نُعْمٍ أنتَ غادٍ فمُبكِرُ   غداةَ غدٍ أم رائحٌ فمهجِّرُ ؟

وعينيتهُ هي التي مطلعها :

ألم تسأل الأطلالَ والمُتَرَبَّعا   ببطنِ حُلَيَّاتٍ دوارسَ بَلْقَعا؟ [2]

ولامية جميل هي التي يقول في مطلعها :

لقد فرِحَ الواشون أن صَرَمتْ حبلي
بُثَينةُ أو أبدتْ لنا جانِبَ البُخْلِ [3]

ولقد رأينا من قبل كيف أن الفرزدق عَدَّ ابنَ أبي ربيعة زعيمَ الغَزلِ على الإطلاق . وها نحن نراه في الخبر التالي يؤكد رأيه السابق فيه فيَعُدُّه أغزل الناس ، وأن أي شاعر آخر لا يستطيع أن يرقى إلى مستواه في النسيب .

جاء في الأغاني أن الهيثم بن عديّ قال :

« قدم الفرزدق المدينة وبها رجلان يقال لأحدهما « صُوَيْم » والآخر « ابنُ أسماء » وُصِفا له فقصدهما ، وكان عندهما قِيانٌ ، فسلَّم عليهما فقال

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ٨٩ — ٩٠ .

(٢) الأطلال : جمع طلل وهو ما بقي شاخصاً مرتفعاً عن سطح الأرض من آثار الديار . والتربع : المنزل يسكنه القوم أيام الربيع . وبطن حليات : موضع قرب المَغَمَّس الواقع في طريق الطائف ، والبلقع : الخالي الذى لا أنيس به .

(٣) ديوان جميل : ص ٩٨ .

لها : من أنتما ؟ قال أحدهما : أنا فرعون ، وقال الآخر : أنا هامان ! قال : فأين منزلكما في النار حتى أقصدَ كما ؟ فقالا : نحن جيرانُ الفرزدق الشاعر ، فضحك ونزل وسلّم عليها وسلّما عليه وتعاشروا مدة ، ثم سألها أن يجمعا بينه وبين عمر بن أبي ربيعة ففعلا ، واجتمعا وتحادثا تناشُداً إلى أن أنشد عمرُ قصيدته التي يقول فيها :

فلما التقينا واطمأنَّتْ بنا النوَى وغُيِّبَ عنا مَن نخاف ونُشفِقُ

حتى انتهى إلى قوله :

فقُمْنَ لكي يُخلِينَنا فترَقْرَقَتْ مدامعُ عينيها وظلَّتْ تَدَفَّقُ

وقالت: أمَا ترْحمْنني؟ لا تدَعْنني لدى غَزِلٍ جمٍّ الصَّبابة يَخْرُق

فقُلنَ اسكُتي عنَّا فلستِ مُطاعةً وخلُّكِ مِنَّا فاعلَمِي بكِ أرْفَقُ

فصاح الفرزدق : أنت والله يا أبا الخطاب أغزلُ النـــاس ، لا يُحسن والله الشعراءُ أن يقولوا مثل هذا النسيب ، ولا أن يَرْقُوا مثلَ هذا الرُّقْيةِ ... وودعه وانصرف [1] » .

*

صور أخرى من النقد :

وتتمثل هذه الصور في مآخذ بعض النقاد والأدباء على الشعراء ، أو مآخذ الشعراء بعضهم على بعض . وقد لمستْ هذه المآخذُ جوانبَ مختلفة من الشعر ، جوانبَ لا تكشف عن تباين أذواق النقاد وأهوائهم ونظراتهم فحسب ، وإنما

(١) الأغاني : ج ١ ص ١١٨ .

تدُل أيضاً على اتساع مجال النقد في هذا العصر وتطورهِ عما كان عليه في العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام .

ولعل عمرَ بن أبي ربيعة كان أكثر شاعر في الحجاز اهتم النقادُ بشعره . كان له أنصاره الذين فـُتنوا به وبشعره وفضلوه على سائر الشعراء ، بل منهم من عزا إليه اكتشافَ الغزل الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأتـه وبكت الديار ووقع هو عليه .

ولكن إلى جانب هؤلاء الأنصار كان هناك المعارضون لشعره المشفقون من اتجاهه الإباحي التحرري ، كما كان هناك من لهم بعضُ المآخذ على فنه الشعري .

فممن عاب اتجاهه الأباحي في الغزل عبدُ الله بن الزبير . كان إذا سمع قوله: « فيضحَي وأما بالعشى فيخصر » قال : لا بل : « فيخزَى وأمـا بالعشى فيخسر ! »[1] .

ومنهم أبو المقوم الأنصاري ، فقد قال : « ما عُصِي الله بشيء كما عُصِي بشعر عمر بن أبي ربيعة[2] » . وإذا كان ابن عتيق أولَ مَن قال هذه الكلمة في معرض ذكر محاسن شعر عمر ، فإن ابن المقوم قد استعملهـا في الطعن على غزله الإباحي الذي يُغرى بالمعاصي !

ومنهم كذلك هشام بن عروة الذي كان يدرك مدى خطورة شعر عمر على أخلاق الفتيات ، ولهذا نراه يقول : لا تُرَوُّوا فتياتكم شعر عمر بن أبي ربيعة لا يتورطن في الزِّنَى تورُّطاً ، وأنشد :

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ٦١ . وابن الزبير يشير هنا إلى قول عمر :
رأت رجلا أما إذا الشمس عارضت ... فيضحى وأمـا بالعشى فيخصر

(٢) الأغاني : ج ١ ص ٦٢

لقد أرسلتُ جاريــتي وقلتُ لها : خُذي حَذَرَكْ
وقولي في معاتبــةٍ لزينبَ نوّلي عُمَرَكْ [1]

ومع صداقة ابن أبي عتيق لعمر وإعجابه الشديد بشعره وتفضيله على معاصريه فإنه لم يسلم من نقده . أنشده عمرُ مرة قوله :

بينما يَنْعَتْنَني أبصرْنَني دونَ قِيد المِيل يَعدُو بي الأغرّ
قالت الكبرى : أتعرِفْنَ الفتى؟ قالت الوسطى : نَعَمْ هذا عمرْ
قالت الوُسْطَى وقد تيَّمْتُها قد عرفناه..وهل يخفى القمرْ ؟

فقال له ابن أبي عتيق : أنت لم تنسُب بها ، وإنما نسبتَ بنفسك ! كان ينبغي أن تقول : قلتُ لها ، فقالت لي ، فوضعت خدي فوطِئتْ عليه [2] .

فابن أبي عتيق يرى من هذه الأبيات أن صاحبه واقعٌ في حب نفسه مفتونٌ بها ، يظن أنه يتغزل في المرأة ، وهو من حيث يدري أو لا يدري يتغزل في نفسه ! ومن أجل هذا قال له ما قال تقويماً لما يراه من انحراف في اتجاه الغزل مُنافٍ لطبيعته وصدقه . وإذا كانت المرأة هي موضوعَ الغزل ومعبودةَ الشاعر ، فإن عليه إنْ كان محباً حقاً وصادقاً في عاطفته حقاً الا يبتذلها ويُرخصَ عواطفها ويجعلها تتهالك عليه !

فاتجاه الغزل الطبيعي في نظر ابن أبي عتيق – كما يبدو – هو ما ظهرت المرأة فيه في صورة مَن تتمنّع وتتأبّى والرجل في صورة مَن يتودّد إليها ويتذلّل .

ومما يعزّز رأي ابن أبي عتيق هذا ما حدّث به الزُّبَير بن بَكّار قال :

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ٦٢ (٢) المرجع نفسه : ج ١ ص ٩٢ .

« أدركتُ مَشْيَخَةً من قريش لا يَزِنُون بعمر بن أبي ربيعة شاعراً من أهل دهره في النسيب، ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره من مدح نفسه، والتَّحَلِّي بمودته، والابتيار في شعره[1] ».

فبعض شيوخ قريش كما يُفهَم من هذا الحديث كانوا – كابن أبي عتيق – يستقبحون من الشاعر أن يمدح نفسه في النسيب، وأن يفخر بأن النساء يخطبن وُدَّه، وأن يدفعه الإعجاب والزهو بنفسه إلى التعبير صراحة عما يجري بينه وبينهن من مغامرات عاطفية. ومع استقباح بعض شيوخ قريش لهذا الاتجاه في في الغزل فإنهم بدافع العصبية القرشية كانوا يستحسنونــه من عمر بن أبي ربيعة القرشي!

وكابن أبي عتيق وبعض شيوخ قريش عابه كُثيِّر على تشبيبه بنفسه، وذلك في مجلس ضمّهما هما والأحوص ونُصيب.

قال ابن عبد ربه: « قدم عمر بن أبي ربيعة المدينة، فأقبل إليه الأحوص ونُصَيْب، فجعلوا يتحدثون. ثم سألهما عمر عن كُثيِّر، فقالوا: هو ها هنا قريب. قال: فلو أرسلنا إليه؟ قالوا: هو أشدُّ بَأْوًا[2] من ذلك. قال: فاذْهَبا بنا إليه. فقاموا نحوه، فألفَوْه جالساً في خيمة له. فوالله ما قام للقرشيِّ، ولا وسَّع له. فجعلوا يتحدثون ساعة. فالتفت إلى عمر بن أبي ربيعة، فقال له: إنك لشاعر، لولا أنك تشبِّب بالمرأة، ثم تَدَعُها وتُشبِّب بنفسك. أخبرني عن قولك:

ثم اسْبَطَرَّتْ تَشْتَدُّ في أَثَرِي تسأل أهلَ الطوافِ عن عمرِ[3]

(١) الأغاني: ج ١ ص ٩٢. الابتيار: أن يفعل الإنسان الشيء فيذكرَه ويفخرَ به. والابتهار: أن يقول ما لم يفعل. (٢) البأو: الكِبْر والعظمة.
(٣) اسبطرَّ: أسرع في المشي.

والله لو وصفتَ بهذا هِرّةَ أهلك لكان كثيراً ! ألاَ قلت كما قال هـذا ، يعني الأحوص :

أدور ولولا أن أرى أمَّ جعفرٍ بأبياتكم ما دُرْتُ حيثُ أدورُ
وما كنتُ زوّاراً ولكنَّ ذا الهوى وإنْ لم يَزُرْ لا بُدَّ أنْ سيزورُ ؟

قال : فانكسرتْ نخْوَةُ[1] عمر بن أبي ربيعة ودخلت الأحوصَ زَهْوَةٌ . ثم التفت إلى الأحوص ، فقال : أخبرني عن قولك :

فإنْ تَصِلِي أَصِلْكِ وإنْ تبِيني بِهَجْرِكِ بعد وصلك ما أبالي

أمَا والله لو كنتَ حُرّاً لَبالَيْتَ ولو كُسِرَ أنفُك . ألاَ قلت كما قال هذا الأسود ، وأشار إلى نُصَيب :

بزينب أَلِمْ قبلَ أنْ يرحلَ الرّكْبُ
وقُلْ : إن تَمَلِّينا فما مَلَّكِ القلبُ ؟

قال : فانكسر الأحوص ، ودخلت نُصَيبا زَهْوَةٌ . ثم التفت إلى نُصَيب فقال له : أخبرني عن قولك :

أهيمُ بدَعْدٍ ما حييتُ فإن أُمتْ فواكَبِدِي مَن ذا يهيم بها بعدي ؟

أَهَمَّكَ وَيْحَكَ مَن يفعل بها بَعْدَكَ ؟ . فقال القوم : الله أكبر استوتِ الفِرَق . قوموا بنا مِن عِند هذا[2] » .

فكُثيِّر في هذا الخبر ينقد عمر ويعيب عليه تشبيبه بنفسه ، كما ينقد صاحبيه

---

(١) النخوة : العظمة والكِبْر والفخر (٢) العقد الفريد : ج ٥ ص ٣٧٢–٣٧٣

الأحوص ونُصَيْبا نقداً معنوياً ، فيحكم لهما بصحة بعض المعـــاني لمطابقتها لمقتضى الحال ، وخطأ بعضها الآخر لعدم المطابقة .

ولم يكن الرجال وحدهم الذين عـــابوا على عمر تشبيبه بنفسه ، بل من النساء مَن فَطِنتْ إلى هذه الظاهرة في شعره وانتقدته عليها .

ذكر أبو الفرج أن عمر بن أبي ربيعة خرج يريد الشام ، فلما كان بالجَناب لقيه « جميل » فتناشدا الأشعار ، ثم قال عمر : « اذهب بنا إلى بثينة نُسلِّم عليها ، فقال له جميل : قد أهدر لهم السلطانُ دَمِي إنْ وجدوني عندها ، وهاتيك أبياتُها .

فأتاها عمرُ حتى وقف على أبياتها ، وتأنَّسَ حتى كُلِّم فقال: يا جارية ، أنا عمر بن أبي ربيعة فأعلمي بثينة مكاني ، فخرجتْ إليـه بثينة في مَباذلها وقالت : والله يا عمر لا أكون من نسائك اللاتي يزعمن أنْ قد قتلهُنَّ الوجدُ بك ، فانكسر عمر [1] » .

فبثينة إذ قالت لعمر ما قالت إنما تنتقده على هذا الاتجاه المنحرف في غزله حيث يصور نفسه في صورة المعشوق لا العاشق ، والمطلوب لا الطالب ، ويصور صواحبه في صورة من قد قتلهُنَّ الوجدُ به !

ومما التفت إليه النقاد في هذا العصر أيضاً عدمُ المشاكلة أو عدم الجمع بـين الشيء وما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من أي وجه من الوجوه ، وهو ما أطلق عليه رجال البديع فيما بعد « مراعاة النظير » .

ذكر أبو العباس المبرد أن الكميت بن زيد أنشد نُصَيباً فاستمع له ، فكان مما أنشده :

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٢٠٣-٢٠٤ .

وقد رأينا بها حُوراً مُنَعَّمةً   بيضاً تكامل فيها الدَّلُّ والشَّنَبُ[1]

فثنَى نُصَيب خِنصره ، فقال له الكميت : ما تصنع ؟ فقال : أُحْصِي خطأك ، تباعدتَ في قولك : « تكامل فيها الدَّلُّ والشَّنَبُ » .

هَلاّ قلتَ كما قال ذو الرُّمَّة :

لمياءُ في شفتيها حُوَّةٌ لَعَسٌ   وفي اللِّثاتِ وفي أنيابها شَنَبُ[2]

وقد علّق المبرد على نقد نُصيب هنا بقوله : والذي عابه نُصَيب من قوله: « تكامل فيها الدَّلُّ والشنب » قبيح جداً . وذلك أن الكلام لم يجر على نظم ، ولا وقع إلى الكلمة ما يشاكلها. وأول ما يُحتاج إليه القول أن يُنتَظم على نسق ، وأن يوضع على رسم المشاكلة[3] .

كذلك فطنوا في نقدهم إلى الشعر الوسط ، وهو ما لا يقدر إنسان أن يقول لصاحبه أصبت أو أخطأت ، أو الشعر الذي لا يبلغ غايةَ صاحبه ولكن يقع قريباً منها .

حدَّثَ أحمدُ بن سهل راويةُ الكميت عن الكميت قال : « لما قدم ذو الرُّمَّة أَتيتُه فقلت له : إني قلت قصيدة عارضتُ بها قصيدتك :

ما بالُ عينكَ منها الماءُ يَنسَكِبُ   كأنه من كُلىً مَفرِيَّةٍ سَرِبُ[4]

فقال لي : وأيّ شيء قلتَ ؟ قال قلتُ :

---

(١) الشنب : رقة وبرودة وعذوبة في الأسنان   (٢) الكامل للمبرد : ح ٢ ص ٢٦٠ لمياء : ذات لَمىً ، واللمى واللعس والحُوَّة : سُمْرة في الشفة مستحسنة . واللثات : جمع لثة ، وهي اللحم المحيط بالأسنان .   (٣) المرجع السابق .

(٤) انظر هذه القصيدة في جمهرة أشعار العرب للقرشي : ص ٣٣٨ . والكُلى : جمع كُلْية ، ومفرية : مشقوقة . وسَرِبٌ : سائل .

هل أنت عن طلب الأيفاعِ مُنقلِبُ
أم كيف يَحْسُنُ مِن ذي الشَّيْبةِ اللَّعِبُ ؟[1]

حتى أنشدته إياها .

فقال لي : ويحك ! إنك لتقول قولاً ما يقدر إنسان أن يقول لك أصبتَ ولا أخطأت ، وذلك أنك تصف الشيء فلا تجيء به ولا تقع بعيداً عنه ، بل تقع قريباً .

قلت له أو تدري لم ذاك ؟ قال : لا . قلتُ : لأنك تصف شيئاً رأيتَه بعينك ، وأنا أصف شيئاً وُصِفَ لي ، وليست المعاينةُ كالوصف . قال : فسكتَ[2] » . فالكميت بهذا القول يشير إلى الفرق بين الوصف الذي هو وليدُ المعاينة والإدراكِ البَصَريّ ، والوصف الذي هو وليد التصور .

ومما يؤكد قولَه ما ذكره الأغاني عن حماد الراوية قال : « كان للكُمَيْت جدتان أدركتا الجاهلية فكانتا تصفان له البادية وأمورها وتخبرانه بأخبار الناس في الجاهلية ، فإذا شك في شعر أو خبر عرضه عليهما فيخبرانه عنه . فمن هنا كان علمه[3] » .

وفي هذه المرحلة المبكرة من تاريخ النقد الأدبي بدأ الكلام يظهر عن السرقات الشعرية أو عن أخذ بعض الشعراء من بعض .

روى الأغاني عن طلحة بن عبدالله بن عوف قال : « لقي الفرزدق كُثيِّرا بقارعة البلاط وأنا وهو نمشي نريد المسجد ، فقال له الفرزدق : يا أبا صخر ، أنت أنسَبُ العرب حين تقول :

---

(١) الأيفاع : جمع يافعة ، وهي الفتاة الكاعب التي شارفت البلوغ .

(٢) الأغاني : ج ١٥ ص ٢٨٥ — ٢٨٦ (٣) المرجع نفسه

أريد لأنسى ذكرها فكأنما   تمثَّلُ لي ليلَى بكلّ سبيلِ

يُعَرِّض له بسرقته من جميل . فقـال له كُثَيِّر : وأنت يا أبا فراس أفخر الناس حين تقول :

ترى الناسَ ما سِرْنا يسيرون خلفَنا   وإن نحن أَوْمَأْنا إلى الناس وقَّفُوا

... وهذا البيت أيضاً لجميل سرقه الفرزدق [1] » . فهذان البيتان جميعاً لجميل سرق أحدَهما الفرزدق ، وسرق الآخرَ كُثَيِّر .

ومن هذا القبيل ما تحدث به محمد بن يحيى أبو غسّان قال : « تفاخر مولىً لعمر بن أبي ربيعة ومولى للحارث بن خالد بشعريهما ، فقال مولى الحارث لمولى عمر : دعني منك ، فإن مولاك — والله — لا يعرف المنازل إذا قُلِبت ، يعني قول الحارث في الأبيات السابقة التي مطلعها :

إني وما نَحروا غداة منى   عند الجمار يَؤُدُّها العَقْلُ

فقال مولى ابنِ أبي ربيعة لمولى الحارث : « والله مـا يُحسن مولاك في شعر إلا نُسِب إلى مولاي [2] » .

كذلك عرضوا لصفات الألفاظ ، فعابوا من الشاعر أن يتراوح أسلوبه بين جزالة البدو ورقة الحضر في التعبير عن المعنى الواحد .

من ذلك ما ذكره الأغاني عن الهيثم بن عدى قال : « قال لي صالـح بن حسان : هل تعرف بيتاً نصفُه أعرابيٌّ في شَملة ، وآخِرُه مُخَنّثٌ من مُخَنّثي العقيق ؟ فقلت : لا أدري . قال : قد أجَّلْتُكَ فيـه حَوْلاً . فقلت : لو أجَّلْتَني حَوْلَيْن ما علمتُ . قال : قولُ جميـل . « ألاَ أيُّها النُّوَّامُ

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ١٤٣ – ١٤٤   (٢) المرجع نفسه : ج ٣ ص ١٩٧ .

وَيَنحَكُمْ هبُّوا » . هذا أعرابي في شملة ، ثم قال : « نُسائلُكم هل يقتلُ الرجلَ الحبُّ » كأنه والله من مخنَّثي العقيق [1] » .

ومما أخذوه على الشعراء أن يقلِّد بعضُهم بعضاً في أسلوبه الشعري أو طريقته الفنية التي عُرِف بها ، وذلك كتقليد جميل لعمر بن أبي ربيعة في حواره القصصي .

جاء في الأغاني أن بثينة لما قالت لابن أبي ربيعة في خبر سابق : والله يا عمر لا أكون من نِسائك اللاتي يزعمن أنْ قد قتلهُنَّ الوجدُ بك » قال لها قولَ جميل :

وهما قالتا لو انَّ جميلاً عَرَضَ اليومَ نظرةً فرآنا
بينما ذاك منهما وإذا بي أُعمِلُ النَّصَّ سَيْرَةً زَفَيانا [2]
نظرت نحو ِتربها ثم قالتْ قد أتانا ـ وما علمنا ـ مُنانا [3]

فقالت إنه استملى منك فما أفلح ، وقد قيل : اربط الحمار مع الفرس ، فإن لم يتعلم من جَرْيه تعلم من خلقه [4] » . فهي بهذه الكلمة تشير إلى تأثر جميل بطريقة عمر في الحوار القصصي وعجزه عن بلوغ مستواه في ذلك .

*

السيدة سُكينة الناقدة :

وإذا كان ابنُ أبي عتيق هو الناقدَ الأول من غير الشعراء في الحجاز إبَّان

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ١٦٤ (٢) النصُّ : السير الشديد الذي يُستخرج فيه أقصى ما لدى الناقة من السير . والزَّفَيان : شدة هبوب الريح ، وسيرة زفيان : سيرة سريعة .

(٣) التِّرْب : اللِّدة . (٤) الأغاني : ج ٧ ص ٢٠٤ .

العصر الأموي ، فإن السيدة سكينة تحتل بعده المرتبة الثانية من حيث الاهتمام بالشعر ونقده . ومع ما كان لكل منهما من منزلة دينية عالية ، فإنهما خير مَن يمثل هذا العصر من غير الشعراء ، وخيرُ من يمثل أهل الحجاز في ظَرفهم وحبهم للأدب وبصَرهم فيه .

والسيدة سكينة هي بنت الحسين بن علي بن أبي طالب . كانت سيدة نساء عصرها ، ومن أجمل النساء وأظرفهنّ وأحسنهن أخلاقاً ، وقد عُرِفت بذوقها الأدبي ونقد الشعر والغنـــاء . وكان الشعراء والأدباء والمغنون ورواة الشعر يختلفون إلى مجلسها ويتحاكمون إليها فتنتقدهم وتجيز الشعراء على ما تراه حسناً من قولهم .

وكان لها مع الشعراء وغيرهم نوادرُ وحكايات ظريفة . من ذلك مـا يُروَى أنها وقفت على عُروة بن أذينه وكان من أعيان العلماء وكبار الصالحين وله أشعار رائقة فقالت له : أنت القائل :

إذا وَجدْتُ أُوَارَ الحب في كبدي ذهبت نحو سِقاء الماء أبتردُ [1]

هَبْنِي برَدت ببرد الماء ظاهِرَهُ فمن لنارٍ على الأحشاء تتقد ؟ [2]

فقال لها : نَعم . فقالت . وأنت القائل :

قالتْ وأَبْثَثْتُها حُبـِّي وبُحتُ به قد كنتَ عندي تحب السِّتْرَ فاسْتَـتِرِ

ألستَ تُبصر مَن حولي؟فقلتُ لها غطِّى هواكِ وما ألقى على بَصَري ؟

قال : نعم . فالتفتتْ إلى جوارٍ كُنَّ حولها وقالت : هُنَّ حرائر إن كان خرج هذا من قلب سليم [3] .

---

(١) السقاء : قربة الماء . (٢) ظاهِرَه : أي ظاهر الكبد . والكبد تذكر وتؤنث .
(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان : ج ٢ ص ٢٩٨ .

ودخل عليها كُثيِّر عزة ذات مرة فقالت له : يا ابنَ أبي جمعة ، أخبرني عن قولك في عزة :

وما رَوضةٌ بالحَزْنِ طيِّبَةُ الثَّرَى يَمُجُّ الندى جَثْجَاثُها وعَرارُها[1]

بأطيبَ من أردان عزَّةَ مَوْهِناً وقد أُوقِدتْ بالمَندلِ الرَّطْب نارُها[2]

ويحك ! وهل على الأرض زنجية مُنتنةُ الإبِطَيْن ، تُوقد بالمندل الرطب نارها إلا طاب ريحُها ؟ ألاَ قلت كما قال عمك امرُؤ القيس :

ألم تر ياني كلما جئتُ طارقـاً وَجَدْتُ بها طِيباً وإنْ لم تَطَيَّبِ ؟

وأنشِدتْ قولَ الحارث بن خالد ؟

ففرَغْنَ مِن سَبْعٍ وقد جُهِدَتْ أحشاؤهنَّ موائـلَ الخُمْرِ

فقالت : أحَسنٌ عندكم ما قال ؟ قالوا نعم ، فقالت : وما حُسْنه ؟ فوالله لو طافت الإبل سبعاً لَجُهِدَتْ أحشاؤها[3] .

وتسمع نُصَيباً يقول :

أهيم بدَعْدٍ ما حييت فإن أُمتْ فوا حَزَنا مَن ذا يَهيمُ بها بَعْدِي ؟

فتعيبه بأنه صرف رأيَه وهمّه إلى من يَعشَقُها بعده ، وتُفضّل أن يقول:

---

(١) الجثجاث : نبات سهل ربيعي : إذا أحسّ بالصيف ولّى وجف . والعَرار : بهار البر . وهو نبت طيب الريح .

(٢) الأردان : جمع رُدْن وهو الثوب ، والموهن : نحوٌ من نصف الليل ، وقيل بعد ساعة منه أو حين يُدبر الليل . والمندل : العود الرطب الطيب الذي يُتبَخّر به .

(٣) الأغاني : ج ٣ ص ٢٠٨

أهيم بدَعْدٍ ما حييتُ فإنْ أُمتْ   فلا صَلَحَتْ دَعْدٌ لذي خُلَّةٍ بَعْدِي [1]

وتسمع كذلك الأحوص يقول :

مِن عاشقين تراسلا وتواعدا   ليلاً إذا نجم الثريَّا حلَّقا

باتا بأنعم ليلة وألذّها   حتى إذا وَضَحَ الصباحُ تفرَّقا

فتقول : كان الأولى أن يقول : تعانقا بدل تفرّقا [2] .

*

وبعد ... فتلخيصاً لكل ما تقدم نذكر أن النهضة الشعرية التي شهدتها بيئة الحجاز المترَفة قد استتبعت نهضة أخرى في النقد الأدبي، نهضةً تجاري النهضة الشعرية في روحها ، وتتسم إلى حدّ ما برقيٍّ في الذوق ، واتساعٍ في الأفق والنظرة ، والتفاتٍ إلى بعض جوانب جديدة من النقد لم يلتفت إليها النقاد السابقون .

والمطّلع على تاريخ النقد الأدبي في العصر الأموي يُدهشه ما يرى في بيئة الحجاز من اهتمام عام بالنقد على جميع المستويات وبين مختلف الطبقات رجالاً ونساء . وهذا الاهتمام العام يدل فيما يدل على أن النقد الأدبي في الحجاز قد أخذ منذ عصر بني أمية يتطور ويشق طريقه نحو آفاق جديدة ، حتى ليمكن القول بأنّ ما سبقه من نقد لم يكن إلا نواةً أو محاولاتٍ أولية للريادة والكشف على طريق النقد القويم .

وقد رأينا على ضوء ما سبق تفصيله أن النقد الأدبي في بيئة الحجاز قد

---

(١) النقد الأدبي للأستاذ أحمد أمين : ص ٤٥٥ . ورد هذا النقد في كتاب الشعر والشعراء: ص ٤١٢ منسوباً أيضاً إلى عبد الملك بن مروان،

(٢) المرجع نفسه : ص ٤٥٦

تحرّك في اتجاهات متعددة وظهر في صور شتى منها القديمُ المسبوق ، ومنها الجديدُ الذي فَطِن إليه كلّ مَن عرضوا لنقد الشعر الحجازي . ويمكن إجمال كل ذلك فيما يلي :

(١) **نقد الشعراء بعضهم بعضاً** : ولعل أوفاهم نصيباً من ذلك عمر بن أبي ربيعة ، فقد أقرّ له معاصروه بالتقدم في الغزل شكلاً وموضوعاً واتجاهاً ، حتى لنجد شاعراً من فحول شعراء العصري الأموي ، وهو الفرزدق يقول عندما سمع بعضَ تشبيب عمر : « هذا الذي كانت الشعراء تطلبه فأخطأته وبكت الديار ووقع هذا عليه » .

(٢) **الأحكام غير المعللة** : ومن نقد الشعراء بعضهم بعضاً ما أتى على صورة أحكام غير معللة تذكّرنا بأحكام نقاد العصر الجاهلي وعصر صدر الإسلام ، وذلك كالحكم للشاعر جميل بن مَعْمر بأنه أشعر أهل الإسلام ، أو أشعر أهل الإسلام والجاهلية ، أو أشعر الناس . وكذلك كالحكم للشاعر نُصَيْب بن رباح بأنه أنسب الناس ، أو أشعر أهل جلدته ، أي أشعر السودان فقط .

هذا عما أُثِر عن الشعراء الذين عرضوا للشعر الحجازي بالنقد ، أما النقاد من غير الشعراء في ذلك العصر فخير من يمثلهم ابنُ أبي عتيق والسيدة سكينة . وهؤلاء النقاد قد خاضوا في بعض القضايا الهامة المتصلة بالنقد . ومما فطِنوا إليه في ذلك :

(١) **دور العاطفة في الشعر والنقد** : أجل فطن هؤلاء النقاد إلى دور العاطفة وأثرها في جمال الشعر وقيمته والحكم عليه . فأجمل الشعر وأجوده في نظرهم ما عبّر في قوة وصدق عن عاطفة صاحبه ، وأثّر كذلك في عواطف سامعيه . بمعنى أن يكون له موقع في القلب وعُلوقٌ في النفس ، مع البلاغة في الوفاء بغرضه والتعبير عنه .

(٢) **التحول في مقياس النقد** : حاول ابن أبي عتيق أن يتخذ من إباحية

عمر في غزله مقياساً جديداً يقيس به الشعر ويفاضل به بين شعر وشعر على أساس أن هذا اللون من الشعر هو الذي يمثل ذوق مجتمعه المترَف وأهواءه .

ولكن آخرين من النقاد أعربوا عن تَخوّفهم من هذا الشعر الذي يُغري بالمعاصي ، ورفضوا اتخاذه مقياساً للنقد ، وآثروا عليه مقياس صدر الإسلام القائل بأن خيرَ الشعر وأحسنه هو ما وافق الحق ودعا إلى الفضائل ومكارم الأخلاق .

(٣) **ظهور الأحكام المعلّلة :** كذلك بدأ يظهر في بيئة النقد بالحجاز ميل إلى الأحكام المعلّلة . فابن أبي عتيق مثلاً إذ يحكم لعمر بن أبي ربيعة بأنه أشعر شعراء قريش يُردف هذا الحكم بأسبابه التي تتمثل عنده في دقة المعنى ، ولطف المدخل ، وسهولة المَخرج ، ومتانةِ الحَشْوِ ، وتَعَطّف الحواشي ، وإنارة المعاني ، والإعراب عن الحاجة . ومن هذه الأسباب ما يرجع – كما نرى – إلى المعنى أو اللفظ أو إصابة الغرض .

(٤) **الموازنات الشعرية :** وُجِدت بعضُ الموازنات من قبلُ ولكنّ الأحكامَ بالتفضيل فيها كانت عامة غيرَ معلّلة ، وقد امتد هذا النوع من الموازنات إلى النقد في بيئة الحجاز ، كالموازنة التي فَضّلَ فيها كثيّرٌ جميلاً على نفسه ، وكالموازنة بين عمر وجميل في قصائد معينة ، والتي قيل فيها إن عمر أشعر من جميل في الرائية والعينية ، وإن جميلاً أشعر منه في اللامية .

ولكن إلى جانب ذلك نرى صوراً أخرى من الموازنات الشعرية يُبنَى التفضيلُ فيها على أحكام مُعللة ، أو يَلتفت فيها النقادُ إلى جوانب من النقد العربي غيرِ مسبوقة .

ومن أمثلة ذلك موازنةُ ابن عتيق بين عمر والحارث بن خالد في موضوع معين ، هو موضوع وصف الرَّبع ، ومنها موازنته بين كثيّر وابن قيس الرقيات في الغزل ، والحكم للثاني على الأول بأنه أكثر منه علماً بطبائع النساء وأوضع

للصواب موضعَه فيهن . ومنهـــا أيضاً موازنة سعيد بن المسيب بين عمر وابن قيس والحكمُ لعمر بأنه أشعر بالقول في الغزل ، ولابن قيس بأنه أكثر أفانين شعر ، أي أكثر تنوعاً في أساليب الكلام وطرُقه وأغراضه .

وقد تطرّق النقاد في هذه الموازنات إلى بعض أمور كان لها أثرها في تطوير النقد الأدبي وتوسيع مجالاته في العصر الأموي .

من ذلك الايحاءاتُ الشعرية ودلالتُها على قيمة العمل الفني ، ومنهـا كذلك غموضُ المعاني ، والتناقضُ المعنوي ، والمبـالغةُ التي تُبعد الشعر عن الصدق وتُدنيه من الكذب .

كذلك نراهم يؤثرون الشعر الذي ينبعث عن القلب لا عن العقـل ، وخيرُ مثال لذلك موازنة ابن أبي عتيق بين غزل كُثيِّرٍ من ناحية ، وغزلِ كلٍّ من عمر بن أبي ربيعة وابن قيس الرقيات من ناحية أخرى . فقد فضّل في هـــذه الموازنة عمرَ وابنَ قيس على كُثيِّرٍ لأنهما يَصدُران في غزلهما عن عاطفة صادقة ، على حين يَصدُر غزلُ كثيِّر عن عقل ومنطق ، الأمر الذي يدل على أنـــه يستوحي عقله لا قلبه .

(٥) **تشبيب عمر بنفسه** : عاب النقاد على عمر هذا اللونَ من الغزل الذي يصوّر فيه نفسه على أنه المعشوق لا العاشق والمطلوب لا الطالب . ورأوا فيـه نوعاً من الانحراف ينافي الطبيعة التي تَحكم العلاقة العاطفية بين الرجل والمرأة .

فابنُ أبي عتيق وهو أكثر أصدقائه مودّةً له وإعجاباً بشعره لم يُعفِه من النقد على ذلك فيقول له : « أنت لم تَنْسُب بها – صاحبتِه – ، وإنما نسبت بنفسك ! كان ينبغي أن تقول : قلتُ لهـــا ، فقالت لي ، فوضعتُ خدّي فوطئتْ عليه ! » .

وكُثيِّر يقول له : « إنك لشاعر ، لولا أنك تشبب بالمرأة ، ثم تدعهـــا

وتشبب في نفسك ! » ثم يُنشد قول عمر :

ثم اسْبَطَرَّتْ تشتدُّ في أَثَري تسأل أهل الطواف عن عمر

ويعلق عليه بقوله : والله لو وصفتَ بهذا هِرَّةً أهلك لكان كثيراً » !

وبثينة صاحبة جميل تقول له : « والله يا عمر لا أكون من نسائك اللاتي يزعمن أنْ قد قتلهُنَّ الوجدُ بك ! » .

(٦) **غزل عمر الاباحي :** لقي غزل ابن أبي ربيعة استحساناً وترحيباً حاراً من الناس على اختلاف طبقاتهم رجالاً ونساء في الحجاز وغير الحجاز ، وذلك لما كان يسري في نسيجه من نزعة إلى التحرر والانطلاق ، ومن تعبير صريح عن تجاربه العاطفية مع صواحبه .

وقد تأثر بفنه الشعري في الغزل بعضُ معاصريه فنهجوا نهجه واتّبعوا طريقته وإن لم يبلغوا شأوه . أما إعجابُ العامة بشعره فكان ينبع من أنهم يجدون فيه ترويحاً لقلوبهم وتنفيساً عن عواطفهم المكبوتة ، ولهذا عندما فارق الحياة كان جزعُهم عليه جزعاً على شعره الذي يُبهجهم ويُلَبِّي عواطفهم .

حكى صاحبُ الأغاني عن مُصعَب قال : « كانت حَبَشيّةٌ من مولَّدات مكةَ ظريفةٌ صارت إلى المدينة ، فلما أتاهم موتُ عمر بن أبي ربيعة اشتد جزعها ، وجعلت تبكي وتقول : مَن لمكةَ وشِعابها وأباطِحها ونُزَهِها ووصفِ نسائها وحسنِهنّ وجمالهن ووصف ما فيها ؟

فقيل لها : خَفّضِي عليك ! فقد نشأ فتى من وَلد عثمان رضي الله عنه، يأخذ مأخذه ويسلك مسلكه . فقالت : أنشدوني من شعره ، فأنشدوها ، فمسحت عينها وضحكت ، وقالت : الحمد لله الذي لم يضيع حرَمَه »[1] .

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ٣٨١ - ٣٨٢ . والفتى المشار إليه في هذا الخبر هو العرجي الشاعر.

فهذا الغزل الإباحي لم يُجِزه ولم يستحسنه أحد من النقاد غيرُ ابن أبي عتيق، أما الآخرون فعابوه وأشفقوا من تأثيره على أخلاق الفتيات وربّات الحِجال، حتى قال هشام بن عُروة: «لا تُرَوُّوا فتياتكم شعر عمر بن أبي ربيعة لا يَتورَّطْنَ في الزِّنى تورُّطاً».

(٧) **الشعر الوسط**: عاب النقاد هذا النوع من الشعر، وهو ما لا يقدر إنسان أن يقول لصاحبه أصبت ولا أخطأت، وذلك أنه يصف الشيء فلا يجيء به ولا يقع بعيداً عنه، بل يقع قريباً منه. ومن أمثلة ذلك شعر الكميت الذي عرضه على ذي الرُّمَّة.

(٨) **عدم المشاكلة**: كذلك التفت النقاد إلى عدم المشاكلة في الكلام، أي عدم الجمع بين الشيء وما يناسبه من نوعه أو ما يلائمه من أي وجه من الوجوه، وهو ما أطلق عليه رجالُ البديع فيما بعد «مراعاةَ النظير». ومن أمثلة ذلك نقدُ نُصَيب للكميت على الجمع بين «الدَّلّ والشنب» على ما بينهما من تباعد معنوي.

(٩) **السرقات الشعرية**: في هذا العصر بدأ الكلام يظهر ويتردد عن السرقات الشعرية، أو عن أخذ بعض الشعراء عن بعض. وقد مَرَّ بنا الحديثُ الذي دار حول هذا الموضوع بين الفرزدق وكثيِّر عزة، وبين مولى كلٍّ من الشاعرين الحارث بن خالد المخزومي وعمر بن أبي ربيعة.

(١٠) **تباين الأسلوب**: ومما عرض له نقادُ الحجاز صفات الألفاظ، فقد عابوا على الشاعر أن يتراوح أسلوبه بين جزالة البدو ورقة الحضر في التعبير عن المعنى الواحد، ومن أمثلة ذلك قول جميل:

أَلَا أيُّها النوامُ ويحكمُ هُبُّوا نسائلكم هل يقتل الرجلَ الحبُّ؟

فالشطر الأول منه على حد قول صالح بن حسان: «أعرابيٌّ في شَمْلة»،

والشطر الثاني : « كأنه والله من مُخَنَّثِي العقيق » !

(١١) **التقليد والمحاكاة** : ومما التفت إليه النقاد في هـذا العصر أيضاً تقليدُ بعض الشعراء بعضاً في الأسلوب ، ومحاكاتُهم لبعض خصائصهم الفنية ، وذلك كنقد بثينة لجميل على تقليد عمر في حواره القصصي . فقد مَرَّ بنا أن عمر لما أنشدها أبياتاً لجميل قالت له : « إنه استملى منك فما أفلح ، وقد قيل : ارْبِط الحمار مع الفرس ، فإن لم يتعلم من جَرْيِه تعلم من خُلُقه ! » . فهذه الكلمة ، كما سبق أن ذكرنا ، تشير إلى تأثُّر جميل بطريقة عمر في حواره القصصي وعجزِه عن بلوغ مستواه في ذلك .

*

وبعد .. فهذه صورة لما كان عليه النقد في بيئة الحجاز إبّان العصر الأموي . لقد تطور الأدب بفعل العوامل الجديدة التي طرأت على المجتمع الحجازي فتطور النقد تبعاً له . وكان الأدب والشعرُ بخاصة ظريفاً مَرِحاً فسايره النقد في ظَرفه وروحه المرحة ، كما رأينا في نقد ابن أبي عتيق . فهذا الناقد الذي ملأ الحجاز بنقده كان يصوغه في أسلوب تهكمي ساخر يصل به إلى غاية ما يريد ، ويكشف به عن مواطن الضعف والمؤاخذة في لمحة خاطفة ذكية مرحة .

ومع ما فَطِن إليه النقادُ في هـذا العصر من بعض عناصر الجمال أو القبح أو بعض مظاهر القوة أو الضعف في كلامهم ، فقد ظل الذوق الغالب على نقدهم هو الذوقَ الفطري ، أو الذوق العربي الخالص الذي لم يتأثر بعدُ بأصول علمية أو عناصر ثقافية أجنبية .

ذلك كله عن النقد في الحجاز ، أما النقد في العراق والشام والذي به نستكمل عرضنا لتاريخ النقد الأدبي في العصر الأموي ، فهو موضوع الفصلين التاليين ...

الفَصْلُ السَّادِسْ

النقـد في العـراق

العراق في العصر الأموي :

كان العراق في العصر الأموي مركز المعارضة السياسية للأمويـين في الشام . فمنه كانت تنطلق الثورات واحدةً تِلْوَ الأخرى ضـدهم بسبب العداوة التي كانوا يضمرونها للأمويين وأنصارهم من أهل الشام .

وشيئاً فشيئاً تبلورت معارضةُ أهل العراق للأمويين في حزبـين قويين : حزبِ الخوارج ، وحزبِ الشيعة . وكان لكلا الحزبين شعراؤه الذين يؤيدونه ويدافعون عن عقيدته ، ويدعون للثورة على الأمويين ومحاربتهم .

وقد خلّفتْ لنا معارضةُ الخوارج والشيعة ومعاركُهم مع الأمويين تراثاً أدبياً حافلاً . وهذا التراث يتميز منه أدب الخوارج بطابع القوة والشجاعـة وروح الفداء وصدقِ التعبير عن مذهبهم السياسيّ والدينيّ .

أما الأدب الشيعي من هذا التراث فيتميز بطابـع السخط والحزن : السخطِ على الأمويين الغاصبين للخلافة الإسلامية التي يراها العلويون حقّهم ، والحزنِ على المآسي المتعاقبة التي أصـابت آل بيت الرسول ، فقتلت منهم مَن قتلت ،

وشرّدَتْ مَن شرّدت .

ولما كان أكثرُ عرب العراق من العدنانيين وأكثرُ عرب الشام من القحطانيين فإننا نرى الصراع بين الإقليمين يرتد بفعل السياسة الأموية إلى صراع عصبياتٍ قبلية لم يقتصر على هذين الفرعين الكبيرين ، وإنما تجاوزهما إلى مَن عداهما من القبائل الأخرى التي تشايع هذا الفرع أو ذاك .

فهذا الاضطراب السياسي ممثّلا في أحزاب المعارضة ، وفي هذه العصبيات القبلية التي أحياها الأمويون خدمةً لمآربهم السياسية ، قد جعلت من العراق في العصر الأموي بيئة ينمو فيهما لونان من الشعر : الشعرُ السياسيّ ، والشعر القبلي .

أما الشعر السياسي فكان يمثّله أكثرَ تمثيل شعراءُ الأحزاب الذين التزم كلُّ فريق منهم بوجهة نظر حزبه ، وراح بشعره يؤيدها ويذود عنها .

وأما الشعرُ القبليُّ فخير من يمثله الفرزدق وجرير والأخطل والراعي وذو الرُّمّة والقُطامي ، ممن يُعرَفون بفحول شعراء هذا العصر .

فهؤلاء الشعراء الفحول هم من صميم أعراب البوادي ، فيها نشئوا وبها أقاموا طوال حياتهم ؛ فالفرزدق كان يقيم في بادية البصرة ، وجرير في بادية اليمامة ، والأخطل في بادية بني تغلب ، وكذلك كان الراعي وذو الرُّمّة والقطامي لا يعدلون بالبادية شيئاً .

وقد ظل هؤلاء الشعراء الكبار مرتبطين بالبادية بحكم نشأتهم بها ، كما ظلت الباديةُ مسيطرةً عليهم بروحها ومجتمعها وأسلوب الحياة فيها .

وكانوا إذا جدّ ما يستدعي رحلتَهم إلى المدن والحواضر ألمّوا بها إلماماً ، ثم أسرعوا عائدين إلى البادية ، حيث يستأنفون حياتهم التي لا تزال تغلب عليها التقاليدُ الجاهلية : من لهو وشراب ومفاخرات ومهاجيات وعصبيات ، ومن

تردد أحياناً على « المربد » لشَغْلِ فراغِ العامة بالنقائض ، وهم بين نصرانيّ كالأخطل والقُطامي ، أو مسلمٍ غيرِ متشدد في دينه كبقية الفحول على تفاوت بينهم في تمسكهم بعادات الجاهلية .

ولعل أولَ انطباع نخرج به من دواوين أولئك الشعراء أنهم كانوا أقلّ شعراء العصر الأموي تأثراً بالحياة الإسلامية الجديدة .

فهم إلى حدٍّ ما متحللون من الشعائر الدينية ، ينزعون إلى الحرية البدوية ، ولا يتورّعون عن المجاهرة بدوافع الشهوات والنزوات الاجتماعية والأحقاد القبلية .

كذلك نخرج بانطباع آخر من دراسة الصورة الشعرية عندهم ، فهي صورة تتميز بجزالة الأسلوب وكثرة الغريب من الألفاظ والمحافظة على النظام الجاهلي للقصيدة في ديباجتها ومعانيها وخيالها البدويّ القديم ، وإن كانوا قد انزلقوا في الهجاء إلى الفُحش والإقذاع والتعرض للحُرُمات .

ولم يكن من المعقول وهذا شأن أولئك الفطاحل الأفذاذ من الشعر أن يقفوا من الصراع السياسيّ الدائر في عصرهم موقف المتفرج أو غير المكترث ، فالواقع أنهم قد زجّوا بأنفسهم في مُعترَك السياسة وانفعلوا بها . وإذا كانت السياسة عند شعراء الأحزاب غايةً يجب أن تتوارى بجانبها القبيلةُ أو تكون القبيلةُ وسيلةً من وسائلها ، فإن السياسة عند الفحول كانت وسيلة لتحقيق غايات قبلية .

وعلى هذا الوضع تقاسمت الفحولَ عصبياتٌ قبليةٌ خضعوا في ظلّها لمصالح فردية ، وكان تأييدهم لسياسة الدولة العليا بمقدار استجابة القوّامين على هذه السياسة لمصالحهم الفردية أو القبلية .

ولهذا عاش هؤلاء الشعراء الفحولُ في ظل الخلافة الأموية دون أن ينغمسوا كل الانغماس في سياستها الحزبية ، أو يدخلوا مع الأحزاب في عراك يقوم على

أصول مذهبية أو نزعة سياسية خالصة .

فالأخطل مثلاً كان تغلبيّ النزعة تَعنيه مصالحُ قومه ، و من أجل هـــذه المصالح نراه ينحاز إلى الأمويين على قيس عَيْلان ليحمَى تغلبِ من غارات قيس ، فإذا لانَت أميةُ مع قيس غضب الأخطل ، وأخذ يتوعّد الخليفة عبدَ الملك بن مروان ، كما نراه ينضم إلى الفرزدق على جرير ، لا لشيء إلاّ لأن جريراً كان لسان قيس على تغلب .

وكان القـُطامِيُّ تغلبياً كذلك ، ولكنه عاش داخل الدائرة القبلية الضيقة دون أن يتصل بالسياسة العليا أو يزُجَّ بنفسه في خِضَمّ أحداثها .

والراعي شُغِل بقومه وبحياتهم الاقتصادية خاصـــة ، وتصوير سخطهم وشكواهم من بعض عمال الصدقات الذين كانوا يأخذونهم بالقسوة في جمعها منهم دون مراعاة لظروفهم البائسة . وذو الرُّمّة نأى بنفسه عن مجـال السياسة العامة ، واستبدّ به النسيب ووصفُ الطبيعـة ، وإن لم يسلم من التعصب ضد جرير .

أما الفرزدق فكان تميمياً ، على حين كان جرير قيسياً وإن لم يفصله ذلك تماماً عن قومه بني تميم .

وكان شعرُ الفحول السياسيُّ أقربَ في طبيعته إلى الشعر الجاهلي منه إلى الشعر الإسلامي ، فقد كان يدور أكثر ما يدور على المدح والهجـــاء والفخر والوصف والنسيب ، وكان الشاعرُ منهم ينبعث إليه بدافع العصبية القبلية أولاً والسياسة ثانياً .

مدحوا الخلفاء والأمراء والولاة ونالوا عطاياهم : كما اتصلوا بالأحزاب المختلفة لمصلحة الفرد أو القبيلة ، وذلك لما فُطِروا عليه من ميـــل إلى الحرية البدوية وتقاليدها ، وربما كان النظام الحكومي شيئاً منكراً عندهم لا يطمئنون إليه

كثيراً ، لما فيه من تحدٍّ لحريتهم ونزعتهم الاستقلالية .

لذلك لم يكن مستغرباً أن نرى شاعراً كالفرزدق يعاقر الخمر ، ويُجير بقبر أبيه ، ويتباهى بالمعاصي ، ويُصرِّح بالفجور ، ويمدح الناس بالظلم ، ويتعرَّض للمحارم .

تلك صورة موجزة لحالة الشعر في بيئة العراق التي تميزت في العصر الأموي بكثرة الشعر والشعراء . وهي صورة ترينا أن الشعر في العراق كان يسير في اتجاهين رئيسيين هما : الشعر السياسي والشعر القبلي اللذان استبدَّا بطاقات الشعراء .

وكأن العراق بذلك قد استحال إلى بركان ثائر يقذف بالشعر السياسيّ على اختلاف ألوانه وأغراضه واتجاهاته، وبالشعر القبليّ الذي يذكرنا بأخيه الجاهلي في بواعثه وأغراضه ومعانيه .

وقد استتبعت هذه النهضةُ الشعرية في بيئة العراق نهضةً أخرى في النقد تعدَّدت مراكزها وشخصياتها ، وتنوعت اتجاهاتُها وصورُها. وبعبارة أخرى إن هذا الشعر القوي قد أعان على ظهور حركة قوية من النقد الأدبي تُعنَى به وتهتم ببحثه ودراسته . وفيما يلي تفصيل لكل ذلك .

النقد في العراق

في عهد الخليفة عمرَ بنِ الخطاب أنشأ العرب مدينتي البصرة والكوفة ليكونا معسكرين للعرب يشَمُّون منهما هواء الصحراء ويتجنبون بهما وَخمَ المدن .
وتدريجياً أخذ العرب يرحلون إليهما ناقلين معهم عاداتهم الجاهلية وأخلاقَهم العربية ، كما أخذ يتقاطر عليهما كذلك أهلُ المدن المجاورة في العراق والشام

وفارس من طلاب العلم وطلاب الرزق .

ولم يأت عصرُ بني أُمية حتى كانتا قد بدأتا في التحول إلى مركزين ملحوظين من مراكز الثقافة العربية ، وقد أسهم الأمويون أنفسُهم في ذلك .

فالعرب قد أقاموا فيهما أسواقاً أدبية للمناشدة والمفاخرة والمفاضلة على غرار أسواقهم في الجاهلية . ومن أشهر هذه الأسواق « مِرْبَدُ » البصرة الذي كان يدعى في الدولة الأموية « عكاظ الإسلام » .

ففي سوق « المربد » كانت تُعقَد مجالسُ العلم والأدب وحَلقاتُ المناشدة والمفاخرة ، وإليه كان الشعراء يتوافدون ومعهم رُواتُهم للمناشدة والمفاضلة أو المحاكمة ، وكان لفحولهم حلقاتٌ خاصة أشهرُها حلْقـةُ أبي فراس الفرزدق وحلقةُ راعي الإبل .

وكان عبد الملك بن مروان يصرف أذهان أهل الأدب والعلم عن بلاد العرب إلى البصرة التي جعلها مثابة للشعراء والأدباء وغيرهم. ولم ينبغ شاعر أو خطيب في بلاد العرب كلِّها إلاّ جاء إلى البصرة والكوفة . ولرغبة الأمويين في الإبقاء على روح البداوة نشَّطوا آداب الجاهلية خاصة ، وشجَّعوا عليهـا بتدوينها ، فنبغ بذلك كثير من الأدباء والرُّواة .

كذلك قامت في البصرة والكوفة حركةٌ عقليـة كبيرة أشعل العربُ جَذوتها ، ذلك أن عدداً من العلماء توفـَّروا في العصر الأموي على دراسة العلوم الإسلامية واللغوية ، ثم أخذت تتكون في ذلك مدارس تشتغل بجمـع اللغة والإدب ووضع أصول علم النحو .

وهكذا أصبحت المدينتان منذ العصر الأموي مَعْقِل العـلم والأدب ، وملتقى العلماء والأدباء والشعراء. ففيهما احتكَّ العرب بغيرهم من الأمم المتحضرة ، وفيهما اشتغل المسلمون بجمع أخبار العرب ولغتهم وأشعارهم وأمثـالهم ، وفيهما

نشأ النحو وغيرُه من الآداب اللسانية ، فظهرت الأندية الأدبية والمجالس العلمية وتكاثرت .

وقد كانت البصرة أعرقَ من الكوفة في اللغة والإدب : يأخذ الكوفيون عنهم ولا يأخذون هم عن الكوفيين . أما تفوق الكوفة فكان في الشعر ، فقد كان فيها أكثرَ وأغزرَ منه في البصرة .

وما من شك في أن نهضة البصرة والكوفة على هذا النحو كان لها أثرُها في تطور الآداب العربية عامة والشعرِ خاصة في العصر الأمويّ .



في هذه البيئة الزاخرة بضروب النشاط العلميّ والأدبيّ والشعريّ نشِط النقدُ الأدبي أيضاً : عُقِدتْ له المجالسُ العامة والخاصة في الأسواق والمساجد ، وفي قصور الخلفاء ودور الأمراء والسُّراة ، وفي غير ذلك مما كان يطيب للشعراء والمتأدبين أن يجتمعوا فيه .

وقد اهتم بنقد الشعر العراقي في العصر الأموي طوائفُ كثيرة متفاوتةٌ في ثقافتها ، متباينة في أذواقها وأهوائها وميولها . أجل اهتم بنقد الشعر الذي نما في بيئة العراق الشعراءُ أنفسهم ، والرواة والنحاة ، والخلفاء والأمراء ، وغيرهم من كل ذي ميل أدبي ، حتى الجنودُ في ميادين القتال كانوا ينقدون الشعراء ويختلفون فيما بينهم على أيِّهم أشعر وأفضل .

ولعل « الهجاء » من بين سائر فنون الشعر كان الفنّ الشعريّ الذي يرجو كل شاعر أن يحظَى بالشهادة له فيه ، لأنه كان أكثر الفنون الشعرية ملاءمة لما كان يجري على مسرح العراق من صراع سياسي وقَبَليّ .

فالهجاء في هذا المجتمع الذي تمزّقه وتتناحر فيه الأحزاب والعصبيات القبلية كان السلاحَ القاتل الذي يدافع به الشاعر عن نفسه وقومه ، ويهدّد به

كلّ مَن أراد لأي سبب أراد .

ومن شعراء هذا العصر مَن كان يُرضيه أن يُحكَمَ له بالتفوق في « الهجاء » على أن يحكَم له بالتفوق في أي فن من فنون الشعر الأخرى .

ومما يؤيد ذلك هذا الخبرُ الذي جاء في الأغاني مَروِيّاً عن أبي الزناد، عن أبيه قال : « قال لي جرير : يا أبا عبد الرحمن ، أنا أشعر أم هذا الخبيث ، يعني الفرزدق ؟ وناشدني لأخبرَنّه فقلت : لا والله ما يشاركك ولا يتعلّق بك في النسيب . قال : أوّه ! قضيتَ والله له عليّ ! أنا والله أخبرك : ما دهاني إلاّ أني هاجيت كذا وكذا شاعراً — فسمّى عدداً كثيراً — وأنه تفرّد لي وحدي [1] » .

فجرير يحزن ويتألم عند سماع الحكم الذي تضمنه هذا الخبر ، إذ يرى فيه انتقاصاً من قدره في فن « الهجاء » : أما الحكم له بأن الفرزدق لا يشاركه ولا يتعلق به في النسيب فلم يطرب له . وكأنه لا يزدهيه أن يكون في النسيب مُبرّزاً إذا كان في « الهجاء » مقصراً ...

وفي الخبر السابق يعزو جرير سبب تخلفه في الهجاء عن الفرزدق إلى كثرة مَن هاجاهم وتَفَرّدِ الفرزدق له وحدَه بالهجاء . وجرير يجعلنا نفهم من حديث جرى بينه وبين الحجّاج أن الهجاء لم يكن أصيلاً في طبعه وإنما فُرِض عليه فرضاً، وأنه كان يتخذه سلاحاً للدفاع عن نفسه وقومه، لا للهجوم والأذى حباً في الأذى .

ذكر الأغاني أن الحجّاج قال لجرير في أول لقاء معه : « يا عدوّ الله ! علام تشتُم الناس وتظلمهم ؟ فقال جرير : جعلني الله فداءَ الأمير ! والله إني ما أظلمهم ، ولكنهم يظلمونني فأنتصر. ما لي ولابن أمّ غسّان ؟ وما لي وللبَعيث؟

(١) الأغاني : ج ١٩ ص ١٢

وما لي وللفرزدق ؟ وما لي وللأخطل ؟ وما لي وللتيميّ ؟ ... حتى عدّهم واحداً واحداً . فقال الحجاج : ما أدرى مالك ولهم ؟ قال جرير : أخبر الأمير ... [1] » .

ثم راح جرير يذكر الأسباب التي دفعته إلى هجاء خصومه ومناقضتهم ، وإذا هذه الأسباب تبيّن أنه كان حقاً مظلوماً لا ظالماً ، ومدافعاً لا مهاجماً !

فهو يهجو خصماً لأنه فضّل عليه شاعراً آخر ، أو لأنه هجا قومه وعشيرته ، أو لأنه أعان عليه شاعراً آخر ، أو لأنه قبّح بيتاً من شعره وقاله على غير قوله ، أو لأنه نذر دمه ، أو لأنه روى شعر الفرزدق دون شعره ، أو لأنه طلب منه أن يكسوه حلّة بعينها فلم يجبه إليها مع استعداده لأن يكسوه حلّة خيراً منها ، أو لأنه استرفده ما لا ولم يكن عنده ما يقدّمه له .

أما هجاؤه للفرزدق ، فلأنه أعان البَعيث عليه ، وأما هجاؤه للأخطل فلأن محمد بن عمر بن عطارد رشاه زِقّاً من خمر وكساه حلّة على أن يفضّل عليه الفرزدق وأن يهجوه !

ولم يكد الحجاج يسمع كل هذه الأسباب مقرونةً ببعض أهاجي أولئك الشعراء لجرير ورده عليهم ، حتى قال لمن كان بمجلسه بعد انصراف جرير : « قاتله الله أعرابياً ! إنه لَجَرْوُ هِراش [2] » .

والواقع أن العربي يجزع غاية الجزع من الهجاء ويبذل أقصى ما يستطيع وما يملك في سبيل النجاة من شره وعاره . ومن أجل ذلك يُهم الشاعر أن يُعرَف بالهجاء وأن يُحكم له بالتفوق فيه حتى يظل مرهوب الجَناب .

ذكر الأغاني أن الفرزدق قَدِم المدينة في سنَة مُجدبة فمشى أهل المدينة إلى

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٧٦ – ٨٨ (٢) المرجع نفسه : ص ٨٨ . والجرو : الصغير من الكلاب والأسود والسباع . وجَرْوُ هِراش : أي كلب مقاتل وثّاب .

عمر بن عبد العزيز فقالوا له : أيها الأمير إن الفرزدق قَدِم مدينتَنا في هذه السنة الجَدِبة التي أهلكت عامّة الأموال التي لأهل المدينة ، وليس عند أحد منهم ما يعطيه شاعراً . فلو أن الأمير بعث إليه فأرضاه ، وقدّمَ إليه ألاّ يَعْرِضَ لاحد بمدح ولا هجاء .

فبعث إليه عمر : إنك يا فرزدق قَدِمت مدينتنا في هذه السنة الجَدِبة ، وليس عند أحد ما يعطيه شاعراً ، وقد أمرت لك بأربعة آلاف درهم فخذها ولا تَعْرِضْ لاحد بمدح ولا هجاء . فأخذها الفرزدق ... [1] .

فهذا الخبر يدل على سطوة الهجاء ، وفَرَقِ العرب منه ، وحرصهم على تفاديه بأي ثمن وبأية وسيلة .

ومن هذا القبيل الخبر التالي الذي يدل على اهتمام الناس حتى العامةِ منهم بشعر الفحول والمفاضلةِ بينهم في أي مكان كانوا ، كما يدل على مدى إحجام بعض أهل الرأي عن تفضيلِ شاعر منهم على آخر خوفاً من هجائه .

حدّث المدائني عن الهيثم بن عبدالله بن عيّاش الهمْداني قال : بينا المهلّب [2] ذات يوم بفارس وهو يقاتل الأزارقة [3] إذ سمع المهلّب في عسكرة جَلَبَةً وصِياحاً فقال : ما هذا ؟ قالوا : جماعةٌ من العرب تحاكموا إليك في شيء ، فأذِنَ لهم فقالوا : إنا اختلفنا في جرير والفرزدق ، فكلٌّ فريقٍ منا يزعُم أنّ أحَدهما أشعر من الآخر ، وقد رَضِينا بحكم الأمير .

فقال : كأنكم أردتم أن تعرّضُوني لهذين الكلبين فيمزّقا جِلدتي ! لا أحكم بينهما ، ولكني أدلّكم على مَن يَهُون عليه سِبال [4] جرير وسِبال الفرزدق .

---

(١) الأغاني : ج ١٩ ص ١٠٣ – ١٠٤

(٢) هو المهلب بن أبي صفرة الازدى ، ولاه الحجاج خراسان وتوفي سنة ٨٢ هـ .

(٣) هم شعبة الخوارج بالعراق وما حولها ، وسُمّوا بالازارقة نسبة إلى رئيسهم نافع بن الازرق . ومن أشهر الازارقة قطريّ بن الفجاءة .

(٤) السبال : الشارب .

عليكم بالأزارقة ، فإنهم قوم عرب يَبْصُرون بالشعر ، ويقولون فيه بالحق .

فلما كان الغَد خرج عُبيدة بن هلالٍ اليشكُرِيّ ودعا إلى المبارزة ، فخرج إليه رجل من عسكر المهلّب كان لقطَرِيٍّ صديقاً فقال : يا عُبيدة ، سألتُك الله إلاّ أخبرتني عن شيء أسألُك عنه . قال : سَلْ . قال : أوَتُخبرُني ؟ قال : نعم إنْ كنتُ أعلمه . قال : أجريرٌ أشعر أم الفرزدق ؟ قال : قبّحك الله ! أتركتَ القرآنَ والفقهَ وسألتني عن الشعر ؟ قال : إنا تشاجرنا في ذلك ورَضِينا بك . قال : مَن الذي يقول :

وَطَوَى الطِّرادُ معَ القِيادِ بُطونَها ... طَيَّ التِّجارِ[1] بحَضْرَمَوْتَ بُرُودَا؟

فقال : جرير . قال : هذا أشعرُ الرجُلين »[2] .

كل هذه الاخبار وغيرها مما لا يتسع المقام هنا لسرده ترينا مدى سطوة الهجاء أيام بني أمية ومدى الاهتمام العام بالنقائض والمفاضلة بين أصحابها .

*

وبعد ... فكيف كانت حركة النقد الأدبي في بيئة العراق في العصر الأموي؟

لعل أول ما نلحظه على حركة النقد في العراق هو طابعها العام . فالاتجاه الغالب على هذه الحركة يتمثل في التفضيل أو المفاضلة بين الشعراء بوجه عام ، وبين الفحول الثلاثة : الفرزدق وجرير والأخطل بوجه خاص .

فهؤلاء الثلاثة الكبار قد شغلوا أذهان الناس في عصرهم ، وأعطوا للنقد بشعرهم مادة وفيرة يدور حولها الخلاف والجدل في الأندية العامة والمجالس الخاصة .

---

(١) التجار : جمع تاجر مثل صاحب وصِحاب

(٢) الأغاني : ج ٨ ص ٤٢ طبعة دار الكتب

وإذا كان النقاد قد اتفقوا على أن هؤلاء الثلاثة هم أشعر أهل الإسلام ، فإنهم قد اختلفوا في تقديم بعضهم على بعض .

وربما كان أبو الفرج الأصفهاني خيرَ من لخّص رأي القدماء في هؤلاء الثلاثة ، وذلك إذ يقول : «والفرزدق مقدّم على الشعراء الإسلاميين هو وجرير والأخطل ، ومَحلّه في الشعر أكبرُ من أن يُنبَّه عليه بقول ، أو يُدَلّ على مكانه بوصف ؛ لأن الخاص والعام يعرفانه بالاسم ، ويعلمان تقدمه بالخبر الشائع علماً يُستغنَى به عن الإطالة في الوصف .

وقد تكلم الناس في هذا قديماً وحديثاً وتعصّبُوا واحتجُّوا بما لا مزيد فيه ، واختلفوا بعد اجتماعهم على تقديم هذه الطبقة في أيّهم أحقّ بالتقدم على سائرها .

فأما قدماءُ أهل العلم والرواة فلم يُسَوُّوا بينهما – الفرزدق وجرير – وبين الأخطل ؛ لأنه لم يلحق شأوهما في الشعر ، ولا له مثلُ مـا لهما من فنونه ، ولا تصرّفَ كتصرفهما في سائره ....

وهم في ذلك طبقتان : أما مَن يميل إلى جزالة الشعر وفخامته وشدة أسره فيقدّم الفرزدق ، وأما مَن كان يميل إلى أشعار المطبوعين ، وإلى الكلام السمح السهل ، فيقدّم جريراً »[1] .

على ضوء هذه المقدمة نشرع الآن في التعرف إلى صور النقد الأدبي واتجاهاته لدى الطوائف المختلفة التي اشتغلت به في العراق أيام بني أمية بادئين بطبقـة الرواة .

(١) الرواة والنقد :

ومن الرواة الذين عـاصروا الفرزدق وجريراً والأخطل حمادُ الراوية ، فهو من ناحية كان يفضّل الأخطل على صاحبيه ، ومن ناحية أخرى كان يفضل كلاً

---

(١) الأغاني : ج ١٩ ص ٩٤-٩٥ .

من الفرزدق وجرير على الآخر في بعض شعره .

جاء في الأغاني أن عبد الرحمن بن برزخ قال : « كان حماد يفضل الأخطل على جرير والفرزدق ، فقال له الفرزدق : إنما تفضله لأنه فاسق مثلك ، فقال : لو فضلته بالفسق لفضلتك »[1] .

وقال حماد الراوية : « أتيت الفرزدق فأنشدني ثم قال : هل أتيتَ الكلبَ جريراً : قلت : نعم . قال : أفأنا أشعر أم هو ؟ فقلت : أنت في بعض الأمر وهو في بعض . فقال : لم تناصحني . فقلت : هو أشعر منك إذا أرخى من خناقه ، وأنت أشعر منه إذا خفت أو رجوت . فقال : وهل الشعر إلا في الخوف والرجاء ، وعند الخير والشر ؟ »[2] .

وروى حماد عن أبيه عن زيرك بن هبيرة المناني قال : « كان جرير ميدان الشعر ، من لم يجر فيه لم يَرْو شيئاً ، وكان من هاجى جريراً فغلبه جرير أرجحَ عندهم ممن هاجى شاعراً آخر غيرَ جرير فغلَب »[3] .

وتذاكروا جريراً والفرزدق في إحدى حلقات الأدب والنقد فقال عامرُ بن عبد الملك شيخُ بكر بن وائل: «كان جرير والله أنسبَهما وأسبَّهما وأشبَّهما»[4].

وروى ابن سلام عن ابن دأب قوله :« الفرزدق أشعرُ عامة ، وجرير أشعرُ خاصة »[5] . وحدّث أبو اليقظان قال : « قال جرير لرجل من بني طُهيّة : أيهما أشعر : أنا أم الفرزدق ؟ فقال له : أنت عند العامة والفرزدق عند العلماء، فصاح جرير : أنا أبو حزرة ! غلبتُه وربّ الكعبة ! والله ما في كل مائة رجل

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٣٥٠ .

(٢) المرجع نفسه : ج٧ ص ٩٤ ، وكذلك : ج ١٩ ص ١١

(٣) المرجع نفسه : ج ٧ ص ٧٢

(٤) المرجع نفسه .　　　(٥) المرجع نفسه : ج ٧ ص ٦٩

عالِمٌ واحد »[1] .

وروى أبو عُبيدة حُججَ من فضّل جريراً فقال : « يحتج مَن قدّم جريراً بأنه كان أكثرَهم فنونَ شعر ، وأسهلهم ألفاظاً ، وأقلّهم تكلّفاً ، وأرقّهم نسيباً ، وكان ديّناً عفيفاً »[2] .

وحدث المدائني أن الفرزدق خرج حاجا فمر بالمدينة بسكينة بنت الحسين فقالت : يا فرزدق من أشعر الناس ؟ فقال : أنا. فقالت : كذبت ! أشعر منك من يقول :

بنفسي مَن تجنُّبه عزيزٌ   عليَّ ومَن زيارته لِمَامُ
ومن أُمسى وأُصبح لا أراهُ   ويطرقني اذا هجع النِّيامُ

فقال : والله لو أذنتِ لي لأسمعتك أحسنَ منه . قالت: أقيموه فأخرجوه.

ثم عاد إليها في اليوم التالي فقالت : يا فرزدق : من أشعر الناس ؟ فقال : أنا . قالت : كذبت : أشعر منك الذي يقول :

لولا الحياءُ لهاجني استعبارُ   ولَزُرْتُ قبركِ والحبيبُ يُزارُ
لا يلبث القُرَناء أن يتفرقوا   ليل يكرُّ عليهم ... ونهارُ
كانت اذاهجر الضجيعُ فراشها   كُتِم الحديث وعَفّتِ الأسرارُ

قال : أفأُسمعك أحسن منه ؟ قالت: اخرج. ثم عاد إليها في اليوم الثالث... فقالت : يا فرزدق من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قالت : كذبت ! أشعر منك الذي يقول :

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ١٣٠   (٢) المرجع نفسه : ج ٧ ص ٦٩

ان العيون التي في طرفِها حَورٌ قَتَلْنَنا ثُمَّ لم يُحيين قتلانا
يَصْرَعْنَ ذا اللُّبِّ حتى لا حَراكَ به وهُنَّ أضعفُ خلق الله أركانا

... الخ »[1].

هذه طائفة من الأخبار أوردناها على سبيل المثال ، منها ما يعبّر عن آراء بعض الرواة المعاصرين للشعراء الثلاثة الكبار في شعرهم ومنزلتهم ، ومنها ما يتضمن آراء عزاها الرواة لبعض أهل العلم والدراية بالشعر ممن عاصروا هؤلاء الشعراء الفحول .

ومن هذه الآراء ما نرى فيه تفضيلاً تاماً للأخطل ، أو تفضيلاً لكل من الفرزدق وجرير على صاحبه في بعض شعره ، أو تفضيلاً لجرير في الهجاء وحده ، أو في الهجاء والنسيب وحسن التشبيه ، أو في النسيب والرثاء ، أي في موضوع أو أكثر من موضوعات الشعر .

فنحن هنا أمام مفاضلات أو أحكام عامة أو جزئية غير معلّلة مَرَدُّها الذوقُ الفطري . إنها صورة من النقد التأثري تذكّرنا إلى حد كبير بالاتجاه العام للنقد في العصر الجاهلي ثم ببعض صور النقد في صدر الإسلام .

ولعل الخبر الوحيد الذي يستدعي الالتفات هنا هو ذلك الخبر الذي ضمّنه أبو عبيدة حجج من فضلوا جريراً على الفرزدق والأخطل . ففي هذه الحجج نَوْعٌ من الموازنة بين جرير وقريعيه في جوانب من الشعر متصلة بفنونه وألفاظه ، وبالأصالة الشعرية والعاطفة والأخلاق .

فجرير عند من يفضلونه مقدّم على الفرزدق والأخطل ، وربما على سائر معاصريه ، لانه كان أكثرَهم فنون شعر ، وأسهلَهم ألفاظاً ، وأقلّهم تكلفاً ،

---

(١) الأغاني : ج ١٩ ص ٧١-٧٢

وأرقّهم نسيباً ، ولانه بالإضافة إلى ذلك أو قبل ذلك كان ديّناً عفيفاً ...

*

(٢) الشعراء والنقد :

وفي بيئة العراق أيام بني أمية نرى صورة أخرى للنقد تتمثل في نقد الشعراء بعضهم بعضاً . وأكثر شعراء هذه الفترة الذين صدر عنهم النقد أو دار حولهم النقد هم الشعراء الفحول : الفرزدق وجرير والأخطل .

ومن هؤلاء من قصَر نقده على معاصريه من شعراء العصر الإسلامي ، ومنهم من امتد بنقده إلى شعراء العصر الجاهلي وأبدى رأيه في أفضلهم أو أشعرهم من وجهة نظره .

فالفرزدق يرى أنه وجريراً يستمدان شعرهما من نَبْع واحد ، وأن شعره في جملته أقوى من شعر جرير . وفي ذلك يقول الفرزدق : « إني وإياه -جريرا- لنغترف من بحر واحد . وتضطرب دلاؤه عند طول النهر »[1] .

أما الاخطل عند الفرزدق فأمدح العرب . ذكر الاغاني أن الفرزدق دخل الكوفة ، فلقيه ضَوء بن اللَّجْلاج فقال له : من أمدح أهل الإسلام ؟ فقال له : وما تريد إلى ذلك ؟ فقال : تمارينا فيه . قال : الاخطل أمدح العرب[2] .

هذا عن رأي الفرزدق في قريعيه ، وقد اتفق الفرزدق والاخطل معاً على أن جريراً أسْيَرُ شعراً منهما . روى صاحبُ الاغاني أن الفرزدق والاخطل ضمهما مجلس تعاطيا فيه الشراب وتناشدا الاشعار ثم تطرقا في حديثهما إلى جرير ، فقال الاخطل مخاطباً الفرزدق : « والله إنك وإياي لأشعر منه ، ولكنه أوتيَ

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٧٢

(٢) المرجع نفسه : ج ٧ ص ٣٤٩ . وتمارينا : تجادلنا .

من سَيِّر الشعر ما لم نُدَوِّنه . قلتُ أنا بيتاً ما أعلم أن أحداً قال أهجى منه ، قلت :

قومٌ إذا استَنْبَحَ الأضيافُ كلبَهمُ قالوا لأُمِّهِمُ : بُولي على النار

فلم يَرْوِهِ إلاّ حكماءُ أهل الشعر . وقال هو :

والتغلبيُّ إذا تنحْنحَ للقِرى حَكَّ اسْتَه وتمثّل الأمثالا

فلم تبق سُقاةٌ ولا أمثالُها إلاّ رَوَوْه . فقضَيَا له أنه أسْيَرُ شعراً منهما » [1] .

كذلك أُثِر عن جرير بعضُ الأخبار التي عيّن فيها أشعر الناس في رأيه . من هذه الاخبار أن ابنه عِكرمة قال : « قلتُ لأبي: يا أبةِ ، مَن أشعر الناس؟ فقال : الجاهليةَ تريد أم الإسلام ؟ قلت : أخبرْني عن الجاهلية . قال : شاعر الجاهليـة زهير . قلت : فالإسلام ؟ قال : نَبعةُ الشعر الفرزدق . قلت : فالاخطل : قال : يُجيد صفةَ الملوك ويُصيب نعتَ الخمر . قلت : فما تركت لنفسك ؟ قال : دعني فإني نَحَرْتُ الشعر نَحْراً » [2] .

وفي خبر ثان قيل لجرير : « ما تقول في الاخطل ؟ قال: كان أشدّنا اجتزاءً بالقليل وأنعَتَنا للحُمُر والخمر » [3] .

وفي خبر ثالث يبدي جرير رأيه مرة أخرى في بعض شعراء الجاهليـة

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٣٨٠ - ٣٨١ . والضيف المستنبح:هو الذي يجيء بالليل فلا يعرف مكان الحَيّ فيصيح صياح الكلاب ، فتجيبه الكلاب فيعرف مكان الحيّ فيقصدهم . والتنحنح : أشد من السّعال وهو علة البخيل .

(٢) الأغاني : ج ٧ ص ٩١ - ٩٢ . والنبعة واحدة النبع ، وهو شجر من أشجار الجبال تُتخذ منه القسيّ ، وقيل : ما كان منها في قمة الجبل .

(٣) المرجع نفسه : ج ٧ ص ٣٤٩ ، والحُمُر : جمع حمار أهلياً كان أو وحشياً .

والإسلام . جاء في الاغاني أن عمارة بن عُقيل حدّث عن أبيه عن جده قال :

« قال عبد الملك أو الوليد ـ ابنـُه ـ لجرير : من أشعر الناس ؟ قال : فقال: ابن العشرين . قال : فما رأيك في ابنَيْ أبي سلمى ؟ قال : كان شعرُهما نَيِّراً يا أمير المؤمنين . قال : فما تقول في امرىء القيس ؟ قال : اتخذ الخبيثُ الشعر نَعْلين ، وأقسِم بالله لو أدركتُه لرفعت ذَلاذِله [١] . قال : فما تقول في ذي الرُّمّة ؟ قال: قَدَر مِن ظريف الشعر وغريبه وحَسَنِه ما لم يقدر عليه أحد. قال : فما تقول في الاخطل ؟ قال : ما أخرج لسانُ ابن النصرانية ما في صدره من الشعر حتى مات . قال : فما تقول في الفرزدق ؟ قال : في يده والله يا إمير المؤمنين نَبْعَةٌ من الشعر قد قبض عليها . قال: فما أراك أبقيت لنفسك شيئاً! قال : بلى والله يا أمير المؤمنين ، إني لَمدينةُ الشعر التي منها يخرج وإليها يعود : نسَبْتُ فأطربت ، وهجوت فأرديتُ،ومدحتُ فَسَنَّيتُ،وأرملتُ فأغزرتُ ، وزجرتُ فأبحرتُ . فأنا قلتُ ضروبَ الشعر كلـّها ، وكلٌّ واحد منهم قال نوعاً واحداً . قال : صدقت » [٢] .

فجرير في هذه الأخبار الثلاثة يُصدر أحكاماً نقدية على بعض شعراء الجاهلية والإسلام ، منها أحكام عامة غير معلـّلة تذكرنا بأحكام نقاد الجاهلية وبعضِ نقاد صدر الإسلام ، ومنها أحكام يقضى فيها للشاعر بالسبق في فن أو أكثر من فنون الشعر .

فأشعر الجاهليين عنده زهير ، وابن العشرين طرَفة بن العبد ، وامرؤ القيس الذي انتعل الشعر ومشى به حيث أراد يتحكم في الشعر ولا يتحكم الشعرُ فيه ، والذي لو أدركه لكان تابعاً له ، وزهير وابنه كعب كان شعرهما نيّراً مشرقَ الديباجة .

---

(١) ذلاذل الثوب : أطرافه . يقصد بأنه يخدمه ويلازمه .

(٢) الأغاني: ج ٧ ص ١٠٩ - ١١٠

أما عن شعراء الإسلام فالفرزدق عنده نَبْعَةُ الشعراء أو شجرته السامقة التي قبض عليها بيده ، والأخطل خير من يمدح الملوك ويصف الخمر والحُمُر ، وهو أشد شعراء عصره اجتزاء بالقليل ، وإن لسانه لم يسعفه على إخراج كل ما كان يعتمل بصدره من الشعر .

وذو الرُّمّة في رأيه شاعر قَدَر من ظريف الشعر وغريبه وحَسَنِه ما لم يقدر عليه أحد. ولعله قصد بذلك أنّ شعر ذي الرُّمّة كان يجمع بين رقة الشعر الحضري وجزالة الشعر البدويّ ، فظريفُ الشعر وحَسَنُه قد يتمثل عند جرير في نسيبه ووصفه وتشبيهاته التي تميز بها ، حتى لقد قيل إنه أحسن شعراء عصره تشبيهاً ، كما كان امرؤ القيس أحسن شعراء الجاهلية في ذلك . كما قد يتمثل غريبه في بائيته الكبرى التي تربو على مائة وعشرين بيتاً والتي عَدّها صاحب « جمهرة أشعار العرب » من الملحمات [1] .

أما عن رأي جرير في شعره هو فيقول مرة : « إنه بحرَ الشعر بحراً » ، أي أنه فجّر ينابيع الشعر حتى صارت كالبحر عمقاً واتساعاً ، بمعنى أنه تفنن في ضروب القول وتوسّع فيها .

وفي مرة أخرى ينبئنا بأنه « مدينة الشعر التي منها يخرج وإليها يعود » ثم يوضح مقصده من هذه العبارة بأن له النسيبَ المطرب ، والهجاء المُرْدِي ، والمدح السنيّ الذي يرفع من منزلة الممدوح ، والشعر الرقيق النسج ، والزجر الرادع .

وأخيراً يلخص كل ذلك بأنه قد جال بشاعريته في سائر الفنون ، أو أنه قال ضروب الشعر كلّها ، على حين قال كل واحد منهم نوعاً منها . ولعله أراد « بالقول » هنا « الإجادة » وإلا فإنّ من ذكرهم من الشعراء وأصدر حكمه

---

(١) ارجع إلى هذه القصيدة في « جمهرة أشعار العرب » لأبي زيد القرشي ص : ٣٣٨-٣٥٠

عليهم قد نوّعوا أيضاً في ضروب الشعر وفنونه، وإن لم يكن بالقدر الذي نجده في شعره .

وقد كان جريرٌ يقدم قصيدةً معينة من شعره على جميعه . حدّث عليُّ بن محمد النوفليّ عن أبيه قال : « كنتُ باليمامة وأنا واليها فكان ابنٌ لجرير يُكثر عندي الدخول وكنت أوثره فلم أقلْ له قطُّ : أنشدْني أجود شعرٍ لأبيك إلا أنشدني الدالية :

أَهَوًى أراكَ برامتين وَقُودا أم بالْجنَينةِ من مَدافعِ أُودَا [1]

فأقول له : ويحك ! ألا تزيدني على هذه ؟ فيقول : سألتني عن أجود شعر أبي ، وهذا أجوده ، وقد كان يُقدّمها على جميعه » [2] .

والمطلع على هذه الدالية التي يقدمها جرير على جميع شعره يجد أنها من عيون قصائده التي تمثّل فنّه الشعري أصدق تعبير . فهي من حيث الطول تُعدُّ من قصائده الطوال نسبياً إذ تبلغ سبعة وخمسين بيتاً ، وقد جمع فيها ثلاثة من فنون الشعر التي اعتُرِف له بالجودة فيها ، وهي النسيب الرقيق ، والفخر بقومه وأيامهم ، والهجاء اللاذع للفرزدق وقومه .

وهي في كل ذلك تتميز بروعة الصياغة وإشراق الديباجة ، وسموّ الخيال ، وجمال الصور ، وعلوّ الموسيقى ، مع تنوع الأسلوب رقةً وجزالةً بتنوع الأغراض . ولعل في الأبيات التالية ما يوضح خصائص أسلوب جرير الشعري ، وما يفسر سبب اعتزازه بهذه الدالية بالذات . قال جرير في النسيب :

---

(١) الجنينة : روضة نجديّة بين ضرية وحَزْن بني يربوع ، والمدافع : مجارى السيول . وأود : موضع في ديار تميم ثم لبني يربوعٍ منهم بنجد في أرض الحزن .
(٢) الأغاني : ج ٧ ص ١٣٣ - ١٣٤

بانَ الشبابُ فوَدَّعاهُ حميدا ... هل ما ترى خَلَقاً يعودُ جديدا ؟

يا صاحبيَّ ! دَعا الملامةَ واقصِدا ... طال الهوى وأطلتما التفنيدا

لا يستطيع أخو الصبابة أن يُرَى ... حجَراً أصمَّ ولا يكون حديدا

أخلَبْتِنا وصَدَدْتِ أمَّ مُحَلِّمٍ ... أفتجمعين خَلابةً وصُدودا ؟

إني وجَدِّكِ لو أردتِ زيادةً ... في الحب عندي ما وَجَدْتِ مَزيدا[1]

*

(٣) صور أخرى من النقد :

وقد خاض الرواة والشعراء والأدباء والخلفاء في صور أخرى من النقد تتصل بجوانب عديدة من الشعر وصناعته الفنية .

من ذلك المفاضلةُ في المعاني الجزئية ، كالمفاضلة بين شاعرين في أحد معاني المدح . أنشد عبدُ الملك بن مروان قولَ كُثَيِّرٍ فيه :

فما تركوها عَنوةً عن مَودَّة ... ولكنْ بحَدِّ المَشْرَفيِّ استقالها

فأُعْجب به . فقال له الأخطل : ما قلت لك والله يا أمير المؤمنين أحسنُ منه . قال : وما قلتَ ؟ قال : قلتُ :

أَهَلُّوا من الشهر الحرام فأصبحوا ... مواليَ مُلْكٍ لا طريفٍ ولا غَصْبِ[2]

جعلتُه لك حقاً ، وجعلك أخذتَه غصباً . قال : صدقت »[3] .

---

(١) ديوان جرير ، ص ١٣٢

(٢) أهلوا من الشهر الحرام : خرجوا في استهلاله . موالي ملك : أي سادة ملك يتولونه .

(٣) الأغاني : ج ٧ ص ٣٥١

فهذه الصورة تدل على الالتفات إلى نقد المعاني الجزئية ، والمفاضلة بين الشعراء من حيث إجادة التعبير عنها .

كذلك بدأ النقاد في هذا العصر ينظرون في الشعر وينقدونه لذاته بغض النظر عن قائله أو عقيدته . جاء في الأغاني أن رجلاً من بني شيبان جاء إلى الأخطل وطلب إليه الا يهجوَ جريراً على أساس أنه يسب ربيعة سبًّا لا يقدر الاخطل على سبّ مضر بمثله والمُلْك فيهم والنُّبُوة قبله .

فقال له الاخطل : « صدقت في نصحك وعرفت مرادك ... فوالصليب والقُربان لأتخلَّصنّ إلى كليب خاصة دون مضر بما يَلْبَسُهم خِزْيه ويشملُهم عاره . ثم اعلم أن العالِم بالشعر لا يُبالي وحقّ الصليب إذا مرّ به البيت العائر السائر الجيد ، أمسلمٌ قاله أم نصراني [1] » .

ومن ذلك أيضاً أنهم فطِنوا إلى أثر التشبيه وقيمته وعَدُّوه من جيد الكلام ، قال الفرزدق : لما قال عَدِيُّ بن الرّقاع في مدح الوليد بن يزيد بن عبد الملك : « تُزْجِي أغنّ كأنّ إبرةَ رَوْقِه » قلت لجرير : أيّ شيء تراه يناسب هذا تشبيهاً ؟ فقال جرير : « قَلَمٌ أصاب من الدواة مدادها » .

فما رجعَ الجوابُ حتى قال عديٌّ : « قلمٌ أصاب من الدواة مدادها » ، فقلت لجرير : ويحك ! لكأنّ سَمْعَك مخبوء في فؤاده ! فقال جرير : اسكت ! شغلني سَبُّك عن جيد الكلام [2] » . فالفرزدق وجرير كلاهما يعرف قيمة التشبيه في الشعر ، وجرير يعده من جيد الكلام .

ومن نقدهم الجزئيّ المقارنة في الجودة بين البيتين في موضوع واحد . سأل معاويةُ ابنُ أبي عمرو بن العلاء محمدَ بنَ سلاّم : أيُّ البيتين عندك أجود ؟ قول جرير :

(١) الاغاني : ج ٧ ص ٣٥٢ . والبيت العائر : السائر بين الناس .
(٢) العقد الفريد : ج ٥ ص ٣١٣

ألستم خيرَ من ركب المطايا   وأندى العالمين بطون راح

أم قول الأخطل :

شُمْسُ العداوةِ حتى يُستقادَ لهم   وأعظمُ الناسِ أحلاماً إذا قدروا ؟

فقال ابن سلام : بيت جرير أحلى وأسير ، وبيت الأخطل أجزل وأرزن . فقال معاوية : صدقت ، وهكذا كانا في أنفسهما عند الخاصة والعامة [1] » .

ومن فنون البديع اللفظي التي اهتدوا إليها في هذا العصر ما أطلق عليه رجال البديع « التشريع » أو « التوشيح » ، وهو بناء البيت على قافيتين يصح المعنى عند الوقوف على كل منهما .

ذُكِر جريرٌ والفرزدقُ والاخطلُ في مجلس سَلمة بن عيّاش ، ففضّل سلمةُ الاخطلَ عليهما . وكان إذا ذُكر الاخطلُ يقول : « ومَن مثلُ الاخطل وله في كل بيت شعر بيتان ؟ ثم يُنشد قوله :

ولقد علمتِ إذا الرياح تناوحتْ   هوجَ الرئال تكبُّهنَّ شَمالا

أنّا نُعجّل بالعبيط لضيفنا   قبلَ العيال ونضرب الأبطالا

ثم يقول : ولو قال :

ولقـد علمتِ إذا الريا   ح تناوحتْ هُوجَ الرئالِ

كان شعراً ، وإذا زدت فيه « تكبُّهنّ شمالاً » كان أيضاً شعراً من رَويٍّ

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٣٦٨ .

آخر [١] » .

وطولُ القصيد وقِصَرُه من الامور التي عرض لها نقادُ العرب . ففي صدر الإسلام قيل للحطيئة : ما بالُ قِصاراك أكثر من طوالك ؟ فقال : لأنها في الآذان أَوْلج وفي أفواه الناس أعلق .

وفي العصر الأموي قيل للفرزدق : ما اختيارك في شعرك للقِصار ؟ فقال : لأني رأيتها أثبتَ في الصدور وفي المحافل أجْول [٢] .

وفي هذا العصر الاموي نرى الحديث عن السرقات الشعرية أو عن أخذ الشعراء بعضهم عن بعض يتردد . وقديماً قالوا : إن الآخِر إذا أخذ من الاول المعنى فزاد فيه ما يُحسِّنُه و يقرِّبُه ويُوضِّحُه فهو أولى به من الاول ، كقول القُطامي :

والناسُ مَن يلق خيراً قائلون له ما يشتهي ولِأُمِّ المخطىء الهَبَلُ

فقد أخذه مَن قول المُرَقِّش الشاعر الجاهلي :

ومَن يلق خيراً يَحمَدِ الناسُ أمرَهُ
ومَن يَغْوَ لا يَعدمْ على الغِيِّ لائماً [٣]

وقد مرَّ بنا حديث الفرزدق و كُثيِّر والذي فيه يَتَّهِم كلاهما الآخر بالسرقة من شعر جميل . ولعل الفرزدق أكثرُ شعراء عصره إغارةً عليهم واغتصاباً لشعرهم .

---

(١) الاغانى : ج ٧ ص ٣٤٦-٣٤٧ . الرئال : أولاد النعام . وقوله : « تكبهن شمالاً» أي تكبهن الرياح شمالاً ، يريد وهي هابة شمالاً . والعبيط من اللحم : الطري « الطازج» غير النضيج .

(٢) الأغاني : ج ١٩ ص ٦٥ (٣) العقد الفريد : ج ٥ ص ٣٣٨ . توفي القُطامي سنة ١٠١ هـ تقريباً .

من ذلك ما رواه أبو عثمان المازني قال : « مرّ الفرزدق بابن مَيّادة وهو يُنشِد :

لو انَّ جميعَ الناس كانوا برَبْوَةٍ   وجئتُ بجَدّي ظالمٍ وابن ظالمِ
لظلَّتْ رقابُ الناس خاضعةً لنا   سجوداً على أقدامنا بالجماجمِ

فسمعه الفرزدق فقال : أمَا والله يا بن الفارسية لتدَعَنّه لي أو لأنبِشَنّ أمّك من قبرها . فقال ابن ميادة : خُذه لا بارك الله لك فيه . فقال الفرزدق :

لو انّ جميع الناس كانوا بَرَبْوَةٍ   وجئتُ بجدّي دارمٍ وابن دارمِ
لظلت رقاب الناس خاضعة لنا   سجوداً على أقدامنا بالجماجم [1]

ومن ذلك ما رواه الضحّاك الفقيمي قال : « بينا أنا بكاظمة وذو الرُّمّة يُنشد قصيدته التي يقول فيها :

أحين أعاذَتْ بي تميمٌ نساءَها   وجُرِّدْتُ تجريدَ اليماني من الغمدِ

إذا راكبان قد تدَلّيَا من نَعْفِ كاظمة مُتقنّعان فوقفا . فلما وقف ذو الرُّمّة حسر الفرزدق عن وجهه وقال : يا عبيدُ اضممها إليك – يعني راويته ... – فقال ذو الرُّمّة نشدتُك الله يا أبا فراس . قال : دع ذاك عنك ، فانتحلها في قصيدته وهي أربعة أبيات :

أحين أعاذتْ بي تميم نساءَها   وجُرّدتُ تجريد اليماني من الغمدِ
ومدّتْ بضبعَيَّ الرّبابُ ومالكٌ   وعمروٌ وسالت من ورائي بنو سعدِ

---

(١) الأغاني : ج ١٩ ص ١٠–١١

ومن آل يربوعٍ زهاءٌ كأنه   دُجى الليلِ محمودُ النكاية والوِرْدِ
وكنا إذا الجبار صعَّر خدَّه   ضربناه فوق الانثيين على الكَرْدِ[1] »

وقد وردت هذه الأبيات مع تغيير بعض الالفاظ في قصيدة للفرزدق يهجو بها قيساً مطلعها :

أتوعدني قيسٌ ودون وعيدِها   ثراءٌ تميم والعوادي من الأُسْدِ ؟[2]

ومنه كذلك ما رواه الرياشيُّ قال : « كان الفرزدق مهيباً تخافه الشعراء ، فمرَّ يوماً بالشمردل وهو يُنشد قصيدته حتى بلغ إلى قوله :

وما بين مَن لم يُعطِ سمعاً وطاعةً   وبين تميم غيرُ حَزِّ الغلاصِمِ

قال والله لتتركُنَّ هذا البيت أو لتتركَنَّ عِرضَك . قال : خُذْه على كُرْهٍ مني . فهو في قصيدة الفرزدق التي أولها : « نحن بزوراء اليمامة ناقتي » قال : وكان الفرزدق يقول : خير السرقة ما لا يجب فيه القطع ، يعني سرقة الشعر[3] » .

من هذه الأخبار نرى أن النقاد في هذا العصر أخذوا يتحدثون عن ظاهرة السرقات الشعرية . ومن العجيب حقاً أن نرى شاعراً كبيراً كالفرزدق يتورط فيها فيغتصب ما راق له من شعر معاصريه مع تهديدهم بالهجاء إن لم يتركوه له !

وطالما أن السرقات الشعرية ليست مما يُحَدُّ أو يعاقَبُ السارقُ فيها بقطع يده فهي في رأيه خير أنواع السرقة ، ولعل ذلك ما شجعه عليها .

ومع ذلك فقد أدخل على هذه السرقات بعضَ التغييرات اللفظية التي يتطلبها

(١) الأغاني : ج ١٩ ص ٤٣–٤٤ . نعف كاظمة : جبلبهـا . وأراد بالانثيين في البيت الأخير : الاذنين ، وبالكَرد : أصل العنق .
(٢) ديوان الفرزدق : ج ١ ص ١٧٧ .
(٣) الاغاني : ج ١٩ ص ٤٣ .

الذوق أو الموضوع ، كتغيير لفظة « الغلاصم » الواردة في بيت الشمردل إلى لفظة « الحلاقم ». فمثل هذا التغيير يدل على ذوقه الأدبي، وعلى إدراكه كشاعر متمرّس بأساليب القول والنظم لصفات الالفاظ التي تُعلي من قيمتها في الفصاحة.

*

(٤) صور من نقد المعنى :

كذلك عاب النقاد على شعراء العراق في هذا العصر فسادَ معانيهم أو قصورَها عن الوفاء بغرضها.

فعلى سبيل المثال عابوا على « الراعي » الشاعر قولَه في المرأة :

تكسو المَفارقَ واللَّبَّاتِ ذا أَرَجٍ ... مِن قُصْبِ مُعتَلِفِ الكافور دَرَّاجِ

فقد أراد بقوله « ذا أرَجٍ » المسك فجعله من « قُصْب » والقُصْب : المِعَى واحد الأمعاء. فجعل المِسْكَ من قُصْب دابة تعتلف الكافور فيتولّد عنه المسك [١].

وعابوا على جرير قولَه في بني الفَدَوْكَس رهطِ الأخطل :

هـذا ابنُ عمي في دمشق خليفةٌ ... لو شئتُ ساقكمُ اليَّ قطينا

وقيل له : يا أبا حَزرة ، أما وجدتَ في بني تميمٍ شيئاً تفخر به عليهم حتى فخرتَ بالخلافة ؟ لا والله ما صنعتَ في هجائهم شيئاً [٢].

وعابوا على الأخطل قوله في عبد الملك بن مروان :

وقد جعل اللهُ الخلافـةَ منهمُ ... لأبيض لاعاري الخِوان ولا جَدْبِ

(١) العقد الفريد : ج ٥ ص ٣٦٢ ، واللبات ، جمع لَبّة وهي وسط الصدر والمَنْحر.
(٢) المرجع نفسه . والقطين في هذا الموضع : العبيد والإماء .

وقالوا هذا مما لا يُمدَح به خليفة .

وعابوا عليه كذلك قولَه في رجـــل من بني أسد يمدحه ، وكان يُعرف « بالقين » ولم يكن « قَيْناً » – عابوا عليه قوله :

نِعم المُجيرُ « سِماكٌ » من بني أسدٍ بالمَرْج إذْ قتلت جيرانَها مُضَرُ
قد كنتُ أحسبه « قَيْناً » وأُنبَؤُه فالآن طُيِّر عن أثوابه الشَّرَرُ

وقالوا : هذا مدح كالهجاء [1] .

وعابوا على ذي الرُّمَّة قولَه في وصف ناقته :

تُصْغِي إذا شدَّها بالكُور جانحـةً حتى إذا ما استوى في غَرْزِها تَثِبُ [2]

فالمعنى هنا أن الناقة تصغي ، أي تميل كأنها تستمع إلى حركة مَن يريد أن يَشُدَّ عليها الرحلَ حتى إذا وضع صاحبُها رجلَه في الركاب وثبت قائمة . فهو يريد أن يصفها بالفطانة وسرعة الحركة .

وقد سمعه أعرابيٌّ يُنشد هذا البيت فقال : صُرِعَ والله الرجُل ، ألاَ قلت كما قال عمُّك الراعي :

وواضعةٍ خدَّهـا للزِّما مِ فالخدُّ منها له أصْعَرُ
ولا تُعجِلُ المرءَ قبل الركو بِ وهْيَ بركبته أبْصَرُ
وهْي إذا قام في غَرْزِهـا كمثل السفينة أو أوْقَرُ [3]

---

(١) العقد الفريد ج ٥ ص ٣٦٢. وسِماك هذا هو الذي عاذ به الأخطل ومنعه من ضَبَّة لما ظهروا على تغلب .

(٢) الكور : رحل الناقة أو البعير . وجانحة : مائلة لاصقة . والغَرْز : سَيْر كالركاب توضع فيه الرِّجْل عند الركوب .

(٣) العقد الفريد : ج ٥ ص ٣٦٣ ، وخَدٌّ أصعر : أي به مَيَلٌ .

فالأعرابي يقارن هنا بين الصورتين ، ثم يفضل الصورة التي رسمها الراعي للناقة ، وإن لم يذكر سبب التفضيل .

كذلك عابوا عليه في وصف كلاب صيد جائعة تطارد ثوراً قوله :

حتى إذا دَوَّمَتْ في الأرض راجعَهُ   كِبْرٌ ، ولو شاءَ نَجَّى نفسَه الهَرَبُ [1]

قالوا : « التدويم » إنما يكون في الجوّ دون الأرض ، يقال : دَوَّمَ الطائر في السماء إذا حلّق واستدار [2] . وهذا المعنى غير ما أراده الشاعر ، فقد أراد بقوله : « دوّمت في الأرض » أن الكلاب أمعنت في السير وأبعدت . قال الأصمعي : « دوّمت » خطأ منه [3] .

وعاب البَعيث الشاعر على الفرزدق وجرير والأشهب بن رُمَيْلة وكانوا حضوراً بمجلس الوليد بن عبد الملك بعضَ معانيهم . عاب على الفرزدق قوله في هجاء جرير :

بأي رِشاءٍ يا جريرُ وماتحٍ   تدلَّيْتَ في حومات تلك القَماقمِ ؟ [4]

قال : جعله يتدلّى عليه وعلى قومه مِن عَلُ ، وإنما يأتيه من تحته لو كان يعقل !

وعاب على جرير قولَه في هجاء الفرزدق :

---

(١) دَوَّمت : أمعنت في السير ، والضمير للكلاب ، وراجعه كِبر : أي أَنِفَ من الهرب، فرجع الى الكلاب .

(٢) العقد الفريد : ج ٥ ص ٣٦٤

(٣) انظر لسان العرب مادة « دام » : ج ١٢ ص ٢١٤

(٤) الرشاء : حبل الدلو . الحومات : جمع حومة ، وهي أكبرُ موضع في البحر ماءً وأغمرُه . القماقم : جمع قمقام وهو البحر .

لَقَوْميَ أَحْمَى للحقيقةِ مِنكمُ وأَضْرَبُ للجَبَّارِ والنَّقْعُ ساطعُ[1]
وأَوْثَقُ عند المُرْدَفاتِ عَشِيَّةً لَحَاقاً إذا ما جرَّدَ السيفَ لامعُ[2]

قال : جعل نساءَه لا يثقن بلحاقه إلا عشيّة وقد ... فُضِحن !

وعاب على ابن رُمَيْلة قولَه وقد دفع أخاه إلى مالك بن سَلْمِيٍّ فقُتِل :

مَدَدْنا وكانتْ ضَلَّةً من حُلومنا بِثَدْيٍ إلى أبناء ضَمْرَةَ أقطعا

قال : فمن يرجو خيرَه وقد فعل بأخيه ما فعل ؟

هذه بعض نماذج من صور نقدهم للمعاني الجزئية ، وهي صور تكشف عن اتساع مجال النقد وتطوره إلى حد ما، وذلك بالتفات نقاد العراق إلى ما يصيب المعاني أحياناً من فساد أو غموض أو قصور أو خطأ ، الأمر الذي ينزل بقيمتها الادبية والفنية في ميزان النقد .



(٥) النحاة والنقد :

رأينا فيما تقدم صوراً من نقد الرواة والشعراء والأدباء ، وهو نقد فطري قائم على الطبع والسليقة ، لم يتأثر في قليل أو كثير بروح العلم .

ولكن إلى جانب ذلك ظهر في بيئة العراق أيام الامويين لون آخر من النقد الادبي ، يُعزَى إلى الرعيل الاول من اللغويين والنحاة . وهو نقد موضوعي يخلو من روح التعصب والهوى ، ويراد به العلم والتوجيه وخدمةُ الشعر من

---

(١) الحقيقة : كل ما يجب على الرجل أن يحميه ويدافع عنه ويبذل نفسه في سبيل المحافظة عليه كالعِرض والنفس والمال . والجبار : رئيس القوم .

(٢) لمع بسيفه : إذا أشار به للإنذار ، وهو أن يرفعه ويحركه ليراه غيره فيجره إليه .

جميع نواحيه ، مع الاستعانة في ذلك بالاصول المقررة في اللغة والنحو والعروض وتقدير الادب . وهكذا فُتِح بابُ النقد أمام العلماء وقد كان من قبل وقفاً على الرواة والشعراء ومُتذوّقي الادب .

وقد أرسَوْا نقدهم على ما أحاطوا به من دقائق اللغة وأصول النحو وأعاريض الشعر وما يجوز فيها وما لا يجوز ، وكانوا بهذه الثقافة العربية ينظرون في الشعر فيصوّبون ويخطّئون ، ويقوّمون ويعدّلون .

وممارسة النقد على هذه الأسس أدّتْ ببعض الشعراء الى هجاء مَن عرض لشعرهم بالنقد من أولئك العلماء ، لأنهم ، وهم المطبوعون، لم يكونوا ليستسيغوا أن يتقبلوا النقد والتوجيه ممن اكتسبوا اللغة اكتساباً .

ومن أوائل اللغويين والنحاة الذين دخلوا ميدان النقد في هذا العصر : يحيى ابن يعمر البَصري ، وعنبسة الفيل ، وعبدالله بن اسحاق الحضرمي ، وأبو عمرو بن العلاء .

ومن صور هذا النقد ما وقع بين الحجاج ويحيى بن يعمر البَصريّ . حُكِيَ أن الحجاج قال له : أتجدُني ألْحَنُ ؟ فقال يحيى : الاميرُ أفصح من ذلك . فقال : عزمتُ عليك لتخبرَنّي ! فقال يحيى : نعم ! فقال له : في أي شيء ؟ قال : في كتاب الله تعالى . فقال : ذلك أسْوَأُ ، ففي أيّ حَرْفٍ من كتاب الله ؟ قال : قرأت : « قُلْ إنْ كان آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكم وعشيرتُكم وأموالٌ اقْتَرَفْتُموها وتجارةٌ تَخْشَوْن كسادَها ومساكنُ تَرْضَوْنها أحبّ إليكم » فرفعتَ « أحبّ » وهو منصوب . فغضب الحجاج وقال : لا تساكنُنِي ببلد أنا فيه ، ونفاه الى خراسان [1] .

فملاحظة يحيي بن يعمر على الحجّاج ليس مرجعُها الى الحفظ والسليقة

---

(١) معجم الأدباء لياقوت : ج ٢٠ ص ٤٢ - ٤٣

فحسب ، وإنما مرجعها أيضاً إلى صفته النحوية، حيث قال له « رفعت » كلمة من حقها « النَّصْب » .

وكان عنبسةُ بن مَعْدان الفيل مع علمه باللغة والنحو وبَصَرِه بالأدب يروي شعر جرير ، وكان كما يقـول المرتضى في أماليه ، يتتبَّع شعر الفرزدق ويخطئه ويلحِّنه ، وبلغ ذلك الفرزدق فقال يهجوه :

لقد كان في مَعْدانَ والفيلِ زاجرٌ ... لِعَنبسةَ الرَّاوي عليَّ القصائدا

ويُروَى أن بعضَ عمالِ البصرة سأل عنبسة عن هـذا البيت وعن الفيل ، فقال عنبسة : لم يقل « الفيل » وإنما قال : « اللؤم » : فقال لعنبسة : إن أمراً تَفِرُّ منه إلى « اللؤم » لأمرٌ عظيم [1] .

وقد وجد الرعيل الاول من اللغويين والنحاة في شعر الفرزدق مادة خصيبة لنقدهم النحوي . يقول ابن سلام عنه : كان ـ الفرزدق ـ يداخل في الكلام ، وكان ذلك يُعجب أصحابَ النحو [2] » وكان يونس بن حبيب النحوي يقول : « لولا شعرُ الفرزدق لذهب ثلث اللغة » [3] .

ولعل عبدالله بن إسحاق الحضرمي كان أكثر علماء هذا الجيل نقداً للفرزدق وتكلماً في شعره . ذكر ابنُ سلاّم أنه لما سمع الفرزدقَ يُنشد في مديحه يزيد بن عبد الملك :

مستقبلين شَمالَ الشامِ تضربهم ... بحاصِبٍ كَنَديفِ القُطْن منثورِ [4]

على عمائنا يُلقَى وأرْحُلِنـــا ... على زواحفَ تُزجَى مُخُّها رِيرِ [5]

(١) نزهة الألباء في طبقات الأدباء : ص ١٢ - ١٣

(٢) الأغاني : ج ١٩ ص ١٥

(٣) المرجع نفسه : ج ١٩ ص ٩٦

(٤) الحاصب : الريح الشديدة تحمل الحصباء .

(٥) مُخٌّ رِيرٌ : مُخ ذائب فاسد من الهُزال .

قال له : أسأتَ ، إنما هي « ريرٌ » بالرفع ، وكذلك قياس النحو في هذا الوضع . فلما ألحُّوا على الفرزدق قال : « زواحفَ تُزجيها محاسيرِ »[1] ، ثم ترك الناس هذا ورجعوا الى القول الاول . فلما أكثروا الرد على الفرزدق هجا عبدالله بن إسحاق الحضرمي بقوله :

فلو كان عبدُ الله مَوْلىً هجوتُه ولكنَّ عبدَالله مَوْلَى مَواليَـا

فقال له ابن إسحاق : ولقد لحَنْتَ أيضاً في قولك : « مولى مواليا » وكان ينبغي أن تقول : « مَوْلَى موالٍ »[2] .

فابن إسحاق كما يبدو هنا لا يُهمه هجاء الفرزدق له بمقدار ما يهمه أن يفطن إلى ما وقع فيه الشاعر من خطأ نحويّ وأن يَدُلّ عليه .

وروى أبو عمرو أن ابنَ إسحاق سمع الفرزدق يُنشِد :

وَعَضَّ زمانٌ يا ابنَ مروانَ لم يَدَعْ من المال إلّا مُسْحَتًا أو مُجَلَّفُ[3]

فقال له ابنُ إسحاق : على أي شيء ترفع « مُجَلَّفٌ » ؟ فقال : على ما يَسُوءُك ويَنُوءُك ![4] . وعلّق ابن عبد ربه على هذا البيت بقوله : « وقد أكثر النحويون الاحتيالَ لهذا البيت ، ولم يأتوا بشيء يُرضِي »[5] .

ومما أدركه النحاة على الفرزدق أيضاً وعرضوا له بالنقد قوله :

غداةَ أَحَلَّتْ لابنِ أَصرمَ طعنةٌ حُصَيْنٍ عبيطاتِ السدائفِ والخمرُ

---

(١) الزواحف : النوق اللاغبة . تزجيها : تسوقها . محاسير : الواحد محسور : الكليل .

(٢) نزهة الألباء وطبقات الأدباء للأنباري : ص ١٨ - ١٩

(٣) المال المسحَت : المال الحرام الذي لا يحل كسبُه لأنه يسحَت البركة أي يُذهبها ، وقيل أيضاً : المال المهلَك . والمجلَّف : المال الذي بقيت منه بقية .

(٤) نزهة الإلباء : ص ٢٠

(٥) العقد الفريد : ج ٥ ص ٣٦٢

فقد أخذوا على الفرزدق أنه نصبَ « عبيطاتِ السدائف » ورفع « الخمر »، وإنمـــا هي معطوفة عليها ، وكان وجهُها النصبَ ،فكأنه أراد : وحلّتِ الخمرُ »[1] .

وكان الأوائل من علماء اللغة والنحو يعتزون بعلمهم وينتصرون للمقاييس التي يستخدمونها في نقد الكلام والمفاضلة بين الشعراء .

ورد في الاغاني عن أبي عبيدة قـــال : « جاء رجل إلى يونس بن حبيب النحوي فقال له : من أشعر الثلاثة ؟ قال : الأخطل . قلنا : مَن الثلاثة ؟ قال: أيُّ ثلاثة ذُكروا فهو أشعرهم . قلنا : عمَّنْ تَرْوِي هذا ؟ قال : عن عيسى بن عمر وابن إسحاق الحضرمي وأبي عمرو بن العلاء وعَنْبَسة الفيل وميمون الأقرن الذين مَاشَوا الكلام وطرقوه » .

« أخبرنا به أحمد بن عبد العزيز قال : قال أبو عبيدة عن يونس فذكر مثله وزاد فيه : لا كأصحابك هؤلاء لا بَدَوِيُّون ولا نحويون. فقال الرجل : سَلْهُ وبأيّ شيء فضّلوه ؟ قال : بأنه أكثرُهم عددَ طِوالٍ جياد ليس فيها سَقَطٌ ولا فُحشٌ وأشدّهم تهذيباً لشعره .

فقال أبو وهب الدقّاق : أمَا إنّ حمّاداً وجَنّاداً كانا لا يفضلانه .

فقال : وما حمّاد وجنّاد ؟ لا نحويان ولا بَدَوِيّان ولا يُبصران المكسور ولا يُفصحان. وأنا أُحَدّثك عن أبناء تسعين أو أكثر أدّوْا إلى أمثالهم ماشَوا الكلام وطرقوه حتى وضعوا أبنيته ، فلم تَشِذّ عنهم كلمة ، وألحقوا السليمَ بالسليم ، والمضاعَفَ بالمضاعَف ، والمعتلّ بالمعتـل ، والأجوفَ بالأجوف ،

---

(١) العقد الفريد:ج٥ ص ٣٦٢ .وحصين بن أصرم رجل من ضبة كان قد نذر ألاّ يأكل لحماً ولا يشرب خمراً حتى يدرك ثأره ؛ فأدركه في هـــذا اليوم الذي ذكره ، عبيطات السدائف : أي نياق سمينات ، والعبيطات : المذبوحات لغير علة ، وهن سمينات فتيات .

وبناتِ الياء بالياء ، وبناتِ الواو بالواو ، فلم تَخْفَ عليهم كلمة ، وما عِلْمُ حمّادٍ وجنّاد ...؟ [1] .

فهذا الخبر يدلنا إلى أي مدى بدأ علماء اللغة والنحو الذين دخلوا ميدان النحو متأخرين يعتزون بمقاييسهم النحوية في نقد الكلام والمفاضلة بين الشعراء . ولهذا فهم لا يعتدُّون في النقد إلا بآراء وأحكام طائفتين : طائفةِ النحاة أي أنفسِهم ،وطائفة أعراب البادية ، وذلك لفصاحتهم ونقاء لغتهم وسلامة ذوقهم . أما آراءُ الرواة وأحكامُهم النقدية فإنهم لا يحترمونها ، لقلة علمهم وعدم فصاحتهم في نظرهم .

ومن هذا الخبر أيضا نرى متقدمي اللغويين والنحاة يتجهون الى الاحكام المعللة ، فهم إذ يفضلون الاخطل على أي ثلاثة ذكروا من الشعراء ، لا يقفون عند هذا الحكم وإنما يُردِفونه بأسبابه .

وتتمثل هـــذه الاسبابُ في أنه كان أكثر الشعراء من حيث عددُ القصائد الطوال الجياد ، ولهذا الطول مع الجودة دلالته على سعة إحاطة الاخطل باللغة ومفرداتها .

كما تتمثل في خلوهـــا من السَّقَطِ أي الرديء الذي لا خير فيه ، ومن الفُحْش أي البَذاء والقبيح من القول. ثم سبب أخير وهو أنه كان أكثر معاصريه تهذيباً وتنقيحاً لشعره .

ومن قبيل هذه الاحكام المعللة ما رواه الاصمعي عن أبي عمرو بن العلاء قال: « كان أبو عمرو يُشَبِّه الاخطل بالنابغة لصحة شعره » [2] .

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٣٤٦ وانظر كذلك ص ٣٥٤ ، وماشوا الكلام وطرقوه : يريد أنهم يخلطون الكـــلام ثم يغربلونه ليستخرجوا أحسنه . ويعني بحماد حماداً الراوية المعروف . وجنّاد هو جناد بن واصل الكوفي من رواة الأخبار والأشعار ، لا علم له بالعربية ، وكان يصحّف ويكسر الشعر ، ولا يميز بين الاعاريض المختلفة فيخلط بعضها ببعض .

(٢) الأغاني : ج ٧ ص ٣٤٩

ويبدو أن أبا عمرو ، واسمه زَبّان بن العلاء بن عمار ، كان يفضل الفرزدق وينتصر له . فهو في مرة يشبّهه بزهير بن أبي سُلمى [1] . وفي مرة أخرى عندما انتقده ابن إسحاق الحضرمي على قوله :

وعضّ زمانٌ يا بن مروان لم يَدَعْ من المال إلا مُسْحَتاً أو مُجَلَّفُ

يقول للفرزدق : أصبت ! وهو جائز على المعنى [2] .

لكل ذلك نرى الفرزدق يقول فيه :

ما زلتُ أُغلق أبواباً وأفتحها حتى أتيت أبا عمرو بن عَمَّارِ [3]

ومع ذلك لم يسلم أبو عمرو من لسان الفرزدق فقد هجاه ثم جاء معتذراً إليه ، فقال له أبو عمرو :

هَجَوْتَ زَبَّانَ ثم جئْتَ معتذِراً
من هَجْوِ زَبَّانَ لِمْ تهجو ؟ ولِمْ تَدَعُ ؟ [4]

من كل ما تقدم نرى أن الجيل الاول من علماء اللغة والنحو الذي ظهر في أواخر القرن الاول قد زَجّ بنفسه في ميدان النقد الأدبي ، وراح يستخدم منهجه العلمي في بحث الشعر ونقده .

وقد تجاوز هذا الجيلُ بمنهجه المستحدَث حدودَ النقد إلى تعديلِ وتصحيح كلّ شعر لا يخضع لنحوهم الناشىء . وكان طبيعياً أن يؤديَ هذا الموقف من جانب النحاة إلى كثير من الجدل والخصومة بينهم وبين الشعراء خاصة .

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ج ١ ص ٤٧٦

(٢) نزهة الألباء : ص ٢٠

(٣) وفيات الاعيان : ج ١ ص ٥٥١ (٤) نزهة الالباء : ص ٢٤

فالنحاة وقد آمنوا بسلطان نحوهم يحاولون به أن يفرضوا وصايتهم على الشعراء ، وأن يُبَصّروهم بما يجوز وما لا يجوز في الشعر ، كما يحاولون أن يجعلوا من مقياسهم العلمي الجديد أساساً للمفاضلة بين شاعر وشاعر .

والشعراء بدورهم يتعالون بطبعهم وسليقتهم العربية الخالصة على هؤلاء المستعربين ، ويأبون الانصياع لنحوهم وأقيستهم . هذا عَمّار الكلبي الشاعر يعيب عليه النحاةُ بيتاً من شعره فيعارضهم بقوله :

ماذا لقينا من المستعربين ومن ... قياس نَحوِهمُ هذا الذي ابتدعوا ..؟

إنْ قلتُ قافيةً بكراً يكونُ بها ... بيتٌ خلافَ الذي قاسوه أو ذَرعوا

قالوا : لَحَنْتَ . وهذا ليس مُنتصِباً ... وذاك خَفْضٌ ، وهذا ليس يرتفعُ

كم بين قومٍ قد احتالوا لمنطقهم ... وبين قوم على إعرابهم طُبِعوا

ما كلُّ قوليَ مشروحاً لكم فَخُذوا ... ما تعرفون وما لم تعرفوا فَدَعُوا

*

تلك صورة لحركة النقد في العراق ، وهي على إيجازها تبين الطابع العام لهذا النقد في العصر الأموي واتجاهاته الرئيسية .

وكما رأينا فإن هذا النقد كان أكثر ما يدور حول فحول الشعراء . وقد أسهم في نقد شعرهم الرواةُ والشعراءُ والأدباء والنحاة ، وكانت تُعقَد حلقاتُ النقد في الأسواق كمربد البصرة وكُناسة الكوفة ، وفي المساجد ، وقصور الخلفاء ، ودور الأمراء ، ومجالس الأدباء والعلماء .

وقد سلك نقاد هذا العصر طرائق مختلفة ، فمنهم مَن توجّه إلى المفاضلة العامة بين معاصريهم من الشعراء أو بين الشعراء الجاهليين ، ومن هذه المفاضلات ما هو مُعلّل أو غيرُ مُعلّل .

ومنهم مَن التفت إلى المفاضلات الجزئية ، أو الى ما يصيب المعاني من فساد أو غموض أو قصور أو خطأ ، أو الى السرقات الشعرية التي أخذت بوادرها تظهر ويتردد الحديث عنها .

ومنهم من حاول أن يكون موضوعياً فتجرّدَ عن العصبية والهوى ، وحاول أن ينقد الشعر لذاته ولقيمته الفنية ، بغَضّ النظر عن قائله أو عقيدته .

ولكنْ كان الى جانب ذلك بالعراق حركةٌ أدبية نقدية أخرى قِوامُها أدبُ الخوارج الذي يُعَدُّ خيرَ ما يمثّل الأدبَ الإسلامي الجديد في ذلك العصر .

لم يكن الشعر لدى الخوارج غايةً تهدف إلى الإتقان والتجويد والكمال الفني ، وإنما كان وسيلةً وأداةً لخدمة مذهبهم . ومِن ثَمّ نراهم يُطوّعون أغراض الشعر المختلفة لآرائهم الخارجية .

ومن سمات شعرهم أنه جديد في كل شيء . فهو جديد في موضوعه ، لأنه شعر مذهب حديث أوْجَدَه الإسلامُ واستمد عناصره السياسية والدينية منه . وهو جديد في معانيه ، فكلها معان إسلامية مستوحاة من القرآن الكريم. ولهذا فهي أبعد ما تكون عن المعاني الجاهلية ، إلاّ ما كان من الحملة على ما بدأ يظهر منها في المجتمع الإسلامي بفعل السياسة والعصبيات القبلية .

وهو جديد في غايته لأن شعراءهم كانوا يقولونه بباعثٍ من الجهاد في سبيل الحكم الصالح والنظام الذي لا يتطرّق إليه الفساد. وهو جديد في أخلاق رجاله وعواطفهم لما تجلّى من قوة أخلاقهم في الجهاد ورقة عواطفهم في الإخلاص والتّحَابّ . ثم هو جديد في أساليبه التي تنحو في سلاستها ورقتها وجزالتها مَنْحَى الأساليب القرآنية .

بهذه الجِدّةِ المتعددة الجوانب انفصل شعرُ الخوارج عن سابقه ومعاصره ، وصار لوناً من الشعر مستقلاً بذاته ، لا يجري على مألوف تقاليد القصيدة

الجاهلية أو الأموية .

تلك كانت نزعة الخوارج في أدبهم ، وكذلك كانت نزعتهم في النقد مخالفةً لما كان يجري عليه نقدُ الشعر الآخَر في عصرهم . فمقياسهم في النقد كان مستمَداً من مقياس الرسول القائم على أساس أن أحسن الشعر ما وافق الحق وما لم يوافقه فلا خير فيه .

وعلى هذا فقد كانوا يقدّرون الشعر ويزنونه بميزان الدين والأخلاق ، لا بالميزان الفني الذي سبق القول فيه . وطبقاً لمقياسهم هذا الذي اعتمدوه في النقد والتزموا به كانوا لا يقدّرون هؤلاء الشعراءَ الذين يمدحون الناس بما ليس فيهم ، مهما علا فنّهم الشعري . إنهم في نظرهم شعراء الكافرين أما شعراؤهم فشعراء المؤمنين !

جاء في العقد الفريد أن عاصمَ بنَ الحدَثان كان عالماً ذكياً ، وكان رأسَ الخوارج بالبصرة ، وربما جاءه الرسول منهم من الجزيرة يسأله عن أمر يختصمون فيه ، فمرّ به الفرزدق ، فقال لابنه : أنشِد أبا فراس ، فأنشده :

وَهُمُ إذا كسروا الجُفونَ أكارمٌ صُبُرٌ وحين تُحَلَّلُ الأزرارُ [1]
يَغْشَوْنَ حَوْمَاتِ المنونَ وإنها في الله عند نفوسهم لَصِغارُ
يَمْشُون بالخَطّيّ ... لا يَثْنيهِمُ والقومُ إذْ ركبوا الرّماحَ تِجارُ [2]

فقال له الفرزدق : وَيْحَكَ ! اكتُمْ هذا لا يسمعه النّسّاجون فيخرجون علينا بحفُوفهم [3] . فقال أبوه [4] : يا فرزدق ، هو شاعر المؤمنين ، وأنت

---

(١) الجفون: الاغماد . وكسر الجفون وحلّ الازرار كناية عن الاستعداد والنهوض للحرب .
(٢) الخطيّ : الرماح . وتجار : جمع تاجر . مثل صاحب وصِحاب .
(٣) الحفوف : جمع « حَفٍّ » وهو المِنْسج
(٤) أبوه : يريد عاصم بن الحدثان

شاعر الكافرين [1]

*

وبعد فقد عرضنا حتى الآن لحركة النقد الأدبي في كلٍّ من بيئتي الحجاز والعراق ، أما عن حركته في « الشام » أي في البيئة الثالثة والأخيرة من البيئات التي نما النقد فيها وأزهر في العصر الأموي فإنها موضوع حديثنا في الفصل التالي ...

---

(١) العقد الفريد : ج ١ ص ١٢٤

الفصل السابع

النقد في الشام

الأدب في الشام :

إذا نظرنا إلى بيئة الشام في العصر الأموي لنتبين الحياة الأدبية فيها والطابع العام لهذه الحياة ، فإننا لا نكاد نرى لها ملامح متميزة أو سماتٍ خاصةً تنفرد بها وتُظهر شخصيتها .

وعلى هذا فليس للشام نصيب يذكر من الأدب أو الشعر النابع من صميم بيئتها ، وذلك راجع في الغالب إلى أن أكثر سكان الشام من العرب كانوا يمنيين ممن اكتسبوا لغة عرب الشمال اكتساباً لم يؤهلهم لقول الشعر ونظمه . ومن ثَمّ لا نجد لهم شعراء مشهورين في هذا العصر سوى عديّ بن الرّقاع العاملي .

وإذا قارنا بين حالة الشعر مثلاً في كلٍّ من بيئة العراق وبيئة الشام في العصر الأموي وجدنا البَوْنَ شاسعاً والفرق كبيراً جداً . ففي العراق نرى حركة شعرية نشيطة ، ونستطيع أن نعد عشرات من الشعراء الممتازين ، على حين نرى بيئة الشام مُقفرةً من الشعراء إلاّ من شاعر كعديّ بن الرقاع العامليّ . ومع ذلك فهو لا يستطيع أن يرتفع بشعره إلى مستوى شعراء العراق من أمثال الفرزدق وجرير والأخطل والكميت وذي الرُّمّة .

فبيئة الشام أيام الأمويين لم تكن تربة خصيبة ينمو فيها الشعر ويُزهر كبيئة العراق ، وأكثر ما وُجِد فيها من شِعر كان طارئاً أو وافداً عليها من الخارج .

وذلك الشعر الوافد إلى الشام من الخارج كان له مصدران : يتمثّل أولهما في وفود الشعراء بشعرهم على دمشق عاصمة الخلافة حيث يُنشِدون الخلفاء والأمراء وينالون عطاءهم . وكان أغلب هذا الشعر مديحاً .

أما المصدر الثاني فشعرٌ كان وليدَ الحروب القبلية بين القبائل اليمنية بالشام والقبائل القيسية التي وفدت عليه مهاجرة من الحجاز ونجد . فالشعر الذي تمخضت عنه الحروب التي دارت رحاها بين اليمنيين والقيسيين لم يكن شعراً نابعاً من بيئة الشام فيُحسبَ لها ، وإنما كان شعراً طارئاً جلبته معها قبائل عُرِفت بالشعر ! وكان أكثره يدور على الفخر والمهاجيات .

ولعل الشعر الوحيد الذي نبع من داخل بيئة الشام هو ذلك الشعر الذي أُثِر عن بعض أمراء وخلفاء بني أمية ممن دفعت بهم ظروف نشأتهم وحياتهم الخاصة الى الانغماس في حياة الغناء واللهو والشراب .

فهؤلاء وقد نعموا بحياة الترف والبذخ راحوا يستقدمون المغنين والمغنيات من الحجاز ، فمهدوا بذلك لانتقال الغناء الى الشام بما يتبعه من الشعر الغنائي .

ومن الخلفاء الذين طلبوا الغناء الحجازي وأدخلوه على مجالسهم يزيد بن معاوية، فقد كان صاحب طرب ومنادمة على الشراب . وفي أيامه استعملت الملاهي وأظهر الناس شرب الشراب (١) .

ومنهم يزيد بن عبد الملك الذي أقبل على اللهو والشراب واقتدى به عمّاله ، وكان يعقد مجالس الغناء ويطرب لغناء حَبابة وسلاّمةَ القَسّ (٢)

---

(١) مروج الذهب للمسعودي : ج ٣ ص ٧٧

(٢) المرجع نفسه : ج ٣ ص ٢١٠

ثم نلتقي بالوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهو أول من حمل المغنين من البلدان إليه وجالس المُلْهِين ، وأظهر الشراب والملاهي والعزف وغلبت عليه شهوة الغناء ، وقيل إنه ألحد وكفر في طربه !

كان الوليد بن يزيد هذا متهتكاً ماجناً ، وكان يُدعَى خليع بني مروان ، وقد أجاد الغناء والشعر معاً . وكان أغلب شعره في الغزل ونعت الخمر ، ويُخيَّل لمن ينظر في شعره أنه نظمه للغناء (١) .

وخلاصة القول أن بيئة الشام لم ينبع من داخلها شعر يُعتَدُّ به في العصر الأموي غير ما أثر لبعض خلفاء الأمويين : كشعر الوليد بن يزيد في الغزل والخمر .

وكل ما عرفته هذه البيئة من شعر غير ذلك فهو طارىء عليها من الخارج كشعر المدح الذي كان يفد به الشعراء من العراق والحجاز ونَجْد على الخلفاء والأمراء في دمشق عاصمة الخلافة ، إما للعطاء أو لنيل الحظوة أو للأمرين معاً .

❋

ولئن كان الطابع الغالب على الأدب في الحجاز هو الغزل والنقدُ يتبعه ، وكان الطابع الغالب على الأدب في العراق هو الفخر والهجاء والنقدُ يتبعه ، فإن الطابع الذي غلب على الأدب في الشام هو المدح .

وكان طبيعياً أن يفد الشعراء بمدائحهم على خلفاء الامويين في دمشق حاضرة الخلافة . وكان الخلفاء يجزلون لهم العطايا على هذه المدائح : إما تألفاً لهم واتقاء لالسنتهم وحباً في أن تشيع مدائحهم لهم بين الناس ، وإما تقديراً للشعر نفسه وإعجاباً به ، وهم عرب في نسبهم وعرب في أذواقهم ، وإما للسببين معاً.

---

(١) مروج الذهب للمسعودي : ج ٣ ص ٢٢٦ - ٢٢٨

فمنذ قيام الدولة الاموية الى نهايتهـا والشعراء يفدون على دمشق بمدائحهم . لقد كانت الدولة لا تزال عربية في جميع مظاهرها ، وكانت تقاليد الحكم الاموي لا تزال تجري على ما ألفه العرب ، فلا حجّاب ولا موانع تحول بين النـاس وخلفـائهم ، وإنما هناك أبواب مفتحة ووفودٌ تغدو وتروح وكثرةُ تردُّدٍ على الخلفاء في الجليل من الامور والحقير .

ولهذا كانت قصور الخلفاء مقصد الناس في كل شيء ، وفيها كانت تعقـد مجالس للحديث في شئون الحكم والسياسة والادب والشعر والنقد . وإلى هـذه المجالس كان يفد الشعراء بمدائحهم ، فإذا أنشد الشاعر قصيدة أنشدها على ملأ من الناس ، وإذا عرض أحدٌ لنقدها كان نقده على ملأ من الناس أيضاً .

والادب الذي يليق بأصحاب القصور هو أدب المديح ، لهذا غلب على أدب الشام شعرُ المديح . وقد اتجه النقد الادبي تبعاً لذلك إلى هذا اللون من الشعر ، وأمسك الخلفاء بميزانه يوجهونه . وكان خير الشعر عندهم أشدّه تفنناً في مدحهم وأكثرَه تملّقاً لغرورهم وكبريائهم .

لقد ظلّ الحكم الاموي طوال حيـاته يواجه معارضة شديدة من الخوارج والشيعة والزبيريين وغيرهم ثم من دُعاة العباسيين آخر الامر . ولهـذا راح الخلفاء يستميلون الشعراء بالعطاء ويشجعونهم على مديحهم والإشادة بأعمالهم ، لعلمهم بأثر الشعر في نفوس العرب وفي كسْب الانصار والمؤيدين .

وما من شك في أن الشعراء الموالين للأمويين كانوا أكثر عدداً من شعراء أي حزب آخر ، وأنه لم تكن هناك بلدة أو قبيلة تخلو من شاعر أو شعراء لهم نزعة أموية ، وأن هؤلاء جميعاً قد خلّفوا شعراً في تأييد الامويين ومدحهم.

ومن هؤلاء بالإضافـة الى الشعراء الفحول أعشى ربيعة ، وعديُّ بن الرقاع العاملي ، والنابغـة الشيباني ، وأبو صخر الهذلي ، والأحوص ، وعبدالله بن الزبير الاسدي ، وإسماعيل بن يسار ، وأبو العباس الاعمى ، وحارثة بن بدر الغداني ، وأبو قطيفة .

وهؤلاء وأمثالهم قد اضطرهم المديحُ أن يتفننوا في معـانيه وصوره ، وأن يقلّبوه على جميع وجوهه ، وأن يذهبوا فيه كل مذهب . وقـد أدى الإكثار من هذا المديح إلى الإكثار من نقده .

وأكثر النقد الذى عرفته بيئة الشام في العصر الأموي قد صدر عن الخلفاء والأمراء لسعة إحاطتهم باللغة والأدب ، ولمعرفتهم الدقيقـة بمحاسن الكلام ، ولمشاركتهم الفعلية فيما كان يجري حول الشعر من حوار ونقاش .

ولما كان عبدُ الملك بن مروان هو شيخَ الحَلْبة ، وخيرَ مَن عرض للشعر بالنقد فإننـا نحاول هنا أن نتعرّف إلى منهجه وأن نتبين الطريق الذي سلكه النقد في عهده ...

*

عبد الملك بن مروان الناقد :

وعبد الملك هو ثاني الخلفاء في دولة آل مروان ، وخامس الخلفاء الأمويين ، وتاسع الخلفاء منذ بدء تاريخ الخلافة .

قضى الشطر الأكبر من حياتـه بالحجاز في المدينة ، ونشأ منذ مولده نشأة إسلامية محضة ، وأحب الثقافة العربية من صغره وظلّ يواصل التزوّدَ منها في سني عمره ، كما يدل على ذلك ما بلغه من مستوى رفيع في البلاغة ومعرفـة الآداب العربية ، وكما يظهَر ذلك في خطبه ورسائله وأحاديثه الادبية .

هاجر مع بني أمية من المدينة إلى الشام عندما صار موقفهم بالحجاز حَرِجاً بعد موت الخليفة يزيد بن معاوية عام ٦٤هـ ، واضطراب الأمر بالشام .

وآلت إليه الخلافـة بعد والده مروان بن الحكم ، فقضى فيها أكثر من إحدى وعشرين سنة « ٦٥ ـ ٨٦ هـ » قام خلالها بفتوحات وأعمال وإصلاحات

جليلة . ففي خلافته حقّق وحدة الدولة ، وثبّت دعائمها ، وزاد من مكانتها وهيبتها وسيادتها على الأعداء .

وفيها وسّع حدودها ورقعتها بفتح بلاد المغرب ، ووضع أسس السياسة الاقتصادية بإصدار العملة العربية ، وجعل اللغة العربية اللغة الرسمية الوحيدة في سائر الدواوين بجميع الاقطار الإسلامية .

ومن أبرز صفاته قوةُ الإرادة وثبات العزم والشجاعة والحزم . ذُكِر عند معاوية بن أبي سفيان مرة فقال معاوية عنه : « هو آخذٌ بثلاث وتاركُ لثلاث : آخِذٌ بقلوب النـــاس إذا حدّث ، وبحُسْنِ الاستماع إذا حُدّث ، وبأيسر الأمرين إذا خُولِف ، تاركٌ للمماراة ، تاركٌ للغيبة ، تاركٌ لما يُعتَذر منه »[1].

وقال له بعض جلسائه يوماً : « أريد الخَلْوةَ بك » ، فلما خلا به قال عبد الملك : « بشَرْط ثلاثِ خصال: لا تُطْرِ نفسي عندك فأنا أعلم بها منك، ولا تغتَبْ عندي أحداً فلستُ أسمع منك، ولا تكذِبْني فلا رأيَ لمكذّب». قال : أتأذن لي في الانصراف ؟ قال إذا شئت [2] » .

وقد أُثِر عنه أنـــه كان يتخيّر جلساءه وسُمّارَه . كتب الى الحجاج بن يوسف: أنِ ابعثْ إليّ رجلاً يصلح للدين والدنيا أتخذُه سميراً وجليساً وخَليّاً. فقال الحجاج : ما له إلا عامرُ الشّعبيُّ وبعث به إليه [3] .

والشعبيُّ هذا سبق أن ولاّه عبدُ الملك قضاء البصرة ، عندما قال لجلسائه مرة : دِلّوني على رجل استعمله . فقـال له رَوْحُ بنُ زِنباع أميرُ فلسطين : أدُلّك يا أمير المؤمنين على رجل إنْ دعوتموه أجابكم وإنْ تركتموه لم يأتكم ، ليس بالمُلحِف طلباً ، ولا بالمُمعِن هرَباً : عامرُ الشعبيُّ [4] .

---

(١) مروج الذهب للمسعودي : ج ٣ ص ١٢٤

(٢) نفس المرجع .

(٣) العقد الفريد : ج ٢ ص ٧٢ . ولد الشعبي سنة ١٩ وتوفي سنة ١٠٣هـ .

(٤) نفس المرجع : ج ١ ص ٢٣

ومع ما عُرِف عن الشعبي من حُسْنِ الحديث وخَلابةِ المنطق وسعة العلم والرواية فإنه كان متواضعاً . سأله إبراهيم النخعيُّ عن مسألة، فقال : لا أدري. فقال النخعيُّ : هذا واللهِ العالمُ . سئل عما لا يدري ، فقال : لا أدري [١] . ومما يدل على سعة علمه وغزارة محفوظه من الشعر قوله : « لستُ لشيء من العلوم أقلَّ روايةً مني للشعر . ولو شئت لأنشدتُ شهراً ولا أعيد بيتاً » [٢].

ومن كلماته المأثورة : « لَأنْ أُدعَى من بُعدٍ الى قُربٍ أحبُّ اليَّ من أن أُقصَى مِن قُرْبٍ الى بُعْدٍ » . وقوله لرجل شتمه : « إنْ كنتَ صادقاً فغفر الله لي ، وإنْ كنتَ كاذباً فغفر الله لك » [٣] .

ولما حُمِل الشعبيُّ الى عبد الملك ونادمه وحَظِيَ عنده وجَّهَ إليه عبدالملك كلمة تُعَدُّ دستوراً لأدب النديم . قال عبد الملك : « يا شعبيُّ لا تساعدْني على ما قَبُح ، ولا تَرُدَّ عليَّ الخطأ في مجلسي ... ودَعْ عنك كيف أصبح الاميرُ وكيف أمسَى . وكلِّمْني بقدر ما أستطعمك . واجعلْ بدلَ المدحِ لي صوابَ الاستماع مِنّي ، واعلم أنَّ صوابَ الاستماع أكثرُ من صواب القول .

وإذا سمعتَني أتحدَّثُ فلا يفوتَنَّكَ منه شيء . وأرِني فهمكَ في طَرْفِكَ وسَمْعِك . ولا تُجْهِد نفسَك في تطرية جوابي . ولا تستدعِ بذلك الزيادة في كلامي ؛ فإن أسْوأ الناسِ حالاً مَن استكَدَّ الملوك بالباطل ، وإنَّ أسْوأ حالاً منهم مَن استخفَّ بحقهم .

واعلمْ يا شعبيُّ أنَّ أقلَّ من هـذا يَذهب بسالف الإحسان ، ويُسقِط الحُرْمةَ ، فإن الصمتَ في موضعه ربما كان أبلغَ من المنطق في موضعه ، وعند إصابته فرصة » [٤] .

---

(١) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٨٨
(٢) المرجع نفسه : ج ٥ ص ٣٠٨
(٣) المرجع نفسه : ج ٢ ص ٢٧٦
(٤) مروج الذهب للمسعودي : ج ٣ ص ١٠٠

هذا هو الشعبي الذي لم يجد عبدُ الملك مَن يصلح لمنادمته غيرَه ، وهذا هو الدستور الذي ضمَّنه عبدُ الملك كلَّ آداب المنادمة التي يفضلها ويريد من الشعبي أن يلتزم بها أثناء سمره معه في مجالسه .

وكل ما أُثِر من أحاديثَ دارتْ بين الرجلين تدل على أن الشعبيَّ قد التزم حقاً بهذه الآداب وعمل بها . وقد استطاع بأحاديثه التي تشعُّ علماً وأدباً وذكاء وَظرفاً أن يتبوَّأ مكانة عالية عند عبد الملك .

رُوِيَ عن الشعبي قوله : « ربما حدَّثْتُ أمير المؤمنين عبدَ الملك بن مروان رحمه الله وقد هَيَّأ اللُّقْمةَ فيُمسِكُها في يده مُقْبِلاً عليَّ ، فأقول : أَحِرْها [1] يا أمير المؤمنين فإن الحديث من ورائها ، فيقول : « الحديثُ أشْهَى إليَّ منها » [2].

*

وكان عبد الملك بن مروان الى جانب صفاته النفسية القوية شديدَ الحفظ للكتاب والسنة ، جيِّدَ الفقه لمعانيهما ، بعيدَ النظر في التشريع ومعرفة الأحكام .

ولكنه فوق ذلك كله كان محباً للأدب روايةً للجيد من الشعر ، كثيرَ النقد له . ذكر المسعودي في تاريخه أن عبد الملك كان يحب الشعر والفخر والتقريظ والمدح [3] .

وكتب الادب تفيض بالأخبار الدالة على عناية الخلفاء الامويين عامة وعبد الملك خاصة بالشعر والتشجيع عليه ، وجمالِ التمثُّلِ به ، وحُسنِ تقديره ،

---

(١) أَحِرْها : أي ازْدَرِدْها .
(٢) ذيل الأمالي للقالي : ص ٨٠
(٣) مروج الذهب للمسعودي : ج ٣ ص ٩٩

وجودةِ نقده ، حتى ليعد بحق الناقد الأدبي الأول في بيئة الشام .

ولا عجب في ذلك فقــد كان حجازيّ النشأة ، كوّن الحجازُ شخصيتَه الادبية العلمية ، وأرهف حسّه الفني ، ونمّى ذوقه الأدبي .

لقد قضى الشطر الاكبر من حياته في بيئة الحجاز التي نشأ فيها نشأة عربية إسلامية خالصة . وإذا كانت السياسية قـد انتزعته من الحجاز وانتقلت به الى الشام ، وإذا كانت شئون الخلافـة والحكم قد طغت على وقته ، فإنه ظل على الرغم من كل ذلك موصول الحنين ببيئته الأدبية الأولى ، بل لعل ذلك مما كان يضاعف حنينه الى هذه الحياة بكل قِيَمها ومُثُلِها العربية .

أجل كان الشعراء يفدون عليه مادحين متملقين ، وربما كان في هـذا المدح ومَلـَقِه ما يرضي فيه غرور المُلْك والسلطان ، ولكنه قلما لمس فيه ما يلبي حاجته كإنسان .

ولهذا كان يجد في مجالسه الادبية متنفّساً لهذا الجانب حيث يستمع ويشارك في أحاديث الشعر ونقده . ولعل ذلك الجانب هو ما حفزه الى استدعاء الشعبي من العراق واتخاذه سميراً وجليساً وخَليّـا ، وذلك لما كان يتمتع به من ثقـــافة منوّعة ، وحضور بديهة وخلابة منطق .

وقد ظل الشعبي قِوام مجلس عبد الملك الأدبي رَدَحاً من الزمن ، وكان جانب كبير من أحاديثِ هذا المجلس عن الشعر قديمه وحديثه :من حيث روايتُه ونقدُه والموازنة بين بعضـه وبعض .

ومن أخبار عبد الملك الأدبية ما يدل على سعة إحاطته بالشعر . كتب إليه الحجاج مرة يعظّم أمر قَطريّ بن الفجاءة المازني ، فكتب إليه عبدُ الملك : أوصيك بما أوصى به البكريُّ زيداً .

فقال الحجاج لحاجبه : نادِ في الناس : مَن أخبرَ الاميرَ بما أوصى بـــه البكرِيُّ زيداً فله عشرةُ آلاف درهم ، فقال رجل للحاجب: أنا أخبره،فأدخله

عليه ، فقال له الحجاج : ما قال البكري لزيد ؟ قال : قال لابن عمه زيد :
ـ والشعر لموسى بن جابر الحنفي ـ .

أقول لزيد لا تُثرثِرْ فإنهم يرون المنايا دون قتلك أو قتلي
فإنْ وضعوا حرباً فَضَعْها وإنْ أَبَوْا فشُبَّ وُقودَ الحرب بالحطب الجزْلِ
فإنْ عضَّتِ الحرب الضروس بنابِها فعُرْضَةُ نارِ الحرب مثلُك أو مثلي

فقال الحجاج : صدق أمير المؤمنين ، عُرْضَةُ نار الحرب مثلي أو مثله [1] .

وكما ذكر المسعودي كان عبد الملك يحب الشعر والفخر والتقريظ والمدح : المدحَ الذي يُرضي غروره ويُشيد بعزة سلطانه . وقد فطن الشعراء إلى ذلك فتفننوا في معاني المديح استجلاباً لرضاه . وفي الأخبار المأثورة عنه ما يُرينا أنه كثيراً ما كان يفضّل الشاعر الذي يتملّق مشاعره ويُشبع نَهَمَه إلى المدح والثناء .

وفد عليه العُجَيْر السلولي ، وهو شاعر إسلامي مُقِلّ من شعراء الدولة الأموية ، فأقام ببابه شهراً لا يصل إليه لشُغْلٍ عَرَض لعبد الملك ، ثم وصل إليه ، فلما مثل بين يديه أنشده ، فقال له عبد الملك : يا عُجَيْرُ ما مدحتَ إلا نفسَك ! ولكنا نعطيك لطول مُقامك ، وأمر له بمائة من الإبل [2] .

ويحدثنا الأغاني في خبرين ما نفهم منه أن تفضيله للأخطل كان على أساس جودة مدحه له .

وخلاصة هذين الخبرين أن الأخطل دخل على عبد الملك بن مروان فاستنشده فقال : قد يَبِس حلقي ، فمُرْ مَن يَسقيني ، فقال : اسقوه ماء ، فقال :

(١) ذيل الأمالي للقالي : ص ٧١ ، وعرضة نار الحرب : القويّ عليها .
(٢) الأغاني : ج ١١ ص ٣٠٠ — ٣٠١

شرابُ الحمار ، وهو عندنا كثير. قال : فاسقوه لبناً، فقال: عن اللبن فُطِمْتُ. قال : فاسقوه عسلاً ، قال : شرابُ المريض . قال : فتريد ماذا ؟ قال : خمراً يا أمير المؤمنين . قال : أوَعهِدتني أسقي الخمر ؟ لا أمَّ لك ! لولا حُرمتُك بنا لفعلت بك وفعلت . فخرج الأخطل فلقِيَ فراشاً لعبد الملك ، فقال : ويلك ! إن أمير المؤمنين استنشدني وقد صَحِلَ [1] صوتي ، فاسقني شَرْبَة خمر فسقاه ، فقال : اعْدِلْهُ بآخر ، فسقاه آخر فقال : تركتَهما يعتركان في بطني، اسقِني ثالثاً ، فسقاه ثالثاً ، فقال : تركتني أمشي على واحدة ، اعْدِلْ مَيْلي برابعٍ فسقاه .

عندئذ دخل الأخطل على عبد الملك وقال له : يا أمير المؤمنين . زعم ابن المراغة أنه يبلغ مِدحتك في ثلاثة أيام ، وقد أقمت في مِدحتك : « خف القطين فراحوا منك أو بكروا » سنةً فما بلغت كلَّ ما أردت . فقال عبد الملك : ما سمعناها يا أخطل ، فأنشدَه إياها . فجعل عبد الملك يتطاول لها ، ثم قال : ويحك يا أخطل ! أتريد أن أكتب إلى الآفاق أنك أشعر العرب ؟ فقال : أكتفي بقول أمير المؤمنين . وأمر له بجفنة كانت بين يديه فملئت دراهم ،وألقى عليه خِلَعاً ، وخرج به مولى لعبد الملك على الناس يقول : هذا شاعر أمير المؤمنين . هذا أشعر العرب ! وقيل : إن عبد الملك قال بعد سماعه المدحه : إن لكل قوم شاعراً ، وإن شاعر بني أمية الأخطل [2] .

فالأخطل كما نرى يحكم له عبد الملك بأنه شاعر أمير المؤمنين أو أشعر العرب أو شاعر بني أمية على أساس ما تضمنته قصيدته من معاني المدح التي أسبغها على عبد الملك خاصة والأمويين عامة .

وفي خبر ثالث جاء في الأغاني أن الحجاج بن يوسف أوفد وفداً إلى عبد

---

(١) صحل صوتي : أي بُحّ

(٢) الأغاني : ج ٧ ص ٣٥٠ و ص ٣٥٧

الملك وفيهم جرير ، فجلس ثم أمر بالأخطل فدُعِيَ له ، فلما دخل عليه قال له : هذا سَبُّك ـ يعني جريراً وجريرٌ جالسٌ ـ فأقبل عليه جرير فقال : أين تركت خنازير أمّك ؟ قال : راعيةً مع أعيار أمّك ، وإنْ أتيتنا قَرَيْناك منها .

فأقبل جرير على عبد الملك فقال : يا أمير المؤمنين ، إن رائحةَ الخمر لتفوح منه . فقال الأخطل : صدقَ يا أمير المؤمنين ، وما اعتذاري من ذلك ؟

تعيبُ الخمرَ وهْيَ شرابُ كِسْرَى ويشربُ قومُك العجبَ العجيبَا

فقال عبد الملك : دعوا هذا ، وأنشدني يا جرير ، فأنشده ثلاثَ قصائد كلّها في الحجاج يمدحه بها ، فأحفِظ عبدُ الملك ، وقال له : يا جرير ، إن الله لم ينصر الحجاج ، وإنما نصر خليفته ودينه . ثم أقبل على الأخطل فقال :

شُمسُ العداوة حتى يُستقادَ لهمْ وأعظمُ الناس أحلاماً إذا قَدَرُوا

فقال عبد الملك : هــذه المُزَمَّرة ! والله لو وُضِعَتْ على زُبَرِ الحديد لأذابتها . ثم أمر للأخطل بِخلَعٍ فخُلِعَتْ عليه حتى غاب فيها ، وجعل يقول : « إنّ لكل قومٍ شاعراً ، وإن الأخطل شاعر بني أمية »[1] .

على أن ذلك لا يَعني بحال أن عبد الملك كان مأخوذاً فقط بشعر المدح ، وأنه قصر مقياسه النقديّ عليه وحده . لقد كان حقاً يطرب لشعر المدح الذي يلبي عنده نزعة الغرور والملق والامتلاء بالذات ، كما كان متأثراً بذلك في بعض أحكامه الأدبية .

ولكن إلى جانب هذه النزعة الذاتية المحضة كان هناك نزعتُه الأدبية الفنية المتعددة الجوانب ، هذه النزعة التي تدل على مدى إحاطته بالشعر وبصره به وقدرته على نقده نقداً موضوعياً . وإذا كنا نرى تفاوتاً في روح الأحكام الادبية المرويّة عنه ، فإنما مَردُّ ذلك إلى توزّعه بين هاتين النزعتين .

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٣٦٩ ؛ وزُبَر الحديد : القطع الضخمة منه .

لقد نشأ عبد الملك كسائر الامويين في الحجاز ، فكان قلبه وعقله معلقين بكل ما يَمُتُّ إلى موطنه الاول مادياً ومعنوياً . ولنزعته الادبية الغالبة عليه فإنه كان شديد التعلق بالشعر .

فهو يعقد له المجالس الحافلة بالشعراء والادباء ، وهو يرويه ويحفظه ويتروح به ، وهو يشجع عليه ويتمثل به وينقده . وقد كان لكل ذلك شأنُه في إثارة الاهتمام العام بالشعر ونقده .

وفيما يلي عرض موجز للجوانب التي اهتم بها في الشعر ، والتي تمثّل في الوقت ذاته مدى المساهمة التي أسهم بها في ميدان النقد الادبي وتطوره ...

*

موقفه مع جلسائه :

من الاخبار المروية عن عبد الملك أنه كان يطرح أسئلة على جلسائه أو يطلب إليهم أن يُنشدوه في موضوع أو معنى معين . وكأنه بذلك كان يريد أن يختبرهم ، أو يقيسَ مدى علمهم بالشعر إلى علمه ، ومدى ذوقهم الادبي إلى ذوقه .

(١) من ذلك أنه قال لجلسائه : أنشدوني أكرم بيت قالته العرب ، فقال رَوْح بنُ زِنباع :

اليوم نعلم ما يجيءُ به .. ومضى بفضل قضائه أمسِ
منعَ البقاءَ تقلُّبُ الشمسِ وطلوعُها من حيث لا تُمسي
تبدو لنا بيضاءَ صافيةً وتغيب في صفراء كالوَرْسِ

فقال له : أحسنت ، فأنشدني أكرم بيت وصف به رجلٌ قومَه في حرب.

فقال : قولُ كعب بن مالك حيث يقول :

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بِخَطْوِنا ... قُدُماً ونُلْحِقُها إذا لم تَلْحَقِ

قال له : أحسنت ، فأنشدني أفضل ما قيل في الجود . قال : قول حاتم الطائي :

ألم ترَ أن المال غادٍ ورائحٌ ... ويبقى من المال الأحاديثُ والذكْرُ؟

غَنينا زماناً بالتَّصَعْلُكِ والغَنَى ... وكُلاًّ سقاناه بكاسيهما الدهرُ

فما زادنا بَغْياً على ذي قرابةٍ ... غِنانا ولا أزْرَى بأحسابنا الفقرُ

قال : فمن أشعر العرب ؟ قال : الذي يقول – وهو امرؤ القيس – :

كأن عيونَ الوحش حول خبائنا ... وأرحلِنا الجَزْعُ الذي لم يُثَقَّبِ

والذي يقول :

كأن قلوب الطير رَطْباً ويابساً

لدى وكرها العُنَّابُ والحشَفُ البالي [1]

(٢) وقال يوماً لأصحابه : أي المناديل أفضل ؟ فقال بعضهم : مناديل مصر التي كأنها غِرْقِيء [2] البَيْض . وقال بعضهم : مناديل اليمن التي كأنها أنوارُ الربيع . فقال : ما صنعتم شيئاً ! أفضل المناديل مناديلُ عَبْدَةَ بنِ الطبيب حيث يقول :

---

(١) ذيل الأمالي للقالي : ص ٢٩ – ٣٠ ، والجَزع : الخرز الأسود المشوب بالبياض .

(٢) غرقيء البيض : القشرة الملتزقة ببياض البيض .

لمّا نزلنا ضربْنا ظِلَّ أخبيةٍ   وفار باللحم للقوم المراجيلُ[1]
وَرْداً وأشقرَ لم يُنْهِئْهُ طابخُه   ما قاربَ النُّضْجَ منها فهْو مأكولُ[2]
ثُمَّتَ قمنا إلى جُرْدٍ مُسوَّمَةٍ   أعرافُهنَّ لأيدينا مناديلُ[3]

(٣) وقال ذات مرة لولده وأهله ، وهو من تفكُّهِه الأدبي : أيُّ بيت ضربته العرب ووصفته أشرفُ حِواءً وأصلاً وبناء؟ فقالوا فأكثروا ولم يُصيبوا. فقال : أكرم بيت وصفته العرب ، بيت طُفَيل الغَنَوِيّ الذي يقول فيه :

وبيتٍ تهبُّ الريحُ في حُجُراتِه   بأرضٍ فضاءٍ بابُه لم يُحَجَّبِ[4]
سماوتُه أسمالُ بُرْدٍ مُحَبَّرٍ   وصَهْوَتُه من أتْحَمِيٍّ مُعَصَّبِ[5]
وأطنابُه أرسانُ جُرْدٍ كأنها   صدور القَنا مِن بادىءٍ ومُعَقَّبِ[6]
نَصَبْتُ على قومٍ تُدِرُّ رِماحُهم   عروقَ الأعادي من غريرٍ وأشْيَبِ[7]

---

(١) يريد أنهم بنوا أرديتهم فوق رماحهم كما تبنى الأخبية للاستظلال بها .
(٢) يريد بالورد : ما أخذ فيه النضج من اللحم، وبالأشقر ما لم ينضج . لم ينهئه : لم ينضجه.
(٣) العقد الفريد : ج ١ ص ١٩٢ . والجرد : الخيل القصار الشعر ، وذلك مدح لها . والمسومة : المعلمة .
(٤) أي بيت واسع النواحي مفتح الأبواب فلا حجاب ولا حاجب عليه . وهذا كناية عن الكرم ،
(٥) أي وسقفه من قديم أثوابنا الحريرية الموشاة ، وصهوته : أي المكان الذي نجلس عليه فيه من ثياب حريرية رقيقة النسج مشدودة بعصائب من الحرير .
(٦) وأطنابه : أي حباله جديدة ملساء كالقنا ، وهي حبال خيل بادئة في الغزو ومعوَّدة عليه .
(٧) الأغاني : ج١٤ ص ٢٠٢ وقد نصب الشاعر هذا البيت وأقامه على قوم شجعان يتغلبون في الحرب على الشبان الأقوياء وعلى الشيّب أو الشيوخ الحكماء . وطفيل شاعر جاهلي من الشعراء الفحول المعدودين .

ورُوِيَ عن أبي عبيدة قوله : كان عبد الملك بن مروان ذات ليلة في سمره مع ولده وأهل بيته وخاصته فقال لهم: لِيَقُلْ كلٌ واحد منكم أحسنَ ما قيل في الشعر ، ولْيُفَضِّلْ مَن رأى تفضيله ، فأنشدوه وفَضَّلوا ، فقال بعضُهم : امرؤ القيس ، وقال بعضهم النابغة ، وقال بعضهم : الأعشى . فلما فرغوا قال : أشعر والله من هؤلاء جميعاً عندي مَعْنُ بن أوس ، ثم ذكر أبياتاً من قصيدته التي يقول منها :

وذِي رَحِمٍ قلَّمتُ أظفارَ ضِغْنِه   بحِلمِيَ عنه وهو ليس له حِلْمُ
فإن أعفُ عنه أُغْضِ عيناً على قَذًى   وكالموت عندي أن يَحُلَّ به الرَّغْمْ
ويشتُم عِرْضِي في المغيَّبِ جاهداً   وليس له عندي هَوانٌ ولا شَتْمُ
إذا سُمْتُه وصلَ القرابة سامني   قطيعتَها تلك السفاهةُ والإثْمُ
صبرتُ على ما كان بيني وبينه   وماتستوي حربُ الأقارب والسِّلْمُ[1]

فمعن بن أوس عنده أشعر من هؤلاء جميعاً ، أي أنه أشعر فيما أنْشَد له من أولئك فيما أُنشِد لهم . ومعنٌ في قصيدته التي أنشد عبد الملك بعضَها يتحدث فيها عن ذي رحم ناصبه العَداء فقابل هو ضِغنَه وعداوته بالحلم واللين والعفو إبقاء على أواصر القربى .

ومَن يدري فلعل عبد الملك إذْ أنْشَد ما أنشد من شعر معن بن أوس كان يعاني في هذا الموقف مِن تنكُّرِ بعضِ أقاربه له . وكأنه وجد في هذا الشعر القوي المؤثر بمعناه الجميل بفنه مُنْفرَجاً لما كان يعتلج بصدره !

فهذه الأمثلةُ وغيرُها من نوعها كثيرٌ في كتب الادب تُظهرنا على مدى حبه للشعر والتشجيع عليه والخوْض في حديثه ونقده ، كما تُظهرنا على سَعة إحاطته

---

(١) أمالي القالي : ج ٢ ص ١٠١ - ١٠٢

بالجيد المختار منه ، مما يدل في الوقت ذاته على رُقيّ ذوقه الأدبي .

*

جمال تمثله بالشعر :

ومما يدل أيضاً على إعجابه بالشعر وشدة حبه له أنه كان يتمثّل به في كثير من المواقف التي تعرض له .

(١) كان إذا جلس للقضاء بين الناس أقام وصيفاً على رأسه لا يزال يُنشِده:

إنَّا إذا مالت دواعي الهوى ... وأنصتَ السامعُ للقائلِ
واصطرع القومُ بألبابهم ... نقضي بحكم عادلٍ فاصلِ
لا نجعل الباطل حقاً ولا ... نَلِظُّ دون الحق بالباطلِ[1]
نخاف أن تَسْفُه أحلامُنا ... فنَخمُلَ الدهرَ مع الخاملِ

(٢) وكان يتمثل في الحروب عند كل لقاء بقول شبيب بن البرصاء :

دعانيَ حِصْنٌ للفرار فساءني ... مواطن أن يُثني عليَّ فأُشتما
فقلت لحصن نحِّ نفسك إنما ... يذود الفتى عن حوضه أن يُهدَّما
تأخرت أستبقي الحياة فلم أجدْ ... لنفسي حياةً مثل أن أتقدَّما
سيكفيك أطرافَ الأسنة فارسٌ ... إذا رِيعَ نادى بالجوار وبالحِمَى
إذا المرءُ لم يغشَ المكاره أوشكت ... حبال الهُوَيْنَى بالفتى أن تُجذَّما[2]

---

(١) لظّ بالشيء :لزمه.والمراد هنا أننا لا نلازم الباطل دون الحق .
(٢) أن تُجذَّما : أن تُقطَّع .

(٣) ولمـــا أراد الخروج إلى مصعب بن الزبير لاذتْ به عاتكةُ بنت يزيد بن معــاوية وهي أم ابنه يزيد وقالت له : يا أمير المؤمنين ، لا تخرج السنة لحربِ مصعب فإن آل الزبير ذكروا خروجك ، وابعث إليـــه الجيوش . وبكتْ وبكتْ معها جواريها . وجلس وقال : قاتـــل الله ابنَ أبي جمعة – كُثيّراً – فأين قوله :

إذا ما أراد الغزو لم تَثْنِ هَمَّهُ   حَصَانٌ عليهـــا عِقْدُ دُرٍّ يَزِينُها
نهتْه فلمـــا لم تر النَّهْيَ عاقَهُ   بكتْ فبكى مما شجاها قطينُهـا

والله لكأنه يراني ويراك يا عاتكة ، ثم خرج فكان في خروجه قتـــلُ مصعب » [١] .

(٤) وكان في تمثله بالشعر جريئاً لا يبالي ... رُوِي أن عروة بنَ الزبير لما لَحِقَ به بعد قتله أخويه مُصعباً وعبدَالله وأقام عنده كان عبدالملك يُكرمه منفرداً ويستخفُّ به مجتمعاً . فقال له : يا أمير المؤمنين ، أراك تُكرم ضيفك في الخلا وتُهينه في الملا . فقال عبد الملك : لله دَرُّ زهير حيث يقول :

فَقِرِّي في بلادكِ إنَّ قومـــاً   متى يَدَعُوا بلادَهمُ يَهُونوا

فاستأذن عروةُ في الرجوع إلى المدينة ، فقضى حوائجَه وأذن له .

(٥) ومن هذا أيضاً أنه كان كلما نظر إلى أخيه معاوية وكان ضعيفاً تمثّل بهذين البيتين للمغيرةِ بن حَبْناء في أخيه صخر وكان ضعيفاً كذلك :

أبوك أبي وأنت أخي ولكنْ   تفاضلتِ الطبائعُ والظروفُ
وأمُّك حين تُنسب أمُّ صِدْقٍ   ولكنَّ ابنَهـا طَبِعٌ سخيفُ [٢]

---

(١) الأغاني : ج ٨ ص ٦٩ . والقطين هنا : الجواري والخدَم
(٢) الطبِعُ : يقال رجل طَبِعٌ ، أي متدنّسُ العِرْض ذو خلق دنيء لا يستحي من سوأة.

(٦) واستبطأ عبدُ الملك ابنَه مَسْلَمةَ في مسيره الى الروم فكتب إليه :

لمن الظعائن سَيْرُهُنَّ تَزَحُّفُ سيرَ السفينِ إذا تقاعسَ يُجْذَفُ؟[١]

فلما قرأ الكتاب مَسْلَمةُ ، وكان شجاعاً خطيباً ، بارع اللسان جواداً كتب إليه :

ومستعجِبٍ مما يَرَى من أناتنا ولو زبنته الحربُ لم يترمْرَمِ[٢]

ولما قَتَل عبدُ الملك ابنَ الأشدق[٣] تمثل بقول الشاعر :

أدنيتُه مني ليسكنَ نَفْرُهُ فأصولَ صولةَ حازمٍ مُسْتَمكِنِ
غَضَباً ومَحْمِيَةً لديني إنـه ليس المسيءُ سبيلُه كالمحسنِ[٤]

فهذه الأمثلة تعطينا صورة أخري عن سَعة إحاطـةِ عبدِ الملك بالشعر

---

(١) التزحُّف : السير في بطء وكلال . وتقاعس : تأخر ورجع الى الخلف . ويقال : جذف الملاّحُ السفينة : حرّكها بالمِجذاف .

(٢) البيان والتبيين : ج ٣ ص ١٨٧ . وزبنته الحرب : صدمته ، ومنه حرب زبون . لم يترمرم : لم يحرك فمه بالكلام .

(٣) هو أبو أمية عمرو بن سعيد المعروف بالأشدق ، وكان يلقب « بلطيم الشيطـان » ولي المدينة لمعاوية ويزيد ابنه ، ثم طلب الخلافة وغلب على دمشق ، وذلك أنه كان بايع عبد الملك بن مروان ، بشرط أن يكون هو الخليفة بعده . فلما أراد عبد الملك خلعه وأن يبايع أولاده نفر عمرو من ذلك وخرج عليه ، فقتله عبد الملك بعد أن أعطاه الأمان ، وكان ذلك سنة ٧٠ هـ . ولما بلغ عبدَ الله بن الزبير قتل عبد الملك للأشدق قام خطيباً فقال : « إنّ أبا ذِبّان – كنية عبد الملك – قتل لطيم الشيطان . «كذلك نولّي بعض الظالمين بعضاً بما كانوا يكسبون » . انظر في ذلك البيان والتبيين : ج ١ ص ٣١٤ و ص ٤٠٦

(٤) حماسة البحتري : ص ١٦

وجمالٍ تمثّله به في المواقف المختلفة التي كانت تَعرِضُ له في حياته .

*

مفاضلاته بين المعاني :

وقد التفت عبد الملك كثيراً إلى النظر في معـاني الشعراء ونقدها والمفاضلة بينها . وله في ذلك لفتـــات نقدية تدل على ذوق أدبي مرهف . وفيما يلي بعض الأمثلة التي تظهرنا على اتجاهه في نقد المعاني والمفاضلة بينها .

(١) سمر عبد الملك ذات ليلة وعنده كُثيِّر عزّة فقال له : أنشِدني بعض ما قلتَ في عزّةَ ، فأنشده حتى إذا أتى على هذا البيت :

هممتُ وهمّتْ ثم هابتْ وهِبتُها ... حياءً ومثلي بالحياء خليقُ

فقال له عبد الملك : أما والله لولا بيتٌ أنشدتنيه لحرمتك جائزتك ، قال: لِمَ يا أمير المؤمنين ؟ قال : لأنك شركتها معك في الهيبة ، ثم استأثرتَ بالحياء دونها . قال : فأي بيت عفوتَ به يا أمير المؤمنين ؟ قال : قولك :

دعوني لا أريد بها سواها ... دعوني هائمـــاً فيمن يهيمُ[1]

وقال عبد الملك لأُسَيْلم بن الأحنف الأسدي : ما أحسنُ شيء مُدِحتَ به : قال : قول الشاعر :

أُسَيْلمُ ذاكمْ لا خفًا بمكانه .. ... لِعَيْنٍ تُرَجّي أو لأُذْنٍ تَسَمَّعُ

من النفرِ الشُّمِّ الذين إذا اعتَزَوْا ... وهابَ رجالٌ حلقةَ البابِ قَعْقَعوا[2]

---

(١) العقد الفريد : ج ٥ ص ٣٧٣

(٢) اعتزوا : انتسبوا وانتموا صدقاً أو كذباً . يصف الممدوح بأنه من القوم الكرام الذين يقدمون على الملوك بشرف أحسابهم ولا يهابون قعقعة أبوابهم ، فعلَ من خملت أحسابهم وقصرت هممهم .

جلا الأذفرُ الأحوَى من المسك فَرْقهُ وطيبُ الدهانِ رأسَه فهْو أنزعُ[1]

إذا النفرُ السودُ اليمانون حاولوا.. له حوْكَ بُرْدَيْه أدَقّوا وأوسَعوا

فقال عبد الملك : أحسن من هذا قول أبي قيس بن الأسلت :

قد حصَّتِ البيضةُ رأسي فما أطعم نوماً غيرَ تهْجاعِ[2]

أسعى على جُلِّ بني مالك.. كلُّ امرىء في شأنه ساعِ

(٣) وأنشده الأخطل قوله :

فإذا تعاورت الأكفُّ زجاجها نفحتْ فشمَّ رياحها المزكومُ

فأعجب به . وكان الشعبيُّ حاضراً ، فقال له : أسمعت بمثل هذا يا شعبيُّ؟ فقال : أشعرُ منه والله أعشى قيس حيث يقول :

من اللاتي حُمِلْنَ على الرَّوَايا كريح المسك تستلُّ الزُّكاما

قال : صدقت .

(٤) واجتمع بحضرته الفرزدق والأخطل وجرير ، فأحضر بين يديه كيساً فيه خمسمائة دينار ثم قال : لِيقُلْ كلٌّ منكم بيتاً في مدح نفسه ، فأيكم غلب فله الكيس ، فبدأ الفرزدق فقال :

---

(١) جلا : كشف . الأذفر : الطيب الرائحة . الأحوى: الذي يضرب إلى السواد . الفرق: موضع الفرق من الرأس . الأنزع : الذي انحسر مقدم شعر رأسه من جانبي الجبهة .

(٢) حصّت : أذهبت شعره . والبيضة : بيضة الحديد ، وهي نوع من السلاح ، وقد سُمي بيضة لأنه على شكل بيضة النعام . والتهجاع : النوَمة الخفيفة . وأسعى عليهم : أعمل لهم .

أنا القَطِرانُ والشعراءُ جَرْبَى وفي القَطِران للجَرْبَى شفاءُ[1]

فقال الأخطل للفرزدق :

فإن تكُ زِقَّ زاملة فإني أنا الطاعونُ ليس له دواءُ[2]

فقال جرير لهما :

أنا الموت الذي آتي عليكم فليس لهاربٍ منّي نَجاءُ[3]

فقال عبد الملك : فلَعمري إن الموت يأتي على كل شيء ، وقضى لجرير .

(٥) واجتمع عنده الفرزدق وجرير بعد هذه المفاضلة التي حكم فيها لجرير ، فقال الفرزدق : النَّوَارُ طالق إن لم أقل شعراً لا يستطيع ابن المراغة أن ينقضه أبداً ، ولا يجد في الزيادة عليه مذهباً . فقال عبد الملك : ما هو ؟ فأنشده :

فإني أنا الموت الذي هو واقع بنفسك فانظرْ كيف أنت مزاولهْ

وما أحد يا ابن الأتان بوائلٍ من الموت إن الموت لا شكَّ نائلهْ

فأطرق جرير ثم قال : أمُّ حَزرةَ طالق ثلاثاً إن لم أكن نقضته وزدت عليه . فقال عبد الملك : هات فقد والله طلق أحدكما لا محالة !

فأنشد جرير :

---

(١) القطِران : مادة سوداء تسيل من نوع من شجر البادية تشبه الزفت ، وبه تُطلى الإبل الجربى للتداوي. والجرب : بَثَرٌ يعلو أبدان الناس والإبل . يقول الشاعر : أنا كالقطران والشعراء كالإبل الجربى ، وفي القطران شفاء للإبل الجربى .

(٢) الزاملة هنا : الناقة . والزِّقّ هنا : ما زُفِّت أو قُيِّر أي طُلِي بالقار .

(٣) النَّجاء : الخلاص من الشيء .

أنا البدرُ يُعشِي نورَ عينيك فالتمسْ   بكفَّيك يا ابن القين.. هل أنت نائلهْ؟
أنا الدهرُ يُفني الموتَ والدهرُ خالد   فجئني بمثل الدهر شيئاً يطاولهُ

فقال عبد الملك : فضَلك والله يا أبا فراس وطلَّق عليك ، فبانت النوار وندم الفرزدق حيث يقول :

نَدِمتُ ندامةَ الكُسَعِيِّ لَمَّـا   غدت منِّي مطلقـةً نَوارُ
وكانت جنَّتي فخرجتُ منهـا   كآدمَ حين أخرجه الضرار

من هذه النماذج التي أوردنا على سبيل المثال لا الحصر نرى أن عبد الملك قد أسهم في نقد المعاني الجزئية وفضَّل بعضها على بعض .

حقاً لقد جاءت أحكامه هنـا موجزة مجملة ، ولكن المتأمل فيما فضَّله من المعاني لا يسعه إلا أن يُقرَّ بحسن تذوقه للجيد من الشعر ، وقدرته على الموازنة بين المعاني والتمييزِ بين ما أوفى منها على الغاية وما قصَّر دونها ...



النقد في مجلس عبد الملك :

وبالإضافة إلى ما تقدم كان المجلس الأدبي الذي يعقده عبد الملك بن مروان في قصره أشبه بمنتدى أدبي أو مدرسةٍ خاصة للشعر والنقد .

إلى هذا المجلس كان يفد الشعراء وأهل الأدب ومحبوه من خاصة هذا الخليفة الأموي الذي عرفنا مدى ثقافته الادبية ومبلغ علمه بالشعر وتذوقه للجيد منه.

وفي هذا المجلس كان عبد الملك وجلساؤه من الشعراء وغيرهم يذهبون في أحاديث الأدب والشعر والنقد كل مذهب .

وكل ذلك كان له أثره الفعّال في نهضة النقد ورقيّه ، وفي توسيع مجالاتـه

وتفتيح جوانبه ، وإن كان لا يزال نقـــداً فطرياً يرجع في طبيعته إلى الذوق العربي الخالص .

وكتب الأدب تفيض بأخبار مجلس عبد الملك وما كان يجري فيه من شتى الأحاديث الادبية . وقد يكون من المفيد هنا أن نعرض لطائفة منهـا ، لنرى على ضوئها بعض قضايا الشعر والنقد التي كانت تشغل بال عبد الملك ورُوّادِ مجلسه .

(١) روى الأصمعي عن خالد بن كلثوم أن عبدالملك بن مروان قال للفرزدق: « من أشعر الناس في الإسلام ؟ قال : كفاك بابن النصرانية إذا مدح » [١] .

فعبد الملك بهذا السؤال يحاول أن يتعرف إلى رأي شاعر كبير كالفرزدق في هذه القضية التي كانت ولا تزال تشغل أذهان كثير من العرب.ثم يجيئه الجواب بأن أشعر الناس في الإسلام هو الأخطل في المدح .

فالفرزدق يفضل الأخطل على شعراء العصر الإسلامي في فن واحد من فنون الشعر هو المدح . ولعله أراد بهذا الحكم أن يتملق شعور الخليفة عبد الملك لعلمه بأنه كان يفضل الاخطل في المدح ، ويخلع عليه مختلف الالقاب من مثل : أشعر العرب ، وشاعر أمير المؤمنين ، وشاعر بني أمية .

(٢) ومن الاخبـــار المروية ما يُفهَم منه أن عبد الملك كان يعجب بشعر كُثيِّر عزة ويفضله . روى النضر بن عمر قال : « كان عبد الملك بن مروان يُخرِج شعرَ كُثيِّر إلى مؤدب ولده مختوماً يُرَوّيهم إياه ويَرُدُّه » [٢] .

ورَوَى عَوانةُ أن كُثيِّراً قال لعبد الملك : « كيف ترى شعري يا أمير المؤمنين ؟ فقال : أراه يسبق السّحر ويغلب الشعر » [٣] .

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٣٦٩

(٢) الأغاني : ج ٨ ص ٧٠ (٣) نفس المرجع

فعبد الملك بهذه العبارة الادبية البليغة يفضل كُثيِّراً على غيره من معاصريه ويحكم له بالتفوق في الشعر .

وذكر محمد بن سلام أن كُثيِّراً دخل على عبد الملك فأنشده مِدحتَه وفيها:

على ابن أبي العاصي دِلاصٌ حصينةٌ أجاد المُسَدِّي سَرْدَها وأذالها

فقال له عبد الملك : أفلا قلتَ كما قال الأعشى لقيس بن مَعْدِي كَرِبَ :

وإذا تجيءُ كتيبةٌ مَلْمومةٌ شهباءُ يخشى الذائدون نِهالَها

كنتَ المقدَّمَ غيرَ لابسِ جُنَّةٍ بالسيف تضرب مُعلِما أبطالَها؟

فقال : يا أمير المؤمنين وصفَه بالخُرْق ووصفتُك بالحزم [١] .

(٣) ويدور البحث في مجلسه عن القبائل التي اشتهرت بجيد الشعر فيُبدي رأيه بأنها بعض قيس بن ثعلبة ، والأوس والخزرج ، وهُذَيْل . جاء في العقد الفريد أنه ذُكِر الشعر عند عبد الملك بن مروان فقال : إذا أردتم الشعر الجيد فعليكم بالزُّرْق من بني قيس بن ثعلبة ، وهم رهط أعشى بكر ، وبأصحاب النخل من يثرب ، يريد الاوس والخزرج ، وأصحابِ الشَّعَف من هُذَيْل [٢] .

(٤) ويسمع عبد الملك بيتاً هُجِيَ به ابنُ الزبير وهو :

فإن تُصبْكَ من الأيام جائحةٌ لم نَبكِ منك على دُنيا ولا دينِ

---

(١) طبقات الشعراء لابن سلام : ص ١٢٣ طبعة ليْدن . عليه دلاص : أي عليه درع براقة ملساء بيِّنة . المُسَدِّي الحائك والنسَّاج ، وسَرْدُ الدرع : نسجها بتداخل الحَلَق بعضها في بعض . وأذالها : أطال ذيلها .

(٢) العقد الفريد : ج ٥ ص ٢٧٣ . والشعف : رءوس الجبال .

فيقول : ما هجاني أحدٌ بأوجع من هذا البيت [1] .

فعبد الملك يعتقد أنه قاتَـلَ ابنَ الزبير وقضى عليه من أجل توحيد الدولة الاسلامية وحمايتها من الانقسام ، وكان يظن أن المسلمين معه في هـذا الرأي ، ثم يتبين له من هذا البيت أن هنـاك مَن لا يرى وجه العدل في مقتل ابن الزبير ويعده جائحةً أو مصيبة حلـّت بالرجل . ومن ثمَّ فهو ينظر إلى هذا البيت على أنه هجاء ضمنيٌّ له .

(٥) وكان عصر عبدالملك يعجُّ بالهجاء والنقائض بين الفحول وغيرالفحول، والعجيب الذي يدعو إلى التساؤل حقاً أن يُرَى شاعر فيهذا العصر كالعجاج[2] الراجز ينأى بنفسه عن هذا اللون من الشعر .

جاء في الأمالي أن العجاج دخل على عبد الملك بن مروان فقـال : يا عجاج بلغني أنك لا تقدر على الهجاء ، فقال : يا أمير المؤمنين ، مَن قدَر على تشييد الأبنية أمكنه إخرابُ الأخبية . قال : فما يمنعك من ذلك ؟ قال : إن لنـــا عِزّاً يمنعنا من أن نُظلَـم ، وإن لنا حِلماً يمنعنا من أن نَظلِم ، فعلامَ الهجاء ؟

فقال عبد الملك : كلماتُـك أشعر من شعرك ، فأنـّى لك عِزٌّ يمنعك من أن تـُظلَـم ؟ قال : الأدب البارع ، والفهم الناصع . قال : فما الحلمُ الذي يمنعك من أن تَظلِم ؟ قال : الأدب المستطرَف والطبع التالد . قال : يا عجاج لقـد أصبحتَ حكيماً ! قال : وما يمنعني وأنا نَجِيُّ أمير المؤمنين ؟[3] .

ومن صور نقد الشعراء بعضهم لبعض في مجلس عبد الملك مـــا رواه ابن الأعرابي قال : « دخل كُثَيِّر عزة على عبد الملك فأنشده ، وعنده رجـــل لا

---

(١) العقد الفريد : ج ٥ ص ٢٩٧

(٢) العجاج : هو عبدالله بن رُؤبة من بني مالك بن تميم ، وكان يُكنى أبا الشعثاء ، والشعثاء ابنته .

(٣) أمالي القالي : ج ٢ ص ٤٧

يعرفه ، فقال عبد الملك للرجل : كيف ترى هذا الشعر ؟ قال : هـــذا شعر حجازي ، دعني أضْغَمْه ضَغْمَة . قال كُثيّر : مَن هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : هذا الأخطل . قال فالتفت إليه كُثيّر فقال له : هل ضَغَمْتَ الذي يقول :

والتغلبيُّ إذا تنحنح للقِرَى حكَّ اسْتَهُ وتمثّل الأمثـالا
تلقـــاهمُ حُلَماءَ عن أعدائهم وعلى الصديق تراهمُ جُهَّالا ؟ [1]

فالأخطل بقوله : « دعني أضْغَمْه لك ضَغْمَة » يقلـــل من شأن شعر كُثيّر بِحَضْرَةِ عبد الملك ومَشْهَدٍ منه ، ويُوهِم بأنه يستطيع أن ينـال منه ، ولهذا يُعيّره كُثيّر بقوله : « هل ضَغَمْتَ الذي يقول فيك كذا وكذا ؟ » يعني جريراً . أي هل نلْتَ منه بشعرك كما نال هو منك بشعره !

(٧) ويبدو أن عبد الملك ، وهو في مجلسه ، كان يتعـــامل مع الشعراء والادباء بوصفه واحداً منهم ، فـلا قيود من جانبه على حرية الرأي أو القول ، حتي يظل للمجلس جَوُّه الادبي الطليق . نقول ذلك لاننـا نرى بعض الشعراء يتراشقون أمامه بالعبارات القاسية دون أن يُبديَ استياء أو يُعلّقَ عليهـا أي تعليق !

قال أبو الحسن المدائني : « وفد جرير على عبد الملك بن مروان ، فقـــال عبد الملك للأخطل : أتعرف هذا ؟ قال : لا . قال : هذا جرير . قال الأخطل: والذى أعمى رأيك يا جرير ما عرفتك . قـال جرير : والذي أعمى بصيرتك وأدام خِزيتَك ، لقد عرفتك ، لسيماك سيما أهل النار » [2] .

---

(١) العقد الفريد : ج ٥ ص ٢٩٧ . والضغم : العض غير النهش . وقيل : هو أن يملأ فمه مما أهوى إليه .

(٢) نفس المرجع : ج ٥ ص ٢٩٦

وبعد .. فلعل فيما اجتزأنا به من أخبار مجلس عبد الملك ما يرسُم صورة له، ولما كان يجري في داخله من أحاديث الأدب والشعر والنقد .

ففي هذا المنتدى الأدبي كان يكثر التساؤل عن أشعر النـاس في الإسلام ، وفيه كان يُسمَع الإنشاد ، ويُقدَّر الشعر ، ويحكم للشعراء ، وينتقدون بعضهم بعضاً في قسوةٍ وحِدَّةٍ أحياناً .

ومن خلال هذه الأخبار نرى محبـــة عبد الملك للشعر ، وعلمه بالجيد منه ، ورعايته له ، وتشجيعه عليه ، كما نرى من ملاحظاته النقدية أنه كان ذا ذوق أدبي راق .

ولقد كان كُثَيِّر عزة شاعره المفضل بعـد الأخطل كما يبدو ، فهو يعجب بشعره ويُعليه على غيره ، هذا إذا استثنينا الأخطل الذي كان يُملِّق شعوره ويرضي غروره،ويشبع نَهَمَه للمدح والثناء بمثل قصيدته التي أسماها «المُزَمَّرة» وأطلق عليه بسببها لقب « شاعر أمير المؤمنين » . ولكن إعجابه بكُثَيِّر لم يمنعه أن ينقد ما لم يرقه من شعره .

من كل ذلك نرى أن مجلس عبد الملك في دمشق كان من أهم المراكز الثقافية التي أفادت منها كثيراً حركة النقد الأدبي في عصره ...



مآخذه على الشعراء :

ومن أخبار عبد الملك الأدبية ما هو أدخلُ في صميم النقد وأدلُّ على سلامة ذوقه وقوة ملكته النقدية . وقد أعانته موهبته في النقد على ملاحظـة الكثير من عيوب الشعراء ، ولفتِ أنظـــارهم إلى ما يحسن وما لا يحسن من القول في المواقف المختلفة .

(١) أخـــذ عليهم عدمَ التجديد في تشبيهاتهم ولا سيما في شعر المدح ، كما

أخذ عليهم الاكتفاء بالتشبيهات التقليدية التي لا يظهر فيها قصد أو براعة أو جهد فني .

دخل عليه الأخطل يوماً فقال : « يا أمير المؤمنين قد امتدحتك . فقال : إن كنت تشبهني بالحية والأسد فلا حاجة لي بشعرك ! وإن كنتَ قلتَ مثل ما قالت أختُ بني الشريد ، يعني الخنساء ، فهات . قال :

وما بلغتْ كعبُ امرىءٍ متطاولٍ به المجدُ إلا حيثُ ما نلتَ أطولُ
وما بلغ المُهْدُونَ في القول مِدْحةً ولو أكثروا إلا الذي فيك أفضلُ»[1]

ودخل عليه عبيدُ الله بن قيس الرقيات بعد أن أعطاه الأمان ، وقد كان من قبلُ زبيريَّ الهوى ، فأنشده مادحاً حتى إذا قال :

إن الأغرَّ الذي أبوه أبو الـ عاصي عليه الوقارُ والحُجُبُ
يعتدل التاجُ فوق مَفْرِقِه على جبينٍ كأنه الذهبُ

فقال له عبد الملك : يا ابن قيس ، تمدحني بالتاج كأني من العجم وتقول في مصعب بن الزبير :

إنما مُصعبٌ شهاب من اللـ ـهِ تجلَّتْ عن وجهه الظلماءُ
ملكُه مُلْكُ عِزَّةٍ ليس فيه جبروتٌ منه ولا كبرياءُ ؟

أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين عطاء أبداً[2].

(٢) وأخذ على الشعراء سِقَمَ الذوق ومجافاةَ كلامهم لمقتضى الحال ، وعدمَ

---

(١) الشعر والشعراء لابن قتيبة : ج ١ ص ٤٨٣
(٢) الأغاني : ج ٤ ص ٣٠٧ - ٣٠٨

البراعة في الاستهلال .

استهل ذو الرمة قصيدته البائية بقوله :

ما بالُ « عينكَ » منها الماء ينسكبُ كأنه من كُلىً مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ ؟

فغضب عليه ونَحّاه حتى عاد فقال :

ما بالُ « عيني » منها الماء ينسكب كأنه من كُلىً مَفْرِيَّةٍ سَرَبُ ؟

وافتتح الأخطل مدحته « المُزَمّرة » بقوله :

خف القطين فراحوا « منك » أو بكروا
وأزعجتهمْ نوىً في صَرْفِها غِيَرُ

فعاب عليه عبد الملك هذا المطلع وتطيّر من قوله « منك » وقال له : لا بل منك [1] . فعاد الاخطل وغير البيت بقوله :

خف القطين فراحوا « اليوم » أو بكروا
وأزعجتهمْ نوىً في صَرْفِها غِيَرُ

(٣) وعاب عليهم الغفلةَ ونُبُوَّ الذوق . يُروَى أنه لما بلغه قول جرير في هجاء بني الفَدَوْكَس رهطِ الأخطل :

إن الذي حرم المكارم تَغلِبا جعل النُّبُوَّةَ والخلافةَ فينا
مضرُ أبي وأبو الملوك فهل لكم يا خُزرَ تغلبَ من أبٍ كأبينا؟

---

(١) مواسم الأدب لجعفر العلوي : ج ١ ص ٢٢١

هذا ابنُ عَمِّي في دمشق خليفةٌ　　لو « شئتُ » ساقكمُ إليَّ قطينا

قال عبد الملك : ما زاد ابنُ المراغة على أن جعلني شُرطيّاً له . أما أنه لو قال : « لو « شاء » ساقكمُ إليَّ قطينا » لسقتُهم إليه كما قال [1] . وقد عاب آخرون على جرير هذا المعنى وقالوا يا أبا حَزرةَ ، أما وجدت في بني تميم فخراً تفخر به عليهم حتى فخرت بالخلافة ؟ لا والله ما صنعت في هجائهم شيئاً [2] .

(٤) ومن صور نقده للشعر أنه كان يتدخل أحياناً بتعديل ما لا يستحسن معناه ، وفي هذا ما يدل على أنه لم يكن يتذوق الشعر فحسب ، وإنما كان يصنعه أيضاً .

ذكر ابن قتيبة أن الأقيشر الشاعر دخل على عبد الملك بن مروان وعنده قوم فتذاكروا الشعر ، وذكروا قول نُصَيب بن رباح :

أهيم بدَعْدٍ ما حييت فإن أُمتْ　　فيا وَيحَ دَعْدٍ مَن يهيمُ بها بَعْدِي ؟

فقال الأقيشر : والله لقد أساء قائل هذا الشعر ، قال عبد الملك : فكيف كنتَ تقول لو كنتَ قائلَه ؟ قال : كنت أقول :

تُحِبُّكُمُ نفسي حياتي فإن أُمتْ　　أُوَكِّلْ بدَعْدٍ مَن يهيم بها بعدي

قال عبد الملك: والله لأنت أسوأ منه قولاً حين تُوَكّل بها ! فقال الأقيشر : فكيف كنت تقول يا أمير المؤمنين ؟ قال : كنت أقول :

---

(١) وفيات الأعيان : ج ١ ص ١٤٥ . والنبوة والخلافة وبنو تميم الذين ينتمي إليهم جرير يرجعون إلى مضر . وخرز تغلب : هذا وصف العجم ، فكأنه نسبه إلى العجم وأخرجه عن العرب ، وهذا عند العرب من النقائص الشنيعة . والقطين : الخدم والأتباع والإماء .

(٢) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٤٦٩ - ٤٧٠

تُحِبُّكُمُ نفسي حياتي فإن أُمتْ   فلا صَلَحَتْ دَعْدٌ لذي خُلَّةٍ بَعْدِي

فقال القوم جميعاً : أنتَ والله يا أمير المؤمنين أشعر القوم [1] .

(٥) ومما أخذه على الشعراء وعابهم عليه كذبهم في الشعر ، وفي هذا دلالة على أنه كان يرى أن الصدق عنصر من عناصر الشعر الجيد ، ومما يحسب لصاحبه في ميزان النقد الادبي .

دخل الجحّاف بن حكيم الشاعر على عبد الملك وقد أعطاه الأمان بعد غزوته لبني الفَدَوْكَس رهطِ الأخطل وقَتْلِ مَن قتل منهم في وقعة البِشر فقال له : أنشِدْني بعضَ ما قلتَ في غزوتك هذه وفَجْرَتِك فأنشده قوله :

صبرَتْ سليم للطعان وعامرٌ   وإذا جزِعنا لم نجدْ مَن يصبرُ

فقال له عبد الملك : كذبتَ ! وما أكثر مَن يصبر ! ثم أنشده :

نحن الذين إذا عَلَوْا لم يفخروا   يوم اللقاء وإن عُلُوا لم يضجروا

فقال عبد الملك : صدقت . حدثني أبي عن أبي سفيان بن حرب أنكم كنتم كما وصفتَ يوم فتح مكة [2] .

فعبد الملك العالم بتاريخ القبائل وأخلاقها والقابضُ بيده على ميزان النقد يُوَفّي الجحاف حقه فيم كذب فيه من شعر وما صدق فيه .

وأنشده الأخطل قوله في الفخر على قيس قبيلة الجحّاف :

---

(١) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٤١٢ . والخُلة بضم الخاء: الصداقة ، وبفتح الخاء: الخَصلة

(٢) الأغاني : ج ١١ ص ١١٠

ضجُّوا من الحرب إذْ عضَّت غوارِبَهمْ
وقيسُ عيلانَ من أخلاقها الضَّجَرُ

فقال له عبد الملك : لو كان الأمر كما زعمتَ لما قلت :

لقد أوقع الجحَّاف بالبِشْر وقعةً إلى الله منها المشتكَى والمعوَّلُ

ودخل أرطاةُ بن سُهَيَّةَ الشاعرُ على عبد الملك فاستنشده شيئاً مما كان يناقض به شبيبَ بنَ البُرَصاء ، فأنشده :

أبي كان خيراً من أبيك ولم تزَلْ جنيباً لآبائي وأنتَ جنيبُ[1]

فقال له عبد الملك : كذبتَ ! شبيبٌ خيرٌ منك أباً . ثم أنشده :

ومازلتُ خيراً منك مُذْعضَّ كارهاً برأسك عاديُّ النِّجادِ رَكُوبُ[2]

فقال له عبد الملك : صدقتَ ! أنت في نفسك خيرٌ من شبيب . فعجب مِن عبد الملك مَن حضر مِن معرفته مقادير الناس على بُعدهم منه في بواديهم . وكان الأمرُ على ما قال : كان شبيب أشرف أباً من أرطاةَ ، وكان أرطاةُ أشرف فِعلاً ونفساً من شبيب .

ومن أخبار أرطاة أيضاً مع عبد الملك أنه دخل عليه ذات مرة فقال له عبد الملك : كيف حالك يا أرطاة ؟ فقال – وقد كان أَسَنْ – : « ضَعُفَتْ أوصالي ، وضاع مالي ، وقلّ مني ما كنتُ أحب كثرتَه ، وكثُر منّي ما

---

(١) الجنيب : الغريب الدخيل . يقال : فلان جنيب لفلان : أي غريب عنه دخيل عليه .
(٢) النجاد هنا : حمائل السيف . وطول النجاد كناية حسَنةٌ عن طول القامة ، لأن طول النجاد أو طول حمائل السيف يستلزم طول قامة صاحبه . وعاديّ النجاد ركوب : أي رجل عادى الطول كثير الركوب للحرب والقتال .

كنتُ أحب قِلْتَه . قال عبد الملك : فكيف أنت في شِعرك ؟ فقال : والله يا أمير المؤمنين ما أطرب ولا أغضب ولا أرغب ولا أرهب ، وما يكون الشعر إلا من نتائج هذه الأربعة ، وعلى أني القائل :

رأيتُ المرء تأكلُه الليالي ... كأكل الأرض ساقطةَ الحديدِ

وما تبغي المنيةُ حين تأتي ... على نفس ابنِ آدمَ من مَزيدِ

وأعلم أنهــا ستكرُّ حتى ... نُوَفّي نَذْرَها بأبي الوليدِ

فارتاع عبد الملك ثم قال : بل تُوَفّي نَذْرَها بك ! ويلك ! ما لي ولك ؟ فقال أرطاة : لا تُرَعْ يا أمير المؤمنين ، فإنما عَنَيْتُ نفسي . وكان أرطاة يُكنَى أبا الوليد . فسكن عبد الملك ثم استعبر باكياً وقال : أما والله على ذلك لَتَلُمَّنَّ بي [1] :

من هذا الخبر نرى أن عبد الملك في رعايته للشعر واهتمامه به لم يكن يقف عند ضروب النشاط الادبي والنقدي التي عرفناها له حتى الآن ، وإنمـــا كان كذلك يتتبع نشاط الشعراء ويسألهم عن الجديد منه عندهم ، كأنما يريد بذلك أن يثير حماسهم إلى مواصلة قول الشعر والاستزادة منه .

نفهم ذلك من سؤاله لأرطاة : « كيف أنت في شعرك ؟ » . وقــد جاءه الجواب وفي ثناياه حقيقة من الحقائق المتصلة بعمل الشعر ، فأرطاة، وقد أسَنّ، لم يَعُدْ ينشَط لقول الشعر ، لأن دوافعه ومثيراتـه من الطرب والغضب والرغبة والرهبة قد ماتت في نفسه !

كذلك يرينا الخبر مدى ارتياعِ عبد الملك وتَطَيُّرِه مما أنشده أرطاةُ ، ظنًّا منه أنه إنما عناه بما قال عن الموت . حتى إذا علم أنه يعني نفسه ، لكونه

---

(١) الأغاني : ج ١١ ص ٢٦٧ - ٢٦٨

أيضاً يُكنَى « أبا الوليد » سكن الخليفة ، وإن كان ذلك لم يمنعه البكاء لصدق مقالة أرطاة من أن المنية نهاية الإنسان أيّ إنسان !

(٦) والتفت عبد الملك في نقده إلى موسيقى الشعر، فعاب على الشعراء بعضَ قوافيهم لما يظهر فيها من رَخاوَة وليونة ينزلان بقيمة الشعر الصوتية وموسيقاه. أنشده ابنُ قيس الرقيات :

إن الحوادثَ بالمدينة قــد أوْجعنَني وقرَعْنَ مَروَتِيَهْ
وَجَبَبْنَنِي جَبَّ السَّنامِ فلم يتركْنَ رِيشاً في مَنَاكِبِيَهْ

فقال له عبد الملك : أحسنت إلاّ أنك تخنّثْتَ في قوافيك . فقال : ما عدَوْتُ قولَ الله عزّ وجلّ : « ما أغنى عنّي ماليَهْ هلك عني سلطانِيَهْ » . ويعلّق أبو هلال العسكري على جواب ابن قيس بقوله : « وليس كما قال ، لأن فاصلة الآية حسنةُ الموقع ، وفي قوافي شعره لين » [١] . فأبو هلال العسكري في كلمته هذه يلتقي مع عبد الملك بن مروان في ملاحظته النقـدية المتصلة بالقوافي ويوافقه عليها .

وبعد ... فهذه جولة مع عبد الملك بن مروان ناقـد الشام الأول في العصر الأموي ، تعرّفنا فيها إلى أهم مجالاته واتجاهاته الأدبية والنقدية . وهذه تتمثل في موقفه مع جلسائه ، وجمالِ تمثّله بالشعر ، ومفاضلاته سواء ما كان منها بين الشعراء أو بين المعاني الجزئية ، كما تتمثل في مآخذه على الشعراء وألوان النقد الذي كان يُثار في مجلسه . وما من شك في أنه قد أسهم في كل ذلك إسهامـاً فعّالاً في نهضة الشعر والنقد معـاً في عصره وأنه ، كما يقول الاستاذ أحمد أمين ، قام في نقد المديح بالشام مقام ابن أبي عتيق في نقد الغزل بالحجاز [٢] .

---

(١) كتاب الصناعتين : ص ٤٠٠ (٢) النقد الأدبي : ج ٢ ص ٤٦٦

الخلفاء الآخرون والنقد :

لم يكن مجلس عبد الملك وحده هو الذي يرعى الشعر ويشجع عليه ويعمل على نهضة النقد وتوجيهه في بيئة الشام . حقاً كان هـــذا المجلس أكبرَ المجالس الأدبية التي ظهرت بالشام في العصر الأموي ، وذلك لمـا عُرف عن صاحبه من ثقافة أدبية عالية ، ومن محبة خاصة للشعر وتشجيع عليه وتذوق له .

وما من شك في أن مدة خلافة عبدالملك التي طالت وامتدت إحدى وعشرين سنة كان لها شأنها في زيادة نشاط هذا المجلس الأدبي واستفاضة شهرته ، كما كان لها أثرها في دفع الشعراء نحو الاتقـــان والإجادة ، وفي توسيع مجالات النقد الأدبي وتطويره وصقل مواهب المشتغلين به .

ولكن إلى جانب هذا المجلس الكبير كان هناك مجالس أدبية أخرى للخلفاء الأمويين وأمرائهم ، ولا سيما مجالس أبناء عبد الملك الذين نهجوا نهجه في رعاية الأدب والشعر ، وفي الإبقاء على حركة النقد وتدعيمها .

فهؤلاء الخلفـــاء والأمراء الأمويون كانوا يتخذون من قصورهم مجالس أو مدارس أدبية يدور الحديث فيها عن الشعر من إسلامي وجاهلي ، وعن السؤال عن أشعر العرب في الإسلام والجاهلية أو فيهما معاً .

وفيها كانوا ينقدون الشعر ، ويفاضلون ويوازنون بين الشعراء ، ويتناقشون في أجود المعاني ، ونحو ذلك مما كان له أثره ولا ريب في نمو حركة النقد وتنوع اتجاهاتها في عصر بني أمية .

(١) **فالوليد بن عبد الملك :** كان يَدَعُ الشعراء في مجلسه يستمع بعضهم إلى بعض وينقد بعضهم بعضاً ، كما كان هو يسهم برأيه في ذلك .

— دخل عليه الفرزدق يوماً فقال له : من أشعر الناس ؟ قال : أنا . قال : أفتعلم أحداً أشعرَ منك ؟ قال : لا ! إلاّ أنّ غلامـاً من بني عَدِيّ بنِ مَناة — يعني ذا الرُّمّة — يركب أعجاز الإبل ويَنعت الفَلَوات .

ثم أتاه جرير فسأله فقال له مثل ذلك ، ثم أتاه ذو الرُّمّة فقال له : ويحك ! أنت أشعر الناس ؟ فقال : لا ! ولكنْ غلامٌ من بني عُقَيْل يقال له « مزاحم » يسكن الروضات يقول وحشياً من الشعر لا نقدر على أن نقول مثله [1] .

– وتشاجر الوليد وأخوه مَسْلَمة بن عبد الملك في شعر امرىء القيس والنابغة الذبياني في وصف طول الليل أيهما أجود ، ثم رضيا بالشعبيِّ حكماً فأُحْضِر ، فأنشد الوليد ما استحسنه من شعر امرىء القيس في وصف طول الليل ، ثم أنشد أخوه مَسْلَمة ما استحسنه من شعر النابغة في الموضوع ذاته ، فضرب الوليد برجله طرباً . فقال الشعبي : بانت القضية [2] .

– ودخل عديُّ بن [3] الرقاع على الوليد فأنشده قصيدته التي أولها :

عرف الديار تَوَهُّماً فاعتادها ... من بعد ما شَمِلَ البِلَى أَبْلادَها [4]

وعنده كُثَيِّر ، وقد كان بلغه عن عديٍّ أنه يطعن على شعره ويقول : هذا شعرٌ حجازيٌّ مقرور إذا أصابه قُرُّ الشام جَمَد وهلك . فأنشده إياها حتى أتى على قوله :

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمع بينها ... حتى أُقَوِّمَ مَيْلَها وسِنادها

فقال له كُثَيِّر : لو كنتَ مطبوعاً أو فصيحاً أو عالما لم تأت فيها بميل ولا سناد فتحتاج إلى أن تُقَوِّمَها . ثم أنشد :

---

(١) الأغاني : ج ١٦ ص ٢٣٥ . ومزاحم الذي ذكره ذو الرمة : هو مزاحم العقيلي : شاعر أموي اشتهر بالغزل العذري ووصف البادية والخيل .

(٢) الموشح للمرزباني : ص ٣٢ - ٣٣

(٣) كان ابن الرقاع شاعراً مقدماً عند بني أمية مداحاً لهم خاصاً بالوليد بن عبد الملك .

(٤ اعتادها : أعاد إليها النظر مرة بعد أخرى لدروسها حتى عرفها . شمل: عمّ .وأبلادها: آثارها ، جمع بَلَد : وهو الأثر .

نظر المثقّفُ في كعوب قناتهـا حتى يُقيمَ ثِقافُه مُنآدَهـا

فقال له كُثيِّر : لا جرم أن الأيام إذا تطاولت عليها عادت عوجاء ، ولأن تكون مستقيمة لا تحتاج إلى ثقاف أجودُ لها ، ثم أنشد :

وعلمت حتى ما أسائل عالمـاً عن علم واحدة لكي أزدادَها

فقال كُثيِّر : كذبت وربِّ البيت الحرام ، َفلْيمتحننْك أمير المؤمنين بأن يسألك عن صغار الامور دون كبارها حتى يتبين جهلك . ومـا كنتَ قطُّ أحمقَ منك الآن حيث تظن هذا بنفسك . فضحك الوليد ومَن حضر وقُطِع بعَدِيِّ بن الرقاع حتى ما نطق [1] .

(٢) **سليمان بن عبد الملك** : وكذلك كان لسليمان مجلسه الذي يؤمه الشعراء فيستمع لإنشادهم ويخوض معهم في أحاديث الشعر والنقد .

– دخل عليه نُصيب وعنده الفرزدق ، فاستنشد الفرزدقَ وهو يرى أنه سينشده مديحاً له ، فأنشده قوله يفتخر :

وركبٍ كأن الريحَ تطلب عندهم لها تِرَةً من جَذْبِهم بالعصائبِ

سَرَوْا يركبون الريحَ وهْيَ تَلُفُّهمْ إلى شُعَب الأكوار من كل جانبِ

إذا استوضحوا ناراً يقولون ليتها وقد خَصِرَتْ أيديهمُ نارُ غالبِ

فأعرض عنه مغضباً لفخره بحضرته ، فقال نصيب : يا أمير المؤمنين ، ألاَ أنشِدك في رَوِيِّها ما لعلّه لا يتضع عنها ؟ قال : هات . فأنشده :

---

(١) الأغاني : ج ٨ ص ٢٥٩ - ٢٦٠

أقول لِرَكبٍ صادرين لقيتهم ... قَفَاذاتِ أو شالٍ ومولاك قاربُ[1]
قفوا خبِّروني عن سليمان إنني ... لمعروفه من أهل وَدَّان طالبُ
فعاجوا فأثنَوْا بالذي أنت أهلُه ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائبُ
وقالوا عهدناه وكلَّ عشيَّةٍ .. ... بأبوابه من طالب العُرْف راكبُ
هو البدرُ والناسُ الكواكبُ حوله ... ولا تشبه البدرَ المضيءَ الكواكبُ

فقال له سليمان : أحسنت والله يا نُصيب ، وأمر له بجائزة ولم يصنع ذلك بالفرزدق . فقال الفرزدق وقد خرج من عنده :

وخيرُ الشعر أكرمُـــه رجالاً ... وشرُّ الشعر مـا قال العبيدُ[2]

وتفضيل سليمان هنا لنُصيب قائم على أساس أنـــه أرضاه بالمدح ، وإلاّ فإن أبيات الفرزدق ترجح أبيات نُصيب وتَفضلُها من حيث جزالتها ورصانتها والصورةُ الفنية الرائعة التي رسمتها . ولكنّ سليمان في هـذا الموقف لم يكن مأخوذاً بذلك بمقدار إعجابه بصورة المدح التي رسمها له نصيب . ولهذا خصّه بالعطاء وألحق الفرزدق بنار أبيه غالب !

– وسمر الأخطل وجرير والفرزدق عند سليمان ليلة ، فبينما هم حوله إذْ خفق . فقالوا : نعَس أمير المؤمنين ، وهمُّوا بالقيام . فقال لهم سليمان : لا تقوموا حتى تقولوا في هذا شعراً . فقال الأخطل :

رماه الكرى في رأسه فكأنــه ... صريع تَرَوَّى بين أصحابه خمرا

---

(١) الأوشال : جمع وشل ، وهو الماء القليل . وقَفا ذات أوشال : أي وراء ذلك المكان .
(٢) الأغاني : ج ١ ص ٢٤٤

فقال له : ويحك ! سكرانَ جعلتني ؟ ثم قال جرير بن الخطفَى :

رماه الكرى في رأسه فكأنه   يرى في سواد الليل قنبرةً حمرا

فقال له : ويحك ! أجعلتني أعمى ؟ ثم قال الفرزدق بعد هذا :

رماه الكرى في رأسه فكأنه   أَمِيمُ جلاميدٍ تركْنَ به وَقْرَا

قال له : ويحك ! جعلتني مشجوجاً . ثم أذن لهم فانقلبوا ، فحياهم وأعطاهم [1] .

(٣) هشام بن عبد الملك :

وشخصية هشام الذي دام ملكه عشرين عاماً « ١٠٥ ـ ١٢٥ هـ » تسترعي النظر والإلمام بأهم جوانبها قبل أن نتطرق بالحديث إلى مجلسه الأدبي .

فمن صفاته البارزة أنه كان يحب العدل ويتوخاه ويلزم نفسه به في كل ما يصدر عنه أو يُعرَض عليه من شئون الحكم أو الناس . ووقّع مرة على قصة متظلّم بقوله : « أتاك الغوثُ إن كنتَ صادقاً وحلّ بك النكّالُ إن كنتَ كاذباً . فتقدمْ أو تأخر » . ووقّع مرة أخرى على قصة قوم شكوا أميرهم بقوله : « إن صحّ ما ادعيتم عزلناه وعاقبناه » [2] .

وكان في أعماقه متديناً متمسكاً بالمثل الاسلامية ، فإذا ازدهاه السلطان مرة فظن أنه فوق الناس ، ثم ذكّره مُذكّر بأن سلوكه هذا مجاف للقرآن عاد إلى الحق فأطاع وأناب .

بلغه يوماً عن رجل كلامٌ غليظ فأحضره فلما وقف بين يديه جعل يتكلم ،

---

(١) العقد الفريد : ج ٥ ص ٣٨٤

(٢) العقد الفريد : ج ٤ ص ٢٠٩

فقال له هشام : فتتكلم أيضاً ؟ فقال الرجل : يقول الله عزّ وجلّ : « يومَ تأتي كلُّ نفس تجادل عن نفسها » ، فنجادل الله جدالاً ولا نكلمك كلاماً ؟ فقال هشام : ويحك ! تكلّم بحاجتك [1] .

وكان مضرب المثل في الحزم ورعاية الأخلاق والقيام عليها : ومن ذلك أنه كان يعاقب المنحرفين عن الدين حتى ولو كانوا من ولده .

ذكروا عن الهيثم بن عدي أن سعيد بن هشام كان عاملاً لابيه على « حِمص » وكان يُرمَى بالنساء والشراب ، وذات يوم ورد على هشام كتـــاب من حمصيٍّ يقول فيه :

أبلغْ إليك أمير المؤمنين فقد   أَمْدَدْتَنا بأميرٍ ليس عِنِّينَا

طَوْراً يخالفُ عَمْراً في حليلته   وعندساحته يُسقَى الطِّلاحينا !

فلما قرأ الكتاب بعث إلى سعيد فأشخصه ، فلما قدم عليه علاه بالخَيْزُرانة وقال : يا ابن الخبيثة ، تَزْني وأنت ابنُ أمير المؤمنين ! ويلك! ... والله لا تلي لي عملاً حتى تموت » [2] .

وقد عُرِف هشام بالبخل . امتدحه الأخطل فأعطاه خمسَمائةِ دِرهم ، فلم يرضَها وخرج فاشترى بها تفاحاً وفرّقه على الصبيان ، فبلغ ذلك هشاماً فقال : قبّحه الله ! ما ضرّ إلاّ نفسه [3] .

وحضر أعرابي سُفرته ، فبينا هو يأكل إذ تعلّقت شعرة في لقمة الأعرابي ، فقال له هشام : عندك شعرة في لقمتك يا أعرابي. قال: وإنك لتلاحظني ملاحظة من يَرى الشعرة في لقمتي ! والله لا أكلتُ عندك أبداً . وخرج وهو يقول :

---

(١) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٨٧

(٢) المرجع نفسه : ج ٤ ص ٤٤٨

(٣) الأغانى : ج ٧ ص ٣٦٧

وَلَلْموتُ خيرٌ من زيارة باخلٍ يلاحظ أطراف الأكيل على عَمْدِ[1]

ودخل عليه خالد بنُ صفوان فأطرفه وحدَّثه ، فقال له : سَلْ حاجتك .
فقال خالد : يا أمير المؤمنين ، تزيد في عطائي عشرةَ دنانير . فأطرق حيناً وقال : فيمَ ؟ ولِمَ ؟ وبِمَ ؟ ألعبادةٍ أحدثتها ؟ أم لبلاءٍ حسَن أبليته في أمير المؤمنين ، الاَ لا يابن صفوان ، ولو كان لكثُر السؤال ولم يحتمله بيتُ المال .
فقال خالد : وفّقك الله يا أمير المؤمنين وسدّدك فأنت والله كما قال أخو خزاعة :

إذا المالُ لم يوجِبْ عليك عطاءَه صنيعةُ قُربى أو صديق تُوافقُه
منعتَ وبعضُ المنع حزمٌ وقوةٌ ولم يفتلتك المالَ إلّا حقائقُهْ

قيل لخالد بن صفوان : ما حملك على تزيين البخل له ؟ قال : أحببت أن يمنع غيري فيكثرَ مَن يلومه[2] .

ويردُّ هشام على مَن يتهمه بالبخل قائلاً : « أما والله إنا لنعرف الحق إذا نزل ، ونكره الإسراف والبَخَل ، وما نعطي تبذيراً ولا نمنع تقتيراً ، وما نحن إلاّ خُزّانُ الله في بلاده ، وأمناؤه على عباده ، فإذا أذِنَ أعطينا وإذا منع أبينا ، ولو كان كلُّ قائل يَصْدُق ، وكل سائل يستحق ما جَبَهْنا قائلاً ، ولا رَدَدْنا سائلاً »[3] .

وإلى جانب كل ذلك كان هشام بليغاً يقدّر قيمة البيان ، وهو القائل : « إن الله رفع درجة اللسان فأنطقه بين الجوارح »[4] .

وقد كان هو وإخوتُه كأبيهم عبد الملك يحبون الشعر ويتمثلون به . كان

---

(١) العقد الفريد : ج ٦ ص ١٨٢ (٢) نفس المرجع : ج ٦ ص ١٧٦
(٣) نفس المرجع : ج ٤ ص ٤٥٠
(٤) نفس المرجع : ج ٤ ص ١٨٩

الكميت الشاعر يمدح بني هاشم ويُعَرِّض ببني أمية ، وقد طلبه هشام فهرب منه عشرين سنة ، ثم أتاه أخيراً عن طريق أخيه مَسْلمة مادحاً معتذراً بخطبة بليغة فعفا عنه وأمر له بجائزة [1] .

وسخط على خالد القسري زعيم اليمنية وواليه على العراق ، وكان أثيراً على نفسه ، ولما فوتح في العفو عنه تمثل بقول الشاعر :

إذا انصرفت نفسي عن الشيء لم تكن عليه بوجه آخرَ الدهر تُقْبِلُ [2] ،

وسمع بأشعبَ مُضحك المدينة فكتب إلى عامله عليها أن يحمله إليه ، فلما ختم الكتاب أطرق طويلاً ثم قال : هشام يكتب إلى بلد الرسول ليُحمَل إليه منه مُضحك ؟ لاها الله ! ثم تمثَّل :

إذا أنت طاوعتَ الهوى قادك الهوى إلى بعض ما فيه عليك مقالُ

وأوقف الكتاب [3] .

وبلغ يزيدَ بن عبد الملك أن هشاماً أخاه يَتنقَّصُه فكتب إليه إن مثلي ومثلك كما قال الأول :

تمنى رجال أن أموتَ وإن أُمتْ فتلك سبيلٌ لستُ فيها بأَوْحَدِ

لعل الذي يبغي رَدايَ ويرتجي به قبل موتي أن يكون هو الرَّدِي

فكتب إليه هشام إنَّ مثلي ومثلك كما قال الأول :

ومَن لم يُغَمِّضْ عينَه عن صديقه وعن بعض ما فيه يَمُتْ وهْو عاتبُ

---

(١) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٨٣ (٢) نفس المرجع : ج ٤ ص ٤٤٦

(٣) مروج الذهب للمسعودي : ج ٣ ص ٢٢١ - ٢٢٢

ومن يتتبَّعْ جاهداً كلَّ عثرةٍ   يَجدْها ولا يَبقى له الدهرَ صاحبُ

فكتب إليه يزيد : نحن مغتفرون ما كان منك ومكذبون ما بلغنا عنك ، مع حفظ وصية أبينا عبد الملك وما حضّ عليـــه من صلاح ذات البين . وإني لأعلم أنك كما قال مَعْن بن أوس :

لعمرك ما أدري وإني لأوجل   على أيّنا تأتي المنيـــةُ أولُ

وإني على أشياء منك تُريبني   قديماً لذو صفحٍ على ذاكَ مُجمِلُ

ستَقطع في الدنيا إذا ما قطعتني   يمينك فانظرْ أيّ كفٍّ تَبَدَّلُ

إذا أنت لم تُنصف أخاك وجدته   على طرف الهجران إن كان يعقل» (١)

*

وبعد ... فتلك صورة عامة لشخصية هشام تُبرز لنا أهم صفاته ، ومنهـا أنه كان كأبيه وإخوتـــه يحب الشعر ويتذوقه ويتمثل به في المواقف التي تعرض له .

وإلى جانب ذلك كان مجلسه كمجلس أبيه عبد الملك منتدى أدبيـــاً يؤمه الشعراء والأدباء فيتناشدون ويتناقدون ، وكثيراً مـــا كان يشترك مع رُوّاد مجلسه في أحاديث الشعر والشعراء ونقدهم .

وقد كان يجد في مجلسه هذا فرصة للاسترواح والتخفف من أعباء الحكم ، فرصة يلتقي فيها بهشام الإنسان لا الخليفة ، هشام العربي الذي يطرب بطبعه للشعر ، ويجد فيه وفي أحاديث جلسائه الأدبية غذاء القلب والروح ، بعيداً عن جو التكلف والحذر الدائم من السقوط . ومن كلمـــاته في ذلك : « ألذّ

---

(١) العقد الفريد : ج ٤ ص ٤٤٣

الأشياء كلّها جليس مساعد ، يُسقط عني مؤونة التحفّظ » (١) .

ولهشام بن عبد الملك في كتب الأدب أخبار كثيرة مع الشعراء يستمع فيها للشعر وينقده ، ونحن نجتزىء هنا ببعض الأمثلة للدلالة بها على ذوقه الأدبي ونوع النقد الذي صدر عنه .

— جاء في الأغاني أن نُصَيْباً الشاعر كان إذا قدم على هشام بن عبد الملك ، أخلى له مجلسه واستنشده مراثيَ بني أميـــة ، فإذا أنشده بكى وبكى معه ، فأنشده يوماً قصيدة له مدحه بها منها :

إذا استبق الناسُ العلا سبقتْهمُ يمينُك عَفْواً ثُمَّ صَلَّتْ شِمالُهـــا

فقال لها هشام : يا أسودُ بلغتَ غاية المدح فسَلْني ، فقالَ : يدُك بالعطاء أجودُ وأبسطُ من لساني بمسألتك . فقال : هذا والله أحسن من الشعر ، وحباه وكساه وأحسن جائزته (٢) .

— وحضر جرير والفرزدق والأخطل عنده ، فأحضر هشام ناقة له فقال متمثلا : « أُنيخُها ما بَدا لي ثم أرْحَلُها » ثم قال : أيُّكم أتمَّ البيت كما أريد فهي له . فقال جرير : « كأنها نِقْنِقٌ (٣) يَعدو بصحراء » . فقـــال : لم تصنع شيئاً .

فقال الفرزدق : كأنها كاسِرٌ بالدَّوِّ فتخاءُ » (٤) . فقال : لم تغن شيئاً .

وقال الأخطل : « تُرْخِي المَشافرَ واللَّحْيَيْنِ إرخاءَ » . فقـــال :

---

(١) العقد الفريد: ج ٦ ص٢٣١

(٢) الأغاني : ج ١ ص ٢٤٥ . وصلى الفرس : تلا السابق .

(٣) النِقنق : الظليم وهو ذكَر النعام .

(٤) الكاسر : العُقاب . والدَّوّ : الفلاة الواسعة . والفتخاء : اللينة الجناح لأنها إذا انحطت كسرت جناحيها وغمزتها .

اركبها . لا حملك الله (١) .

ومما أخذه على بعض الشعراء نُبُوُّ الذوق وعدم تخيُّر المعاني المناسبة للمقام. من ذلك أنه جلس يوماً في صحن داره وفتح بابها وأذِنَ للناس إذْناً عاماً ، فدخلت العامّةُ فأخذوا مجالسهم من الدار ، وأمر أبا النجم الراجز أن يُنشد وكان مشغوفاً بشعره ، فأنشد أرجوزته التي أولها :

الحمدُ لله الوَهوبِ المُجزلِ

وهي أجودُ أراجيز العرب ، وهشامٌ يصفق بيديه استحساناً لها ، فلما بلغ قوله في الشمس :

حتى اذا الشمسُ اجتلاها المُجْتَلي
بين سِماطيْ شَفَقٍ مُرَعْبَلِ
صغواءَ قد كادت ولمَّا تفعلِ
فهْيَ على الأُفقِ كعينِ الأحولِ

أمر هشام بِوَجْءِ رقبته وإخراجه ، وكان هشامٌ أحْوَلَ (٢) .

وقد التفت في تقديره للشعر ونقده إلى عنصر الصدق كواحد من الأسس التي تُبنَى عليها الأحكام الأدبية ، ولهذا كان يعيب على الشعراء ما يقعون فيه من

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٣٦٧ . والمشافر : واحدها مِشْفر ، والمشفر للبعير أو الناقة كالشفة للانسان . واللحيان : واحدهما لَحْيٌ ، وهو مَنبتُ اللحية من الانسان وغيره. واللحيان أيضاً هما العظمان اللذان فيهما الأسنان من داخل الفم من كل ذي لَحْي ، وهو يكون للانسان والدابة .

(٢) الشعر والشعراء : ج ٢ ص ٥٨٥ - ٥٨٦ ، والموشح للمرزباني: ص٣٣٥ المرعبَل: المقطّع . وصغواء : مائلة للغروب . وجأ رقبته : لكزها .

التناقض بين أقوالهم وأفعالهم .

وقد عليه عُرْوة بن أذينة وجماعةٌ من الشعراء فنسبهم ، فلما عرف عروةَ قال له : أنت القائل :

لقد علمتُ وما الإسرافُ من خُلُقي   أن الذي هو رزقي سوف يأتيني
أسعى له فيُعنّيني تَطلُّبُهُ   ولو قعدتُ أتاني لا يُعنّيني ؟

فقال له ابن أذينة : نعم . قال : فما أقدمك علينا ؟ أفلا قعدت في بيتك حتى يأتيَك رزقُك ؟

وغفل عنه هشام فخرج من وقته وركب راحلته ومضى منصرفاً، ثمّ افتقده هشام فعرف خبره فأتبعه بجائزة وقال للرسول : قل له : أردتَ أن تكذّبَنا وتصدقَ نفسَك . فمضى الرسول فلحقه وقد نزل على ماء يتغدّى عليه ، فأبلغه رسالتَه ودفع إليه الجائزة ، فقال : قلْ له قد صدّقَني ربي وكذّبَك [1] » .

هذا عن هشام ومجلسه الأدبي، وقد كان إخوتـه وغيرُهم من أمراء الأمويين على غراره وغرار والده عبد الملك في غرامهم بالأدب ومحبتهم للشعر ، وسعـة إحاطتهم به ، وتشجيعهم عليه ، وتمثلهم بالجيد منه في شتى المواقف .

لذلك كانت مجالسهم عامرة دائماً بالشعراء وأهل الادب ومحبيه ، ولم يكن نشاط هذه المجالس مقصوراً على إنشاد الشعر والاستماع إليـه ، ولكنه تجاوز ذلك إلى نقد الشعر وتوجيهه والمفاضلة بين الشعراء من جاهليين وإسلاميين .

وكل هذا النشاط الادبي الذي شجع عليه خلفاء الأمويين وأمراؤهم ، وهيئوا له الفرص الكثيرة المنوعـة في مجالسهم قد أدّى بدوره إلى غزارة شعر المديح الوافد على الشام وإلى التفنـن في معانيه والمبالغة فيهـا من قِبَل الشعراء إرضاء

---

(١) الأغاني : ج ٢١ ص ٢٤٨ . وعروة كان من كبار العلماء والصالحين ، وله أشعار رائقة

لغرور ممدوحيهم وتملقاً لمشاعرهم .

وإذا كان النقد يسير عادة في ركاب الشعر ويتأثر به قوة وضعفاً فإننا نلحظ تطوراً في النقد الأدبي الذي أنتجته بيئة الشام في العصر الأموي على النحو الذي عرضناه حتى الآن .

*

عمر بن عبد العزيز والشعر :

ولكنْ من بين خلفاء الأمويين وأمرائهم جميعاً نلتقي بخليفة واحد كان له موقف آخر من الشعر والشعراء والنقد الادبي . ذلك الخليفة هو عمر بن عبد العزيز بن مروان .

فالمتصفّح لسيرة هذا الخليفة الأموي يرى أنه أمام شخصيتين مختلفتين تمام الاختلاف : شخصية ما قبل الخلافة وشخصية ما بعدها .

فقبل الخلافة يرى المتصفّح لسيرته شخصية أمير يعيش كسائر أمراء الامويين عيشة ليّنةً مترفة ، ويُولّى من الأعمال مثل ما يُوَلّوْن . ويطمح إلى مثل ما يطمحون إليه .

كذلك يرى فيه أميراً يحب الشعر ويتذوقه ، أميراً يقصده الشعراء ويُنشدونه مدائحهم أو يستنشدهم ما يطرب له من شعرهم .

امتدحه دُكَيْنُ بنُ رجاء الفُقَيْمِيّ الراجزُ فأمر له بخمس عشرة ناقة ، وقال له : يا دُكين إنّ لي نفساً توّاقة فإن أنا صرت إلى أكثر مما أنا فيه فبعينِ ما أرَيَنَّك [1] . ودخل عليه نُصَيْبٌ مسجدَ الرسول أيام إمارته على المدينة وهو جالس بين قبر النبي ومِنبره فقال له نُصَيب : أيها الأمير ائذنْ لي أن

(١) الشعر والشعراء : ج ٢ ص ٥٩٢

أنشدك من مراثي عبد العزيز ، فقـــال : لا تفعل فتُحزِنَني ، ولكنْ أنشدني قولَكَ « قِفا أخَوَيَّ » فإن شيطانَكَ كان لك فيها ناصحاً حين لقّنك إياها ، فأنشده أبياتاً منها :

قِفَـــا أَخَوَيَّ إنَّ الدارَ ليستْ كما كانتْ بعهدكما تكونُ

لياليَ تعلمانِ وآلُ ليلى قطينُ الدار فاحتمل القطينُ [1]

فعُوجا فانظرا أَتبينُ عمَّـــا سألنـــاها به أم لا تُبينُ ؟

فظلَّا واقفَيْنِ وظلَّ دمعي على خدِّي تجود به الجفونُ [2]

هذه لمحة من صورة عمر بن عبد العزيز قبل الخلافة . أما بعدهـــا فإننا نرى صورةَ شخصية تريد بسياستها وسلوكها الشخصيّ أن تردّ الحكم الاسلاميّ إلى ما كان عليه في عهد جدّه لأمّه عمرَ بن الخطاب . ولعل في الخبرين التاليين ما يصوّر لنا شخصيته في الحالين .

قال رباح بنُ عُبيدة : اشتريتُ لعمر بنِ عبد العزيز قبل الخلافة مُطْرَفاً [3] بخمسمائة فاستخشنه وقال : لقد اشتريته خشناً جداً ، واشتريتُ له بعد الخلافة كِساءً بثمانية دراهم فاستلانه وقال : اشتريتَه ليِّناً جداً [4] .

وكان لعمر غلامٌ يحتطب له فقال له يوماً : ما يقول الناس يا درهم ؟ قال : وما يقولون ؟ الناس كلُّهم بخير ، وأنا وأنت بِشَرٍّ . قال : وكيف ذلك ؟ قال : إني عهدتُك قبل الخلافة عَطِراً لبّاساً فارِهَ المركب طيّبَ الطعام ، فلمـــا وَليتَ رجوتُ أن أستريح وأتخلّص فزاد عملي شدةً وصرتَ أنت في بلاء .

---

(١) القطين : سكان الدار واحتمل القطين : ارتحل سكان الدار .

(٢) الأغاني : ج ١ ص ٢٥٠

(٣) المطرف : رداء مربع من خزٍّ له أعلام . (٤) العقد الفريد : ج ٤ ص ٤٣٤

قال : فأنت حر ، فاذهبْ عني ودَعْني ومـــا أنا فيه حتى يجعل الله لي منه مَخرجاً [١] .

هذه صورة عمر بن عبد العزيز في الحالين : أميرٌ مُترف غاية الترف ، وزاهد متقشّف غاية التقشُّف منذ أصبح خليفة المسلمين . وكأني به منذ اللحظة الأولى قد وضع صورة جَدّه عمرَ بن الخطـاب نُصب عينيه وقرّر فيما بينه وبين نفسه أن يحتذَيها وينسجَ على منوالها في سياسته وحكمه وحياته الشخصية .

خطب الناس حين استُخلِف فقال : « أيها الناس والله ما سألتُ اللهَ هذا الامر قطُّ في سِرٍّ ولا في علانية. فمن كان كارهاً لشيء مما وُلّيتُه فالآن» [٢]. لم يسمح لنفسه أن يأخذ من بيت المال شيئـاً أو يُجرِيَ على نفسه من الفَيْءِ شيئاً . وكان عمرُ بنُ الخطاب يُجري على نفسه من ذلك درهمين في كل يوم ،فقيل لعمر بن عبد العزيز: لو أخذت ما كان يأخذ جَدُّك . فقال: إن عمرَ بنَ الخطاب لم يكن له مال ، وأنا مالي يُغنيني [٣] .

وهكذا نراه وقد انتهت إليه الخلافة التي لم يسعَ إليها يحمل أمانة الحكم الإسلامي بشجاعة أدبية ، ويتوخى الحق والعدل في كل ما يَصدر عنه في جميع شئون الأمـــة ، ويسترشد في ذلك بمَن يثق في رأيهم ونزاهتهم . من ذلك أنْ يطلب إلى الحسن بن أبي الحسن البصري أن يكتب إليـــه بصفة الإمام العادل فيبعث إليه الحسن رسالة في ذلك تُعَدُّ دستوراً قيّماً لكـل حاكم يبغي العدل ويتحرّاه [٤] .

ولقد توخّى العدلَ أولَ ما توخّاه مع آله من بني مروان ، ذلك أنه جمعهم وجابهم بقوله : « أدُّوا ما في أيديكم من حقوق الناس ولا تُلجئوني إلى مـا

(١) العقد الفريد : ج ٤ ص ٤٣٥

(٢) نفس المرجع : ج ٤ ص ٤٣٣

(٣) نفس المرجع : ج ٤ ص ٤٣٤

(٤) نفس المرجع : ج ١ ص ٣٩

أكره فأحملكم على ما تكرهون ، فلم يجبه أحد منهم . فقال : أجيبوني ! فقال رجل منهم : والله لا نَخرجُ من أموالنا التي صارت إلينا من آبائنا فنُفْقِرَ أبناءَنا ونُكَفِّرَ آباءَنا حتى تُزايلَ رءوسُنا أجسادَنا .

فقال عمر : أما والله لولا أن تستعينوا عليَّ بمَن أطلب هـذا الحقَّ لهم لأضرعتُ خدودَكم عاجلاً ، ولكنني أخاف الفتنة . ولئن أبقاني اللهُ لأُردَّنَّ إلى كل ذي حق حقَّه إن شاء الله (١) .

كذلك توخَّى الحزم مع عمـاله في كل ما اقتنع فيه بأنه حق ؛ فإذا أصدر أمراً لأحد منهم في مظلمة من المظالم فإنه كان لا يحب أن يراجعه فيه .

قال أبو الزِّناد : كنتُ كاتباً لعمر بن عبد العزيز ، فكان يكتب إلى عامله على المدينة في المظالم فيراجعه فيها فيكتب إليه : إنه يُخيَّل إليَّ أني لو كتبتُ إليك أن تعطي رجلاً شاة لكتبت إليَّ : أضأناً أم مَعْزاً ؟ ولو كتبت إليك بأحدهما لكتبت إليَّ : أذكراً أم أنثى ؟ ولو كتبتُ إليك بأحدهمـا لكتبتَ إليَّ : أصغيراً أم كبيراً ؟ فإذا كتبتُ إليك في مظلمـة فنفِّذْ أمري ولا تراجعني (٢) .

وفي عهده يرى شيوعَ الشراب فيبعثُ برسالة إلى أهل الأمصار ينهاهم فيها عن الخمر ، ويُبيِّن لهم أن في الأشربة التي أحـلَّ الله : من العسل والسَّويق والنبيذ من الزبيب والتمر لَمندوحةً عن الأشربـة التي حرَّم الله. فمن يُطِعْ منكم فهو خير له، ومن يخالفْ إلى ما نهى الله عنه نعاقبْه على العلانية ويكفينا الله ما أسَرَّ ، فإن الله على كل شيء رقيب . ومن استخفى بذلك عنَّا فإن الله أشدُّ بأساً وأشدُّ تنكيلاً (٣) .

---

(١) العقد الفريد : ج ٤ ص ٤٣٧

(٢) نفس المرجع : ج ٣ ص ٩

(٣) نفس المرجع : ج ٦ ص ٣٥٩ – ٣٦٠ . والسَّويق : ما يتخذ من الحنطة والشعير .

ويبدو من سياسته أنه كان يتدرّج مع الناس في الوصول إلى الحق مخافة الفتنة . قال له ابنُه عبدُ الملك مرة : « يا أبتِ مالك لا تُنفّذ الأمور ؟ فوالله ما أبالي لو أنّ القُدورَ غلَتْ بي وبك في الحق . فقال له عمر : لا تعجلْ يا بُنيّ فإن الله ذمّ الخمر في القرآن مرتين ثم حرّمها في المرة الثالثة ، وأنا أخاف أن أحمل الحقّ على الناس جُملةً فيدفعوه جملةً ، ويكونَ في ذلك فتنة »[1] .

*

هذا هو الخليفة عمر بن عبد العزيز ، وتلك كانت سياستَه في حكمه ، وذلك كان أسلوبه في معالجة شئون الأمة ، ومنها الشعر الذي أفسد روحَه خلفاءُ الأمويين ، وانحرفوا به عن الطريق الذي رسمه له الرسول وسار عليه مِن بعده الخلفاء الراشدون .

لقد رأينا من سيرة عمر كيف أنه كان مخالفاً لجميع من سبقوه إلى الخلافة من بني أمية في حكمه وسياسته وحياته ومُثُله . فقد حاول جاهداً في خلافته التي دامت نحو عامين ونصف عام « ٩٩ – ١٠١ هـ » أن يصحّح الأوضاع الخاطئة وأن يفرض الحق والعدل بين الناس ، وأن يضع نهاية لكل ما ابتدعه أسلافه من قيم غير إسلامية .

وإذا نظرنا إلى حالة الشعر في عهده ، وهي الناحية التي نهتم بها هنا في عرضنا لتاريخ النقد الأدبي بالشام ، رأيناه يقف من الشعر موقفاً يخالف موقف أسلافه .

فإذا كان أسلافه يهتزون لشعر المديح الذي يُرضي غرورهم ويُملّق مشاعرهم ، وإذا كانوا يشجعون على هذا اللون من الشعر ويفضّلونه على غيره ، ويُجزلون العطاء فيه ، فإنه كان يرى في كل ذلك رأياً مخالفاً .

أجل كان يرى في شعر المديح صورة كريهة للكذب والنفاق ، وتشجيعاً

---

(١) العقد الفريد : ج ٤ ص ٤٣٨

للشعراء على الفساد الخلقي ، كما يرى في مكافأتهم عليه من مال المسلمين تبديداً لهذا المال وإعطاءه لغير مستحقه .

لم يكد يلي الخلافة حتى قصده الشعراء بمدائحهم التقليدية التي ينوّهون فيها بكرمه وخلاله ومآثر آبائه . ولكنه بدل أن يستقبلهم ويستمع إلى إنشادهم أرصد بابه دونهم لسوء رأيه فيهم وفي شعرهم .

(١) قال ابن الكلبي :

لما استُخلِف عمر بن عبد العزيز وفدتْ إليه الشعراء كما كانت تفد إلى الخلفاء من قبله ، فأقاموا ببابه أياماً لا يأذن لهم بالدخول ، حتى قدم عليه عَوْنُ بن عتبة بن مسعود الفقيه وعليه عمامة قد أرخى طرفيها وكانت له منه مكانة ، فصاح به جرير :

يا أيها الرجلُ المُرخي عمامتَه ... هذا زمانُك إني قد مضى زمني

أبلغْ خليفتَنا إن كنتَ لاقيَه ... أني لدى الباب كالمصفود في قَرَنِ [1]

وَحْشُ المكانة من أهلي ومن ولدي ... نائي المحلّةِ عن داري وعن وطني

قال : نعم أبا حزرة ونُعمَى عين . فلما دخل على عمر ، قال : يا أمير المؤمنين إن الشعراء ببابك ، وأقوالُهم باقية وسنانُهم مسنونة . قال : يا عون : ما لي وللشعراء ؟ قال : يا أمير المؤمنين إن النبي قد مُدِح وأعطى ، وفيه أُسوةٌ لكل مسلم . قال : ومَن مدحه ؟ قلت : عباس بن مرداس ، فكساه حُلّةً قطعَ بها لسانه . قال : وتروي قوله ؟ قلت : نعم ، وأنشدته .

فلما سمع عمر شعر ابن مرداس قال لعون : صدقت ، فمن بالباب منهم ؟ قال عون : جميل بن مَعمر العُذْريُّ ، قال هو الذي يقول :

---

(١) كالمصفود في قرَن : كالمقيَّد في حَبْل .

أَلَا ليتنا نحيا جميعاً فإنْ نَمُتْ يوافي لدى الموتى ضريحي ضريحُها

فما أنا في طول الحياة براغبٍ إذا قيل قد سُوِّي عليها صفيحُها

أظلُّ نهاري لا أراها ويلتقي مع الليل روحي في المنام وروحُها

أعزُب به ، فوالله لا دخل عليّ أبداً ، فمَن غيرُ مَن ذكرت ؟ قلت : كُثيِّر عزّة . قال : هو الذي يقول :

رُهبانُ مَدْيَنَ والذين عهدتُهم يبكون من حَذَر العذاب قُعودا

لو يسمعون كما سمعتُ حديثها خرُّوا لعزَّةَ راكعين سُجودا

أعزُب به . فمَن بالباب غيرُ من ذكرت ؟ قلت : همام بن غالب . قال : أليس هو القائل يفخر بالزنى :

هما دَلَّتاني من ثمانين قامةً كما انقضَّ بازٍ أقتمُ الريشِ كاسِرُهْ

فلما استوتْ رجلاي في الأرض قالتا أَحيٌّ يُرَجَّى أم قتيلٌ . . نحاذرهْ ؟

وأصبحتُ في القوم الجلوس وأصبحتْ مُغلَّقةً دوني عليها دساكرهْ

فقلتُ ارفعوا الأسبابَ لا يشعروا بنا وولَّيْت في أعقاب ليلٍ أُبادرهْ

أعزّب به ! فوالله لا دخل عليّ أبداً . فمَن بالباب غيرُ مَن ذكرت ؟ قلت : الأخطل التغلبي . قال أليس هو القائل :

فلست بصائم رمضانَ عمري ولستُ بآكلٍ لحم الأضاحي

ولستُ بزاجرٍ عَنْساً بَكوراً إلى بطحاء مكة للنجاحِ

ولستُ بقائمٍ كالعَيْر يدعو قُبيلَ الصبح حَيَّ على الفلاحِ

ولكني سأشربُها شمولاً وأسجدُ عند مُنبَلَجِ الصباحِ

أعزُب به ! فوالله لا وطىء لي بساطاً أبداً وهو كافر . فمَن بالباب غيرُ مَن ذكرت ؟ قلت : جرير بن عطية الخطفَى . قال : أليس هو القائل :

لولا مراقبةُ العيون أرَيْتِنا ... مُقَلَ المَها وسوالِفَ الآرامِ

هل يَنهيَنَّك أنْ قتلن مُرَقَّشاً ... أو ما فعلن بعروةَ بنِ حزامِ

طرقتك صائدةُ القلوب وليس ذا ... حينَ الزيارة فارجعي بسلامِ

فإنْ كان ولا بُدّ فهذا . فأذِنَ له . فخرجت إليه ، فقلت : ادخل أبا حَزرةَ فدخل وهو يقول :

إن الذي بعث النبي محمداً ... جعل الخلافةَ في إمامٍ عادلِ

وَسِعَ الخلائقَ عدلُه ووفاؤه ... حتى ارْعَوَى وأقامَ مَيْلَ المائلِ

واللهُ أنزل في القُران فريضةً ... لابن السبيل وللفقير العائلِ

إني لأرجو منك خيراً عاجلاً ... والنفسُ مولعةٌ بحبِّ العاجلِ

فلما مثل بين يديه قال : اتق الله يا جرير ، ولا تَقُلْ إلا حقاً . فأنشأ يقول :

كم باليمامة من شعثاء أرملةٍ ... ومن يتيمٍ ضعيفِ الصوتِ والنظرِ

مِمَّنْ يَعُدُّكَ تكفي فَقْدَ والدِه ... كالفرخِ في العُشِّ لم ينهضْ ولم يَطِرِ

يدعوك دعوةَ ملهوفٍ كأنَّ به ... خَبْلاً من الجنِّ أو مَسًّا من البشرِ

إنا لنرجو إذا ما الغيثُ أخلَفنا ... من الخليفة ما نرجو من المطَرِ

نال الخلافةَ إذ كانتْ له قَدَراً ... كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

هذي الأراملُ قد قضَّيْتَ حاجتَها   فمَن لحاجة هذا الأرمَلِ الذَّكَرِ ؟

فقال : يا جرير ، والله لقد وَليتُ هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة ، فمائة أخذها عبدُالله ، ومائة أخذتها أم عبدالله . يا غلام ، أعطه المائة الثالثة . فقال : والله يا أمير المؤمنين ، إنها لأحبُّ مالٍ إليّ كسَبْتُه ، ثم خرج فقالوا له : ما وراءك ؟ قال : ما يَسُوءُكم ، خرجت من عند أمير المؤمنين يعطي الفقراء ويمنع الشعراء ، وإني عنه لراضٍ ، ثم أنشأ يقول :

رأيتُ رقَى الشيطان لا تستفِزُّه   وقد كان شيطاني من الشعر راقيا[1]

وقد آثرنا نقل هذا الخبر بكامله تقريباً لأنه خبر دالٌّ كاشفٌ بالنسبة لموقف عمر بن عبد العزيز من الشعر والشعراء في عهده .

فهو يدلُّ على سعة إحاطته بالشعر وعلمه بسقطات الشعراء وانحرافهم في في بعض أشعارهم ، كما يكشف عن سوء رأيه فيهم لما يشيع في شعرهم من صور الكذب والنفاق ابتغاء الحظوة والمال .

وهو إذ يقف منهم هذا الموقف المتشدد إنما يبغي أن يضع نهاية لشعر المدح الفاسد المفسد ، وأن يتجه به وبأصحابه إلى جادة الحق ومكارم الاخلاق .

وإذا كان قد أذِنَ لشاعر مثل جرير واستمع له وأعطاء ، فهو عطاء للفقر لا على شعر المدح ، وهو عطاء من مال الخليفة الخاص لا من مال المسلمين . ومع ذلك لم يفته أن يطلب إلى جرير أن يراقب الله في شعره وألاّ يقول إلاّ حقاً .

(٢) ويسمع دُكَيْنُ الراجز نبأ تولي عمر بز عبد العزيز الخلافة فيخفُّ إليه ، وكان قد مدحه وهو أمير المدينة وأعطاه ، ولقيه في الطريق جرير قادماً من عند عمر فقال له : من أين يا أبا حَزرة ؟ فقال : من عند أمير يعطي الفقراء

---

(١) العقد الفريد : ج ٢ص ٩١ – ٩٦

ويمنع الشعراء . فقال دُكَيْن : فما ترى إنْ أنا قصدته ؟ قال : عَوّل عليه في مال المسلمين كما فعلتُ .

ومضى دُكين في طريقه حتى قدم على عمر فقال له: أنا كما أعلمتك يا دُكَيْن. إنّ لي نفساً توّاقة ، وإن نفسي تاقت إلى أشرف منازل الدنيا ، فلما بلغتُهـا وجدتُها تتوق إلى أشرف منازل الآخرة . والله ما رَزأت من أمور الناس شيئاً فأعطيَك منه ، وما عندي إلا ألفا درهم أعطيك أحدهما [1] .

(٣) وكان الأحوص هجّاءً لقومه كثيرَ التشبيب بنساءِ ذواتِ أخطارٍ من أهل المدينة ، فلما استفحل شرُّه في ذلك شُكِيَ إلى سليمان بن عبد الملك فأمر بضربه مائة سوط والتشهير به ونفيه إلى « دَهْلَك » [2] ، وظل بها منفياً طَوال عهد سليمان .

ولما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز كتب إليه الأحوص يستأذنه في القدوم ويمدحه ، فأبى أن يأذن له . ثم أتاه رجال من الأنصار يطلبون إليه أن يرده إلى حرم رسول الله ودار قومه فقال لهم عمر : من الذي يقول :

كأنَّ لُبْنَى صَبِيرُ غاديةٍ أو دُمْيَةٌ زُيِّنَتْ بها البِيَعُ [3]

---

(١) العقد الفريد : ج ٢ ص ٨٦ ، وانظر كذلك : ج ٣ ص ٢٠

(٢) دَهْلك : جزيرة في بحر اليمن ، وهي مُرْسىً بين بلاد اليمن والحبشة ، وكان بنو أمية إذا سخِطوا على أحد نفوْه أليها لشدة حرارتها . وفيها وفي صاحبها مالك بن الشداد يقول نصرالله بن قُلاقس الاسكندرى :

وأقْبِحْ بدَهْلَك من بلدةٍ فكل امرىء حلّها هالكُ
كفاك دليلاً على ... أنها جحيم وخازنها مالكُ

(٣) الصبير : السحاب الأبيض ، وكأنها صبير غادة : أي كأنها سحابة بيضاء تنشأ غدوة . والدمية : الصنم ، والصورة المنقّشة من العاج ونحوه ، وقيل : الصورة مطلقاً ، والبيع : جمع بِيعه بكسر الباء : وهي كنيسة النصارى ، وقيل كنيسة اليهود .

اللهُ بيني وبين قَيِّمِهـا يَفِرُّ مِنِّي بهـا وأَتَّبِـعُ ؟

قالوا : الأحوص . قال : بل اللهُ بين قَيِّمِها وبينه ! فمن الذي يقول :

ستبقى لها في مُضْمَرِ القلبِ والحَشَا سريرةُ حُبٍّ يومَ تُبْلَى السرائرُ ؟

قالوا : الأحوص . قال : إن الفاسق عنها يومئذ لمشغول ! والله لا أردُّه ما كان لي سلطان ! وهكذا مكث هناك بقية ولاية عمر وصَدْراً من ولاية يزيد بن عبد الملك (١) .

فعمر ينتقد شعر الأحوص ويعيب عليه المجاهرة بتتبع النساء وما في هـذا الاتجاه من إغراء بالفساد ، كما يتهمه بالفسق بل والكذب أيضاً . ولهذا يأبى أن يأذن له بالعودة من منفاه طالما كان له سلطان !

(٤) ويَشخَص كُثَيِّر عزّة ونُصَيْب ذات مرة إلى عمر بن عبد العزيز ، وكلٌّ واحد منهما يُدِلُّ عليه بسابقةٍ وإخاءٍ قديم ولا يشك أنه سَيشركه في خلافته ، وفي الطريق يلقاهما مَسلمةُ بن عبد الملك فيبلغهما أن إمامهما لا يقبل الشعر فيعتريهما الوجوم ، ثم يستضيفهما أربعة أشهر يطلب لهما خلالها الإذن هو وغيرُه وعمر لا يأذن لهما

ويذهب كُثَيِّر إلى المسجد في يوم جمعة ويستمع إلى عمر يخطب الناس ويعظهم وهو وهم يبكون من شدة التأثر فينصرف إلى صاحبه نُصيب ويقول له : خُذْ في شَرْجٍ أي ضَرْبٍ من الشعر غيرِ ما كنا نقول لعمر وآبائه فإن الرجلَ آخِرِيٌّ وليس بِدُنْيَوِيٍّ .

ويفهم كُثَيِّر روح عمر واتجاهه من خطبه ومما يسمع من أهل دمشق عنه

---

(١) الأغاني : ج ٤ ص ٨٧ - ٨٩ . والسرائر : جمع سريرة وهي كل ما أخفاه الانسان وأضمره في نفسه من خير أو شر .

فينظم قصيدة يضمنها بعض معانيه من ذم الدنيا والتحذير من فتنتها والحث على التزود بالعمل الصالح للآخرة .

ثم ينجح مَسْلمة أخيراً في مسعاه لدى الخليفة فيأذن للشاعرين في يوم جمعة بعدما أذن للعامة ، فلما دخلا وسلّما قال كُثيِّر : يا أمير المؤمنين طال الثّواء وقلّتِ الفائدة ، وتحدّثتْ بجفائك إيانا وفودُ العرب .

فقال عمر : يا كُثيِّر : « إنما الصدقاتُ للفقراءِ والمساكينِ والعاملينَ عليها والمؤلّفةِ قلوبُهم وفي الرقابِ والغارمينَ وفي سبيل الله وابنِ السبيـــل» . أفي واحد من هؤلاء أنت ؟ قال ؟ بلى ، ابنُ سبيلٍ مُنقطَعٌ به ، وهو ضاحك .

قال : ألستَ ضيفَ أبي سعيد – يعني مَسلمة – ؟ قال كُثيِّر : بلى . قال: ما أرى ضيف أبي سعيد مُنقطَعاً به . قال : يا أمير المؤمنين أتأذن لي بالإنشاد؟ قال : نعم . ولا تقلْ إلاّ حقاً . فأنشده قصيدة منها :

وَلِيتَ ولم تشتُم عليا ولم تُخِف ... وَلِيًّا ولم تقبـــلْ شهادةَ مجرمِ

وصدّقتَ بالفعل المقالَ مع الذي ... أتيْتَ فأمسى راضياً كلُّ مسلمِ

ولما أتاك المُلْكُ عفواً ولم يكنْ ... لطالب دُنيا بعده من تكلُّمِ

تركتَ الذي يَفنَى وإن كان مُونِقاً ... وآثرتَ ما يَبقَى برأيٍ مُصَمِّمِ

فما بين شرق الأرض والغرب كلِّها ... منادٍ ينادي من فصيح وأعجمِ

يقول : أميرَ المؤمنين ظلمتني ... بأخذٍ لدينار ولا أخذِ دِرهمِ

ولو يستطيع المسلمون لقَسَّمُوا ... لك الشطرَ من أعمارهم غيرَ نُدَّمِ

فأقبل عليه عمر وقال : إنك مسئول عما قلتَ . ثم تقدم نُصَيب فاستأذنه في الإنشاد . فقال : قلْ ولا تقلْ إلاّ حقاً ، فأنشده قصيدة منها :

وما الشعر إلا حِكمةٌ من مُؤلِّفٍ   بمنطقِ حقٍّ أو بمنطقِ باطلِ
رأيناك لم تعدل عن الحق يَمنةً   ولا يَسْرةً فعلَ الظلوم المخاتلِ
ولكنْ أخذت الحق جَهدكَ كُلَّه   وتقفو مثالَ الصالحين الأوائلِ
فقلنا ولم نكذب بما قد بَدَا لنا   ومَن ذا يردُّ الحقَّ من قول قائلِ
ولولا الذي قد عوَّدَتْنا خلائفٌ   غطاريفُ كانوا كالليوثِ البواسلِ
لما وَخدَتْ شهراً برحلي شِمِلَّةٌ   تَقُدُّ مُتونَ البِيد بين الرَّواحلِ
ولكن رجونا منك مثلَ الذي به   حُبينا زماناً من ذويك الأوائلِ
فإن لم يكن للشعر عندك موضعٌ   وإن كان مثلَ الدُّرِّ من نظم قائلِ
وكان مُصيباً صادقاً لا يَعيبه   سوى أنه يُبنَى بناء المنازلِ
فإن لنا قُرْبَى ومَحْضَ مودةٍ   وميراثَ آباءٍ مَشَوْا بالمَناصلِ

قال له عمر : إنك مسئول عما قلت . وأمر لكل منهما بثلثمائة [1] .

فكلا الشاعرين كما رأينا يصل إلى قلب عمر عن طريق وصفه بالعدل وتوخِّي الحق في حُكمه وإيثار الآخرة على الدنيا ، كما يقرر أنه صادق غير كاذب في قوله ، وأنه إذا لم يكن للشعر عنده موضع ، فإن له قربى ومحضَ مودة .

وعمر الذي لا يملك إلاَّ أن يحكم بالظاهر يُحَمِّلُ كلَّ واحد منهما مسئولية

(١) العقد الفريد : ج ٢ ص ٨٦ – ٩١ . الأبيات الأخيرة نسبها ابن عبد ربه في كتابه العقد الفريد للأحوص . وقد سبقت الإشارة إلى أن الأحوص كان منفياً في « دَهْلَك » طوال خلافة عمر . وقد رأينا نسبتها لنُصيب لأنه هو الذى قدم مع كُثيِّر على عمر ، ولأنها تمتُّ إلى روحه واتجاهه وأخلاقه بنسب كبير .

قوله ، ويطلب إليه أن يتحرّي الحق في شعره ، ثم يعطيه تشجيعاً له على السير في الاتجاه الذي يريد أن يرى الشعراء يتجهون إليه .

(٥) ودخل نُصَيْبٌ مرة أخرى على عمر بن عبد العزيز بعدما وَلِيَ الخلافة فقال له : إيه يا أسودُ ، أنت الذي تُشَهّرُ النساء بنسيبك ! فقال : إني قد تركت ذلك يا أمير المؤمنين ، وعاهدتُ الله عزّ وجلّ ألاّ أقول نسيباً ، وشهد له بذلك مَن حضروا وأثنَوْا عليه .

فقال : أمّا إذا كان الأمر كذلك فسَلْ حاجتك . فقال : بُنَيّاتٌ لي نَفَضْتُ عليهن سوادي فكَسَدْنَ ، أرغب بهنّ عن السُّودان ويرغب عنهنّ البِيضان . قال : فتريد ماذا ؟ قال : تفرض لهنّ ففعل . قال : ونفقةً لطريقي . فأعطاه عمر حِلية سيفه وكساه ثوبيه ، وكانا يساويان ثلاثين درهماً [١] .

فعمر يعطيه ما قدر عليه من ماله الخاص لا لشيء إلاّ لأنه قد عاهد الله ألاّ يقول نسيباً يُشَهّر النساء به .

وقد عرف الشعراء نزعته إلى الحق والعدل وردّ الحقوق إلى أصحابها من أيدي مغتصبيها ، ولهذا أشادوا في شعرهم بهذه الخلال التي عرفوها له .

(٦) من ذلك قولُ عتبةَ بن شمّاسٍ فيه :

إنّ أولَى بالحق في كل حقٍّ ... ثم أحرى بأن يكون حقيقا

مَن أبوه عبدُ العزيز بن مروا ... نَ ومَن كان جَدُّه الفاروقا

ردَّ أموالنا علينا وكانتْ ... في ذُرَا شاهقٍ تفوتُ الأَنوقا [٢]

---

(١) الأغاني : ج ١ ص ٢٥١

(٢) العقد الفريد : ج ٥ ص ٢٩١ . والأنوق : الرَّخَمَةُ . وفي المثل : أعزّ من بَيْض الأنوق ، لأنها تحرزه فلا يكاد يُظفَر به ، إذ تتخذ أوكارها في رءوس الجبال والأماكن الصعبة البعيدة .

وقد عاب المبالغة في المدح التي تُبعد الشعر عن الصدق وتُدنيه من الكذب .

(٧) دخل عليه خالد بن عبد الله القَسْرِيّ لما وَليَ الخلافة فقال : مَن تكون الخلافة قد زانته فأنت زِنتها، ومن تكون شرّفته فأنت قد شرّفتَها، وأنت كما قال الشاعر :

وإذا الدُّرُّ زانَ حُسْنَ وُجوهٍ كان للدُّرِّ حُسْنُ وجهك زَيْنَا

فقال عمر بن عبد العزيز : أُعطِيَ صاحبُكم مَقُولا ولم يُعطَ مَعقُولا [١].

وقد عرف الشعراء من تعاملهم معه موقفَه العام من الشعر ، عرفوا أنه يقف من شعر المدح الكاذب وشعر الغزل الإباحي الذي يغري بالفساد الخلقي موقف الرفض التام . وكذلك عرفوا أنه يقف من الشعر الذي ينبع عن عاطفة صادقة ويعبر عن روح الإسلام ومُثُله العليا موقف القبول والتشجيع. فلم يكن أمامهم، والحالة هذه، إلاّ أن يتجاوبوا مع موقفه واتجاهه إما عن اقتناع أو مجاراة حتى يحظَوْا من وقت لآخر بالدخول عليه وإنشاده ونَيْل عطائه .

(٨) ومما يؤكد ذلك ما يُرْوَى أن نُصَيب بنَ رباح استأذن عليه فلم يأذن له ، فقال : اعلموا أمير المؤمنين أني قلت شعراً أوله « الحمد لله » فأعلموه فأذن له فأُدخل عليه وهو يقول :

الحمدُ لله أما بعدُ يا عمرُ.. فقد أتَتْنا بكَ الحاجاتُ والقدَرُ
فأنت رأسُ قريش وابنُ سيِّدِها والرأسُ فيه يكون السمعُ والبصَرُ [٢]

كذلك بدأنا نرى الشعر في عهده يتجه اتجاهاً اجتماعياً على يد جرير ، وذلك

---

(١) العقد الفريد : ج ٢ ص ١٣٤
(٢) العقد الفريد : ج ٥ ص ٢٩٢

بأن يكون اللسانَ المعبِّرَ عن مطالب الفقراء ومَن مَسَّهُ البؤسُ والضرُّ من أهل الحجاز .

(٩) يُروَى أن جريرَ بنَ الخطفَى قدِم عليه نيابةً عن أهل الحجاز فاستأذنه في الشعر ، فقال : ما لي وللشعر يا جرير ؟ إني لفي شُغُلٍ عنه . قال : يا أمير المؤمنين إنها رسالةٌ عن أهل الحجاز . قال : فهاتِها إذَنْ . فقال :

كم مِن ضَريرٍ أميرَ المؤمنين لدى أهل الحجاز دَهاهُ البؤسُ والضَّرَرُ

أصابت السنةُ الشهباءُ ما ملكتْ .. يمينُه فحَناه الجَهدُ والكِبَرُ

ومِن قطيعِ الحَشَا عاشتْ مخبَّأةً ما كانت الشمسُ تلْقاها ولا القمرُ

لمَّا اجتلتْها صروفُ الدهرِ كارهةً قامتْ تُنادي بأعلى الصوت يا عمرُ

وهكذا نرى عمر بن عبد العزيز يحاول أن يعدل بالشعراء عن الغزل الذي يُزيِّن الفسوق والمدح الكاذب الذي يخلع على الممدوحين من الصفات ما ليس فيهم ، كما يحاول أن يتجهَ بهم وبشعرهم إلى الفضائل الخلقية .

ولم يكن موقفه من الشعر والشعراء موقف الناقد بمقدار ما كان موقف الموجِّه ، فقد حاول جاهداً أن يرد الشعر إسلاميَّ الروح إسلاميَّ المُثُل ، وأن يزنه بميزان الرسول والخلفاء الراشدين القائل بأن أحسن الشعر ما وافق الحق وما لم يوافق الحق فلا خير فيه .

لقد رأيناه من أول أمره يفرض هذا الميزان على الشعر في الشام ، كما رأينا الشعراء يتجاوبون مع اتجاهه طمعاً في رضاه ، بل إن منهم مَن بدأ يتجه بشعره اتجاهاً اجتماعياً ، فيكون المعبِّر بشعره عن مصالح من لا يستطيعون أن يصلوا بصوتهم إلى الخليفة لعرض حالهم .

ولكن هذا التحول الذي حققه في اتجاه الشعر ومُثُله لم يطل أمدُه حتى يتأصل ويرسخ ، فلم يكد ينقضي عهده القصير بالخلافة « ٩٩ – ١٠١ » حتى يرتد

الشعر إلى ما كان عليه قبل خلافته ...

*

وفي أواخر العصر الأموي نرى الشام تشارك الحجاز في الغزل الذي تغلب عليه سيماءُ الحضارة ، وذلك على لسان الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

ويحدثنا الأغاني بأنه كان من فتيان بني أمية وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدائهم ، وكان فاسقاً خليعاً متهماً في دينه مرمياً بالزندقة ، وشاع ذلك من أمره وظهر حتى أنكره الناس فقُتِل. وله أشعار كثيرة تدل على خبثه وكفره. ومن الناس مَن ينفي ذلك عنه وينكره ، ويقول : إنه نُحِلَه وأُلصِقَ إليه . والأغلب والأشهر غير ذلك [1] .

والسبب الذي صرفه إلى الغزل واللهو هو السبب الذى أشاع الغزل واللهو بالحجاز ، فقد أبعد الأمويون أهل الحجاز عن السياسة ، وسلّطوا عليهم الغنى والترف حتى لا يشغبوا عليهم فظهر فيهم الغزل .

وكان يزيد بن عبد الملك قد بايع لأخيه هشام وأخذ العهد عليه ألاّ يخلع « الوليد » ابنه بعده ، ولا يغيّر عهده ولا يحتال عليه ، ولكن سرعان ما طمع هشام في خلعه وعَقْدِ العهد بعدَه لابنه مَسلمة بن هشام .

وتحقيقاً لذلك أخذ هشام يعيب الوليد ويُشهّر به ويرميه بالتهتك ،ويطالبه بأن يخلع نفسه فأبى ذلك ، فحرمه هشام العطاء وجفاه جفاء شديداً ، ومن أجل ذلك قامت الجفوة بينهما .

ذكر الأغاني أن الوليد بن يزيد بعث إلى هشام راويته فأنشده أبياتاً يفتخر فيها عليه ، منها :

أنا الوليد أبو العباس قـد علمت　　عُلْيا مَعَدٍّ مدى كَرِّي وإقدامي

---

(١) الأغاني : ج ٦ ص ٢٠٧ — ٢٠٨

فقال هشام : والله ما علمتُ له مَعَدّ كرّاً ولا إقداماً ، إلاّ أنه شرب مرة مع عمه بكّار بن عبد الملك فعربد عليه وعلى جواريه ،فإن كان يعني ذلك بكرّه وإقدامه فعسى [1] .

وهكذا بفعل السياسة دُفع إلى اللهو والغزل فتغنى في الشام بما كان يتغنى به عمر بن أبي ربيعة في الحجاز ، ولكنه كان أغنى من عمر بن أبي ربيعة وأترف ، وكان أميراً وولي عهد ثم خليفة فتغزل غزلاً أرستقراطياً ليس فيه قصص ابن أبي ربيعة مع النساء ، وليس فيه أسلوبُه الحواري ، وليس فيه مطاردةُ النساء والجريُ وراءهن في شتى الأماكن والديار ، وإنما هو غزل مشبوب العاطفة بالحب .

بيد أنه كان مضطرباً في حبه غيرَ سعيد فيه . تزوج « سُعدة » بنت سعيد بن خالد بن عمرو بن عثمان ، وذهب مرة عائداً لسعيد في مرضه فلمح « سلمى » بنت سعيد أخت زوجته فوقعت في قلبه ، فلما مات أبوه طلق « سعدة » وخطب « سلمى » إلى أبيها ، وكانت لها أخت تحت هشام فبعث هشام إلى سعيد : أتريد أن تستفحل الوليد لبناتك يُطَلّق هذه ويَنكِح هذه ؟

فلم يزوجه سعيد ورده أقبح رد ، ولكن الوليد ظل يهوى « سلمى » ويروم السلو عنها فلا يستطيع . ويقال إنه لما طلق « سعدة » ندم على ذلك وكان لها من قلبه محل ، ثم أخذ يراسلها ، وكانت قد تزوجت بعده ، فلم ينتفع بذلك .

ولما وليَ الخلافة زوجه سعيد « سلمى » فلم تمكث عنده غير أربعين يوماً ثم ماتت . وله فيها غزل كثير منه :

أَسَلْمَى تلكَ ؟ حُيِّيتِ ... قِفِي نُخبرْك إن شِيتِ
وقيلي ساعــــة نشكُ ... إليك الحبَّ أو بيتي

---

(١) الأغاني ج ٦ ص ٢١٦

فما صهبــاءُ لم تُكْسَ قذًى من خمر بيروتِ
ثَوَتْ في الدَّنِّ أعواماً ختيماً عنـــد حانوت[1]

وقد فتح الوليد بن يزيد باباً جديداً في الشعر لم يُفتح في عصر الإسلام قبله ، وهو الإغراق في وصف الخمر والتغني بهـا . وهذا الباب لم يتطرق إليه شعراء الحجاز كثيراً .

وللوليد في ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة أخذها الشعراء فأدخلوهـــا في أشعارهم ، وقد سلخ أبو نواس خاصة كل معاني الوليد في الخمر وجعلها في شعره وكررها في عدة مواضع منه .

ومن قصائده البديعة النادرة في وصف الخمر والتي نقلها أبو نواس والحسين بن الضحاك في شعرهما قوله .

اِصدعْ نَجِيَّ الهمومِ بالطرَبِ وانْعَمْ من الدهر بابنـة العِنَبِ
واستقبلْ العيشَ في غضارته لا تقفُ منـــه آثارَ مُعْتَقِبِ
من قهوةٍ زانها تقادُمُـهـــا فهي عجوزٌ تعلو على الحِقَبِ
أشْهَى إلى الشَّرْبِ يوم جَلْوَتِهـا من الفتاةِ الكريمـــةِ النَّسَبِ
فقد تجلَّتْ ورقَّ جوهرُهـا حتى تبدَّتْ في منظرٍ عجَبِ
فَهْيَ بغير المزاج من شَرَرٍ وهي لدى المَزْج سائلُ الذهبِ
كأنها في زجاجهـــا قبَسٌ تذكو ضياءً في عين مُرتقِبِ

(١) الأغاني : ج ٦ ص ٢٤٧

في فتيــــةٍ من بني أمية أهـ ـلِ المجد والمأثُـراتِ والحسبِ
ما في الورَى مثلُهم ولا فيهمُ مثلي ولا مُنْتَمٍ لمثـــلِ أبي[1]

ومما يلاحظ هنا أنه لم يتكوّن حول غزل الوليد وخمرياته نقدٌ كالذي تكوّن حول شعراء الحجاز من أمثال عمر بن أبي ربيعة وجميل بن مَعمر ومدرستيهما في الغزل ، ولم يَرْوِ لنا الرواةُ نقداً للغزل في الشام يُعتَدُّ به ، كما رَوَوْا لنا من نقد المديح فيه .

وكما يقول الأستاذ أحمد أمين : لقـــد نُقِد الوليدُ كثيراً من ناحية دينه ، ولكنه لم يُنقَد كثيراً من ناحية أدبه[2] .

*

وبعد فقد أطلنا القول عن حركة النقد الأدبي في بيئة الشام أيام بني أمية ؛ وهي إطالة لم يكن بُدٌّ منها ، لتنوع اتجاهات النقد وصوره من ناحية ، وكثرة مَن أسهموا فيه من ناحية أخرى .

لم تكن بيئةُ الشام في العصر الأموي تربةً خصيبة ينمو فيها الشعر ويُزهِر كما كان الشأن في بيئة الحجاز أو العراق مثلاً . وأكثرُ ما ظهر فيها من شعر كان طارئاً أو وافداً عليها من الخارج ، وأغلبُه يتمثل في شعر المدح الذي كان يَفِدُ به الشعراء على الخلفاء والأمراء بباعث الرغبة في العطاء .

ولعل الشعرَ الوحيدَ النابعَ من صميم بيئة الشام هو شعرُ الغزل والخمر الذي أُثِر عن بعض أمراء الأمويين وخلفـــائهم ممن انغمسوا في حياة الغناء واللهو والشراب والغزل ، ولا سيما الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

---

(١) الأغاني : ج ٦ ص ٢٢٤
(٢) النقد الأدبي : ج ٢ ص ٤٦٨

وإذا كان الطابعُ الغالب على أدب الحجاز هو الغزلَ والنقدُ يتبعه ، وكان الطابعُ الغالب على أدب العراق هو الفخرَ والهجاءُ والنقدُ يتبعه ، فإن الطابع الذي غلب على أدب الشام هو المدحُ ، لأنه الأدب الذي يَليق بالملوك .

ومن أجل هذا غلب شعرُ المدح على أدب الشام ، وهذا بدوره أدّى إلى تَوَجُّه معظمِ النقدِ إليه . وقد أمسك الخلفاءُ بميزانه يوجهونه ، وكان خيرُ الشعر عندهم أشدَّه مبالغةً وتفنُّناً في مدحهم ، وأكثرَه تملُّقاً لكبريائهم .

وأكثرُ النقد الذي عرفته بيئة الشام قد صدر عن الخلفاء والشعراء وأهل الأدب ومحبيه . والمتأملُ في هذا النقد على اختلاف صوره يرى أنه نقدٌ فطريٌ يرجع في طبيعته إلى الذوق العربي الخالص ، وأنه بعيدٌ عن النقد العلمي الذي أخذت بَوادِرُه تظهر في بيئة العراق على أيدي علماء النحو الأوائل .

وقد عرفنا مما سبق كيف أن خلفاء الأمويين وأمراءهم كانوا ، وعلى درجاتٍ متفاوتة ، يشتركون في محبة الشعر وتشجيعه وسماعه ، كما كانوا يشتركون في التمثُّل به وتذوقه ونقده .

وهؤلاء كانت لهم مجالسُ أشبهُ بمنتدياتٍ أدبيةٍ عامةٍ يَؤُمُّها الشعراءُ وغيرُ الشعراء ، مجالسُ مفتحةُ الأبواب تدور الأحاديث فيها طليقةً حول الشعر إنشاداً وروايةً ونقداً . وقد شجّع على ذلك أن الدولة الأموية كانت لا تزال عربيةً في جميع مظاهرها ، وكانت تقاليدُ الحكم لا تزال تجري على ما ألِفَه العربُ ، فلا حجّابَ ولا موانعَ تَحُول بين الناس وخلفائهم .

وما من شك في أن هذه المجالسَ الأدبيةَ كانت من أكبر العوامل التي أدّت إلى نموّ حركة النقد الأدبي وازدهارِها في بيئة الشام .

ومن بين جميع خلفاء الأمويين نرى ثلاثةً قد شَغَلوا أنفسَهم أكثرَ من غيرهم بالشعر ونقدِه وتوجيهه . وهؤلاء هم عبدُ الملك بنُ مروان وهشامُ بنُ عبدِ الملك وعمرُ بنُ عبدِ العزيز .

أمّا عبدُ الملك بنُ مروان فيُعَدُّ الناقدَ الأولَ في بيئة الشام ، ولا عجب في ذلك ، فهو من ناحيةٍ كان يحب الشعر ويتذوقه ويتمثّل به ويَنقده ، ومن ناحية أخرى كان حجازيّ النشأة كوّنَ الحجازُ شخصيتَه الأدبيـــة العلمية وأرهف حِسَّه الفنيّ ونَمّى ذوقَه الأدبيّ .

وقد كان لمجلسه الأدبيّ أثرٌ كبيرٌ في نهضة النقـــد وتوسيع مجالاته وتفتيح جوانبه . ومن ضروب نشاطه في مجلسه هذا أنه كان يسأل عن أشعر الناس في الجاهلية والإسلام ، ويسأل بعضَ الشعراء عن سِرّ عُزوفه عن الشعر عامة أو عن شعر الهجاء خاصة ، ويطرح الأسئلة على جلسائه ، أو يطلب إليهم أن يُنشِدوه في موضوعٍ أو معنىً مُعيَّن ، وكأنه بذلك كان يريد أن يَقيس مدى علمِهم بالشعر إلى علمِه ، ومدى ذوقِهم الأدبي إلى ذوقِه .

وإلى جانب ذلك نراه أسهم في نقد الشعر ، ويمكن حصرُ صور النقـد التي صدرت عنه فيما يلي :

(١) المفاضلات بين الشعراء :

فاضل عبد الملك بين شعراء الإسلام وفضّل عليهم الأخطلَ وخلع عليـه ألقاباً مختلفة مثلَ « شاعرِ أمير المؤمنين » أو « شاعرِ العرب » أو « شاعرِ بني أمية » . ولم يكن أساسُ هذه المفاضلةِ موضوعياً بمقدار ما كان ذاتياً ، فقـــد فضّله لما خصّه وخصّ قومَه به مِن مَدح يُلبّي عنده نزعةَ الغرور والاستعلاء والامتلاء بالذات .

وللسبب ذاتـــه ، وهو الإغراق في مدحه ، كان يفضّل كُثيّرَ عزّةَ أيضاً . وعنـــدما قال له كُثيّر : كيف ترى شعري يا أمير المؤمنين : قال : أراه يسبق السحر ويغلب الشعر . وممـــا يدل كذلك على تفضيله لكثيّر أنـه كان يُخرِج شعرَه إلى مُؤدّب ولده مختومـــاً يُروّيهم إياه

وَيَردُّه [1] . ولكنَّ إعجابه بكُثَيِّرٍ لم يكن يمنعه أنْ يَنقدَه فيما لم يَرُقْ له من شعره .

(٢) المفاضلات بين المعاني :

كذلك كان عبدُ الملك ينظر في المعاني الجزئية لدى الشعراء ويفاضل بينها . وله في ذلك لفَتاتٌ ذهنية تدل على ذوق أدبيٍّ مرهَف ، كما أنَّ له في ذلك أيضاً أحكاماً تَبِين عن مقدرته في الموازنة بين المعاني والتمييز بين ما أوفى منها على الغاية وما قصَّر دونها .

(٣) مآخذه على الشعراء :

ومن أخباره الأدبية ما هو أدخلُ في صميم النقد وأدَلُّ على ذوقه وملكته النقدية التي أعانته على ملاحظة بعض عيوب الشعراء الفنية .

من ذلك نقدُه لتشبيهاتهم في المدح ، فقد أخذ عليهم عدمَ التجديد فيها ، والاكتفاءَ بالتشبيهات التقليدية التي لا يَظهر فيها قصدٌ أو براعةٌ أو جهدٌ فنيٌّ . وذلك كقوله لابن قيس الرقيات : تمدحني بالتاج كأني من العجم وتمدح مُصعَباً بأنه شهاب من الله !

وأخذ عليهم كذلك قلةَ الذوق وعدمَ مطابقة الكلام لمقتضى الحال، وعدمَ البراعة في الاستهلال .

وعاب عليهم نُبُوَّ ذوقهم الشعريِّ والتناقضَ المعنوي حيث يريد الشاعر المدح مثلاً فيخرج إلى الهجاء دون أن يشعر . كذلك عاب عليهم الكذب في الشعر ، وفي هذا دلالة على أنه كان يرى أن الصدق من عناصر الشعر الجيد ، ومما يحسب لصاحبه في ميزان النقد .

---

(١) الأغاني : ج ٨ ص ٧٠

والتفتَ في نقده إلى موسيقى الشعر ، فعاب ما يظهر في بعض قوافي الشعراء من رخاوة وليونة وخنوثة تنزل بقيمة الشعر الصوتية وموسيقاه ، كنقده لبعض قوافي ابن قيس الرقيات .

ومن صور نقده كذلك أنه كان يتدخل أحياناً في الشعر بنقده عملياً ، أي أي بتعديل ما لا يستحسن معناه ، كنقده لبعض شعر نُصَيْب ، وذلك يعني أنه لم يكن يتذوق الشعر فحسب ، وإنما كان يقوله أيضاً .

وأخيراً كان النقاد يتمتعون في مجلسه بحرية تامة ، وليس أدلُّ على ذلك من أن الشعراء كانوا ينقدون بعضَهم بعضاً بحضرته نقداً صريحاً جريئاً ، وربما كان يسمع أحياناً ما يتراشقون به أمامه من عبارات نابية قاسية دون أن يُبدي استياءً أو يعلّقَ أيَّ تعليق. وما ذاك إلاّ لأنه وهو الأديبُ الناقد كان يقدّر حريةَ الرأي وحريةَ النقد .

*

وقـــد سار **هشام بن عبد الملك** سيرة والده ونهج نهجه في حفاوته بالأدب وحبه للشعر ، وتمثله به ، ورعايته للشعراء . وكان مجلسه كمجلس أبيه يَؤُمُّه الشعراءُ والأدباءُ فيتناشدون ويتناقدون ، وكثيراً ما كان يشترك مع رُوّاد مجلسه في أحاديث الشعر والشعراء ونقدهم .

ومن صور نقده أنه كان يذكر نصف بيت من الشعر مثلاً ثم يطلب من بعض الشعراء أن يُتِمُّوه كما يريد ثم يفاضل بينهم . كذلك كان يفاضل بين الشعراء من جاهليين وإسلاميين .

وكوالده كان يأخذ على بعض الشعراء نُبُوَّ الذوق وعدمَ تخيُّرِ المعـاني المناسبة للمقام ، كما كان يُقدّرُ شعر المدح ويفضله ويعطي عليه .

وقد التفت في تقديره للشعر ونقده إلى عنصر الصدق كواحد من الأسس التي تُبنَى عليها الأحكام الأدبية ، ولهذا كان يعيب على الشعراء ما يقعون فيه من

تناقض بين أقوالهم وأفعالهم ، وذلك كموقفه مع الشاعر عروة بن أذينة .

*

أما عمرُ بن عبد العزيز الذي كان يريد بسياسته وسلوكه الشخصي أن يَرُدَّ الحُكْمَ الإسلاميَّ إلى ما كان عليه في عهد جَدِّه عمرَ بنِ الخطاب ، فكان ناقداً ومُوَجِّهاً معاً .

جاء إلى الخلافة وقد هاله أن يرى الشعرَ مُتردِّياً ، أفسد الخلفاءُ روحَه وقِيمَه ، وجعلوا شعرَ المدح أساسَ المفاضلة بين الشعراء . فأفضلُ الشعراء عندهم أكثرُهم تَفَنُّناً ومبالغةً في مدحهم وإرضاءِ شهوتهم العارمة للثناء .

ولهذا نراه منذُ استُخْلِف يقف من الشعر والشعراء موقفاً مخالفاً لجميع مَن سبقوه الى الخلافة الأموية . فقد حاول في عهد خلافته القصير أن يُصحِّحَ الأوضاعَ الخاطئة ، وأن يَفرض الحقَّ والعدلَ بين الناس ، وأن يضعَ نهايةً لكل ما ابتدعه أسلافُه من قِيَمٍ غيرِ إسلامية في كل شيء ، ومن ذلك الشعر .

فشعرُ المدح الذى كان يُشجِّع عليه أسلافُه ، ويجعلونه أساساً للمفاضلة بين الشعراء ، كان هو يرى فيه صورةً كريهة للكذب والنفاق ، وتَضْرِيَةً للشعراء على الفساد الخلقىِّ ، كما يرى حُرْمةَ الإعطاء عليه من مال المسلمين .

وجرياً على عادة الشعراء مع الخلفاء نراهم يَقصِدونه بمدائحهم عندما استُخلِف ، ولكنه لا يستقبلهم ولا يستمع لإنشادهم ، بل نراه يُجافيهم ويُوصِدُ بابَه دونهم ، ويظلون وقوفاً ببابه حتى يتشفعَ لهم بطلب من جرير فقيهٌ عابد هو عَوْنُ بنُ عُتبةَ بنِ مسعود ، فيأذنَ لهم عمرُ أخيراً بعد أن يَنقُدَ شعرهم نقداً يُوضّح ما يشيع فيه من قِيَمٍ غيرِ أخلاقية ، كما يكشف عن الاتجاه الجديد الذى يريد أن يُوَجِّههم إليه .

ويكون جريرُ بنُ الخطفَى أولَ الداخلين عليه ، فيقول له عمر بعد أن يستمع إلى إنشاده : « اتقِ الله يا جريرُ ولا تقل إلاَّ حقاً » . ثم يَخرج جريرٌ من عنده

فيسأله الشعراء : ما وراءك ؟ فيقول : ما يَسوءُكم ! خرجت من عند أمير يعطي الفقراء ويمنع الشعراء ، وإني عنه لراضٍ .

فالهدفُ من وراء موقفه الجديد هو إصلاحُ نفوسِ الشعراء وتبديلُ نظراتهم إلى القيَم ، بصَرْفِهم عن القِيَم المادية الى القِيَم الروحية ، وذلك كموقفه مع نُصَيب عندما رفض الإذنَ له ، فقال نُصَيب : أعلموا أمير المؤمنين أني قلت شعراً أوّلُه « الحمدُ لله » ، فأعلَموه ، فأذِنَ له فدخل عليه وأنشده.

وقد استشفَّ كُثيّر هذا الهدف من خلال عِظاتِ عمرَ للناس في المسجد فدعا الشعراء إلى أن يأخذوا في ضرب من الشعر غيرِ ما كانوا يقولون له ولآبائه ، لأن الرجل آخِرِيٌّ وليس بدنيوي .

وهكذا عرَف الشعراء مِن تعاملهم معه موقفَه العامَّ من الشعر واتجاهَه فيه ، عرفوا أنه يرفُض المدحَ الكاذب والغزلَ الإباحيَّ ، وأنه يقبل من الشعر ما ينبع من عاطفة صادقة ويعبّر عن روح الإسلام ومُثُلِه العليا . ولهذا لم يكن أمامَهم إلاّ أن يتجاوبوا مع الاتجاه العام إما عن اقتناعٍ أو مجاراةٍ طمعاً في العطاء .

وعلى أساس هذا التجاوب كان يستمع إلى شعرهم ويعطيهم من ماله الخاص ، ولكنه لا ينسى أنْ يشدّدَ عليهم في قول الحق وأن يذكّرهم بأنهم مسئولون عن قولهم .

وفي عهده بدأ الشعر يتجه اتجاهاً اجتماعياً ، بمعنى أن يكونَ المعبّرَ عن مصالح مَن لا يستطيعون أن يصلوا بأصواتهم إلى الخليفة ، وذلك كقصيدة جرير التي عرَضَ فيها حالَ مَن مسَّهم البؤسُ والضُّرُّ من أهل الحجاز .

والخلاصة أن موقف عمر بن عبد العزيز من الشعر لم يكن موقفَ الناقدِ فحسبُ ، وإنما كان أيضاً موقفَ الموجِّهِ الذي يحاول أن يردّه إسلاميَّ الروح إسلاميَّ المثُل ، وأن يردّه كذلك إلى ميزان الرسول والخلفاء الراشدين القائلِ

بأن أحسن الشعر ما وافق الحق وما لم يوافق الحق فلا خير فيه .

ولكن هذا التحول الذي أحدثـه في اتجاهات الشعر وقِيَمه ومُثُلِه لم يَدُمْ طويلاً إذ لم يكد ينقضي عهدُ عمرَ في الخلافة حتى ارتدَّ الشعرُ إلى مـا كان عليه من قبلُ .

*

وفي العصر الأمويّ شارك الشامُ الحجازَ في الغزل الحضريّ على لسان الخليفة الوليدِ بنِ يزيدَ بنِ عبد الملك الذي دفعتْه السياسةُ دفعاً الى اللهو والشراب والغزل . فقـد تغنى في الشام بما كان يتغنى به عمرُ بن أبي ربيعة في الحجاز . ولكنّ غزله كان أرستقراطياً يختلف في خصائصه الفنية عن خصائص غزلِ ابنِ أبي ربيعة . وقد كان يستدعي المغنين من أمثالِ معبدٍ وابنِ عائشةَ وعمرَ الوادي ليغنوه بشعره [1] .

كذلك فتح أمام الشعر بابَ « الخمريات » ، فله في وصف الخمر والتغني بهـا أشعارٌ جيادٌ كثيرة ، وكان في هذا الفنّ الشعريّ إمامَ أبي نواس والحسين بن الضحّاك وغيرهما من شعراء العباسيين .

ولكنه في شعره سواءٌ ما كان منه في الغزل أو وصفِ الخمر لم يُرزَق نقّاداً يهتمون به ، وإن كان هنـاك مَن نقدوه على خلاعته وتهتُّكِه وانحرافِه عن جادّةِ الدّين ...

---

(١) الأغاني : ج ٦ ص ٢٣٥

النقد في العصر العباسيّ

- النقد في القرن الثاني
- النقد في القرن الثالث



الفصل الثامن

النقد في القرن الثاني

مقدمة :

بدأ النقدُ العربيُّ منذُ بدأ في العصر الجاهلي نقداً تأثريّاً مبنيّاً على الذوق الفطري لا الفكر التحليليّ . إذا استساغ الناقدُ بذوقه الفطريّ قصيدةً أو جزءاً من قصيدة أو بيتاً أو حتى نصفَ بيتٍ فما أسرع ما يتأثر ويندفعُ إلى التعميم في الحُكْم ، وإذا الشاعرُ في نظر الناقد المتذوق أشعرُ الناس أو أشعرُ العرب !

ولم يقف النقدُ التأثريُّ الفطريُّ المبنيُّ على الذوق السليم والعُرْفِ العربيِّ العام عند حدودِ العصر الجاهلي ، ولكنه تجاوزه الى ما بعده من العصور ، وإنْ كنّا نراه قُبيل نهايةِ العصر الأموي وفي أوائل القرن الثاني الهجري يتجه بعضَ الاتجاه إلى الناحية العلمية على أيدي اللغويين والنحاة .

وكما رأينا فيما سبق تحرّكَ النقدُ الجاهلي في ميدانين : ميدانِ الحُكْم على الشعر وميدانِ المفاضلة بين الشعراء ، وفي كلا الميدانين كانت الأحكامُ التي تصدُر عن النقاد أحكاماً غيرَ معلّلة قِوامُها التأثرُ والذوقُ الفطريُّ .

ومنذُ عصر الخلفاء الراشدين تطوّر هذا الاتجاهُ نوعاً ما بظهور بعض الأحكام المعللة ، كما رأينا في حكم عمرَ بن الخطاب على شعر زهير ، وبعض أحكام ابن أبي عتيق على شعر عمر بن أبي ربيعة وبعض معاصريه ، وكذلك في بعض أحكام مَن فضّلوا جريراً على الفرزدق والأخطل ، أو مَن فضلوا الأخطل أو الفرزدق على قريعيه .

وفي المفاضلات بين الشعراء رأيناها تبدأ عند الجاهليين على صورة مفاضلاتٍ عامةٍ تَصدُر الأحكامُ فيها غيرَ معلّلة أيضاً ، ولكنّ النقادَ في العصر الأموي أخذوا يلتفتون إلى المفاضلات الجزئية ، كالمفاضلة بين شاعرين في أحد معاني المدح ، أو بين بيتين في موضوع واحد ، أو في فنٍّ أو أكثرَ من فنون الشعر . ومن هذه المفاضلات الجزئية ما جاءت الأحكامُ فيها غيرَ معلّلة ، ومنها ما جاءت فيها معلّلة .

وقد فطن النقاد في العصر الأموي إلى بعض أمور وقع فيها الشعراء وعَدّوها من عيوب الشعر . من ذلك الخطأُ اللغويُّ والنحويُّ والعروضيُّ ، وغموضُ المعنى ، والسرقاتُ الشعريةُ التي بلغت عند بعض الشعراء حدّ الاغتصاب ، كما هو الشأنُ بالنسبة إلى سرقات الفرزدق .

ومن هذه العيوب عدمُ المشاكلة ، أي عدمُ الجمع بين الشيء وما يلائمه من نوعه أو من أي وجه من الوجوه ، ومنها تباين أسلوب الشاعر بين جزالة البدو ورِقّة الحَضَر في المعنى الواحد ، وتقليدُ بعض الشعراء بعضاً في خصائصهم الأسلوبية ، كتقليد جميل لابن أبي ربيعة في حواره القصصيّ .

ومنها كذلك الشعر الوسط ، وهو الذي لا يقدر إنسانٌ أن يقول لصاحبه أصبتَ ولا أخطأتَ ، لأنه إذ يصف الشيءَ لا يَجيء به ولا يقع بعيداً عنه ، بل قريباً منه . ومن ذلك شعرُ الكميت الذي عرضه على ذي الرُّمّة .

ومن حيثُ مقاييسُ الشعرِ نراها قد تطوّرتْ من عصر لآخر ، كما نراها

قد تفاوتت تبعاً لتفاوت النقاد في أذواقهم وثقافتهم وتصورهم لمفهوم الشعر .

فالجاهليون والمخضرمون منهم قاسُوا الشعرَ بمقياس الصدق ، ولعل حسانَ ابنَ ثابت خيرُ مَن عبّر عن ذلك بقوله :

وإنَّ أشعرَ بيتٍ أنتَ قائلُــــه بيتٌ يُقال إذا أنشدتَه : صَدَقَــا

ولهذا عاب الجاهليون الغُلُوّ في المبالغة ، وعدُّوا مهلهلَ بنَ ربيعة أول مَن كذب في شعره ، وذلك لكثرة الغلو والمبالغة فيه . ومما يؤكد ذلك مــــا يُروَى من أن زهيراً لمَّا مدح هَرِمَ بنَ سِنان بقوله :

ولَأنتَ أشجعُ من أسامةَ إذْ دُعِيَتْ نَزالِ ولُجَّ في الذُّعْرِ

قال له بعضهم : أنتَ لا تكذب في شعرك ، فكيف جعلتَه أشجع من الأسد؟ فقال زهير : إني رأيتـه قد فتح مدينة وحدَه ، وما رأيتُ أسداً فتحها قطُّ ! [1]

وفي عصر الرسول والخلفاء الراشدين كان يقاس الشعر بمدى موافقته للحق ، فالحسَنُ من الشعر ما وافق الحق ، وما لم يوافق الحق منه فلا خير فيه [2] .

وفي العصر الأموى نرى ناقداً كابن عتيق يقيس شعر عمر بن أبي ربيعة على أساس قِيَمه الجمالية لا الأخلاقية ، فمع إقراره بأنه ما عُصِيَ اللهُ بشعر أكثرَ من شعر ابن أبي ربيعة ، فإنه لا ينفي عنه صفةَ الجمال الفنيّ ، وإنما هو يَقيسه بها ويفضّله من أجلها ، لأنه في نظره الشعرُ الذى يمثّل ذوقَ مجتمَعِه المترَف وأهواءه .

ومن نقــاد هذا العصر من يَقيس الشعر بمقدار ما فيه من قوة العاطفـــة وصدقِها ، أو بإصابـــة التشبيه ، أو بسيرورة الشعر ، أو بتنوع القول في الأغراض المختلفة .

---

(١) كتاب العمدة : ج ١ ص ٨١ (٢) نفس المرجع : ١ص ٨١

وبجانب مقاييس الشعراء والأدباء والرُّواة كانت هنـاك مقاييس اللغويين والنحويين في أخريات العصر الأموي وأوائل القرن الثاني . فهؤلاء أخــذوا ينقدون الشعر نقداً موضوعياً ، نقداً يخلو من روح التعصب والهوى ، ويُراد به العلمُ والتوجيهُ وخدمةُ الشعر من جميع نواحيه .

ولهذا أرْسَوا مقاييسهم في نقد الشعر والمفاضلة بين الشعراء على أسس علمية مما أحاطوا به من دقائق اللغة وأصول النحو وأعاريض الشعر ، وما يجوز فيها وما لا يجوز .

وممارسةُ النقد على هذه الأسس العلمية أدَّت إلى الخصومة بين بعض الشعراء وأولئك العلماء ، فالشعراء ، وهم المطبوعون الذين ينطقون باللغة عن سليقـة ، لم يكونوا ليستسيغوا أن يتقبَّلوا النقد والتوجيه ممن اكتسبوا اللغة اكتساباً .

*

وهكذا أقبل القرن الثـاني الهجريُّ الذى قامت فيه الدولةُ العباسية على أنقاضِ الدولةِ الأموية ، وقد تطور النقد العربي واتسعت مجالاته ، وتنوعت صوره واتجاهاته ، وتعددت مقاييسه .

وكل هذه الثروة التي جمعها النقد العربي خلال مسيرته من العصر الجاهلي حتى القرن الثاني قد تلقاها نقادُ هذا القرنِ وبَنَوْا عليها ، بالإضافة إلى ما اهتدَوْا إليه بأنفسهم ، مناهجَهم النقدية .

والرغبةُ في اللغة وأدبها التي عُرِف بها خلفاء الأمويين قــد ظلت متصلة بالدولة العباسية ، ولا سيما في عصرها الأول ، عصر الإسلام الذهبيّ من حيث السياسةُ والدولةُ ، أو عصرِ الرشيد والمأمون والبرامكة .

في هذا العصر الذهبي الذي أخذت فيه الحضارة العربيــة تنزع إلى الترف وتستكمل كل مقوماتها ، نشأت أكثرُ العلوم الإسلامية والعربية وبدأ تدوينهـا، ونُقِل إلى العربية ما نقل من علوم اليونان والفرس والهند .

وفي هذا العصر أيضاً أخذ الشعر والأدب يتحولان إلى فنٍّ وصناعة بعد أن كانا يصدران عن طبع وسليقة ، وفيـــه ظهر من الموالي الكثيرُ من الشعراء والكتاب والأدباء والعلمـــاء الذين عُدُّوا عرباً بالمَرْبَى ، لنشأتهم بالبصرة والكوفة اللتين نزلتهما في صدر الإسلام بعض القبائل العربية التي ينتمون إليها بالولاء .

ونتيجةً لكل هذه التحوُّلات التي بدأتْ تأخذ طريقَها إلىالحياة العربية في القرن الثـــاني ابتداء من العصر العباسي الأول ، كان طبيعياً أن يتأثر الذوق الفطريُّ بالعناصر الثقافية الأجنبية ، وأن يتحوَّل إلى ذوق مثقف ثقافـــة علمية ، وأن يتأثرَ النقدُ العربيّ تبعاً لذلك بهذه الثروةِ العلمية والأدبية الجديدة ويفيدَ منها .

ولقد كان من ضروب النشاط التي قام بها العلماءُ ورُواة الأشعار خاصةً في القرن الثاني أن جمعوا ودَوَّنوا الكثيرَ من اللغة وأشعار الجاهليين والإسلاميين وأقوال النقـــاد السابقين ، كما جمعوا ودَوَّنوا ما نُقِل الى العربية من أقوال اليونان والفرس والهند في البلاغة وكل ما يتصل بها .

ومن أسبق العلماء الرُّواة إلى جمع هـــذا التراث اللغوي والأدبي والنقدي قتادةُ بنُ دِعَامة « ١١٧هـ » ، وأبو عمرو بن العلاء « ١٥٤ هـ » ، وأبو عبيدة معمرُ بنُ المثنَّى « ٢٠٩ هـ » ، وعبدُ الملك بن قُرَيب الأصمعيّ « ٢١٤ هـ » ، وأبو زيد الأنصاري « ٢١٥ هـ » .

ومن أوائل اللغويين والنحاة الذين أسهموا في النقد يحيىبنُ يَعمرَ البصريُّ ، وعنبسةُ الفيل ، وعبدُ الله بن إسحاق الحضرميّ .

ومن أبرز الرُّواة الذين غلبت عليهم روايةُ الشعر على سواه من علوم العربية حمادٌ الراوية « ١٥٦ » والمفضَّلُ الضبيّ « ١٧١هـ» وخلفٌ الأحمر « ١٨٠ هـ » ، وأبو عمرو الشيبانيُّ « ٢٠٦ هـ » .

وقد عاصر حمادُ الراوية الدولتين الأموية والعباسية ، وهو أول من اشتغل بجمع الشعر بعدَ الإسلام ممن بلغ إلينا خبرُه . فهو الذي جمع المعلقات ، وجمع أشعار أكثر القبائل وأكثر شعراء بني أمية ، وجعل شعرَ كلّ قبيلةٍ أو شاعرٍ في كتاب .

وقد اشتهر هو وخلفُ الأحمر بانتحال الشعر ، وكان الخليفة المهدي يستدعيه ويستنشده كما يستنشد المفضل الضبي ، ولكنه كان يؤثر المفضل عليه لأنه أصدقُ فيما يَرويه .

وكان من شأن التراث الأدبي الضخم الذى جمعه أولئك العلماءُ والرواة والأدباء أن أفسح لهم مجالَ النقدِ الأدبيّ ، وأن مكّن لهم من رُقيّ الذوق ، وأن مهّد السبيلَ أمامهم لتطوير النقد العربي القديم من نقد غير معلّل إلى نقد معلّل .

والمتتبع لحركة النقد الأدبي في القرن الثاني يرى أنها كانت قائمة على نشاط اللغويين والنحويين ورُواةِ الأشعار ، وأن هؤلاء في نشاطهم قد ساروا بها في اتجاهين : أحدُهما امتدادٌ للنقد الجاهليّ والإسلاميّ مع شيء من التطوير اقتضاه التحوّلُ الذى طرأ على البيئة الجديدة في العصر العباسيّ الأول .

فهؤلاء العلماءُ والرّواةُ كانوا يَجمعون أشعارَ الجاهليين والإسلاميين ويوفّقون بين رِواياتها المختلفة وينقّحونها ويضبطونها ويُبدون فيها رأيهم . وقد مرّ بنا الكثيرُ من هذه الآراءِ عند كلامنا على حركة النقد العربيّ في بيئة العراق .

فحمّاد الراوية مثلاً كان من ناحيةٍ يفضّل الأخطلَ على قريعيه : جرير والفرزدق ، ومن ناحيةٍ أخرى كان يفضّل كلاً من جرير والفرزدق على الآخر في بعض شعره [1] . وأبو اليقظان يقول : « إن جريراً أشعرُ عند العامة والفرزدق أشعرُ عند العلماء [2] » .

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٣٥٠

(٢) نفس المرجع : ٧ ص ١٣٠

وأبو عبيدةَ معمرُ بنُ المثنّى يَروِي حُججَ مَن فضّل جريراً فيقول : « يحتج مَن قدّمَ جريراً بأنه كان أكثرَهم فنونَ شعرٍ ، وأسهلَهم ألفاظاً ، وأقلَّهم تكلُّفاً ، وأرقَّهم نسيباً ، وكان دَيِّناً عفيفاً » [١] .

وأبو عمرو بنُ العلاء يَرْوِي عنه الأصمعي بأنه كان يُشبِّه الأخطل بالنابغة لصحة شعره [٢] ، كذلك يذكر ابنُ قتيبة عنه أنه كان يفضل الفرزدق وينتصر له ويشبهه بزهير بن أبي سُلمى [٣] .

وحدّثَ أبو عبيدة عن أبي عمرو أنه قال : « خُتِم الشعر بذي الرُّمّة ، وخُتِم الرَّجزُ برُؤْبَةَ » . ولما قيل له : « فما تقول في هؤلاء الذين يقولون ؟ قال : كَلٌّ على غيرهم . إن قالوا حسناً فقد سُبِقُوا إليه ، وإن قالوا قبيحاً فمِن عندِهم » [٤] .

ورَوَى عمرُ بنُ شَبّةَ عمّن أخبره عن أبي عمرو أنه قال عن ذي الرُّمّة أيضاً : « إنما شعرُه نُقطُ عروسٍ تَضْمَحِلُّ عما قليل ، وأبعارُ ظباء لها شَمٌّ في أولِ شَمِها ، ثم تعود إلى أرْواح الأبعار » [٥] . أي له حلاوة وجمال ولكن لا يبقيان .

وأبدى أبو عبيدة رأيه كذلك في ذي الرُّمّة فقال : « ذو الرُّمّة يُخبِر فيُحسِن الخبرَ ، ثم يَرُدّ على نفسه الحُجّةَ من صاحبه فيُحسِنُ الرّدّ ، ثم يعتذر فيُحسن التخلُّصَ ، مع حُسْنِ إنصافٍ وعَفاف في الحُكم » [٦] .

وعَنْبَسَةُ الفيل البَصريُّ رَوَى أشعارَ جرير والفرزدق ، وكان يفضّل

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٩٦ (٢) المرجع نفسه : ج ٧ ص ٢٤٩

(٣) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٤٧٦ (٤) الأغاني : ج ١٦ ص ٢٢٢

(٥) الأغاني : ج ١٦ ص ٢٢٧ . ونقط عروس : هي نقط سوداء تضعها العروس على خدها تجميلا وتحسيناً .

(٦) نفس المرجع : ج ١٦ ص ٢٢٢

جريراً على الفرزدق ، كما كان يتتبّع شعرَ الفرزدق ويُخطّئُه ويُلحّنه . وبلغ ذلك الفرزدق فهجاه بقوله :

لقد كان في مَعْدانَ والفيلِ زاجرٌ لعَنْبَسَةَ الرواي عليَّ القصائدا [1]

وعبدُ الله بن إسحاق الحضرميّ كان أكثرَ علماءِ هذا الجيل نقداً لشعر الفرزدق وذِكراً لشعره [2] .

ويونس بن حبيب البصري الذي أخذ الأدب عن أبي عمرو بن العلاء وحمادِ بن سَلَمة كان فَرَزْدَقِيًّا ، وهو القائل فيه : « لولا شعر الفرزدق لذهب ثلثُ لغة العرب » [3] . وكان يونس يفضل الأخطل أيضاً على أي ثلاثة من الشعراء ذُكِروا . ولما سُئِل عمّنْ يَرْوِي هذا قال : عن عيسى بن عمر ، وابن إسحاق الحَضْرَميّ ، وأبي عمرو بن العلاء ، وعنبسة الفيل ، وميمون الأقرن الذين ماشُوا الكلام وطرَقُوه [4] .

وهكذا كما نرى كان الرّواةُ والعلماءُ في هذا القرنِ يَحكمون على الشعراء ويختلفون في أفضلية بعضهم على بعض . وإذا رجعنا إلى أسباب الاختلاف في التفضيل وجدناها ناشئة من اختلاف العلماء والرّواة في أذواقهم ومفهومهم للشعر .

فالذي يُحبُّ الغريبَ منهم كان يتحمّس للشاعر الذي يُكثر منه في شعره ويقدّمه على غيره ، والذي يُحبّ فنّاً مُعيّناً من فنون الشعر كان يفضل من الشعراء أكثرَهم قولاً في هذا الفن ، والذي يُحب النحوَ ويشتغل به كان يقدّم مَن يلتمس في شعره شواهدَ النحو ، ومَن لا يخرج في شعره على حدودِ قواعدِه .

---

(١) طبقات الأدباء للأنباري : ص ١٢ (٢) نفس المرجع : ص ١٩

(٣) الأغاني : ج ١٩ ص ٩٦

(٤) نفس المرجع : ج ٧ ص ٤٣٦ . وماشُوا الكلام وطرقوه : أي أنهم كانوا يخلطون الكلام ثم يغربلونه ليستخرجوا أحسنه .

وإلى جانب ذلك كان هناك نوعٌ من التفضيل غيرِ المصرَّحِ به ، أو التفضيل « الضمني » . ويتمثل ذلك في أن يُعنَى أحدُ العلماء بجمع أشعار شاعرٍ بعينه ، أو أن يُدوِّن أحدُ الرواة شعر شاعرين من طبقة واحدة ثم يحفظ شعرَ أحدِهما ويُذيعه ويُهمل شعرَ الآخر . فهذا الاهتمام بتدوين شعر شاعر معين أو بحفظه دون غيره وإشاعتِه هو من قبيل التفضيل « الضمني » .

ولعلّ مما يؤكد ذلك هذا الخبرَ الذي جاء في الأغاني مَرْوِيًّا عن خالد بن كلثوم الكلبيّ . قال خالد : « مررتُ بالفرزدق وقد كنت دَوَّنْتُ من شعره وشعر جرير ، وبلغه ذلك فاستجلبني فجلستُ إليه ، وعُذْتُ بالله من شرِّه ، وجعلتُ أحدِّثُه حديثَ أبيه فأذكره له بما يعجبه » .

« ثم قلت له : إني لأذكر يومَ لقَّبَك بالفرزدق . قال : وأيّ يوم ؟ قلت : مررتَ به وأنت صبيٌّ ، فقال له بعضُ مَن يجالسه : كأنَّ ابنَك هذا الفرزدقَ دِهْقانُ الحيرة في تِيهه وأبَّهَتِه ، فسمّاك بذلك . فأعجبه هذا القولُ وجعل يستعيده » .

« ثم قال : أنشدني بعضَ أشعارِ ابنِ المراغة – يعني جريراً – ، فجعلتُ أنشِده حتى انتهيت . ثم قال : فأنشدني نقائضَها التي أجبتُه بها . فقلت : ما أحفظها . فقال : يا خالد أتحفظ ما قاله فيّ ولا تحفظ نقائضَه؟ واللهِ لأهجُوَنَّ كلباً هجاءً يتصل عارُه بأعقابها إلى يوم القيامة إنْ لم تَقُم حتى تكتبَ نقائضَها أو تحفظَها وتُنشِدَنيها . فقلت : أفعل . فلزمته شهراً حتى حفظتُ نقائضَها وأنشدتُه خوفاً من شره » [1] .

فهذا الاتجاهُ النقديُّ الذي سار فيه علماءُ القرن الثاني ورواتُه وأدباؤه

---

(١) الأغاني : ج ١٩ ص ٢٧ .والدّهقان : التاجر ، فارسيٌّ مُعَرَّب ، ومن معانيه أيضاً: القويُّ على التصرُّف مع حدة ، وجمعه : الدهاقنة والدهاقين .

أشبهُ باتجاه النقد الجاهليّ والإسلاميّ، وإن كانوا هم قد توسعوا وتعمّقوا أكثر من سابقيهم في هذا الاتجاه بحكم أن المادة عندهم أصبحت أغزرَ، وأن علمهم بالشعر صار أوفرَ.

ومرجعُ هذا التوسعِ والتعمقِ هو أن أولئك العلماءَ والرّواةَ قد بدءوا يتفرّغون لجمع الشعر وتدوينه وتنقيحه ونقده، ويتخذون من كل ذلك عملهم وصناعتهم.

وعلى هذا لم يَعُدِ النقدُ عندهم كما كان من قبل ضرباً من التّرَف الأدبيّ، أو نقداً سلبياً يقف عند حدود التذوق، وإنما نراه على أيديهم قد أخذ يتحوّلُ تدريجياً إلى نقدٍ إيجابيّ يتجاوز حدود التذوق إلى التعليل والتفسير، وإلى إيراد الأحكام النقدية مشفوعةً بعللِها وأسبابها.

أما الاتجاهُ الآخر الذي سار فيه علماء القرن الثاني وكان جديداً غيرَ مسبوق، فهو الاتجاهُ العلميُّ في النقد. وقد تمثل ذلك في جمع وتدوين الحجج التي أدلى بها أنصارُ كلِّ شاعرٍ في تقديمه وتفضيله، وبهذه الحجج صار للنقد العربيّ أسُسٌ قائمة.

كما تمثّل هذا الاتجاهُ العلميُّ في التأليف، وذلك بوضع كتبٍ خاصة في النقد وما يتصل به. ولم يكن التدوينُ والتأليفُ أمراً قاصراً على النقد الأدبي وحدَه وإنما كان اتجاهاً عاماً شمِلَ جميعَ المعارفِ العربيــة في ذاك العصر، حيث بدأ المشتغلون بكل علم يجمعون آراء من سبقوهم إلى الاشتغال به، وينظّمونها تنظيماً علمياً.

ومن علماء هذا القرن مَن اهتموا بالنقد ونهجوا فيه منهجاً تاريخياً. وقد تمثل هذا المنهج في وضع كتب جمعوا فيها أشعارَ بعض الجاهليين والإسلاميين، ورتبوا أصحابها طبقات، وذكروا طرَفاً من تاريخ حياتهم، ومن آراء وأقوال النقاد والرّواة في شعرهم.

ولعل أقدمَ ما وصل إلينا من كتب الطبقات هذه، كتابُ «جمهرة أشعار العرب» لأبي زيد القرشي، وكتاب «طبقات الشعراء» لمحمد بن سلام. وفيما يلي عرضٌ موجَزٌ لهذين الكتابين.

*

جمهرة اشعار العرب:

وصاحب «جمهرة أشعار العرب» هو أبو زيد محمدُ بنُ أبي الخطاب القرشي، وهذا كل ما يُعرَف عنه، لأنه لم يُعثَر له بعدُ على ترجمة.

ويذكر جرجي زيدان أن أبا زيد القرشي نبغ في أواسط القرن الثالث الهجري [1]، ولكن سليمان البستاني ذكره في مقدمة «الإلياذة» وجعل وفاته سنة ١٧١ للهجرة.

ولعل مما يرجّح هذا التاريخ، إن لم يؤكده، أن بطرس البستاني ذكر في كتابه «أدباء العرب في الأعصر العباسية» أن أبا زيد أورد في كتابه «جمهرة أشعار العرب» رواياتٍ سمعها من المفضل الضبيّ.

ففي كلامه مثلاً عن «اللفظ المختلف ومجاز المعاني» يقول أبو زيد: «فمن ذلك ما حدثنا به المفضل بن محمد الضبي ...» وفي كلامه عن «أول من قال الشعر» يقول: «أخبرنا المفضل قال ...». وفي كلامه عن «النبي والشعر» يقول: «وأخبرنا المفضل عن أبيه عن جده عن محمد بن إسحاق ...»، ويقول مرة أخرى: «وأخبرنا المفضل عن أبيه عن جده قال ...».

ولما كان المفضل قد توفي سنة ١٧١ للهجرة [2]، فإن هذا يعنى أن أبا زيد القرشيّ الذي رَوَى عنه سماعاً كان معاصراً له، ومِن ثَمّ يكون من علماء

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان: ج ٢ ص ١٠٩
(٢) النجوم الزاهرة: ج ٢ ص ٦٩

القرن الثاني لا القرن الثالث كما ذكر زيدان .

وجمهرة أشعار العرب مثل المفضليات والأصمعيات من أقدم ما وصل إلينا من مختارات الشعر الجاهلي والإسلامي .

وقد اختار أبو زيد القرشي في الجمهرة تسعاً وأربعين قصيدة لتسعة وأربعين شاعراً جعلهم في سبع طبقات ، كل طبقة تشتمل على سبعة شعراء . وهذه الطبقات السبع على حسب النسق الذي وردت عليه في الجمهرة هي : طبقة أصحاب المعلقات ، وطبقة أصحاب الجمهرات ، أي القصائد المحكمة السبك ، وطبقة أصحاب المنتقيات ، وطبقة أصحاب المذهّبات ، وطبقة أصحاب المراثي ، وطبقة أصحاب المشوبات ، أي التي شابها الكفر والإسلام ، وطبقة أصحاب الملحمات ، أي القصائد الملحمات النظم .

والجمهرة ليست الوحيدة في عصرها التي جمعت خيرة أشعار الجاهلية وصدر الإسلام ، وإنما يشاركها في ذلك ويفوقها في عدد القصائد المفضليات والأصمعيات ، حيث اشتملت الأولى على ١٢٦ قصيدة، والثانية على ٧٧ قصيدة.

ولا شك في أن للجمهرة قيمتها في الدلالة على ذوق أبي زيد في الاختيار ، وفي تقسيم الشعراء إلى طبقات ، على أساس اشتراك شعراء كل طبقة في خصائص معينة من وجهة نظره ولكنّ قيمتها الأهم هي في مقدمتها الانتقادية ، تلك التي تُعَدّ أولَ محاولةٍ مدوّنةٍ في تاريخ النقد العربي .

وقد قسّم أبو زيد هذه المقدمة ثلاثة أقسام :

(١) ففي القسم الأول قابل بين لغة الشعر ولغة القرآن ، وأظهر أنّ القرآن لم يأت العربَ بلغةٍ جديدة ، فكلّ ما فيه من مجاز وغريب استعمله العربُ في شعرهم وقصدوا به إلى المعنى الذي قصد إليه القرآن .

قال أبو زيد : « وفي القرآن مثلُ ما في كلام العرب من اللفظ المختلف ومجاز المعاني ، فمن ذلك قول امرىء القيس بن حُجْر الكندي :

قِفا فاسألا الأطلالَ عن أمِّ مالكِ وهل تُخبر الأطلالُ غيرَ التهالكِ ؟

فقد عُلِم أن الأطلال لا تجيب إذا سئلت ، وإنما معناه قفا فاسألا أهلَ الأطلال ، وقال الله تعالى : « واسأل القرية التي كنا فيها » يعني أهل القرية .

وقال عمرو بنُ معديكرب :

وكل أخٍ مفارقُه أخوه لعَمرُ أبيكَ إلّا الفرقدانِ

فجعل « إلاّ » بدلاً من « الواو » ، والمعنى : والفرقدان كذلك ، وقال الله تعالى : « الذين يجتنبون كبائرَ الإثم والفواحش ، إلاّ اللَّمَمَ » . « إلاّ » ههنا لا أصل لها ، والمعنى : واللَّمَمَ .

وقال الأعشى في **موافقة اللفظ** :

وأراكَ تُحْبَرُ إنْ دنتْ لك دارُها ويعود نفسَك ،إن نأتْكَ ، سَقامُها

تُحْبَرُ : تُسَرُّ وتكرم ، قال تعالى : « في روضة يُحْبَرُونَ » .

وقال زهير :

بأرضِ فَلاةٍ لا يُسَدُّ وَصِيدُها عليَّ ، ومعروفي بها غيرُ مُنكَرِ

والوَصِيدُ : الباب ، قال الله جلّ وعلا : « وكلبُهم باسِطٌ ذراعيه بالوصيد » أي الباب ، وقال : « إنها عليهم مُؤْصَدَةٌ » أي مُغلقة .

وقال المتلمّس :

وكُنّا إذا الجبّار صعَّر خدَّه أقمنا له مِن مَيْلِه فتقوَّما

قوله : صعّر خده : أي أعرض واختال ، وقال تعالى : « ولا تُصَعِّرْ

خدّك للناس » أي لا تَمل بوجهك كِبْراً وزهْواً [1] .

(٢) وفي القسم الثاني من مقدمة الجمهرة عرَض أبو زيد لأول من قال الشعر ، فروى أشعـــاراً لآدم وإبليس وبعضِ الملائكة والعمالقة وعادٍ وثمودَ والجن ، وعقّب على ما نُسِب لآدم من شعر بقوله : « فالله أعلم أكان ذلك أم لا » [2] .

كذلك تحدث في هذا القسم عن رأي النبي وصحابته في الشعر ، وعن اختلاف الناس حول « من أشعر الشعراء ؟ » ، وعن شياطين الشعراء وقولهم الشعر على ألسنة العرب ، مع إيراد نماذج من الأشعار التي كانوا يُلقونهـا إلى أصحابهم من الشعراء .

(٣) وقد خص القسم الثالث من الجمهرة بتعيين طبقـات الشعراء وذِكْرِ أسمائهم ، وإيرادِ طرَفٍ من أخبارهم وأقوالِ العلماء فيهم .

من ذلك على سبيل المثال ما ذكره عن أبي عبيدة من أنه قال : « إن الناس أجمعوا على أن أشعر أهل الإسلام : الفرزدقُ وجريرٌ والأخطلُ ، وذلك لأنهم أعطوا حظـّاً في الشعر لم يُعطـَه أحدٌ في الإسلام ، مدحوا قومـــاً فرفعوا ، وذَمّوا قوماً فوضعوهم ، وهجاهم قومٌ فردّوا عليهم فأفحموهم ، وهجاهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جوابهم وعن الردّ عليهم فأسقطوهم . وهؤلاء شعراءُ أهل الإسلام ، وهم أشعرُ الناس بعد حسان بن ثابت ، لأنه لا يشاكل شاعرَ الرسول ﷺ أحدٌ » [3] .

ولهذا الكتاب أثره وشأنه في تاريخ النقد العربي لأنه يكاد يكون الكتابَ الأولَ في طبقات الشعراء . هذا من ناحية ومن ناحية أخرى يمكن النظر إليه على أنه أول محاولة مبكرة في نقد الشعر العربي والمقابلة بين لغته ولغة القرآن ،

(١) جمهرة أشعار العرب : ص ١٠ – ٢٥

(٢) الجمهرة : ص ٢٦ (٣) المرجع نفسه : ص ٨١

وفي جمع طائفة من أقوال الأدباء والعلماء الأوائل في الشعر والشعراء .

ولولا ما أورده أبو زيد في مقدمته من الأساطير ، فجعل الملائكة وآدم وإبليس والجن ينطقون بالشعر العربي ، وإن كان قد تشكك في حقيقة ذلك - أقول : لولا ذلك لكان لمقدمته قيمة عظيمة ، لأنه بدأ بها اتجاهاً في النقد العربي لم يكن معروفاً قبله .

ومما يُلاحظ في نقده للشعر أنه أورد أقوال غيره واستند إليها دون أن يعلّلها أو يردّها إلى أصول يَستخلص منها أحكاماً خاصة .

وإذا كان قد فاته ذلك فحسبه أنه أولُ مَن دوّن في كتابٍ مختاراتِه من عيون الشعر الجاهلي والإسلامي ، وأولُ مَن تحدث عن أولية الشعر العربي ، وأولُ مَن قسّم الشعراء إلى طبقات على أساس الخصائص المشتركة ، وأولُ مَن دوّن بعضَ أقوال العلماء والأدباء في نقد الشعر والشعراء ، وأولُ مَن عرض لبعض أخبار الشعراء مما يصح أن يُعَدّ أساساً لتراجم الشعراء الموسّعة التي تلت فيما بعد . وكل هذا ليس بالشيء القليل بالنسبة لما كانت عليه معارف عصره في هذا الميدان .



طبقات الشعراء :

وطبقات الشعراء لابن سلام هو أقدم كتاب وصل إلينا في الطبقات والنقد العربي بعد كتاب « جمهرة أشعار العرب » لأبي زيد القرشيّ .

وصاحب طبقات الشعراء هو أبو عبد الله محمدُ بنُ سلاّم الجُمَحِيّ البصريّ ، مولى قدامةَ بنِ مظعون الجُمَحِيّ . وُلِد بالبصرة سنة ١٥٠ هـ وتوفي ببغداد سنة ٢٣٢ هـ[1] ، ولما كان قد عاش معظم حياته في القرن الثاني ،

---

(١) معجم الأدباء لياقوت : ج ١٨ ص ٢٠٤

فأنه يكون من الأنسب أن يُعَدّ من علماء القرن الثاني لا الثالث .

عاش في البصرة بين علماء اللغة ونحاتها ورُواة أدبهـــا وأخبارها . ولهذا كانت له معارفُ واسعةٌ في اللغة والأدب والنحو والأخبار ، أخذها من علماء عصره من أمثال : حماد بن سَلَمة ، ومبارك بن فضالة ، وأبي عوانة ، وزائدة ابن أبي الرُّقاد ، وخلف الأحمر ، والأصمعيّ ، وأبي عبيدة وغيرهم .

كذلك رَوَى عنه أبو العباس ثعلبُ والإمامُ أحمدُ بنُ حنبل ، والمازنيّ ، وأبو حاتم السجستانيّ ، وأبو الفضل الرياشيّ .

وكتب التراجم تنعته بأنه أحدُ الأخباريين والرّواة [١] ، وأنه كان من أعيان أهل الأدب وألّف كتاباً في طبقات الشعراء [٢] ، كما تصفه بأنه كان له علمٌ بالشعر والأخبار ، وهما من جملة علوم الأدب [٣] .

لقد عاش ابن سلام معظم حياته في البصرة وعاصر الرعيل الأول من علمائها وأدبائها ورُواتها وأخذ عنهم ، وتربّى في بيئتهم ، وعلى أذواقهم ، وخاض في كل ما خاضوا فيه ، واستوعب الكثير من آرائهم وأقوالهم في الأدب والنقد .

وقد تميز على علماء جيله بأنه أولُ مَن قام بينهم بمحاولة جادّة ، تمثلتْ في جمع شَتات آراء سابقيه ومعاصريه في النقد العربي وتنظيمها تنظيماً علمياً في كتابه طبقات الشعراء . وبهذا خطا بالنقد خطوة جديدة ، تماماً كالخُطوة التي خطتها اللغة ُ من جمع كلماتٍ حيثما اتفق ، إلى جمع الكلمات المتعلقة بموضوع واحد في موضوع واحد ، إلى وضع معاجمَ لغويةٍ يشمل الواحدُ منها كلّ الكلمات العربية على نمط خاص .

وكل ما اهتدى إليه بنفسه أو اكتسبه من معارف السابقين والمعاصرين في

---

(١) الفهرست لابن النديم : ص ١٧١

(٢) معجم الأدباء لياقوت : ج ١٨ ص ٢٠٤

(٣) طبقات الأدباء للأنباري : ص ١٥٧

الأدب والنقد قد نظر فيه بعين الفاحص المدقق وصبغه بصبغة البحث العلمي ثم أودعه في النهاية كتابه « طبقات الشعراء » الذي يُعَدُّ خلاصةَ ما قيل إلى عهده في أشعار الجاهليين والإسلاميين .

وعلى هذا فالفرق كبير بينه وبين أدباء عصره ونقّاده ، لأنه بعمله هذا العلميّ المنظمِ قد سبقهم بكتابه « طبقات الشعراء » إلى وَضْع اللّبِنة الأولى في بناء النقد العربيّ وتوسيع مجاله وتفتيح آفاق جديدة فيه .

*

منهج ابن سلام في الطبقات :

قسّم ابنُ سلام كتابه « طبقات الشعراء » خمسة أقسام هي : المقدمة ، فطبقات الشعراء الجاهليين ، فشعراء المراثي ، فشعراء القرى العربية ، فطبقات الشعراء الإسلاميين .

وإذا تجاوزنا المقدمة التي عرض فيها لنشأة بعض العلوم العربية وبعض قضايا النقد والأدب ، فإننا نُحِسُّ أنه كان مدفوعاً في تقسيمه الشعراء إلى طبقات بوجهة نظر معينة ، لعله أراد بها أن يضع بعض الأسس العلمية في الدراسات الأدبية والنقدية .

فهو بتقسيمه الشعراء حسب أزمانهم إلى جاهليين ومخضرمين وإسلاميين يُوحي بقصدٍ أو غير قصد أنه يفضّل اتباعَ المنهجِ التاريخيّ ، لما له من أثر في بيان مدى التطور في الشعر والنقد ، ومدى ما أخذ اللاحق من السابق في ذلك أو أضاف إليه .

وهو بتقسيمه شعراءَ كلّ زمن أو عصرٍ إلى طبقات يجعل أساسَ هذا التقسيمِ الجوانبَ التي يَحدُث التفاوت بينهم فيها، كالمنزلة الأدبية ، أو سيرورةِ الشعر ، أو كثرةِ الإنتاج الشعري ، أو جودتِه ، أو القدرةِ على التصرف في

وهو إذ يعقد فصلاً خاصاً بشعراء القرى العربية ، أي شعراء المدينة ، وشعراء مكة ، وشعراء الطائف ، وشعراء البحرين ، وشعراء يهود المدينة ، إنما يريد أن يُوضّح أثرَ البيئه في الشعر ،وأن يقرّر أن البيئاتِ الجاهليةَ ليست كلُّها سواءً في إنتاج الشعر من وجهة نظره .

وهو إذ يعرض بالحديث لشعراء الطبقات في كتابه نراه ينهج نهجاً معيناً ، وذلك بإيراد طرَفٍ من حياة الشاعر وشعره ، مع الإلمام ما أمكن بكل ما قيل قديماً وحديثاً عنه وعن شعره ، ومع ذِكْر ما يَعِنّ له هو شخصياًمن رأي في شعره . وما من شك في أنه بذلك قد فتح الباب ومهّد السبيل أمام تراجم الشعراء الموسّعة التي ظهرت فيما بعد .

ثم هو أخيراً يخص بالذكر فنّاً واحداً من بين سائر فنون الشعر وهو الرثاء ، وذلك بجعله أصحابَ المراثي طبقةً قائمةً بذاتها . وكأنه بهذه اللفتة الخاصة لشعر الرثاء يريد أن يقول إنه الشعر الذي تتجلّى فيه العاطفة بحق وصدق ، لأن الشاعر يكون فيه مدفوعاً إلى القول بعاطفة الوفاء . وكلّ مَن ذكرهم ابنُ سلام في هذا الباب قد رثَوْا القتلى من إخوتهم أو أقاربهم .

*

ولعل أهم فكرة شغلت بالَ ابنِ سلام وأولاها الكثيرَ من عنايته وبحثه هي فكرة « الانتحال » أو فكرةُ الشعر المصنوع الذي يُنسَب للجاهليين وليس للجاهليين .

ولم يكن هو أولَ مَن فطِن إلى فكرة الانتحال، فالواقع أن بعض معاصريه من أمثال خلف الأحمر والمفضل الضبي قد سبقوه إليها ، ولكنه كان أشدّهم اهتماماً بها وإفاضةً في الحديث عنها .

فهذه الفكرة التي تُعَدّ خطراً على الشعر والنقد قد عرَض لها ابنُ سلام في

مقدمة كتابه وفي مواضع مختلفة منه . والحديثُ عن انتحال الشعر في عصره كان طبيعياً ، فهو عصر بدأ الاهتمام بالرواية فيه يقل والعناية بالتدوين تزداد .

لهـــذا كان لا بد لصوت كصوته أن يرتفع محذّراً ومنبّهاً ، حتى يتشدّدَ مُدوِّنُو الشعرِ في تمحيص النصوص وتحقيقها ، وحتى تكونَ الأجيالُ القادمةُ مِن بعده على علم وبصيرة بأمر هذا الانتحال الذي أصاب بعضَ الشعر الجاهليّ ، وبهذا يكون عليهــا إن تُمعنَ وتدقّــق النظرَ فيما يصح أو لا يصح إسنادُه من الشعر إلى الجاهليين . وكأنّ ابنَ سلام أراد بموقفه هذا من الشعر المصنوع أن يخدم الروح العلمية ، وذلك بتحرّي إسنادِ كل قول إلى صاحبه ، وكل شعر إلى عصره .

وابنُ سلام كان خيرَ مَن عرض لفكرة الانتحـــال أو الشعر المصنوع في عصره ، وخيرَ من برهن عليها وطبّقها على مَن درسهم من الشعراء ، مستأنساً بما عُرِف عنها لدى العلماء .

فخلف الأحمر كان يقول الشعر فيجيده وربما نَحلَه الشعراء المتقدمين ، فلا يتميز من شعرِهم لمشاكلة كلامِه كلامَهم [١] ، ومع ذلك فإنه كان يرى أنّ مِن الشعر ما هو مصنوع فيردُّه على أساس أنه لا خير فيه [٢] .

وأبو عبيدة يَرْوِي أنّ داودَ بنَ مُتَمِّم بنِ نُوَيْرَةَ قدِم البصرة في بعض مـــا يَقدُم له البدويّ فأتاه هو وابنُ نوحٍ فسألاه عن شعر أبيه مُتمّم وقامَا له بحاجته ، فلما نَفِدَ شعرُ أبيه جعل يَزيد في الأشعار ويضعهـا لهما ، وإذا كلامٌ دون كلام مُتمّم ، وإذا هو يحتذى على كلامـه ، فيذكرُ المواضع التي ذكرها مُتمّم والوقائع التي شهدها ، فلما توالى ذلك عَلِما أنه يفتعله [٣] .

وحماد الراوية كان أولَ مَن جمع أشعارَ العرب وساق أحاديثـها ، وكان

---

(١) طبقات الأدباء : ص ٥٨

(٢) طبقات الشعراء : ص ٣ — ٤

(٣) طبقات الشعراء : ١٤

غيرَ موثوق به ، كان يَنحَل شعرَ الرجل غيرَه ويَزيد في الأشعار .

ويونس بن حبيب النحوي يتهم حماداً هذا بالكذب ويقول : « العجب لمن يأخذ عن حماد » [١] .

والمفضّل الضبّي يقول عنه : « قد سُلّط على الشعر من حماد الراوية ما أفسده فلا يَصلُح أبداً . فقيل له : وكيف ذلك ؟ أيُخطِىء في روايته أم يَلحَن ؟ قال : ليته كان كذلك ، فإن أهلَ العلم يَرُدُّون مَن أخطأ إلى الصواب ، لا . لكنه رجلٌ عالمٌ بلغات العرب وأشعارِها ، ومذاهبِ الشعراء ومعانيهم ، فلا يزال يقول الشعرَ يُشبِه به مذهبَ رجلٍ ويُدخله في شعره ، ويُحمَل ذلك عنه في الآفاق ، فتختلط أشعارُ القدماء ، ولا يتميز الصحيحُ منها إلا عند عالم ناقد ، وأين ذلك ؟ » [٢] .

وقال خلف : كنت آخذ من حماد الراويةِ الصحيحَ من أشعار العرب وأعطيه المنحولَ ، فيَقبلُ ذلك مني ويُدخله في أشعارها [٣] .

*

ولعلنا نجد في موقف ابن سلام من محمد بن إسحاق صاحبُ السيرة ما يعطينا خير مثال على علم صاحب طبقات الشعراء وبَصَرِه بالشعر ، وقوة ملكته النقدية وقدرته على التميز بين الشعر الصحيح والشعر المنحول أو الموضوع.

فهو يَعُدُّ محمدَ بن إسحاق « ممن هَجّن الشعر وأفسده وحملَ كل غُثاء » [٤] ذلك لأنه أورد في سيرته أشعاراً لرجال لم يقولوا الشعر قط ، ونساءٍ لم يقلن الشعر قط ، ثم جاوز ذلك إلى عاد وثمود .

وقد استدل ابن سلام على بطلان هذا النوع من الشعر بأدلة نقلية وعقلية نوردها فيما يلي :

---

(١) طبقات الشعراء : ص ١٥
(٢) الأغاني : ج ٦ ص ٨٩
(٣) الأغاني : ج ٦ ص ٩٢
(٤) طبقات الشعراء : ص ٤

(١) يقول ابن سلام : أفلا يرجع – ابن إسحاق – إلى نفسه فيقول : مَن حَمل هذا الشعر ؟ ومَن أدّاه منذ ألوف من السنين ، والله يقول : « وأنه أهلك عاداً الأولى وثمودَ فما أبقى » وقال في عادٍ : « فهل ترى لهم من باقية ؟ » وقال: « وعاداً وثمودَ والذين مِن بعدهم لا يعلمهم إلاّ الله » ؟ [١] .

(٢) إن أول من تكلم بالعربيــة ونسِيَ لسان أبيه إسماعيلُ بن إبراهيم ، وإسماعيلُ كان بعد عادٍ . ثم إن مَعَدًّا وهو الجَدُّ الذي قبْل الأخير من جدود العرب المعروفين كان بإزاء موسى عليـــه السلام أو قبله قليلاً ، فكيف لعادٍ وثمود ؟ ومعنى هذا أن اللغة العربية لم تكن موجودةً في عهد عادٍ ، وإذن فليس مما يُتسلَّم به العقول أن يُوجَد شعر بلغة لم توجد بعد .

(٣) ثم إن عاداً من اليمن ، ولليمانيين لسان آخرُ غيرُ اللسان العربي . وقــد استَدلّ على ذلك بقول أبي عمرو بن العلاء : « العربُ كلُّها ولدُ إسماعيل إلاّ حِمْيَرَ وبقايا جُرْهُم » وكذلك بقوله : « مــا لسانُ حِمْيَرَ وأقاصي اليمن بلساننا ، ولا عربيَّتهم بعربيَّتنا » [٢] .

(٤) ودليل رابع استمده من تاريخ الشعر العربي . ويتمثل ذلك في قوله : « ولم يكن لأوائل العرب من الشعر إلاّ الأبياتُ يقولها الرجل في حادثة . وإنما قُصِّدَت القصائدُ وطُوِّلَ الشعرُ على عهد عبد المطلب وهاشم بن عبد مناف ، وذلك يدل على إسقاط شعر عادٍ وثمود وحِمْيَرَ وتُبَّع [٣] ، وقوله : « وكان أولُ مَن قصَّد القصائد وذكَر الوقائع المهلهلَ بنَ ربيعة التغلبيّ في قتْلِ أخيه كليب وائل » [٤] ، وكذلك في قوله : « كان امرؤ القيس بنُ حُجْر بعـــد مهلهل ، ومهلهلٌ خالُه ، وطرَفةُ وعَبيدٌ ، وعمرو بنُ قميئة ، والمتلمّس في

---

(١) طبقات الشعراء : ص ٤ – ٥
(٢) نفس المرجع
(٣) المرجع نفسه : ص ١٠ – ١١
(٤) المرجع نفسه :ص ١٣

عصر واحد »[1].

فابن سلام بهذه الحقائق التاريخية التي استدل بها يؤرخ للعهد الذي ظهرت فيه القصائد الطوال في الشعر العربي، وأن ذلك كان على أيدي جماعة من الشعراء وجدوا في عصر واحد، وكانوا من متأخري العرب لا أوائلهم.

وإذا كان هؤلاء الشعراءُ الذين لا يَبعُدُ عهدُهم كثيراً عن عهد الإسلام هم الذين قصَّدوا القصيد وأطالوه، فإن هذه الحقيقةَ التاريخيةَ تنفي صحةَ كلِّ قصيدةٍ تُعزَى إلى عهد أقدمَ من عهدهم. وهذا بدوره ينفي صحةَ الشعر الذي أورده محمد بن إسحاق في سيرته وعزاه إلى عادٍ وثمود وحِمْيَرَ وتُبَّع أو غيرهم ممن لم يُعرَفوا بقول الشعر رجالاً أو نساء.

وابنُ سلام لا يقف عند حدّ دعوى الانتحالِ والوضعِ في الشعر الجاهليّ والبرهنة عليها بأدلة نقلية وعقلية مقنعة، وإنما نراه يجاوز ذلك إلى تلمُّسِ بواعثِ الانتحال التي حصرها من وجهة نظره في سببين:

(١) فالسبب الأول عنده يرجع إلى ما أُثِر تاريخياً مِن انتحال بعض الرُّواة للشعر وإدخالِه في أشعار الجاهليين والمخضرمين أو نسبتِه إليهم. وقد مرّ بنا ما رواه ابنُ سلام عن أبي عبيدة من أنّ داودَ بنَ مُتمِّم بن نُوَيْرَةَ كان يفتعل الشعر ويَزيده في أشعار أبيه مُتمّم، كذلك مرّ بنا ما ذكره من أن حماداً الراوية كان يَنحَلُ شعرَ الرجل غيرَه ويَزيدُ في الأشعار[2].

(٢) والسبب الثاني عنده يتمثّل في قلة أشعارِ بعضِ القبائل العربية بعد انتهاء عصر الفتوح الإسلامية، بسبب موت أو قتل حَمَلَة هذه الأشعار من رجالهم.

ولما كانت هذه القبائلُ بحكم العصبية القبلية حريصةً على ألاّ يكونَ ما

(١) طبقات الشعراء: ص ١٣ — ١٤ (٢) المرجع نفسه: ص ١٤

يُؤثَر من أمجادها أقلّ من أمجاد غيرها من القبائل ، فإن هذا الحرصَ قد دفعها إلى انتحال الأشعار التي تتحدث عن أمجادها .

ويُرجِع ابنُ سلام هذا السببَ إلى بعض ما أُثِر عن عمر بن الخطاب وأبي عمرو بن العلاء ، ثم إلى رأيٍ خاصٍ به .

فابنُ سلام في هذا الشأن يَروي عن ابن عوف عن ابن سيرين قولَ عمرَ بنِ الخطاب : « كان الشعرُ علمَ قومٍ لم يكن لهم علمٌ أصحُّ منه ، فجاء الإسلامُ فتشاغلت عنه العربُ ، وتشاغلوا بالجهاد، وغزوَا فارسَ والرومَ ، ولَهِيَت عن الشعر وروايته فلما كثُر الإسلامُ وجاءتِ الفتوح واطمأنت العربُ بالأمصار ، راجعوا روايةَ الشعر ، فلم يَئِلُوا إلى ديوانٍ مدوّنٍ ولا كتاب مكتوب فألفَوا ذلك ، وقد هلك من العرب مَن هلك بالموت والقتل ، فحفِظوا أقلّ ذلك وذهب عنهم منه أكثرُه »[1] .

كذلك روى ابنُ سلام عن يونسَ بنِ حبيب قولَ أبي عمرو بن العلاء : « ما انتهى إليكم مما قالتِ العربُ إلا أقلُّه ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعرٌ كثير »[2] .

أما رأيُ ابن سلام الخاص في ذلك فيتمثل في قوله : « فلما راجعتِ العربُ روايةَ الشعر وذِكْرَ أيامِها ومآثرِها استقلّ بعضُ الشعراء شعرَ شعرائهم ، وما ذهب من ذِكْر وقائعهم . وكان قومٌ قلّت وقائعهُم وأشعارُهم وأرادوا أن يَلحقوا بمَن له الوقائعُ والأشعارُ فقالوا على ألسُنِ شعرائهم »[3] .

ثم يقول ابنُ سلام استكمالاً لرأيه الخاص في سبب انتحال الشعر الذي نحن

---

(١) طبقات الشعراء : ص ١٠ . وألَ إلى الأمر يئل : لجأ إليه ، ومنه الموئل .

(٢) نفس المرجع

(٣) طبقات الشعراء : ص ١٠

بصدده : « ومما يدل على ذَهاب العلم وسقوطه قلّةُ ما بقِيَ بأيدي الرُّواة المصححين لطرَفة وعَبيد – بن الأبرص – . والذي صحّ لهما قصائدُ بقدْر عَشْرٍ ، وإنْ لم يكن لهما غيرُهنّ فليس موضعُهما حيثُ وُضِعا من الشُّهْرةِ والتَّقْدِمة ، وإنْ كان ما يُرْوَى من الغُثاء لهما فليسا يستحقان مكانَهما على أفواه الرّواة . ونرى أن غيرَهما قد سقط من كلامه كلامٌ كثير ، غير أن الذي نالهما من ذلك أكثر ، وكانا أقدمَ الفحول ، فلعل ذلك لذلك . فلما قلّ كلامُهما حُمِل عليهما حَمْلٌ كثير »[١] .

وتتمةً للكلام على فكرة الانتحال يقرّر ابنُ سلام أن ما زاده الرُّواة في الأشعار أو وضعه المولّدون قد يسهل على أهل العلم معرفته ، أمّا ما وضعه أهل البادية من أولاد الشعراء أو من غير أولادهم ، فإنه قد يُشكِل على أهل العلم بعض الإشكال .

وفي ذلك يقول : « ... ثم كان الرُّواةُ بعدُ فزادوا في الأشعار . وليس يُشكِل على أهل العلم زيادةُ ذلك ، ولا ما وَضع المولّدون ، وإنما عَضَلَ بهم أن يقول الرجلُ من أهل باديةٍ من وَلَد الشعراء أو الرجلُ ليس من ولدهم ، فيُشكِل ذلك بعضَ الإشكال »[٢] .

تلك صورة موجزة لما أورده ابنُ سلام في مقدمة كتابه عن قضية انتحال الشعر ، ولكننا إلى جانب ذلك نراه يعرض للانتحال ويُنبّه إليه عند الكلام على بعض شعراء الطبقات ممن وقع في شعرهم .

ومن أمثلة ذلك قوله : وعَبِيدُ بن الأبرص قديمٌ عظيمُ الذّكْر ، عظيمُ الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف له إلاّ قولَه .

---

(١) طبقات الشعراء : ص١٠

(٢) طبقات الشعراء : ص ١٤ ، وعَضَل بهم : أي ضاق بهم وعَسُرَ عليهم .

أقفرَ مِن أهله مَلْحُوبُ   فالقُطَبِّيَّــاتُ فالذَّنوبُ

ولا أدري ما بعد ذلك »[1] .

ومنه قوله : « وعَدِيُّ بنُ زيد كان يسكن الحيرة ومراكز الريف ، فلانَ لسانُه ، وسَهُل منطقُه ، فحُمِل عليه شعرٌ كثير ، وتخليصُه شديدٌ ، واضطرب فيه خَلَفٌ ، وخلطَ فيه المفضّلُ فأكثر »[2] .

ومنه عند كلامه على فحول شعراء القرى العربية : « وأشعرُهم حسانُ بنُ ثابت ، وهو كثير الشعر جيّدُه ، وقد حُمِل عليه ما لم يُحمَل على أحد ، لمَّا تَعاضَهَتْ قريش واستبَّتْ ، وضعوا عليه أشعاراً كثيرة لا تليق به »[3] .

ومنه عند كلامه على شعراء مكة : « وكان أبو طالب شاعراً جيّدَ الكلام ، وأبرعُ ما قال قصيدتُه التي مدح بها النبي ﷺ وهي :

وأبيضَ يُستسقَى الغمامُ بوجهه   ربيعُ اليتامَى عِصْمَةٌ للأرامل

وقد زِيد فيها وطُوِّلَت »[4] .

ومنه كذلك : « ولأبي سفيانَ بنِ الحارث شعر كان يقوله في الجاهليــة فسقط ، ولم يصل إلينا منه إلا القليل . ولسنا نَعُدُّ ما يَرْوِي ابنُ إسحاق له ولا لغــيره شعراً . ولأَنْ لا يكونَ لهم شعرٌ أحسنُ من أن يكون ذلك لهم »[5] .

وقد روى ابنُ سلام لأبي سفيان الحارث هذا قولَه في حسّان :

---

(١) طبقات الشعراء : ص ٣٩   (٢) المرجع نفسه
(٣) طبقات الشعراء : ص ٥٢ ، وتعاضهتْ : تشاتَمت .(٤) المرجع نفسه : ص ٦٠
(٥) المرجع نفسه

أبوكَ أبو سُوءٍ وخالُكَ مثلُهُ ولستَ بخيرٍ مِن أبيكَ وخالِكا

وإنَّ أحقَّ الناس ألَّا تلومَه على اللؤم مَن ألفَى أباه كذلكا

ثم عقّب عليه بقوله : « وأخبرني أهلُ العلمِ من أهل المدينة أنّ قدامةَ بنَ موسى بن عمر بن قدامةَ بنِ مظعون الجُمحيّ قالها ونحلها أبا سفيان . وقريش تزيد في أشعارها تُريد بذلك الأنصارَ والردّ على حسان »[1] .

تلك بعض أمثلة ممـا أورده ابنُ سلام للشعر المنحول أو المصنوع في ثنايا حديثه عن شعراء الطبقات ، وهو يذكرها بجرد ذِكـر دون أن يَشفعها بمـا يَدحضُها اكتفاءً بأدلةِ الانتحال التي أوردها في المقدمة . والمتأمل في هـذه الأمثلةِ يرى أن منها ما يرجع الانتحالُ فيه إلى العصبية أو إلى الرواة .

والمقارنة بين معالجة ابن سلام لموضوع الانتحال ومعالجة غيره له من أمثـال المفضل الضبي ويونس بن حبيب وغيرِهما تُظهِـر أن الفرقَ كبير بين المعالجتين . فانتحال الشعر عند غيره يُقرَّر في كلمات ، أما هو فيبحث الموضوع بحثاً علمياً تحليلياً ويضيف إليه أبعاداً جديدة لم تكن موجودة من قبل .

*

هذا عن فكرة انتحال الشعر عند ابن سلام ومنهجِه في دراستهـا والنظرِ إليها . أمـا الفكرةُ الثانيةُ في كتابه ، والتي تلي « الانتحالَ » من حيثُ الأهميةُ ، فهي فكرةُ تقسيمِ شعراء الجاهلية والإسلام إلى طبقات ، وإنزالِهم منازلَهم .

والكتاب كما يُفهم من عنوانه يقوم على أساس « تفضيل الشعراء » أي تقسيمهم

---

(١) طبقات الشعراء : ص ٦٢

إلى طبقات. وفي ذلك يقول ابنُ سلام : « ... ففصّلنا الشعراءَ من أهل الجاهلية والإسلام والمخضرَمين فنزّلْناهُمْ منازلَهم، واحتججْنا لكل شاعرٍ بما وجدناه له من حُجّة، وما قال فيه العلماء. وقد اختلف الرُّواة فيهم »[1].

وفكرة ترتيب الشعراء أو تقسيمِهم إلى طبقات ليست من مُستحدَثات ابن سلام، وإنما هي فكرة قديمة سبقه إليها أبو زيد القرشي في كتابه « جمهرة شعراء العرب » وفطِن إليها بعضُ مَن تقدمه من أدباء العصر الإسلاميّ حين جعلوا الفرزدقَ وجريراً والأخطلَ طبقة، كما نمّاها اللغويون بجعل امرىءالقيس وزهيرٍ والنابغة الذبيانيّ والأعشى طبقة.

وقد قسّم ابنُ سلام كلاً من شعراء الجاهلية والإسلام إلى عشر طبقات، تتألف كل طبقة منها من أربعة شعراء. ويبدو أنه اتّخذ من كثرة الشعر وجودته أساساً لهذا التقسيم. وقد عدّ المخضرمين ضمن شعراء الجاهلية، لأنه لم يجد في شعرهم تطوراً أو سماتٍ خاصةً تميّزه من الشعر الجاهليّ.

ومنهجُه في التراجم كما حدّدَه يعتمد على إنزالِ الشعراء منازلَهم وعلى الاحتجاج لكل شاعر بما وجده له من صحة، وبما قال العلماء فيه. هذا إلى جانب ما يستجيد هو من شعر كل شاعر، وإن كان في الغالب لا يعرض لهذا الشعر بالتحليل والنقد.

ومن ثَمّ فأحكامه لا تَنْصَبُّ على الشعر بمقدار ما تنصبُ على الشعراء، وهو كثيراً ما يستعين في ذلك بآراء المتقدمين والمعاصرين من العلماء والنقّاد.

ولكن ذلك لا ينفي أنه في دراسته لشعراء الطبقات قد اهتدى بذوقه الخاص إلى بعض آراء وأحكام غير مسبوقة، وإن كان ينقصها أحياناً العمق والتحديد.

---

(١) طبقات الشعراء : ص ٩

وعلى سبيل المثال فالحطيئة عنده كان متينَ الشعر ، شَرود القافيـة[1] ، والشمّاخُ كان شديدَ مُتون الشعر ، أشدّ أسْر الكلام من لبيد ، وفيـه كَـزازةٌ ، ولبيدٌ أسهل منه منطقاً[2] ، وعَلقمةُ بنُ عَبَدَة له ثلاثٌ روائعٌ جيادٌ ، لا يفوقـهن شعر[3] .

والأسودُ بنُ يَعفـُر له واحدةٌ طويلةٌ رائعةٌ لاحقة بأول الشعر ، لو كان شفعها بِمثلها قدّمْناه على أهل مرتبته ، وهي :

نام الخَلِيُّ فمـا أحسّ رُقادي والهَمُّ مُحتضِرٌ لديَّ وِسادي

وله كثير جيد ، ولا كهذه[4] .

وسُوَيدُ بنُ أبي كاهل له قصيدتُه التي أوّلها :

بَسَطتْ رابعةُ الحبلَ لنـا فوصلنا الحبلَ منها ما اتَّسَعْ

وله شعر كثير ، ولكنْ برّزتْ هذه على شعره[5] . وعبدُ بني الحسحاس حلوُ الشعر رقيقُ حواشي الكلام[6] .

ويقول عن شعراء المراثي : والمقـدّمُ عندنا مُتَمّمُ بن نُوَيْرَة[7] . وفي حديثه عن شعراء القرى العربية يقول عن أحد شعراء المدينة وهو قيسُ بنُ الخطيم : من الناس مَن يفضله على حسّان ، ولا أقول ذلك »[8] . وعنده أن

(١) طبقات الشعراء : ص ٢١ (٢) المرجع نفسه : ص ٢٩
(٣) المرجع نفسه : ص ٣١ (٤) المرجع نفسه : ص ٣٣
(٥) طبقات الشعراء : ص ٣٥ ، هذه القصيدة في « المفضليات » وعدد أبياتها ١٠٨ ،وهي من أغلى الشعر وأنفسه . قال الأصمعي عنها : « كانت العرب تفضلها وتقدمها ، وتعدهـا من حكمها ، وكانت في الجاهلية تسمّى « اليتيمة » لما اشتملت عليه من الأمثال » .
(٦) المرجع نفسه : ص ٤٣ (٧) المرجع نفسه : ص ٤٨
(٨) المرجع نفسه : ص ٥٦

أشعار قريش أشعارٌ فيها لِينٌ يُشكِل بعضَ الإشكال [1] .

وهو في مَعرِض حديثه عن شعراء القرى العربية يُعلِّل كثرةَ الشعر في بعضها وقِلَّتَه في بعضها الآخر بكثرة الحروب والغارات وقلّتها . وفي ذلك يقول : « وإنما يكثر الشعر بالحروب التي تكون بين الأحياء نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قومٍ يُغيرون ويُغار عليهم . والذي قلّل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرةٌ ، ولم يحاربوا ، وذلك الذي قلّلَ شعرَ عمان وأهلِ الطائف في طرف [2] .

وهذه الآراءُ والأحكامُ الخاصةُ أدخلُ في باب النقد، وهي تدل على بَصَرِ ابن سلام بالشعر ، كما تدل على ذوقه الأدبي ، وقدرته على إدراك السِّمات الخاصةِ التي يتميز بها شاعر من آخر .

وأكثرُ ما نجد هذه الآراءَ والأحكامَ في كلامه على الشعراء الجاهليين والمخضرمين وشعراء القرى العربية ، أما كلامه على الشعراء الإسلاميين فيغلب عليه التأريخ ، وبخاصة في تراجم الفحول الثلاثة : الفرزدق وجرير والأخطل .



وإلى جانب ما تقدّم نجد لابن سلام في مقدمة كتابه نظراتٍ أخرى في النقد والشعر وعلوم العربية . ونحن نشير إلى أهمها فيما يلي :

(١) **ثقافة الناقد :** تكلم ابن سلام في مقدمته على ثقافة الناقد كلاماً يفهم منه أن الناقد يحتاج إلى معايشة الأدب وكثرةِ مدارسته لأن ذلك يُعِينه على العلم بالأدب والشعر .

---

(١) طبقات الشعراء : ص ٦١

(٢) المرجع نفسه : ص ٦٥ – ٦٦

فهو يقول عن ذلك : « إن كثرة المدارسة تعين على العلم »[1] كذلك يقول: « وللشعر صناعة ٌ وثقافة ٌ يعرفهـا أهلُ العلم كسائر الصناعات . والصناعاتُ منها ما تـَثقَفه العين ، ومنها ما تـَثقَفه الأذُنُ ، ومنها ما تـَثقَفه اليدُ ، ومنها ما يَثقَفه اللسانُ . من ذلك اللؤلؤُ والياقوتُ لا ُيعرَف بصفة ولا وزنٍ دون المعاينة ممن ُيبصره[2] . ومن ذلك الجَهْبَذةُ[3] بالدينار والدرهم ، لا ُتعرف جودتـُها بلـَوْنٍ ولا َمسٍّ ولا ِطراز[4] ولا حِسٍّ ولا صفة ، ويعرفها الناقد عند المعاينة ، فيعرف َبهْرَجَها[5] وزائفَها وسَتـُّوقَها[6] ومُفرَّغهـا[7] . ومنه البَصَرُ بغريب النخل ، والبَصَرُ بأنواعِ المتـاعِ وضروبـِه واختلافِ بلاده ، وتشابُهِ لونِه ومَسِّه وذَرْعِه ، حتى ُيضـافَ كلُّ ِصنفٍ إلى البلد الذي خرج منه ... »[8] .

فابنُ سلام يريد بهذا الكلام أن الناقد الذي يبغي التمييز بين جيد الأدب ورديئِه يحتاج إلى تمرُّسٍ بالأدبِ ومخالطةٍ له حتى يصبح بصيراً بأموره، مدركاً للفروق بين الجيد والأجود ، وبـين القوي والضعيف ، مثـَلُه في ذلك مثَلُ أصحاب الصناعات الأخرى ، فإنهم في حاجـة ماسَّةٍ إلى مخالطة موضوع صناعـاتهم ، حتى يصبحوا أهلاً للحُكْم ، ويصبحَ قولـُهم حجة ً فيما يحكمون عليه .

وهو في رأيه هذا الخاصّ بما يجب على الناقد من ثقافةٍ يلتقي مع خلف الأحمر

---

(١) طبقات الشعراء : ص ٣ (٢) يبصره : يعرفه ويدرك حقيقته .
(٣) الجهبذة هنا : نقد الزيوف والصحاح من الدنانير والدراهم .
(٤) الطراز هنا : الصوغ .
(٥) البهرج : الرديء .
(٦) َستـُّوق : يقال درهم َستـُّوق : أي درهم زيف بهرج لا خير فيه .
(٧) المفرّغ : المصمت المصبوب في قالب ليس بمضروب .
(٨) طبقات الشعراء : ص ٣

الذي استشهد به في المقدمة . قال قائلٌ لخلف الأحمر : إذا سمعتُ أنا بالشعر واستحسنتُه ، فما أبالي ما قلتَ فيه أنت وأصحابُك ، فقال له : إذا أخذتَ أنتَ درهماً فاستحسنتَه فقال لك الصرّافُ : إنه رديء ، هل ينفعُك استحسانُك له ؟ » [1] .

(٢) **نشأة الشعر وتنقله :** وتكلم في نشأة الشعر وتنقله في القبائل . فشعر الجاهلية بدأ أولَ ما بدأ في قبيلة ربيعة ،وكان أولَ شعرائها المهلهلُ والمرقّشان وسعدُ بنُ مالك وطرَفةُ بن العبد ، وعمرو بن قميئة ، والحارثُ بن حِلّزةَ والمتلمّسُ والأعشى والمسيّبُ بنُ علَس .

ثم تحول الشعر الجاهليّ في قيس ، فمنهم النابغةُ الذبيانيُّ وزهيرُ بن أبي سُلمى وابنه كعب ولبيدٌ والنابغةُ الجعْديُّ والحطيئة والشمّاخ ومُزرّدٌ وخِداشُ بنُ زهير .

ثم آل ذلك إلى تميم فلم يزل فيها إلى عصر ابن سلاّم . وقد علّل لأولية الشعر في ربيعة بمقتل كليبِ وائل ، هذا الحادثِ الذي أطلق لسان أخيه المهلهل برثائه ، والذي يُعَدُّ أولَ شعراء ربيعة وأولَ من قصّدَ القصائد وذكر الوقائع [2] .

(٣) **طبائع الشعراء :** كذلك التفت ابن سلام إلى اختلاف طبائع الشعراء وأخلاقهم وانعكاسِ ذلك في أشعارهم . فمن الشعراء من كان يتنسّك ويتعبّد في جاهليته ويتعفّف في شعره ، ولا يفتخر بالقبيح من الأقوال والأفعال ، ولا يتهكم أو يستهزىء في الهجاء . ومنهم من كان ينعَى نفسه ويَشْهَرُها بتعاطيه الفواحش ويفجُر ، ومنهم في الجاهلية امرؤ القيس والأعشى ، وفي الإسلام الفرزدق وجرير ، وإن كان الأخيرُ ، مع إفراطه في الهجاء ، عفيفاً .

---

(١) طبقات الشعراء : ص ٤ — (٢) المرجع نفسه : ص ١٣

في ذلك يقول ابن سلام : « وكان مِن الشعراء مَن يتألّه [1] في جاهليته ويتعفّف في شعره ولا يَستَبْهِرُ بالفواحش [2] ، ولا يتهكّمُ في الهجاء[3]. ومنهم من كان ينعَى على نفسه [4] ويتعهّر [5] ، ومنهم امرؤ القيس والأعشى . وكان الفرزدق أقوَلَ أهلِ الإسلام في هذا الفن ، وكان جريرٌ مع إفراطه في الهجاء يَعِفُّ عن ذِكْر النساء ، كان لا يُشَبِّب إلاّ في امرأة يملكها » [6] .

(٤) **التأريخ لبعض علوم العربية :** وفي مقدمة طبقات الشعراء نراه أيضاً يؤرّخ لنشأة علمي النحو والعروض ، ولعله كان أولَ وأقدمَ من فعل ذلك.

فهو يذكر أنه كان لأهل البصرة قُدْمَةٌ وأسبقيّةٌ بالنحو ، وكان لهم بلغات العرب والغريب عنايةٌ ، وأنّ أولَ مَن أسَّسَ العربية وفتح بابها وأنْهَجَ سبيلَها ووضع قياسَها أبو الأسود الدُؤَلِيُّ ، وهو ظالمُ بنُ عمرو بن سُفيان بنِ جَندَل ، وكان رجلَ أهل البصرة ، وكان عَلَوِيَّ الرأي .

وإنما فعل أبو الأسود ذلك حين اضطربَ كلامُ العرب فغَلُبت السّليقيّة[7]، فكان سَراةُ الناس [8] وأشرافُهم يلحَنون ، فوضع بابَ الفاعل والمفعولِ والمضافِ وحروفِ الجر والرفعِ والنصبِ والجزم .

وكان مَن أخذ ذلك عنه يحيى بن يَعْمُرَ ، وميمون الأقرن ، وعَنبسةُ

(١) يتألّه : يَتنسّك ويتعبّد .
(٢) لا يستبهر بالفواحش : لا يفتخر بالقبيح من الأقوال والأفعال .
(٣) لا يتهكم في الهجاء : لا يستهزىء ولا يطعن .
(٤) ينعَى على نفسه : يَشْهَرُها بتعاطيه الفواحش .
(٥) يتعهّر : يفجُر ويفسُق .
(٦) طبقات الشعراء : ص ١٤
(٧) السليقية والسليقة : طبيعة الانسان وسجيته ولغته . ويقال : فلان يقرأ بالسليقية : أي بطبيعته ليس بتعلم ، أو يقرأ بالفصاحة .
(٨) سَراة الناس: أشرافهم ، جمع سَرِيٍّ على غير قياس ، وجمعه القياسيُّ أسْرِياء وسُرَوَاء

الفيل ونصرُ بنُ عاصم الليثيُّ وغيرُهم . ثم كان مِن بعـــدهم عبدُ الله بنُ أبي إسحاق الحَضْرَمِيُّ ، فكان أولَ من بَعَجَ[1] النحو ومدَّ القياس والعلَل ، وكان معه أبو عمرو بنُ العَلاء ، وبقِيَ بعده بقاء طويلاً . وكان ابنُ أبي إسحاق الحَضْرَمِيُّ أشدَّ تجريداً للقياس ، وكان أبو عمرو أوسعَ علماً بكلام العرب ولغاتها . وقد أخذ عيسى بنُ عمرَ عن ابن أبي إسحاق ، وأخذ يونس بن حبيب عن أبي عمرو بن العلاء .

ويَروي ابنُ سلام أنه سمع أباه يسأل يونسَ عن ابن أبي إسحاق وعلمِه ، فقال يونس : هو والنحو سواء ، وهو الغاية . قال : فأين علمُه من علوم الناس اليوم ؟ قال يونس : لو كان في الناس اليومَ لا يعلم إلاّ علمَه لَضُحِكَ منه ، ولو كان فيهم مَن له ذهنُه ونَفاذُه ونظرُه كان أعلمَ الناس . وهذا الخبر يدل على مدى تطوُّر علم النحو ونُمُوِّه فيما بين عهدي ابن أبي إسحاق ويونس .

وقد عرض ابن سلام لوجوه القراءات واختلاف اللهجـــات كما عرض لعلم العروض وذكر أن الخليلَ بنَ أحمد الأزدي الفراهيدي هو الذي استخرج من العروض واستنبط منه ومن علمه ما لم يستخرج أحدٌ ولم يسبقه إلى علمه سابق[2] .

*

وبعد ... فهذا عَرضٌ لكتاب طبقات الشعراء ، أقدمِ ما وصل إلينا في النقد الأدبي عند العرب بعد « جمهرة أشعار العرب » لأبي زيد القرشي . وهو كما رأينا يَضُمُّ بين دَفَّتيه خلاصةً وافيةً لمعارفِ ابن سلام الأدبية وجهودِه العلمية التي فتح بها آفاقاً جديدة أمام النقاد ومؤرخي الأدب وأصحاب طبقات الشعراء مِن بعده .

---

(١) بعج النحو : شقَّقه وذلَّله واستخرج أصوله .
(٢) طبقات الشعراء : ص ٥ — ٩

والكتاب على فضله لا يخلو ، ككل كتاب يمثّل المحاولة الأولى الجادّةَ في كل فن وعلم ، من بعض الهَنات والمآخذ .

وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر أنه ينقصه الترتيبُ والتنظيم المنهجيُّ في التأليف ، وأنه أغفل في طبقاته ذكرَ بعض كبار شعراء الإسلام من أمثال الكميت بن زيد الأسدي ، وعمرَ بنِ أبي ربيعة ، والطرمّاح بنِ حكيم .

وفي الطبقات نراه يقدّم في الطبقة بعضَ مَن لا يستحق التقديم ويؤخر بعض من يستحق التقديم ، دون أي يبدي أسباباً لهذا التقديم والتأخير . ففي طبقات الجاهليين وضع في الطبقة السادسة عمرَو بن كلثوم ، والحارثَ بنَ حلّزةَ ، وعنترةَ بن شداد ، وسُوَيْد بن أبي كاهل . على حين وضع في الطبقة الخامسة مَن دونهم شهرةً ومنزلةً من أمثال خِداش بن زهير بن ربيعة ، والمخبّل بن ربيعة ، والأسود بن يعفر ، وتميم بن أبي مقبل . وكذلك فعل في طبقات الإسلاميين ، حيث وضع عبيدَ الله بنَ قيس الرُّقَيّات والأحوصَ في الطبقة السادسة ، ووضع مَن هم أقلُّ منهما في الخامسة أو الرابعة .

كذلك لم يتعرّض لمكانة شعراء القرى العربية ، مكتفياً بنسبهم وبعض أشعارهم ، كما مرّ مروراً عابراً بشاعر كبير كحسان بن ثابت ، دون أن يُشير إلى منزلته الأدبية أو يُبديَ رأياً في شعره . وفي بعض الطبقات اكتفى بسرد أسماء الشعراء دون أن يُورد عنهم خبراً ، أو يذكر لهم شعراً ، أو يُبديَ فيهم رأياً .

ومما يلاحظ أيضاً أن ابن سلام الذي امتدت به الحياة إلى أوائل القرن الثالث لم يعرض لمعاصريه من شعراء القرن الثاني من أمثال بشار وأبي نواس ومسلم بن الوليد وأبي العتاهية وصالح بن عبد القدوس والعباس بن الأحنف وغيرهم ، ولم يحاول تقسيمهم إلى طبقات كما فعل بشعراء الجاهلية والإسلام . ولعل السبب أنه كان في المحل الأول مدفوعاً إلى تأليف كتابه بفكرة أن يضع

منهجاً علمياً في النقد الأدبي وطبقات الشعراء وتراجمهم ، ولهذ اكتفى بطبقات الجاهلية والإسلام كنموذج لتوضيح منهجه تاركاً لمن بعده استكمالَ المنهج والتوسّعَ فيه .

ولكن على الرغم من هذه الهَنات وأمثالها يظل ابن سلام من خيرة نقاد العرب ويظل كتابه طبقات الشعراء من أهم كتب النقد الأدبي عند العرب ، فقد جمع فيه بالإضافة إلى آرائه الخاصة ، كثيراً من آراء العلماء والأدباء في النقد العربيّ منذ نشأته في الجاهلية حتى أوائل القرن الثالث الهجري .

وقد ظل كتابه من بعده وإلى اليوم مرجعاً من أهم المراجع لدى كل من كتبوا ويكتبون في النقد الأدبيّ وتراجم الشعراء وتاريخ الأدب .

*

وبقيام الدولة العباسية في أوائل القرن الثاني أخذت الحياةُ العربية تبتعد تدريجياً عن البداوة وتدنو من الحضارة . وكان ذلك بفعل ما طرأ على المجتمع العربي من تغيرات سياسية واجتماعية وفكرية .

وقد ظهر في القرن الثاني طائفةٌ من الشعراء تأثروا أكثر من غيرهم بمظاهر الحضارة العباسية الجديدة وعُرِفوا « بالشعراء المحدثين » .

فهؤلاء تلقّوْا الشعر من القرن الأول صحيحاً قويّ العبارة ،جزلَ التراكيب ، تَغْلب عليه روحُ البداوة القديمة في المنهج والصياغة والمعنى والخيال . وقد شعروا بحكم تحضُّرهم أن احتذاء القدماء في شعرهم احتذاء تاماً يتنافى مع روح العصر الذي يعيشون فيه ، ومن ثَمّ راحوا يطوّعونه لأغراضهم ويجدّدُون فيه .

ولما كان القدماء قد سبقوهم إلى كل شيء في الشعر من حيث فنونُه ومعانيه وأساليبُه ، فإنهم قصَروا تجديدَهم على ديباجة الشعر وصياغته ، وعلى التعبير عن بعض النزعات والرغبات الحبيسة التي وجدت في حرية المجتمع العباسيّ وروحِ التسامح والتغاضي السائدةِ فيه منطلقاً لها .

ولعل أبا نواس كان أكثرَ المحدَثين اتجاهاً إلى التجديد في الديباجة ، فقد ثار في كثير من شعره على المقدمات الطلَلِيّة ، أو بمعنى آخر على استهلالِ القصائدِ بذكْرِ الأطلال والإبل والرحيل ، وراح يستبدل بذلك الاستهلالَ بنعت الخمر والتغزل فيها . ومن ذلك على سبيل المثال قولُه :

لا تبكِ ليلى ولا تطربْ إلى هندِ   واشربْ على الورد من حمراء كالوردِ
كأساً إذا انحدرتْ في حلق شاربها   أجدَتْه حمرتَها في العين والخدِّ[1]

وقوله أيضاً :

دَعِ الأطلالَ تَسْفِيها الجَنوبُ   وتبكي عهدَ جِدتِها الخطوبُ[2]
وخلِّ لراكبِ الوجناءِ أرضاً   تُحَثُّ بها النجيبةُ والنجيبُ[3]
ولا تأخذْ عن الأعراب لهواً   ولا عَيْشاً فعيشُهمُ جديبُ
ذَرِ الألبانَ يشربُها أناسٌ   رقيقُ العيش عندهمُ غريبُ[4]
إذا رابَ الحليبُ فبُلْ عليه   ولا تَحْرَجْ فما في ذاك حُوبُ[5]
فأطيبُ منه صافيةٌ شَمولٌ   يطوف بكأسها ساقٍ أريبُ[6]

---

(١) أجدَتْه : أعطته .
(٢) تسفيها الجنوب : تحملها وتذروها ريح الجنوب الحارّة . والجِدّة : نقيض البِلى .
(٣) الوجناء : الناقة الضخمة الصُّلبة . والنجيبة والنجيب : عِتاقُ الإبل التي يُسابَق عليها لقوتها وخفة سرعتها . وتُحَثُّ : تُستعجَل .
(٤) ذرِ الألبان : اتركْها ودَعْها ، ورقيق العيش : رغده وطيّبه.
(٥) رابَ الحليبُ : خثَر وغلُظ : لا تحْرَجْ : لا تَهَبِ الإقدام على ذلك . الحُوب : الإثم .
(٦) صافية شَمول : خمر صافية باردة .

يمدُّ بهـا إليك يدا غُلامٍ أغنَّ كأنه رشأٌ ربيبُ[1]
يكاد من الدلال إذا تثنَّى عليك ومن تساقطه يذوبُ
فهذا العيشُ لا خِيَمُ البوادي وهذا العيشُ لا اللبنُ الحليبُ[2]

أما الصياغة فاتجه المحدَثون إلى التفنن فيها، واعتبروها أهمَّ شيء في الشعر، فليس المهمُّ عندهم أن يقال شيء، وإنما المهمُّ أنْ يقال هذا الشيء في أسلوب شائق جميل، تمثَّلوه في تَوْشِيَة العبارة وزخرفتها وتنميقها .

ومن هنا ولأجل هذه الغاية أخذوا يرجعون إلى المأثور في العربية شعراً ونثراً يكتشفون فيه السِّمات والعناصر الأسلوبية التي ترد فيه عفواً بلا تعمد ولا تكلف وتُضفِي عليه جمالاً وتزيد في قيمته البلاغية . وقد اجتمع لهم من ذلك بعضُ فنون البيان كالجناس والطباق والمقابلة والتشبيه والإستعارة وغيرها ، مما أطلِق عليه « البديعُ » وعلى مستعمليه اسمُ « شعراء البديع » .

كذلك حاول المحدَثون التجديدَ في أوزان الشعر ، فاهتدى كلٌّ من بشار وأبي العتاهية إلى بعض أوزان جديدة غيرِ التي نظم منها القدماء . ذكر صاحب الأغاني أن أبا العتاهية له أوزان لا تدخل في العروض[3].

وهكذا أوجـد الشعراءُ المجدِّدون من طبقة مخضرَمي الدولتين الأموية والعباسية ومِن طبقة مَن نشئوا في القرن الثاني مدرسةً جديدة في الشعر العربي إمامُها بشارُ بنُ برد، ومنها أبو نواس وأبو العتاهة ومسلم بن الوليد وابن هرْمة وسَلْم الخاسر والسيد الحميريُّ وابن مُناذر .

---

(١) غلام أغنّ : في صوته غُنَّة ، رشأ ربيب : ظبيٌ مُرَبَّى .
(٢) ديوان أبي نواس : ص ٢٤٤ . والخِيَم : جمع خيمة ، وتجمع أيضاً على خيمات وخيام.
(٣) الأغاني : ج ٣ ص ٢٥٥

وهذه الحركة التي قام بها المحدَثون كانت بعيدةَ الأثر في الشعر والنقد . فمنذ ذلك العهد صار الشعرُ مذهبين ، وصار الشعراء طائفتين : طائفـــة تنهج نهج القدماء في كل شيء ولا تجدّدُ إلاّ بالقدر الذي يتلاءم مع الروح العربية، وطائفة تَنشُد التجديد في الشعر وتحاوله .

*

ومن ذلك نرى أن الأدب العربي قد شهد في القرن الثاني انقسامَ الشعراء إلى محافظين يتمسكون بقديم الشعر وتقاليده ، وإلى محدَثين ينزِعون إلى التخلص من سلطان القديم ، وإلى التجديد في الشعر بما يساير روحَ العصر الذي يعيشون فيـــه .

وقد أدّى انقسامُ الشعراء على هذا النحو الى الخصومـة فيما بينهم ، فكلا الفريقين يعتزُّ باتجاهه وينعَى على اتجاه الفريق الآخر . وهذا الخلافُ بين أنصار القديم والحديث من الشعراء أدّى بدوره إلى اختلاف النقـــاد أيضاً، فمنهم من تعصّب للقديم لا يفضّل عليه أيّ شعر ، ومنهم من انتصر للحديث أيّا كان وأزْرَى بالقديم .

وكما عرفنا من قبل أخذ اللغويون والنحاةُ اللغةَ عن فصحاء العرب واشتغلوا بجمع الشعر الجاهلي والإسلامي ، وحفظوه وألِفُوه ومرَنُوا عليه فأثّر كلُّ ذلك في أذواقهم .

ولهذا كانوا أخصّ مَن تعصب للقدماء على المحدَثين ، لأنهم لم يستطيعوا أن يتجرّدُوا من ماضيهم وأن يوازنوا بين شعر وشعر موازنةً يُراعى فيهـــا القِيَمُ الفنية والشعورية ، واختلافُ الزمن الذي يمَسُّ حقائقَ الحياة بالتغيير .

وكان تعصُّبُهم للقدماء الذي يستند إلى أسباب لغوية لا فنية قائماً على أساس التقدم في العصر لا الشعر .

فأبو عمرو بن العلاء يقول عن الأخطل : لو أدرك الأخطل يوماً واحداً من

الجاهلية ما قدّمتُ عليه أحداً »[1] . وحدّث عمرُ بن شبّة قال : « كان الأصمعيُّ يقول : بشّارٌ خاتمة الشعراء . والله لولا أن أيامه تأخرت لفضّلته على كثير منهم »[2] .

وحدّث حماد الأرقط عن محمد بن مُناذر الذي كان ينحو مَنحَى عديّ بن زيد في شعره ويميـــل إليه ويُقدّمه قال : « لقيني ابنُ مناذر بمكة فأنشدني قصيدتَه « كلُّ حيٍّ لاقي الحمامِ فمَوْدِ » ثم قال لي : أقرىءْ أبا عبيدة السلام وقل له : يقول لك ابنُ مُناذر : اتقِ اللهَ واحكمْ بين شعري وشعرِ عديّ بن زيد ، ولا تقلْ : ذلك جاهليٌّ وهذا إسلاميٌّ ، وذاك قديمٌ وهـــذا مُحدَثٌ فتحكمَ بين العصرين ، ولكنْ احكمْ بين الشعرين ، ودَعِ العصبية »[3] .

من هذه الأخبار نرى مقدارَ تعصُّب كلٍّ من أبي عمروِ بن العلاء والأصمعيّ وأبي عبيدة للقدمــاء ، وكيف أنهم كانوا يحكمون للشعراء على أساس التقدم في العصر لا الشعر ، فالجاهليُّ مُقدّمٌ على الإسلاميّ ، وكلاهما مُقدّم على المحدَث !

وأبو عبدالله محمدُ بنُ زياد المعروفُ بابن الأعرابيّ وأحدُ أكابر أئمة اللغــة كان يقول : « إنما أشعار هؤلاء المحدَثين – مثل أبي نواس وغيره – مثلُ الريحان يُشَمُّ يوماً ويَذْوِي فيُرمَى به ، وأشعارُ القدماء مثلُ المسك والعنبر ، كلما حرّكتَه ازداد طِيباً »[4] .

وقـــال أبو عبد الله التميمي : « كُنّا عند ابنِ الأعرابيّ ، فأنشده رجلٌ شعراً لأبي نواس أحسنَ فيه ، فسكتَ . فقال له الرجل : أمَا هذا من أحسن الشعر ؟ قال : فقال : بلى ، ولكنّ القديمَ أحبُّ إليّ »[5] .

فابنُ الأعرابيّ لا ينكر الحسَنَ من شعر المحدثين ولكنّ القديمَ أحبُّ إليه ،

---

(١) الأغاني : ج ٧ ص ٣٤٨ (٢) المرجع نفسه : ج ٣ ص ٤٤

(٣) المرجع نفسه : ج ١٧ ص ٢٢

(٤) الموشح للمرزباني : ٣٨٤ ، ويذوي يذبُل . (٥) المرجع نفسه

ومما يعزّز ذلك قوله في أبي العتاهية: «ما رأيت شاعراً قطّ أطبعَ ولا أقدر على بيتٍ منه، وما أحسب مذهبَه إلاّ ضرباً من السِّحْر»[1].

وكان الأخفش يطعن على بشّار بن بُرد ويأخذ عليه خروجه في بعض شعره على أصول النحو فتوعده بشار بالهجاء فخافه الأخفش، ثم صار يحتجُّ في كتبه بشعره ليَبلغه ذلك، فيكُفَّ عنه[2] وكذلك فعل سيبويه في نقد شعر بشارٍ فهجاه بشارٌ بقصيدة منها:

أَسِيبُوهُ يا بنَ الفارسيَّةِ ما الذي ... تحدَّثتَ مِن شتمي وما كنتَ تَنبِذُ
أَظَلْتَ تُغنِّي سادراً بمساءتي ... وأُمُّكَ بالمِصْرَيْنِ تُعطِي وتأْخُذُ؟[3]

على أن تعصُّب اللغويين والنحاة للقدماء من ناحية وللغة والنحو من ناحية أخرى لم يمنعهم من النظر في أشعار المحدثين ونقدها والموازنة بينها والحكم عليها.

فأبو عمر بن العلاء يحكم لبشار بالإبداع والتفوق في شعر الغزل والمدح والهجاء[4]. وكان أبو عبيدة يقول: «مِيميَّةُ بشارٍ التي مطلعها:

أبا جعفرٍ ماطولُ عيشٍ بدائمٍ ... ولا سالمٌ عمَّا قليلٍ بسالمِ

أحبُّ إليّ من ميمِيَّتَيْ جرير والفرزدق[5]». كذلك كان يقول: السيدُ الحميريُّ وبشارٌ أشعرُ المولّدين[6]. وكان لا يعجب بشعر ابن مناذر[7].

وسأل أبو حاتم السجستانيُّ الأصمعيَّ: أبشّارٌ أشعرُ أم مروانُ بنُ أبي حفصة؟ قال: فقال: بشّارٌ أشعرهما. قلت: وكيف؟ قال: لأنَّ مروانَ

---

(١) الأغاني: ج ٣ ص ٢٥٥

(٢) الموشح للمرزباني: ٣٨٤

(٣) المرجع نفسه: ص ٣٨٥

(٤) الأغاني: ج ٣ ص ٥٠

(٥) المرجع نفسه: ج ٣ ص ٥٦

(٦) المرجع نفسه: ج ٣ ص ٩

(٧) الموشح للمرزباني: ص ٤٥٣

سلك طريقاً كَثُرَ سُلاّكُه فلم يلحَق بمَن تقدَّمه ، وإن بشّاراً سلك طريقاً لم يسلكْه أحدٌ ، فانفردَ به وأحسَنَ فيه ، وهو أكثرُ فنونِ شعرٍ ، وأقوى على التصرُّف ، وأغزرُ وأكثرُ بديعاً . ومروانُ آخذٌ بمسالك الأوائل »[1] .

وذُكِر بحضرة الأصمعي شعرُ العباس بن الأحنف فتسخَّطَه وقال : ما يُؤتَى من جودة المعنى ، ولكنه سخيف اللفظ . ألا ترى قوله :

اليومُ مثلُ الحَوْلِ حتى أَرَى وجهَكِ والساعةُ كالشهرِ
إنَّ الذي أُضْمِرُ عند الذي أُظهِرُ كالقطرة في البحر
لو شُقَّ قلبي قُرِي وسْطَه ذِكْرُكِ والتوحيدُ في سطر
يا من تمادى قلبُه في الهوى سالَ بكَ السيلُ وما تدري
أَبعْدَ أنْ قد صِرتُ أُحدُوثةً في الناس مثلَ الحسَنِ البَصْرِي

لعمري إنَّ الحسَنَ البَصريَّ مشهور، ولكنْ ليس هذا موضعَ ذِكْرِه[2].

فالأصمعيُّ كما نرى يحكم للعباس بن الأحنف بجودة المعنى دون اللفظ. وأنشده إسحاق الموصلي قوله في غضب المأمون عليه :

يا سَرْحةَ الماءِ قد سُدَّتْ مواردُه أَما إليكِ طريقٌ غيرُ مسدودِ
لحائمٍ حامَ حتى لا حِيامَ له مُحَلَّأٍ عن طريق الماء مطرودِ؟

فقال الأصمعيّ : أحسنتَ في الشعر ، غيرَ أنَّ هذه الحاءاتِ لو اجتمعتْ

---

(١) الموشح للمرزباني : ص ٤٩١ - ٣٧٢ (٢) المرجع نفسه ص ٤٤٥ - ٤٤٦

في آية الكرسي لعابَتْها[1] .

وكان الأصمعي يُعجب بشعر بشار ، لكثرة فنونه وسَعة تصرّفه ، ويقول: كان مطبوعاً لا يُكلّف طبعَه شيئاً متعذراً ، لا كمن يقول البيت ويُحككّه أياماً ، وكان يُشبّه بشاراً بالأعشى والنابغةِ الذبياني ، كما كان يشبّه مروانَ بزهيرٍ والحطيئة ويقول : هو متكلف[2] .

ويونسُ بنُ حبيب قــدّم مروانَ بنَ أبي حفصة على الأعشى في قصيدة بعينهــا . رَوَى الأصمعيّ أن مروان جاء إلى حلقة يونس النحوي فسلّم ، ثم قال لنا : أيُّكم يونس ؟ فأومأنا إليه . فقال له : أصلحك الله ... قــد قلت شعراً أعرضه عليك ، فإن كان جيــداً أظهرتُه وإن كان رديئاً سترتُه فأنشده قولَه :

طرَقتْكَ زائرةً فحَيِّ خيالَها بيضاءَ تخلِط بالجمال دَلالَها

فقال له يونس : يا هذا .. اذهب فأظهرْ هذا الشعرَ فأنت والله فيه أشعر من الأعشى في قوله :

رحلتْ سُمَيّــةُ غُدْوةً أجمالَهــا غَضبَى عليك فما تقول بَدالَها

فقال له مروان : سررتَني وسُؤْتَني ، فأما الذي سررتَني به فارتضاؤكَ الشعرَ ، وأما الذي ساءني فتقديمُك إيّاي على الأعشى وأنت تعرف محلّه . فقال : إنما قدّمتُك عليه في تلك القصيدةِ لا في شعرِه كلّه ، لأنه قال فيها : « فأصاب حَبّةَ قلبِها وطِحالَها » و« الطّحال لا يدخل في شيء الا أفسده!

---

(١) الموشح للمرزباني : ص ٤٦٠ ، وحام حول الماء : دار وطاف حوله من العطش . محلّأ : ممنوع من الورود

(٢) الأغاني : ج ص ٤٩

وقصيدتُك سليمة من هذا وشبهه » [1] .

وكان إسحاق الموصلي لا يعتدُّ ببشّار ويقول : هو كثير التخليط في نثره ، وأشعارُه مختلفة لا يشبه بعضُها بعضاً . أليس هو القائل :

إنما عَظْمُ سُلَيْمَى حِبَّتي قصبُ السُّكَّرِ لا عَظْمُ الجَمَلْ
وإذا أدنيْتَ منها بَصَلاً غلبَ المِسْكُ على ريح البَصَلْ؟

لو قال كلّ شيءٍ جيد ثم أُضيف الى هذا لَزيَّفَه . وكان يقدّم عليه مروانَ بنِ أبي حفصة ويقول : هو أشدُّ استواءَ شعرٍ منه ، وكلامُه ومذهبُه أشبهُ بكلام العرب ومذاهبها [2] .

كذلك لم يكن رأيُ إسحاق في أبي نواس بأحسنَ من رأيه في بشّار . قال أبو الحسن علي بن يحيى : « كانَ إسحاقُ الموصليّ لا يَعُدُّ أبا نواس شيئاً ، ويقول : هو كثير الخطأ ، وليس على طريق الشعراء ، قال :

وَخَيْمَةِ ناطورٍ برأسٍ مُنيفةٍ تَهُمُّ يَدا مَن رامها بزَليلِ
إذا عارضتْها الشمسُ فاءَ ظلالُها وإنْ واجهتها آذنتْ بدخولِ

فما رأيته هَشّ لذلك ، فقلت : واللهِ لو كانت لبعض الأعراب المتقدمين لكانت في أعيان الشعر عندك » [3] .

وحدّث بعضُ مَن كان يجالسه قال : « سمعتُ إسحاق — وذكَرَ قومٌ عنده أبا نواس فأفرطوا في مدحه وتقديمه — قال : ما ظننتُ أني أعيش إلى زمانٍ أرى شعرَ أبي نواس يَنفُقُ فيه هذا النَّفاق ، ولقد رأيته في طبقة هو

---

(١) الأغاني : ج ٩ ص ٧٨ — ٧٩ (٢) المرجع نفسه : ج ٣ ص ٥٤

(٣) الموشح للمرزباني : ص ٤٠٨ ، وانظر القصيدة في ديوان أبي نواس : ص ٣١٠ ، والناطور : حافظ الزرع والتمر والكرْم ، والمنيفة : العالية ، والزليل : الانزلاق

أخَسُّهم إذا حضروا، وإنّ له على ذلك لـلمشيءَ بعدَ الشيء مما يُحْسِنُ فيه»[1].

كذلك كان يطعن إسحاق الموصلي على أبي العتاهية في شعره ، فلمـا أنكر الرشيد عليـه ذلك قال : « يا أمير المؤمنين هو أطبعُ الناس ، ولكنْ ربّما تحرّف . أيُّ شيءٍ من الشعر قوله :

هو الله هو الله ولكنْ يغفرُ اللهُ ؟[2]

هذه صورةٌ لموقف اللغويين والنحاة والرُّواة في القرن الثاني من الشعراء ، وهي صورة تُرينا أنهم كانوا في جملتهم يتعصّبون للقدماء على المحدَثين ويحكمون لهم على أساس التقدم في العصر لا الشعر ، كما تُرينا أن منهم من توسَّع في نظرته النقدية فانتصر أيضاً لمن سار من المحدثين على مذهب القدماء .

أما المحدَثون فكانوا يَدْعون للجديد ويتعصّبون له على القديم ، ويأخذون بأسبابه في شعرهم ، على أساس أنّ على الشعراء أنْ يعيشوا في الحاضر لا الماضي ، وفي الواقع لا الذكريات .

وكان زعيم المحدَثين في هذا الاتجاه أبو نواس ، فقد راح في شعره يُزْري بالقديم والقدماء ، ويُعنِّف مَن يحتذيهم ، ويدعو على دُعاة الأطلال والواقفين عليها بألاّ تجف عَبْرَتُهم ، كقوله :

أيَا باكيَ الأطلالِ غيَّرَها البِلَى بَكيْتَ بعينٍ لا يَجفُّ لها غَرْبُ[3]

وكما سبق أنْ ذكرنا لم يخرج تجديدُ المحدَثين في القرن الثاني عن كونه تجديداً

---

(١) الموشح للمرزباني : ص ٤٩٠ ، وينفـق الشعرُ نفاقاً : يروج ويسير

(٢) الموشح : ص ٤٠٠

(٣) ديوان أبي نواس : ص ٢٤٣ ، وغَـرْبُ العين : مَسيل الدمع ، وعين لا يجف لهـا غرب : اي لا ينقطع انهمالُ دموعها

في الشكل دون المضمون وفي العرَض دون الجوهر . لقد وقف تجديدُهم عند حدّ الديباجة والصياغة الشعرية والولع بالبديع والميل إلى استعمال الأوزان القصيرة . أما أغراض الشعر فلم يُجدّدوا فيها ، وأما المعاني فهي معاني أسلافهم في صياغة جديدة ، وإذا كان لهم في هذا الميدان شيء فهو الغلوّ في بعض المعاني ، والتوسّع في بعض نزعات سُبِقوا إليها كالزهد ، ونعت الخمر ، والعبث والمجون وكل هذا لا يعد تطويراً للشعر ولا تجديداً فيه .

وإذا كانت الخصومة بين القدماء والمحدثين قد انقضت بانقضاء القرن الثاني وذَهابِ القدماء ، فإنها امتدت إلى القرن الثالث وما بعده ، بين المحدثين أنفسهم : بين مَن يؤثرون منهم مذاهب القدماء ومَن يُؤثرون الجديد ويُمعنون فيه . وهذه الخصومة بين المحدَثين أدَّتْ بدورها إلى الخصومة بين نقادهم : فمنهم مَن يتعصب لأنصار القديم ، ومَن يتعصب لأنصار الحديث ، ومَن يتخذ طريق الوساطة بين الفريقين ، كما سنرى في عرضنا لتاريخ النقد الأدبي في القرنين الثالث والرابع . . .

الفصل التاسع

النقـــد في القـــرن الثـــالث

شهد العصرُ العباسيُّ في القرن الثالث الهجري نهضةً شاملةً في الحيـــاة الفكرية من علمية وأدبية ، كما شهد طوائف شتى من العلماء ينصرفون للعلوم والفنون .

فعلماء الدين يبحثون في العلوم الإسلامية من قرآن وحديث وفقه ، وعلمـاء الكلام يجادلون في العقائد ، وعلماء اللغة يَجِـدّون في جمعها ويضعون نحوَها وعَروضَ شعرِها ، والأخباريون والنسّابون يُدوِّنون في كتبٍ شعرَ الشعراء وأخبارَهم ، والمترجمون ينقلون إلى العربية عن اليونانية والفارسية والهندية معظم ما كان معروفاً عن الأمم القديمة المتحضرة من فلسفة وعلوم وآداب .

وهذه النهضة الفكرية العلمية التي نَمَتْ في القرن الثاني قد تلقّاها القرن الثالث فأفاد منها علماؤه وأدباؤه وأضافوا إليها الكثير من جهودهم العلمية ، ومن ثَمَّ ازدادت هذه النهضةُ قوةً وحيَويّةً ، واتساعاً وانفتاحاً ، وأثّرت إلى حد كبير في كل شأن من شئون الحياةِ العربية العامة ، ومن ذلك الشعرُ والنقدُ الأدبيُّ .

أما الشعر فراح ينفعل بالحياة الجديدةِ الآخذةِ بأسباب الحضارة فيتحضر ،

بل راح يمعن في تحضُّره وتحرُّره من قيود الشعر القديم وتقاليده ، كما راح يُلبِّي أذواقَ عصرِه، فيطرقُ أغراضاً شعريةً جديدة ، ويتوسّع في أغراضٍ أخرى، ويستحدث في هذه وتلك معانيَ طريفةً ، كما يتحدَّث بلغةٍ شعرية تغلبُ عليها سيماءُ الحضارة .

وأما النقدُ الأدبيُّ فقد تأثر كذلك وإلى حد بعيد بالنهضة العلمية الأدبية التي شهدها القرن الثالث ، ولهذا نراه يتطوَّر كثيراً ، لا من حيث شكلُه ومظهرُه ولكن من حيث حقيقتُه وجوهرُه ، وذلك بفعل العناصر الثقافية الأجنبية التي بدأت تتسرب إليه ، والروحِ العلمية التي تحرِّكه وتسيِّره ، وتباينِ أمزجةِ المشتغلين به واختلافِ ثقافاتهم .

فالنقدُ الأدبيُّ في هذا القرن لم يَعُدْ يعتمد كثيراً على الذوق الفِطريّ أو الذوق العربيّ المَحْضِ ، وإنما أخذ يتجه إلى نقدٍ يحاول الانتفاعَ بكل ما جاءت به النهضة العلمية في صدر الدولة العباسية ، وإن كان لم يتخلص تماماً من روح النقد العربي القديم .

وهذا التطورُ أو هذا الاتجاهُ الجديدُ الذي يريد أن ينتقل بالنقد الأدبيّ من نقدٍ ذاتيٍّ سلبيٍّ إلى نقدٍ موضوعيٍّ إيجابيٍّ ، فيضعَ له قواعدَ وأصولاً علمية تُقاس بها الأعمالُ الأدبيةُ ، قد بدأ في أخريات العصر الأمويّ وأوائل العصر العباسيّ .

وكما رأينا من قبلُ ، كان هذا الاتجاهُ الجديدُ في النقد سببَ الخصومة التي قامت وقتئذ بين أنصار القديم والحديث من الشعراء والنقاد . وإذا كانت هذه الخصومة قد انقضت بانقضاء القرن الثاني وذهابِ القدماء ، فإنها امتدت إلى القرن الثالث وما بعده بين المحدثين أنفسهم : بين مَن يتمسَّك منهم بمذاهب القدماء ، ومن يؤثر الجديد ويُمعن فيه .

وهذه الخصومة بين المحدَثين من الشعراء أدَّتْ بدَوْرها إلى الخصومة بين

نُقّادِهم ، فمنهم من تعصّب لأنصار القديم من الشعراء ، ومَن تعصّب لأنصار الحديث ، ومَن اتخذ طريقاً وسَطاً بين الفريقين .

وإذا ألقينا نظرةً على ميدان النقد في القرن الثالث رأينا أن هناك أربع طوائف من النقاد لكل منها منهاجُها الخاص ومقياسها الذي تقيس به الشعر وتحكم عليه . فهناك طائفة اللغويين والنحاة ، وطائفة الشعراء المحدثين ، وطائفة العلماء الذين أخذوا بحظ يسير من المعارف الأجنبية ، وطائفة مَن أخذوا القديم من اللغويين ولكنهم عُنوا أكثر منهم بالمحدَثين .

وسوف نحاول فيما يلي التعرف إلى هذه الطوائف ومناهِجِها واتجاهاتِها في النقد الأدبي ، ومدى ما أسهمت به كلُّ طائفة في تدعيم حركة النقد وتوسيع آفاقه وتطوير مباحثه .

*

اللغويون والنحاة :

يتمثلُ النشاطُ العلميُّ لهذه الطائفة أكثرَ ما يتمثّل في الاشتغال باللغة من حيثُ جمعُ مفرداتِها وأدبِها ووضعُ نحوِها وعَروضِ شعرها . وإذا كان الأمر كذلك فإنّ اهتمامهم بالنقد الأدبي يأتي في المحل الثاني بالنسبة إلى نشاطهم العلميِّ الأصليِّ ، ومع هذا فإن منهم مَن أبدَوْا آراءَ صائبةً في النقد ، أو ألّفُوا فيه كتباً ترفعهم إلى مَصافِّ النقاد وحُذّاقِ الشعر .

ولعلَّ تميُّزَ بعضِ اللغويين والنحاة في النقد راجع إلى ملَكةٍ خاصةٍ أُضيف إليها طولُ اشتغالٍ باللغة ، وتمرُّسٌ بأساليبها وأسرارها ، ودراسةٌ مستوعبةٌ للقديم والحديث من شعرها . فكلُّ ذلك مجتمعاً كان من شأنه أن يُنَمّيَ عندهم ذوقاً خاصاً في نقد الأدب .

وعلماء اللغة والنحو في القرن الثالث هم تلاميذ الأجيال الأولى من علماء

العربية ، أولئك الذين رَوَّعَهم شيوعُ ظاهرة اللحن في اللغة بعد الإسلام بسبب كثرة اختلاط العرب بالأعاجم، فنهضوا بدافع الغيرة على لغتهم يجمعون مفرداتِها وأدبَها ويضعون نحوَها حفاظاً على سلامتها ونقائِها وحمايةً لها من كل الشوائب التي تفسدها .

وقد كان هؤلاء العلماءُ الرُّوَّادُ قِلَّةً في أول الأمر ، وكانت البصرة مركز نشاطهم ، وشيئاً فشيئاً امتد نشاط الاشتغال بعلوم العربية إلى الكوفة ثم بغداد، ولم يأت القرن الثالث حتى كان تلاميذ هؤلاء العلماء قد كثروا عدداً وانتشروا في الحواضر الإسلامية الأخرى .

وكان أولئك التلاميذ يأخذون عن شيوخهم كل ما انتهى إليهم من علم ثم يضيفون اليه ثمار جهودهم العلمية التي توصَّلوا إليها بأنفسهم . وبذلك أخذت المعارف العربية جيلاً بعد جيل تتسع وتتشعب وتتنوع . ونتيجةً لكل ذلك كان طبيعياً أن يتأثر اللغويون والنحاة في القرن الثالث بآراء وأذواق أسلافهم في اللغة والأدب والنقد .

ومن علماء العربية في هذا القرن من كان له نشاط ملحوظ يتصل بالأدب والشعر والنقد . وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر من هؤلاء ابن السكيت ، والمازنيّ ، والسجستانيّ ، ، والرياشيّ ، والسكريّ ، والمبرد ، وثعلب .

فأبو يوسف يعقوب بن السكيت « ٢٤٣هـ » كان من أكابر أهل اللغة ، تعلم النحو من البصريين والكوفيين ، فأخذ عن أبي عمرو الشيبانيّ والفَرَّاء وابن الأعرابيّ والأثرم ، ورَوَى عن الأصمعيّ وأبي عبيدة ، وكان راويةً ثقةً ، ومن أعلم الناس باللغة والشعر . ومن كتبه : كتاب سرقات الشعراء وما تواردوا عليه ، وكتاب معاني الشعر الكبير ، وكتاب معاني الشعر الصغير [1] .

---

(١) معجم الأدباء : ج ٢٠ ص ٥٠ — ٥٢

وأبو عثمان المازني « ٢٤٩ هـ » الذي لم يكن بعدَ سيبويه أعلمُ منه بالنحو ، رَوَى عن أبي عبيدة والأصمعيّ ، وأبي زيد الأنصاريّ ، وله كتابان في العروض والقافية (١) .

وأبو حاتم السجستانيُّ « ٢٥٥ هـ » كان إماماً في غريب القرآن واللغة والشعر ، أخذ عن أبي زيد والأصمعيّ وأبي عبيدة وغيرهم ، وكان حسنَ العلم بالعروض وقولِ الشعر الجيد ، وكان كثير التصانيف في اللغة والنحو والقراءة ، وله كتاب في الفصاحة (٢) .

وأبو الفضل الرياشيّ « ٢٥٧ هـ » أحدُ كبار النُّحاة وأهل اللغة ،كان كثيرَ الرواية للشعر . أخذ عن الأصمعيّ ، وكان يحفظ كتبه وكتب أبي زيد الأنصاري كلّها (٣) .

وأبو سعيد السكّريُّ النحويّ « ٢٧٥هـ » أخذ عن السجستانيّ والرياشيّ ومحمد بن حبيب والحارث بن أبي أسامة وخَلْقٍ سواهم ، وهو ثقة صادق ، وكان في عهده راويةَ البصريين ، وانتشر عنه من كتب الأدب ما لم ينتشر عن أحد من نظرائه ، وكان في كل ما جمع غايةً في الاستيعاب والكثرة .

ولعله أكثرُ مَن عُنِي بجمع أشعار الشعراء والقبائل . فمن الشعراء الجاهليين والمخضرَمين الذين عمل شعرهم : امرؤ القيس ، والنابغة الذبيانيّ ، وزهير ، ومهلهل ، والأعشى ، ولبيد ، والحطيئة ، والنابغة الجعديّ ، والمتلمّس ، والزِّبْرِقان بن بدر ، والشماخ بن ضرار ، وقيس بن الخطيم ، وتميم بن مُقبِل ، وبشر بن خازم ، ودُرَيْد بن الصمّة ، وأعشي باهلة عامرُ بن الحارث المعروف بجِران العَوْد .

(١) معجم الأدباء : ج ٧ ص ١٠٧

(٢) المرجع نفسه : ج ١١ ص ٢٦٣ ، وانظر فيه أيضا كتاب طبقات الأدباء : ص ١٨٩

(٣) انظر معجم الأدباء : ج ١٢ ص ٤٤ ، وكذلك طبقات الأدباء : ص ١٩٩

ومن شعراء الإسلام الذين عُنِيَ أيضاً بعمل شعرهم : الفرزدق ، والأخطل، وذو الرُّمَّة ، والراعي ، والكُمَيت ، ومُتَمِّم بن نويرة ، وهُدْبة بن خَشْرم العُذريّ ، وابن أحمر الباهلي . ومن المحدثين عمل شعر أبي نواس ، وتكلم على معانيه وغريبه . في نحو ألف ورقة ولم يَتم ، وإنما عمل مقدار ثلثه .

وأما أشعارُ القبائل فإنه عمل منها أشعار أربع وعشرين قبيلة ذكر أسماءها صاحبُ معجم الأدباء نقلا عن محمد بن إسحاق النديم [1] .

هذا عن أبي سعد السكري ، أمـا أبو العباس محمد بن يزيد المبرّد النحوي اللغويّ الأديبُ « ٢٨٥ هـ » فكان شيخَ أهل النحو والعربية وإليه انتهى علمُها ، أخذ عن أبي عمرو الجَرْميّ والمازنيّ والسجستاني وغيرهم من أهـل العربية ، وكان حسَنَ المحاضرة مليح الأخبار ، كثير النوادر .

وله تصنيفات كثيرة في شتى فروع العربية . وممـا يتصل بالأدب والشعر والنقد من كتبه : كتاب الكامل ، وكتاب العروض ، وكتاب القوافي ، وكتاب البلاغة ، وكتاب قواعد الشعر ، وكتاب ضرورة الشعر [2] .

وأبو العباس ثعلب « ٢٩١هـ » كان إمام الكوفيين في النحو واللغة في زمانه ، وكان ثقة دَيِّناً مشهوراً بصدقِ اللهجة والمعرفـةِ بالغريب ، وروايةِ الشعر القديم .

أخذ اللغةَ عن محمد بن زياد الأعرابي ، والنحوَ عن سلَمة بنِ عاصم ، وروى عن ابن نجدة كتب أبي زيـد ، وعن عليّ بنِ المغيرةِ الأثرم كتب أبي عبيدة ، وعن أبي نصر كتب الأصمعيّ ، وعن عمرو بن أبي عمرو بن العلاء كتب أبيه .

وله مؤلفات أكثرها في النحو والصرف وغريب القرآن والأمثـال ، ومن كتبه : كتاب الفصيح ، وكتاب معـاني الشعر ، ومجالس ثعلب التي تجمع بين

---

(١) معجم الأدباء : ج ٨ ص ٩٤ (٢) المرجع نفسه : ج ١٩ ص ١١١ — ١٢٢

قِطَعٍ من النحو ، واللغة ، والأخبار ، ومعاني القرآن ، والشعر .

وقد عمل أبو العباس ثعلب قِطعةً من دواوين العرب وفسَّرَ غريبهـا ، كالأعشى ، والنابغتين ، وطُفَيْل والطرماح وغيرهم [1] .

وهؤلاء الذين ذكرناهم على سبيل المثال من أعلام العربية في القرن الثالث يجمعهم العلم باللغة ونحوِها وأدبِها ، وما منهم إلاّ مَن له كتاب أو أكثر يَمُتّ إلى الشعر وأصول النقد بصلة ، وما منهم إلاّ مَن أُثِر عنه أيضاً بعض الأحكام النقدية والمفاضلات بين الشعراء .

وقد يكون من المناسب هنا أن نُلحق بهـذا الجيل من اللغويين والنحاة بعضَ معاصريهم من الأخباريين والنسَّابين ، وذلك لما كان يجمع بين الفريقين من تشابه كبير في الأذواق والاتجاهات الأدبية . وليس ذلك فحسب ، بل هم قـد نهجوا في النقد الأدبي نهجهم ، وعُنوا بالشعر عنايتهم ، وخلّفوا فيه كتباً قيمة .

ومن هؤلاء الأخباريين والنسابين أبو جعفر محمد بن حبيب « ٢٤٥ هـ » . كان من علماء بغداد بالأنساب والأخبار واللغة والشعر والقبائل ، ورَوَى عن ابن الأعرابيّ وقُطرُب وأبي عبيدة وأبي اليقظان .

وقد عمل قطعة من أشعار العرب ، وله كتب كثيرة ذكر منهـا ابن النديم ٣٣ كتاباً في الأمثال والقبائل والأنساب والتاريخ واللغة . ومن كتبه في الشعر : كتاب أخبار الشعراء وطبقاتهم ، وكتاب نقائض جرير والفرزدق ، وكتاب نقائض جرير وعمر بن لجأ الراجز ، وكتاب مَن نُسِب إلى أمه من الشعراء ، وكتاب الشعراء وأنسابهم ، وكتاب مَن سُمِّي ببيت قاله [2] .

ومنهم أبو حسَّان الزياديّ « ٢٤٣ هـ » . كان قاضياً أديبـاً يَعمل الكتب

---

(١) معجم الأدباء : ج ٥ ص ١٠٢ – ١٤٦ ، وانظر كذلك الفهرست لابن النديم: ص١١٦

(٢) الفهرست لابن النديم : ص ١٦١ ، وانظر تاريخ آداب اللغة العربية لجورجي زيدان : ج ٢ ص١٧٣

وتـعمَل له ، ومن كتبه : كتاب معاني عروة بن الزبير ، وكتاب طبقـات الشعراء ، وكتاب ألقاب الشعراء [1] .

ومنهم أبو عبد الله الزبير بن بكار من أحفـاد عبد الله بن الزبير . وهو من أهل المدينة ، وأحدُ الأخباريين والنسابين ، وكان شاعراً صدوقاً راويةً نبيل القدر . وَلِيَ قضاءَ مكةَ وتوفي وهو قاضٍ عليها سنة ٢٥٦ هجرية ، وروى عن ثمانية عشر من كبار رُواة عصره ، ذكرهم ابن النديم بأسمائهم ، ومنهم عمه مصعب بن عبدالله الراويةُ الأديبُ المحدِّثُ .

وللزبير بن بكار ٣٣ كتاباً بعضها في اللغة وأخبار العرب وأيامها وأنسابهـا مثل كتاب « نسب قريش وأخبارها » ،وأكثر كتبه في أدبالحجاز وشعرائه، ولعل اهتمامه بهذا اللون من الشعر راجع إلى أنه هو نفسَه حجازيٌّ من أهـــل المدينة .

ومن كتبه في أشعار الحجازيين : كتاب إغارة كـُثيِّر على الشعراء ،وكتاب أخبار ابن ميَّادةَ ، وكتاب أخبـــار حسَّان ، وكتاب أخبار عبد الرحمن بن حسَّان ، وكتاب الأحوص ، وكتاب أخبار جميل ، وكتاب أخبار نُصَيْب ، وكتاب أخبار كـُثيِّر ، وكتاب أخبار العرجيّ ، وكتاب أخبار هُدبَةَ بن خَشْرَم وزيادةَ العُذريّ ، وكتاب أخبار تَوْبَةَ بنِ الحُمَيِّر وليلىالأخيلية ، وكتاب أخبار ابنِ هَرْمَةَ ، وكتاب أخبار المجنون ، وكتاب أخبار عبد الله ابن قيس الرقيات ، ثم كتاب أخبار عمرَ بنِ أبي ربيعة [2] .



وبعد ... فهذه طائفة من علماء القرن الثالث تمثـل اللغويين والنحاة ومَن

---

(١) الفهرست لابن النديم : ص ١٦٦

(٢) المرجع نفسه : ص١٦٦ – ١٦٧

قاربهم في أذواتهم واتجاهاتهم ونهجوا نهجهم في النقد الأدبي من الأخباريين والنسابين .

ومن كتبهم التي ذكرناها نرى أنهم خاضوا بفكرهم في شتى فروع الثقافة العربية من لغة ونحو وعروض ، وأدب وشعر ونقد .

والمتتبع لما أثر عنهم من نقد أدبي ، سواء ما ورد منه فيما وصل إلينا من كتبهم ، أو ما ورد منه في كتب الأدب والنقد الخاصة ، يستطيع أن يتبين منهجهم النقدي ، وأن يحدده في النقاط التالية :

- العناية بسلامة التراكيب والأساليب. والسليم منها عندهم ما طابق قواعدهم وأقيستهم النحوية .
- نقد الألفاظ . ويتمثل ذلك في بحث بِنْيَةِ الألفاظ من حيث ما يَنقاس ولا يَنقاس منها ، كما يتمثل في تحديد مدلولاتها .
- إحصاء أخطاء الشعراء في وجوه الإعراب والاشتقاق .
- التنبيه إلى ما يقع فيه الشعراء من إخلال في الوزن والقافية ، وإلى ما يلجئون إليه من ضرورات شعرية ، ودلالة ذلك على مدى تمكن الشاعر أو عدم تمكنه من صنعته الشعرية .

هذه هي أهم خصائص منهجهم في نقد الصياغة أو الصورة الشعرية ، أما في نقد المعاني فإنهم كانوا يفضلون غالباً معانيَ القدماء وأخيلتَهم على معاني المحدثين. ومنهم من قاس المعانيَ أو حكم عليها بمقدار مجاوزتها أو عدم مجاوزتها لحدود الدين ، ولهذا كانوا يَعيبون كلَّ مَن يصوِّر في شعره معانيَ الخلاعة والمجون أو الزندقة والإلحاد .

وإلى جانب ذلك نراهم شاركوا الأدباء والنقاد في المفاضلات بين الشعراء . فأبو حاتم السجستاني النحوي مثلاً أنشِدَ شعراً لأبي تمام فاستحسنَ بعضه واستقبح بعضاً، وجعل الذي يقرأ عليه يسأله عن معانيه، فلا يعرفها أبو حاتم.

فلما فرغ قال : ما أُشَبِّه شعرَ هذا الرجل إلاّ بخُلْقانٍ لها رَوْعةٌ ، وليس لها مُفَتَّشٌ[1] .

وابنُ الأعرابيّ يقول وقد أُنشِد شعراً لأبي تمام : « إن كان هذا شعراً ، فما قالته العرب باطلٌ »[2] .

وأبو العباس المبرد يقول : حسين بن الضحاك أشعر المحدَثين في أبيات منها:

أيُّ ديباجةِ حُسْنٍ هيَّجَتْ لوعةَ حُزْني

إذ رماني القمرُ الزا هرُ عن فَترةِ جَفْنِ

بأبي شمسُ نهـارٍ برزتْ في يوم دَجْنِ

قرَّبتني بالمنى حتَّى اذا ما أخلفتني

تركتني بين ميعادٍ وخُلْفٍ وتَجَنٍّ[3]

هـذا عن المنهج الذي غَلب على اللغويين والنحاة من حيث نظرتُهم إلى الصياغة أو الصورة الشعرية ، وقد ساروا في ذلك على سَنَن أسلافهم ، وإنْ كانوا هم قد توسّعوا أكثر في نقد الشعر نقداً لغوياً .

وإلى جانب ما تقدّم هناك خصائصُ أخرى تميّز بها اتجاهُهم العامُّ في النقد. من ذلك أنهم كانوا كأسلافهم يؤثرون الشعر القديم ويعدونه المثل الأعلى للشعر العربي ، ومن ثَمَّ فهم يقيسون كل شعر به ، وكان أحسن الشعر عندهم ما جرى فيه صاحبُه على تقاليد الشعر القديم شكلاً ومضموناً ، كما كان مقياسُ المفاضلة

---

(١) الموشح المرزباني : ص ٤٦٥ ، وليس لها مُفتّش : أي ليس وراءها طائل

(٢) المرجع نفسه (٣) الأغاني : ج ٦ ص ٣٦٧

عندهم بين محدَث ومحدَث يقوم على أساس اتباع أو عدم اتباع مذهب القدماء .

ومن الخصائص الأخرى التي تميز بها اتجاههم العامُّ في النقد أنهم قلما عرضوا بالنقد والتحليل للسمات التي بدأت تشيع في شعر المحدثين من غلوٍّ في المعاني أو تكلف في البديع ، وإنما هم يرفضون شعر المحدثين في جملته ، دون أن يذكروا سبباً لهذا الرفض أكثر من أنه شعر غير جارٍ على مذهب القدماء في الصياغة والمعاني .

*

هذا عن اللغويين والنحاة في القرن الثالث ومنهجهم النقديِّ واتجاهِهم العام فيه ، وجهودهم في تطوير النقد الأدبي ، وموقفهم من الشعراء المحدثين والنظرة إلى شعرهم .

الشعراء المحدثون :

أمـا الشعراء المحدثون أنفسهم الذين ظهروا في هذا القرن فإن آراءهم ومفاضلاتِهم بين الشعراء وأحكامَهم عليهم ، لم تخرج عن نهج أسلافهم الشعراء في النقد .

فالبحتريُّ مثلاً يُسألُ : أيُّهما أشعر : أنت أو أبو تمام ؟ فيقول : جيِّدُه خيرٌ من جيدي ، ورديئي خيرٌ من رديئه [1] . والبحتريُّ أيضاً يفاضل بين اثنين من المحدَثين ويحكم لأحدهما على الآخر حكماً معللاً فيقول : دِعبلُ بنُ علي – الخزاعي – أشعر عندي من مُسلم بن الوليد . ولما قيل له : وكيف ذلك؟ قال : لأن كلام دِعبل أدخـلُ في كلام العرب من كلام مسلم ، ومذهبه أشبه بمذاهبهم [2] .

---

(١) الأغاني : ج ١٨ ص ٢٩١ (٢) المرجع نفسه : ج ١٨ ص ٨٤ ٨٥

وأبو تمام يُنشده البحتريُّ شيئاً من شعره فيقول له : « أنت والله يا بُنيَّ أميرُ الشعراء غداً بَعدِي » [1] . وأبو تمام كذلك يستحسن بيتاً لعليّ بن جبلة فيتمنى لو أن له هذا البيتَ بثلاث قصائد من شعره . أنشده عبد الله بن محمد بن جرير قصيدةَ عليّ بن جبلةَ البائية فلما بلغ في الإنشاد إلى قوله :

وَرَدَّ البِيضَ والبِيضَ   الى الأَغمادِ والحُجُبِ [2]

اهتز أبو تمام من فَرْقِه إلى قدمه ، ثم قال : أحسنَ والله لوَدِدْتُ أنَّ لي هذا البيتَ بثلاث قصائد من شعري يتخيّرها وينتحلها مكانه [3] .

وابنُ الرومي يحكم لحسين الضحّاك بأنه أغزلُ الناس وأظرفُهم في بعض شعره [4] وهكذا ...

*

العلماء الأدباء :

ولعل أكثر رجال القرن الثالث اشتغالاً بقضايا الأدب والشعر والبلاغة والنقد هم العلماء الأدباء ، ممن تعمّقوا في الثقافة العربية وألموا بالمعارف الأجنبية. وخير من يمثل هذه الطائفة الجاحظ وابن قتيبة ، فكلٌّ منهما كان لبحوثه الأدبية وآرائه أثر كبير في تطوير حركة النقد الأدبي ، وتوسيع مجاله ، وتعبيد طرقه

---

(١) الأغاني: ج ١٨ ص ٤٠١

(٢) البِيض الأولى : جمع أبيض وهو السيف ، والبِيض الثانية : جمع بيضاء ، وهي هنا صفة لامرأة . يقال : امرأة بيضاء ونساء بِيض . وإذا قالت العرب : فلان أبيض وفلانة بيضاء فالمعنى نقاء العِرض من الدَّنَس والعيوب ، وليس المعنى بياض اللون . والأغماد : جمع غِمد ، وهو جَفْن السيف .

(٣) الأغاني : ج ١٨ ص ٢٤٣   (٤) المرجع نفسه : ج ٦ ص ٣٩٢

أمامَ مَن جاء بعدهما من النقاد . وفيما يلي تعريف بهذين العالمين الأديبين، وعَرْضٌ لأهمّ آرائهما البلاغية والنقدية :

الجاحظ

والجاحظ هو أبو عثمانَ عمرُو بنُ بحرِ بنِ محبوب الكنانيُّ ولاءً البصريُّ مولداً ، والمتوفى سنة ٢٥٥ للهجرة . وهو من كبار المعتزلة ، وإليه تُنسَب إحدى فرق المعتزلة المعروفةِ بالجاحظية .

تتلمذ في اللغة والأدب على أبي عبيدة والأصمعيّ وأبي زيد الأنصاريّ ، وفي النحو على الأخفش ، وفي علم الكلام على أبي إسحاق إبراهيم بن سيَّار المعروف بالنظّام ، المتكلمِ المشهور وزعيم طائفة المعتزلة ببغداد .

أُولِع بالقراءة إلى حد أنه كان يكتري دكاكين الورّاقين ويبيت فيها للنظر ، وكان يَغشَى مِربَد البصرة ويأخذ عن فصحاء العرب شفاهاً . كذلك اتصل بالثقافة اليونانية عن طريق علماء الكلام ومشافهته لبعض مترجميها من أمثال حنين بن إسحاق ، كما أخذ الثقافة الفارسية عن طريق كتب ابن المقفع .

وكان له من حسن الاستعداد والذكاء الوقّاد والعقلية المتحررة خيرُ مُعين على عملية الاستيعاب والهضم والتمثيل لكل ما أصابه من علم وثقافة وتجربة .

وتاريخ الجاحظ هو في الواقع تاريخ قرنٍ كامل يُعَدُّ زهرةَ الدولة العباسية . لقد كان من حظه ، وإن شئت فقل كان من حظ الثقافة العربية ، أن يعيش في العصر الذهبي للأمة ، عصرِ الرشيد والمأمون ، حيث العلومُ والآدابُ يومئذ تزخر بها معاهدُ العلم في سائر عواصم العالم الإسلاميّ ، وحيث حركةُ العلم والتأليف والترجمة نشيطةٌ ، والتشجيع عليها كثير من ذوي السلطان والمال .

وللجاحظ أسلوبٌ يمتاز به ولا يُنسَب إلاّ إليه ، وهو أسلوب تظهر فيه

شخصيته ظهوراً تاماً ، حتى ليستطيع المرءُ أن يميّزه ويعرف أيُّ الكتب له وأيُّها ليست له .

وهو في تأليفه محاضر أنيس تحرّر من قيود كثيرة تقيّد بها علماءُ عصره ، وما يبدو في كتاباته من الهزل إنما هو هزل َقصد به دفعَ الملَلِ عن القارىء والسآمةِ عن السامع .

وقد غلبت عليه النزعة الأدبية في كل ما كتب حتى عن الحيوان ، فهو يتخيّر ألفاظَه وعباراتِه ويُؤثر الأدب في كل صوره على التحقيق العلمي .

وللجاحظ ما يقرب من ثلثمائة وستين مؤلفاً في فنون شتى من المعرفة . ومع أن الكثيرَ من هذا التراثِ العلمي قد ضاع علينا بعوامل الزمن والإهمال وتقلبات الأحداث السياسية التي مرت على الأمة في عصورها المختلفة . فإن ما بقي لنا من كتبه ووصل إلى أيدينا قدرٌ كبير نعتزّ به لنفاسته . وقد تخرّج عليه أجيالٌ وأجيالٌ من الأدباء ، ولا تزال مؤلفاتُه الباقيةُ إلى اليوم من المراجع الأدبية الكبرى التي لا غنىً عنها للباحثين والدارسين والأدباء والمتأدبين .

وكُتُب الجاحظ ، كما يدل عليها ما بين أيدينا منها ، يلتقي العلمُ فيها بالأدب ، ولا يقتصر فيها على البراهين النظرية ، وإنما يستعين فيها بالتاريخ وبالشعر ، وبما يَعرِف من أحداث ، وما جرّب هو من تجارب .

وفي كتبه يختلط ما تعلّم ، بما سمع ، بما شاهد ، بما جرّب ، وفيها كذلك مزَجَ الشعر الجاهليّ بالإسلاميّ ، بعلم أرسطو ، بطب جالينوس ، كما مزج آياتِ القرآن الكريم بأحاديث الرسول ، برأي الطبيعيين والدهريين ، باليهودية والنصرانية ، برأي الزرادشتيين والمانويين . وخلاصةُ القول في كتبه أنها « دائرة معارف » لزمانه غيرُ مرتبة .

والجاحظ يُعَدُّ بحقّ مؤسّسَ علمِ البلاغة العربية التي يقوم النقدُ العربيّ على كثيرٍ من أصولها . فهو أولُ أديب عربيٍ توسّع في دراسة هذا العلم

وأعطاه الكثيرَ من نشاطه الأدبيّ والفكريّ . وهو أولُ مَن جمعَ ما يتصل به من كلام سابقيه ومعاصريه وشرحه ، وأضاف إليه ما عَنّ له شخصيًّا من أفكار وآراء .

فكلُّ ما أخذه من قضايا البيان والبلاغة والنقد عن سابقيه ومعاصريه ، وكل ما اهتدى إليه من حقائق بلاغية ونقدية كان لها أثر كبير واضح في تاريخ البلاغة والنقد . وقلما ظهر بلاغيٌّ أو ناقدٌ بعده لم يُفِد من كتاباته في البيان والبلاغة والنقد بطريق مباشر أو غير مباشر .

*

وكُتُبُ الجاحظ التي بين أيدينا لا تخلو في جملتها من كلام في الأدب وفروعه ، ولكنْ مِن بين جميع كتبه هناك كتابان قد عُنِي فيهما عنايةً خاصة ببحث قضايا البيان والبلاغة ونقد الكلام والشعر . هذان الكتابان هما : « البيان والتبيين » في المحل الأول ، وكتاب « الحيوان » في المحل الثاني .

وكتاب « البيان والتبيين » هو أوفى كتب الجاحظ التي بحث فيها قضايا البلاغة والنقد ، وإنْ كانت هذه القضايا قد أتَتْ ، كما قال أبو هلال العسكري ، مبثوثةً في تضاعيف الكتاب ، منتثرةً في أثنائه ، ضالّةً بين الأمثلة ، لا توجد إلاّ بالتأمُّلِ الطويل والتصفُّحِ الكثير [1] .

وفيما يلي تلخيص لقضايا البلاغة والنقد الأدبيّ التي عرض لها الجاحظ في كتبه :

(١) **اللفظ والمعنى** :

قضية « اللفظ والمعنى » من قضايا النقد الأدبي التي كانت وما زالت موضع اهتمام النقاد قديماً وحديثاً ، على أساس أنهما من عناصر العمل الأدبي ، ومن

---

(١) كتاب الصناعتين : ص ٤ - ٥

الخصائص التي تؤخذ في الاعتبار عند تقديره والحكم عليه .

والجاحظ من أوائل أدباء العرب الذين بحثوا في « اللفظ والمعنى » من زوايا متعددة وجوانب مختلفة .

فهو من ناحية يرى أن أحسنَ الكلام ما كان معناه في ظاهر لفظه ، وأن ذلك لا يتمُّ في رأيه إلاّ عن طريق المزاوجة بين المعنى الشريف واللفظ البليغ . وهو في تقرير هذا الرأي وتوضيحه يقول : « وأحسنُ الكلام ما كان قليلُه يُغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ... فإذا كان المعنى شريفاً واللفظُ بليغاً ، وكان صحيحَ الطبع ، بعيداً عن الاستكراه ، ومُنزّهـاً عن الاختلال مَصوناً عن التكلف ، صَنعَ في القلوب صُنعَ الغيثِ في التُّربة الكريمة »[1].

ومن ناحية ثانية يرى أن الأدب والشعر منه على سبيل المثال ليس في المعنى وحده ، لأن المعاني في مُتناول الجميع ، ولا يكفي في المعنى أن يكون شريفاً حتى يكتسب به الكلامُ صفةَ البلاغة ، وإنما الأسلوبُ القويُّ المحكَم بكل عناصره هو الذي يَجلوه ويُضفي عليه من نعوت البلاغة ، وبالتالي يُحدث تأثيرَه في النفوس .

وعن ذلك يقول : « وذهب الشيخ أبو عمرو الشيباني إلى استحسان المعنى . والمعاني مطروحة في الطريق يعرفهـا العجميُّ والعربيُّ ، والبدويُّ والقرويُّ والمدنيُّ ، وإنما الشأن في إقامة الوزن ، وتخيُّرِ اللفظ ، وسهولة المَخرج وكثرةِ المـــاء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعر صناعةٌ ، وضربٌ من النَّسْج ، وجنسٌ من التصوير »[2] .

ولكن لا ينبغي أن يُفهَم من هذا القول أن الجاحظ يُنكر المعانيَ وشأنَها في بلاغة القول ، لأننا نراه يُنوِّهُ بألوان المعاني الغريبة العجيبة ، والشريفـة

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٨٣ (٢) كتاب الحيوان : ج ٣ ص ١٣١

الكريمة ، والبديعة المخترعة ، ويبيّن كيف يتنازعها الشعراء ، فيدّعي كلٌّ أنها من بنات أفكاره ووحي خياله ، وكيف أن من هذه المعاني مــا يُخرجه الشاعر إخراجاً لا يُبارَى فينصرف الشعراء عنه عجزاً [١].

وقد اهتدى الجاحظ بنفاذ بصيرته وهو يعالج قضية « اللفظ والمعنى » إلى حقيقة هامة لها أثرها في البلاغة والنقد الأدبي . هذه الحقيقة هي أنّ لكل فنٍّ من القول ولكل أديبٍ ناثراً أو شاعراً ألفاظه أو معجمَه اللغويّ الخاص.

وعن هذه الحقيقة يقول الجاحظ : « ولكل قوم ألفاظٌ حَظِيَتْ عندهم وكذلك كلُّ بليغٍ في الأرض وصاحبِ كلام منثور ، وكلُّ شاعر في الأرض وصاحبِ كلام موزون ، فلا بد أن يكون قد لَهِج وأَلِفَ ألفاظاً بأعيانهــا ليُديرَها في كلامه ، وإن كان واسعَ العلم غزيرَ المعاني كثيرَ اللفظ » [٢] .

ولعله استوحى هذه الحقيقة من بشر بن المعتمر حيث لاحظ أن للمتكلمين ألفاظاً خاصة تدور على ألسنتهم وفي بيئتهم وأنه حَرِيٌّ بهم ألاّ يستعملوها في كلامهم للعامة [٣] .

(٢) **النظم :**

وحديث الجاحظ عن « اللفظ والمعنى » لا يُقصَد به اللفظُ المفرَدُ وحدَه أو المعنى المفردُ وحدَه ، وإشادتُه الكثيرةُ باللفظ لا تعني أنه يقدّمه على المعنى ، لأنه في الوقت الذي كان يشيد فيــه بالقيمة اللفظية كان يرى في المعاني رأي العتّابي من أنها « تحل من الألفاظ محل الروح من البدن » .

وعلى هذا فبلاغة الكلام عنده هي في المزاوجة أو الملاءمة بين اللفظ والمعنى ، وهذه المزاوجة أو الملاءمة تتمثل في الأسلوب القوي المحكم ، أو في « نظم »

---

(١) كتاب الحيوان : ج ٣ ص ٣١١
(٢) المرجع نفسه : ج ٣ ص ٣٦٦
(٣) البيان والتبيين : ج ٣ ص ١٣٩

الألفاظ التي يتطلبها المعنى على نحو يُتيح لجوهر المعنى أن يبدوَ كاملاً واضحاً مؤثراً . فنظم الكلام على هذا النحو عنده هو الذي يُضفي عليه نعوت البلاغة، ويمنحه قوة التأثير في النفوس .

وقد استعمل الجاحظ لفظة « النظم » في كتاباته للدلالة على أكثر من معنى . فهو قد تحدّث مراراً عن « النظم » بمعنى التأليف والإنشاء، وجعل له أصنافاً من القصيد والرجز والمزدوج والمجانس والأسجاع والمنثور .

كما ذكر « النظم » في معرِض حديثه عن إعجاز القرآن، مُعلناً أنّ إعجازَه إنما هو في « نظمه » . ففي مرة يقول : « إن الرسول تحدّى البلغاء والخطباء والشعراء بنظمه وتأليفه » . وفي مرة ثانية يقول : « إن الله صرف نفوس العرب عن المعارضة للقرآن، ورفعها عن أوهامهم بعد أن تحدّاهم الرسولُ بنظمه » . وفي مرة ثالثة يقول : « وفي كتابنا المنزّل الذي يَدلنا على أنه صدق نظمُه البديعُ الذي لا يَقدِر على مثله العباد » [1] .

(٣) مطابقة الكلام لمقتضى الحال :

ومطابقة الكلام لمقتضى الحال أصل من الأصول البلاغية المقرّرة . وقد كان ولا يزال يُنظَر إليه من البلاغيين والنقاد كمقياس من مقاييس البلاغة والنقد، وبمقدار تحققه في الكلام يكون حظه من البلاغة والإصابة .

والجاحظ في طليعة من لحظوا هذا الأصل كقيمة بلاغية نقدية، ولهذا نراه يكثر من الإشارة إليه والتأكيد عليه، كقوله : « حقُّ المعنى أن يكون الاسم له طِبقاً، وتلك الحال له وَفْقاً ... ومدارُ الأمر على إفهام كلّ قومٍ بقدر طاقتهم » .

ومن مطابقة الكلام لمقتضى الحال عنده وجوبُ تحرّي الموضوع أو الغرضِ

---

(١) كتاب الحيوان : ج ٤ ص ٩٠

المتحدَّث عنه واختيارِ ما يلائمه ويناسبه من الألفاظ، وفي ذلك يقول: «ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء : فالسخيف للسخيف ، والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاحُ في موضع الإفصاح ، والكنايةُ في موضع الكناية، والاسترسال في موضع الاسترسال »[1].

وإذا كان الموضوع المتحدَّث عنه ألفاظٌ اصطلاحيةٌ خاصةٌ ، فإن مطابقةَ الكلام لمثل هذا الموضوع تقتضي عدمَ استعمال هذه المصطلحاتِ إلاَّ فيه خاصةً ، وعن ذلك يقول : « فإن كان الخطيب متكلماً تجنب ألفاظ المتكلمين، كما أنه إنْ عبَّر عن شيء من صناعةِ الكلام واصفاً أو مجيباً أو سائلاً ، كان أوْلَى الألفاظ به ألفاظَ المتكلمين ، إذْ كانوا لتلك العباراتِ أفهَمَ ، وإلى تلك الألفاظ أميل ، وإليها أحنّ وبها أشغفَ »[2]. ومن أجل هذا يقرر : « لكل مقام مقال ولكل صناعة شكل » .

وعنده أن المصطلحاتِ الخاصةَ بموضوع أو عِلم مُعيَّن قد تَحسُن أو تُقبَل في الشعر على وجه التظرّف والتملُّح ، كقول أبي نواس مستعملاً بعضَ ألفاظ المتكلمين :

يا عاقدَ القلبِ منّي هَلَّا تذكرتَ حَلَّا ؟
تركتَ مِنّي قليلاً من القليل أقلَّا
يكاد لا يتجزَّا أقلُّ في اللفظ من «لا»[3]

وقد يذهب الجاحظ في سبيل مطابقة الكلام لمقتضى الحال إلى حدٍّ يجعله يدعو إلى اللحن ومجانبة الإعراب إذا اقتضى المقامُ ذلك . ويظهر أن هذا الأمرَ قد شغل باله كثيراً لأننا نراه يشير إليه في كتابه أكثرَ من مرة .

---

(١) كتاب الحيوان : ج ٣ ص ٣٩ (٢) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٣٩
(٣) المرجع نفسه : ج ١ ص ١٤١

فمرةً يقول : « وأنا أقول : إن الإعراب يُفسِد نوادرَ المولَّدين ، كما أن اللحنَ يُفسِد كلامَ الأعراب ، لأن سامع ذلك الكلام إنما أعجبته تلك الصورةُ وذلك المخرجُ ، وتلك اللغةُ وتلك العادةُ . فإذا دَخَلْتَ على هذا الأمر - الذي إنما أضحكك بسُخْفه وبعض كلامِ العَجَميَّة - حروفَ الإعراب والتحقيقِ والتثقيلِ ، وحوَّلتَه إلى صورةِ ألفاظِ الأعراب الفصحاء ، وأهلِ المروءة والنَّجابة ، انقلب المعنى مع انقلاب لفظه ، وتبدَّلتْ صورتُه »[1] .

ومرة أخرى يقول: «وإذا كان موضوعُ الحديث على أنه مُضحِكٌ ومُلْهٍ ، وداخلٌ في باب المزاح والطِّيب ، فاستعملتَ فيه الإعراب ، انقلب عن جهته ، وإنْ كان في لفظه سُخْف وأبدلتَ السخافة بالجزالة صار الحديث الذي وُضِع على أن يَسُرَّ النفْسَ يَكرُبها ، ويأخذ بأكظامها »[2] .

ومرة ثالثة يقول : « ومتى سمعتَ - حفظك الله - بنادرةٍ من كلام العرب فإياك أن تحكيَها إلاَّ مع إعرابها ومخارجِ ألفاظها ، فإنك إنْ غيَّرتَها بأن تلحَنَ في إعرابها وأخرجْتَها مخارجَ المولَّدين والبلديِّين ، خرجتَ من تلك الحكايةِ وعليك فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوامّ ، ومُلْحة من مُلَحِ الحُشْوَةِ والطَّغام ، فإياك وأنْ تستعمِلَ فيها الإعراب ، أو تتخيَّرَ لها لفظاً حسناً ، أو تجعلَ لها مِن فِيك مَخرَجاً سَرِيًّا ، فإن ذلك يُفسِد الإمتاعَ بها ، ويُخرجها من صورتها ، ومِن الذي أُرِيدَتْ له ، ويُذهب استطابتَهم إياها واستملاحَهم لها »[3] .

---

(١) كتاب الحيوان : ج ١ ص ٢٨٢

(٢) كتاب الحيوان : ج ٣ ص ٣٩ ، ويكرُبُ النفْس : يحزنها ويغمُّها ، والأكظام : جمع كظَم بالتحريك : مخرج النفَس من الحلق ، ويأخذ بأكظامها : أي بمخارج أنفاسها .

(٣) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٤٥ ، والحُشْوة من الناس : رُذالتهم ، والطَّغام هنا : أراذل الناس وأوغادهم .

وتجدر الإشارة هنا إلى حقيقتين : الأولى أن ما أورده الجاحظ هنا ليس مقصوراً على موضوع النوادر والمُلَح ، فقد ذكرها على سبيل المثال ، وإنما القصدُ العامُّ عنده هو ضرورة رعاية المطابقة بين الكلام ومواضعه .

والحقيقة الثانية أنَّ ما ذكره عن لغة النادرة والحكاية إنما هو مِن وَحْيِ تجربته الذاتية وملاحظته الشخصية ، لأنَّ الجاحظَ كما نعلم مِن أرباب الأسلوب الساخر وصُنّاع الفكاهة في الأدب العربي . فهو لذلك أدرى من غيره بالخصائص الأسلوبية التي تتطلبها طبيعة النادرة أو الطُّرفة الأدبية ، لتعطيَ أقصى ما تملك من إمتاع وإضحاك .

(٤) السرقات الشعرية :

وبحْثُ الجاحظ في قضية « اللفظ والمعنى » أدّى به إلى الكلام على مُشكلة « السرقات الشعرية » أو مشكلة « أخذِ الشعراء بعضِهم معانيَ بعض » ، على حد تسميته .

وفي ذلك يقول : « ولا يُعلَم في الأرض شاعر تقدَّمَ في تشبيه مُصيبٍ تام ، وفي معنى عجيب غريب ، أو في معنى شريف كريم ، أو في بديع مختَرَع ، إلاّ وكلُّ مَن جاء مِن بعده أو معه ، إنْ هو لم يَعْدُ على لفظه فيسرقَ بعضَه أو يَدَّعِيَه بأسره ، فإنه لا يدع أن يستعينَ بالمعنى ، ويجعلَ نفسَه شريكاً فيه ، كالمعنى تتنازعه الشعراء ، فتختلف ألفاظُهم وأعاريض أشعارهم ، ولا يكون أحدٌ منهم أحقَّ بذلك المعنى مِن صاحبه . أو لعلَّه أن يجحدَ أنه سمِع بذلك المعنى قط ، وقال إنه خطَر على بالي من غير سَماع ، كما خطر على بالِ الأوَّل . هذا إذا قرَّعوه به . إلاّ ما كان من عنترة في صفة الذّباب ، فإنه وصفه فأجاد وصفه ، فتحامَى معناه جميعُ الشعراء فلم يعرضْ له أحد منهم . ولقد عرضَ له بعضُ المحدَثين ممن كان يُحسِّن القولَ ، فبلغ من استكراهه لذلك المعنى ، ومن اضطرابه فيه أنه صار دليلاً على سوء طبعه في الشعر . قال عنترة :

جادت عليه كلُّ عينٍ ثَرَّةٍ ... فتركنَ كلَّ حديقةٍ كالدرهمِ [1]

فترى الذُّبابَ بها يُغنِّي وحدَه ... هَزِجاً كفعل الشاربِ المُترنِّمِ

غَرِداً يحُكُّ ذراعَه بذراعِه ... فِعْلَ المُكِبِّ على الزنادِ الأَجذَمِ

قال : يريد فِعْلَ الأقطع المكبّ على الزناد . والأجذمُ : المقطوع اليدين . فوصفَ الذباب إذا كان واقعاً ثمّ حكّ إحدى يديه بالأخرى ، فشبّهه عند ذلك برجل مقطوع اليدين يقدح بعُودين . ومتى سقط الذباب فإنه يفعل ذلك . ولم أسمع في هذا المعنى بشعر أرضاه غير شعرِ عنترة » [2].

فالجاحظ هنا يُعرِّف السرقاتِ الشعريةَ بأنها « أخْذُ الشعراءِ بعضِهم معانيَ بعض » ، ثم يقرِّر أنها لا تكون في مطلق معنى ، وإنما تكون في المعنى الغريب العجيب ، أو في المعنى الشريف الكريم ، أو في المعنى البديع المخترع .

كما يقرر بأنها تكون بأخْذِ معاصرٍ من معاصر ، أو بأخْذِ متأخرٍ من متقدّم ، وأن الأخْذَ قد يكون بسرقة بعض اللفظ أو ادّعائه بأسره ، وأن المعانيَ المشتركةَ مع اختلاف الألفاظ والأوزان يصعب فيها تحديدُ الآخذ والمأخوذِ منه ، لدَعْوَى كلِّ شاعرٍ بأن المعنى خطر على باله من غير سماع، وأن المعنى الذي يتحاماه الشعراء هو المعنى البديعُ المخترعُ لصعوبة إخفائه أو الارتفاعِ في التعبير عنه على مستوى مخترِعِه .

وما من شك في أن الجاحظ بهذا الكلام كان من أوائل مَن عَرَض لمشكلة « السرقات الشعرية » ونظر إليها بعين الناقد البصير . ومن ثَمّ فلا عجبَ أن نرى رجال البلاغة والنقد مِن بَعده كابن طباطبا، والمرزبانيّ ، وأبي هلال العسكري ،

(١) العينُ الثرّة : السحابة الغزيرة المطر ، وجعل الحديقة كالدرهم في استدارته لا قدره .

(٢) كتاب الحيوان : ج ٣ ص ٣١١ - ٣١٢

وابنِ رشيق ،وعبدِ القاهر الجرجاني،والآمدي، والقاضي الجرجاني،والحاتمي، وابن وكيع ، وابن الأثير ، يقتفون أثرَه ويتوسعون كثيراً في بحث السرقات الشعرية ويُنوِّعُونها أنواعاً ، ويلقّبُونها ألقاباً غريبة ، كالإغارة ، والغصب ، والاختلاس ، والانتحال ، والاجتلاب ، والاستلحاق ، والاهتدام ،والمرافدة .

*

(٥) **فصاحة الكلمة وفصاحة الكلام :**

ومن قضايا البلاغة والنقد التي عرض لها الجاحظُ «فصاحةُ الكلمةوفصاحةُ الكلام» .

فالجاحظ يشترط في فصاحة «الكلمة» سلامتَها من تنافر الحروف ، وعنده أنّ تجاورَ الحروف المتنافرة في الكلمة يؤدّي إلى تعثّر اللسان في النطق بها ، وهذا مما يقلّل من درجة فصاحتها .

وتجنبُ التنافر يكون بملاحظةِ الحروف التي لا تتجاور والتفرقةِ بينها حتى يَسهلَ النطقُ بها . يقول الجاحظ : «ومن ألفاظ العرب ألفاظ تتنافر ،وإن كانت مجموعة في بيت شعر لم يستطع المنشد إنشادها إلاّ ببعض الاستكراه ، فمن ذلك قول الشاعر :

وقبرُ حربٍ بمكانٍ قفرُ وليس قربَ قبرِ حربٍ قبرُ »

ومن هذا القبيل قول ابن سيرين :

لم يَضِرْهـا والحمدُ لله شيءٌ وانثنتْ نحو عَزْفِ نفس ذَهولِ

فإنه يعلق عليه بقوله : «تفقّدِ النصفَ الأخيرَ من هـذا البيت ، فإنك ستجد بعض ألفاظه يتبرأ من بعض !» .

كذلك يرى أن الشعر إذا كان مستكرَهاً ، وكانت ألفاظُ البيت من الشعر

لا يقع بعضها مماثلاً لبعض ، كان بينهمـا من التنافر ما بين أولاد العَلاّت [1] .
وإذا كانت الكلمة ليس موقعُها إلى جنب أختها مَرْضِيـًّا موافقاً ، كان على اللسان عند إنشاد ذلك الشعرِ مَؤونةٌ .

قال : وأجود الشعر ما رأيتَه متلاحم الأجزاء ، سهلَ المخارج ، فتعلم بذلك أنه قد أُفرغ إفراغاً واحداً ، وسُبِكَ سَبْكاً واحداً ، فهو يجري على اللسان كما يجري على الدهان .

وهو يورد قول أبي البيداء الرياحي :

وشعرٍ كبعر الكبش فرَّق بينه لسانُ دَعِيٍّ في القريض دخيلِ

ثم يعلق عليه هكذا : « وأما قوله « كبعر الكبش » فإنما ذهب إلى أن بعر الكبش يقع متفرّقاً غيرَ مؤتلف ولا متجاور . وكذلك حروف الكلام وأجزاء البيت من الشعر ، تراها متفقةً مُلْساً وليّنة المعاطف سهلة ، وتراها مختلفةً متباينةً ، ومتنافرةً مستكرَهةً ، تشقُّ على اللسان وتكُدُّه ، والأخرى تراها سهلة ليّنةً ، ورطبةً مواتيةً ، سلِسةَ النظام ، خفيفةً على اللسان ، حتى كأن البيتَ بأسْرِه كلمةٌ واحدة ، وحتى كأنّ الكلمةَ بأسْرها حرفٌ واحد » [2] .

ومن فصاحة الكلمة عنده أيضاً أن تكون مألوفةً غيرَ غريبة . فالفَأْفَأةُ والقَرْقَرَةُ من الألفاظ الغريبة المستهجَنة ، والمُغْرِبون : قوم مَدخولون في عقولهم إذا كانوا من غير الأعراب .

فكلامٌ مثلُ رسالةِ يحيى بن يعمر النحوي على لسان يزيد بن المهلب التي يقول فيها : « إنا لقينا العدوَّ فقتلنا طائفةً وأسرنا طائفةً ولحِقَتْ طائفةٌ

---

(١) العَلّة أو العَلاّت : أبناء الرجل الواحد من أمهات شتى .
(٢) البيان والتبيين : ج ١ ص ٦٥ - ٦٧

بعَراعِرِ الأودية ، وأهْضام الغِيطان ، وبِتنْنا بعُرْعُرَةِ الجبل ، وبات العدو بحضيضه » أبعد مـا يكون عن الفصاحة . وفي التعليق عليه يقول الجاحظ : « فإن كانوا إنما رَوَوْا مثلَ هذا الكلام لأنه يدُلّ على فصاحـة فقد باعده اللهُ من صفة البلاغة والفصاحة ، وإن كانوا قد دوّنُوه في الكتب ، وتذاكروه في المجالس لأنه غريب ، فأبياتٌ من شعرِ العجّاج وشعرِ الطرمّاح وأشعـارِ هُذَيْل ، تأتي لهم مع حُسْنِ الرّصْف على أكثرَ من ذلك »[1] .

فهـذا الكلام وأمثاله يبيِّن رأي الجاحظ في الغريب وأهله ، والتكلف وأصحابه . وفي ذلك يقول : « وكما لا ينبغي أن يكون اللفظ عامياً وساقطـاً سوقياً ، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريباً وحشياً ، إلاّ أن يكون المتكلمُ بدويّـاً أعرابيّـاً ، فإن الوحشيّ من الكلام يفهمه الوحشيّ من الناس ، كما يفهم السوقيُّ رطانة السوقيّ »[2] .

ففصاحةُ الكلمة في رأيه هي في تآلف أصوات حروفهـا لا في تنافرها ، حتى لكأنّ الكلمة بأسْرِها حرفٌ واحد . وفصاحةُ الكلام هي في بُعدِه عن الغرابة ، وفي تلاحم أجزائه وائتلاف ألفاظه ، حتى كأن الكلامَ بأسْرِه مِن حُسْنِ الجِوار وشدةِ التلاحم كلمةٌ واحدة .



(٦) الجاحظ والبيان :

اهتم الجاحظ اهتماماً ملحوظاً بالبيان العربي في كل ما كتب ، حتى لنراه قد أفرد له كتاباً خاصاً هو « البيان والتبيين » كما عرض له أحياناً في بعض كتبه

(١) البيان والتبيين: ج١ ص ٣٧٧ - ٢٧٨ ، وعراعر الأودية: أسافلها، وعراعر الجبال: أعاليها ، وأهضام الغيطان : مداخلها ، والغيطان : جمع غائط ، وهو الحائط ذو الشجر .

(٢) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٤٤

الأخرى . وفيما يلي خلاصة لمعناه ومفهومه عنده ، وكذلك لأهم مباحثه التي ألمّ بها .

معنى البيان : كثيراً ما تَرِدُ كلمةُ « البيان » عند الجاحظ بمعناها اللغوي العام وهو « الفهم والإفهام » . وفي هذا الوجه من أوجه معاني « البيان » يقول: « إنّ مدارَ الأمر والغاية التي يجري إليها القائلُ والسامعُ إنمـــا هو « الفهمُ والإفهامُ » ، فبأيّ شيءٍ بلغتَ الإفهام وأوضحتَ عن المعنى فذلك هو البيانُ في ذلك الموضع »[1] .

ويأتي « البيان » بمعنى « البرهـــان » وذلك في قوله عن القرآن : إن ناساً طعنوا فيه « بغير علم ولا بيان » ، وفي إيراده البيـــان والبرهان مترادفين في قوله : « سأوضح ذلك بالبرهان القاطع والبيان الساحر » .

كما يأتي بمعنى « البلاغة » حين يضع البيان مرادفاً لها ، ويذكر ما في البلاغة المشوبة بالتكلف والبيان الممزوج بالتعمل ، من لائمة ومذمة . ويظهر هذا المعنى في قوله عند تكلمه على صناعة البلاغة وكتب الأعاجم فيها : « فمن قرأ هـــذه الكتب وعرَف غَوْرَ تلك العقولِ وغرائبَ تلك الحِكَمِ ، عرَف أين البيانُ والبلاغةُ ، وأين تكاملتْ تلك الصناعةُ »[2] .

واستعمل « البيان » أيضاً بمعنى رَوْعةِ التعبير وقُدرةِ صاحبِه على نُصرة رأيه بالحق وبالباطل ، مُستشهداً على ذلك بقول مالك بن دينار : « ربما سمعتُ الحجاج يخطب ، يذكر ما صنع به أهل العراق وما صنع بهم ، فيقع في نفسي أنهم يظلمونه ، وأنه صادق لبيانه وحُسْنِ تخلُّصه بالحُجج »[3] .

تعريف البيان : لم يَثبت الجاحظ على تعريف واحد للبيان .

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٧٦ (٢) المرجع نفسه : ج ١ ص ١٠٦
(٣) المرجع نفسه : ١ ص ٣٩٤

فمرة يعرفه تعريفاً عاماً بقوله : « والبيانُ اسمٌ جامعٌ لكل شيء كشفَ لك قناعَ المعنى ، وهتك الحجابَ دون الضمير ، حتى يُفضِيَ السامعُ إلى حقيقته ، ويَهجُمَ على محصوله كائناً ما كان ذلك البيانُ ، ومِن أيّ جنسٍ كان الدليل »[١] .

ومرةً أخرى يُعرّفه بقوله: « والدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ هو البيان الذي سمعتَ الله عزّ وجلّ يمدحه ، ويدعو إليه ويَحثُّ عليه .. بذلك نطق القرآن ، وبذلك تفاخرتِ العرب ، وتفاضلت أصنافُ العجم »[٢] .

وتوضيحاً لهذا التعريف يأتي على قول جهابذة الألفاظ ونُقّاد المعاني من أنّ المعانيَ القائمةَ في صدور الناس المتصوَّرةَ في أذهانهم ، والمتخلّجة في نفوسهم ، والمتصلةَ بخواطرهم ، والحادثةَ عند فكرهم ، مستورةٌ خفية ، وبعيدةٌ وحشيّة ، ومحجوبةٌ مكنونة .

وإنما يُحيي تلك المعانيَ ذِكْرُهم لها ، وإخبارُهم عنها ، واستعمالُهم إياها . وهذه الخصالُ هي التي تُقرّبُها للفهم ، وتجلّيها للعقل ، وتجعل الخفيّ منها ظاهراً ، والغائبَ شاهداً ، والبعيدأ قريباً ... والمجهولَ معروفاً ، والوحشيّ مألوفاً .

وعلى قدر وضوح الدّلالة ، وصوابِ الإشارة ، وحسنِ الاختصار ، ودقةِ المدخل ، يكون إظهارُ المعنى . وكلما كانت الدّلالة أوضحَ وأفصحَ ، وكانت الإشارةُ أنورَ وأبْيَنَ ، كان أنفعَ وأنجع .

وعنده أن عالَمَ المعاني أوسعُ مِن أن تُحيط به الألفاظُ والأسماء . وفي ذلك يقول : «ثم اعلم – حفظك الله – أنّ حُكْمَ المعاني خلافُ حكمِ الألفاظ ، لأن المعانيَ مبسوطةٌ إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعاني مقصورة

---

(١) البيان والتبيين : ١ ص ٧٦ (٢) المرجع نفسه: ج ١ ص ٧٥

معدودة ومحصَّلة محدودة »[1] .

ثم يستطرد الجاحظ إلى بيان أصناف الدَّلالات على المعنى فيقول : « وجميع أصناف الدّلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسةُ أشياء لا تنقُص ولا تَزيد : أولها اللفظ ، ثم الإشارة ، ثم العَقْد ، ثم الخط ، ثم الحال التي تُسَمّى نِصْبَة . والنِّصْبَةُ هي الحالُ الدالّةُ التي تقوم مَقامَ تلك الأصناف ، ولا تقصّر عن تلك الدّلالات . ولكل واحدٍ من هذه الخمسة صورةٌ بائنة من صور صاحبتها ، وحِلْيَةٌ مخالفة لحلية أختها ، وهي التي تكشِف لك عن أعيان المعاني في الجملة ، ثم عن حقائقها في التفسير ، وعن أجناسها واقدارها ، وعن خاصّها وعامّها ، وعن طبقاتها في السارّ والضارّ ، وعما يكون منها لَغْواً بَهْرجاً ، وساقطاً مطّرَحاً[2] .

ذلك ملخص رأي الجاحظ في تعريف « البيان » وفي حكم المعاني وحكم الألفاظ ، وفي أصناف الدّلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ . وقد يكون ذلك أدخلَ في باب البلاغة منه في باب النقد ، ولكنْ ما من شك في أنّ مَن أتى بعده من علماء الشعر والنقد قد أفادوا من آرائه هذه في مناهجهم النقدية .

قضايا البيان : كانت لفظة « البيان » إلى عصر الجاحظ تستعمل بمفهومها العام الذي يتسع فيشمل كلّ ما له اتصال بفن القول على اختلاف صوره من شعر ونثر ، كما يشمل البحث في مسائل بلاغية شتى .

فلفظة البيان في العصور الأولى كانت تطلق ويراد بها أحياناً الفصاحة أو البلاغة أو الخطابة أو البديع ، وتحت لفظة « البيان » كانت تُبحث قضايا بلاغية جزئية مما له اتصال بكل ذلك .

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٧٦

(٢) المرجع نفسه : ج ١ ص ٧٦ ، والعَقد : ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين ، يقال له : حساب اليد . وقد ألفت فيه كتب وأراجيز .

فالجاحظ مثلاً يَعُدُّ من قضايا « البيان » تنافرَ الحروف وتنافرَ الألفاظ ، وقبحَ استعمالِ الغريب ، واستعمالَ بعض الألفاظ في غير موضعها ، ووجوبَ التناسب بين اللفظ والمعنى في الشرَف والسخف ، مع أن هذه المسائل وُضِعت أخيراً في باب الفصاحة .

كذلك نراه يعرض لبعض مباحث « البيان » بمعناه الاصطلاحي من تشبيه ومجاز واستعارة وكناية ويطلق عليها « اسم البديع » . كأن يقول : « ومن الخطباء الشعراء ممن كان يجمع الخطابةَ والشعرَ الجيد والرسائلَ الفاخرة مع البيان الحسن : كلثومُ بنُ عمرو العَتّابيُّ ، وكنيته أبو عمرو ، وعلى ألفاظه وحَذْوِه ومثالِه في البديع يقولُ جميعُ مَن يتكلّف مثلَ ذلك مِن شعراء المولّدين، كنحوِ منصور النَّمَرِي، ومُسلِم بنِ الوليد الأنصاري وأشباهِهِما. وكان العَتّابيُّ يحذو حَذْوَ بشارٍ في البديع ، ولم يكن في المولدين أصوبُ بديعاً من بشارٍ وابنِ هَرْمَة »[1] .

وكأنْ يقول أيضاً : « والبديعُ مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت لغتُهم كلَّ لغة ، وأربتْ على كل لسان . والراعي كثيرُ البديع في شعره ، وبشارٌ حسَنُ البديع ، والعَتّابيُّ يذهب في شعره في البديع مذهبَ بشار »[2] .

والجاحظ على طريقته في كل ما يعرِض له من شئون البلاغة والبيان والنقد لا يسوق الحديثَ فيها قصداً ، وإنما يستطرد إليه استطراداً عند الكلام على موضوعاتٍ يستدعي بيانُها أو البرهنةُ عليها أن يتطرّق إلى جوانبَ من البلاغة أو البيانِ أو النقد .

هذه ناحية ، وناحية أخرى أنه في سَوْقه لبعض عناصر البيان أو النقد في مَعرِض الشرح أو الاستدلال على موضوع معين لا يَصبُّها كما فعل المتأخرون

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٥١ (٢) المرجع نفسه : ج ٤ ص ٥٥

من رجال البلاغة والنقد في قوالبِ التعريفات والتحديدات ، وإنما هو يسوقها في نماذجَ ونصوصٍ من بليغ القول نثراً وشعراً ، مع شرح بعضها أحياناً أو التعليق عليها . ومن ثَمّ فعلى مَن يُريد الإلمامَ بمفهوم الجاحظ لبعض قضايا البيان والنقد العربيّ أن ينظر فيما أورده من نماذج ونصوص أدبية وأن يستنبط منها رأيَه أو مفهومه لها .

وأهم قضايا البيان التي عرض لها الجاحظ في كتبه هي :

● **التشبيه** : عرض الجاحظ للتشبيه في كتبه وبخاصة كتاب « الحيوان » . وحديثُه عنه يأتي عن طريق عرض نماذجَ شتى له من الشعر . ومن تعليقه على هذه النماذج صراحةً حيناً وضمناً أحياناً يتضح أنه كان على علم بأركان التشبيه ومواضع حسنه وقبحه ، وقيمته البلاغية في وضوح الدّلالة على المعنى .

وفي حديثه عن التشبيه نراه قد التفت إلى المستحسن والمستقبح من أجناس المشبه به التي تَشيع في الشعر العربي والتي يبدو كأن الشعراء قد تواضعوا عليها . وكذلك التفت إلى وجه الشبه ولزوم كونِه أقوى في المشبه به منه في المشبه . ومما يدل على بَصره بالشعر ودقة فهمه لبعض أوجه الشبه المضلّلة تعليقُه على بيت ذي الرمة :

وليلٍ كجلباب العروس ادَّرَعْتُه ... بأربعةٍ والشخصُ في العين واحدُ

فقد علق عليه الجاحظ بقوله : « فإنه ليس يريد لونَ الجلباب ، ولكنه يريد سُبوغَه » [1] .

كذلك أشار إلى استحسان البلاغيين لتشبيه شيئين بشيئين ، وذلك إذ يقول : « وقالوا : لم نر في التشبيه كقول امرىء القيس حين شبه شيئين بشيئين في حالتين مختلفتين في بيت واحد ، وهو قوله :

(١) كتاب الحيوان : ج ٣ ص ٢٥٠

كأنَّ قلوبَ الطير رَطبــاً ويابساً
لدى وَكْرِها العُنَّاب والحشَفُ البالي »[1]

وفي رده على مزاعم الملاحدة الناشئة من عجزهم عن إدراك صور البيـان في بعض الآيات الكريمــة وأسرارها البلاغية نراه ينعَى عليهم نقصَ معرفتهم بأساليب القول،ويدعو كل مَن يبغي الإلمامَ بمعاني القرآن والسنة النبوية أن يُحسن فهمَ أسرار العربية ودَلالاتِ ألفاظها وأساليبها .

وفي بيانِ ضرورة ذلك يقول: « فللعرب أمثالٌ واشتقاقاتوأبنيةوموضِـعُ كلام يدل عندهم على معانيهم وإرادتهم ، ولتلك الألفاظ مواضِـعُ أخر ، ولها حينئذ دَلالات أُخرُ . فمن لم يعرفها جهِـل تأويلَ الكتابِ والسنة ، والشاهدِ والمثل . فإذا نظر في الكلام وفي ضروبٍ من العلم ، وليس من أهل هذا الشأن هلـَك وأهلك »[2] . وهذا كلام أدخلُ في باب النقد وثقافةِ الناقد منه في باب البلاغة والبيان .

● **المجاز** : وإلى جانب التشبيه عرض الجاحظ المجاز بأنواعه : من مجاز عقلي ومجاز مرسل واستعارة . فمن المجــاز بصفة عامة يقول : « وإذا قالوا: أكله الأسد ، فإنما يذهبون إلى الأكل المعروف ، وإذا قالوا : أكله الأسود[3] ، فإنما يَعنـُون النهشَ واللدغَ والعَضّ فقط . وقد قال الله عز وجل : « أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً ؟ » ويقولون في باب آخر ، فلان يأكل الناس ، وإن لم يأكل مِن طعامهم شيئاً ، وكذلك قول دهمان النهري :

سألَتْني عن أناس أكلوا شرب الدهر عليهم وأكلْ

---

(١) كتاب الحيوان: ج ٣ ص ٥٣ ، والحشَف : أردأ التمر ، واليابس الفاسدُ منه .
(٢) كتاب الحيوان : ج ١ ص ١٥٣ — ١٥٤
(٣) الأسود هنا : نوع خبيث من الأفاعي

فهذا كلُّه مختلف ، وهو كلُّه مجاز »[1] .

والمجاز العقلي الذي هو إسناد الفعل أو ما في معنـاه لغير فاعله الأصلي مع قرينة مانعة من إرادة الإسناد الحقيقي ، قد عرَفَه وعرَّفَه بالمثال وإن لم يُسَمِّه ، فقال : « وقد جاز في كلام العرب أن يقولوا : جاءت السماء اليوم بأمر عظيم » .

كذلك عرف المجاز المرسَل وعلَّل له حين فسّر قولَه تعالى : « يَخرج من بطونها شراب » فقال : إن العسل ليس بشراب ، وإنما يُحوَّل بالماء شراباً أو بالماء نبيذاً ، فسمّاه شراباً ، إذْ كان مما يجيء منه الشراب ، وبهـذا قرَّر أنّ تسميةَ الشيء باعتبار ما سيكون أو ما سيئول إليه جائز في البيان العربي .

أما الاستعارة فقد مثل لها بقول الشاعر :

يا دار قد غيَّرها بِلاها   كأنمـــا بقلمٍ محاها ..
أَخْرَبها عُمرانُ مَن بناها   وكرُّ مُمساها على مَغناها[2]
وطفِقتْ سحابةٌ تغشاها   تبكي على عِراصِها عيناها[3]

ثم علق على البيت الثالث بقوله : وطفِقتْ ، يعني ظلت تبكي على عراصهـا عيناها ، عيناهـــا هاهنا للسحاب . وجعل المطر بكاءً من السحاب على طريق الاستعارة ، وتسميةِ الشيء باسم غيره إذا قام مَقامَه[4] . فمن هـــذا المثال

---

(١) كتاب الحيوان : ج ٥ ص ٢٧ - ٢٨

(٢) أخربها عمران من بناها : عمَّرها بالخراب ، لأن مدة بقاء بانيها فيها أبلتْ منها ، لأن الأيام مؤثـِّرة في الأشياء بالنقص والبلى ، فلما بقي الخراب فيها ، وقام مَقام العمران في غيرها ، سُمِّي بالعمران .

(٣) والعِراص : جمع عَرْصة ، وهي كما يقول الجاحظ كل جوبة منفتقة ، والجوبة : فجوة ما بين البيوت .

(٤) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٥٢

والتعليق عليه نرى أنه عرّف الاستعارة وسمّاها على حسب مفهومه لها .

● **الكناية :** ووردت الكناية عنده بمعناها العام ، وهو التعبيرُ عن المعنى تلميحاً لا تصريحاً وإفصاحاً كلما اقتضى الحالُ ذلك .

يُفهَم ذلك من قوله : « رُبَّ كناية تُرْبي على إفصاح » ومن إيراده لتعريف البلاغة عند بعض الهنود ، وذلك إذ يقول : « وقال بعض الهنود : جِماع البلاغة البَصَرُ بالحجة ، والمعرفةُ بمواضع الفرصة . ومن البَصَر بالحجة ، والمعرفةِ بمواضع الفرصة أن تدَع الإفصاحَ بها إلى الكناية عنها إذا كان الإفصاحُ أوْعرَ طريقة . وربما كان الإضرابُ عنها صفحاً أبلغَ في الدَّرَك ، وأحقَّ بالظَّفَر »[1] .

كذلك يُوردها ضمنَ ما أورده في معرض الكلام على تناسب الألفاظ مع الأغراض فيقول : « ولكل ضرب من الحديث ضرب من اللفظ ، ولكل نوع من المعاني نوع من الأسماء : فالسخيف للسخيف والخفيف للخفيف ، والجزل للجزل ، والإفصاح في موضع الإفصاح ، والكناية في موضع الكناية ، والاسترسال في موضع الاسترسال »[2] .

فالكناية عند الجاحظ كما نرى معدودةٌ من الأساليب البيانية التي قد يتطلبها المعنى للتعبير عنه ولا يجوز إلاّ فيها ، وإنّ العدول عنها إلى صريح اللفظ في المواطن التي تتطلبها أمرٌ مُخِلٌ بالبلاغة .

● **الايجاز :** عرّف الجاحظ الإيجاز أولاً بأنه « الجمع للمعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة »[3] . وللجاحظ كلمة أخرى توسّع فيها قليلاً في الكلام على الإيجاز والإطناب وبعضِ مسائل بلاغية أخرى . ولأهمية هذه الكلمة المعبرة عن رأيه في ذلك نثبتها هنا ثم نعلق عليها . قال :

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٨٨
(٢) كتاب الحيوان : ج ٣ ص ٣٩
(٣) كتاب الحيوان : ج ٣ ص ٨٦

«وقد بَقِيَتْ – أبقاك اللهُ – أبوابٌ تُوجب الإطالةَ وتحوج إلى الإطناب. وليس بإطالة ما لم يجاوز مقدار الحاجة، ووقف عند منتهى البُغية.

وإنما الألفاظُ على أقدار المعاني، فكثيرُها لكثيرها، وقليلُها لقليلها، وشريفُها لشريفها. والمعاني المفردة البائنة بصورها وجهاتها تحتاج من الألفاظ إلى أقلّ مما تحتاج إليه المعاني المشتركة، والجهاتُ الملتبسة [1].

ولو جَهِدَ جميعُ أهلِ البلاغة أن يُخبروا مَن دونَهم عن هذه المعاني، بكلامٍ وجيزٍ يُغني عن التفسير باللسان، والإشارة باليد والرأس – لما قدَروا عليه.

وقديماً قالوا: «إذا لم يكن ما تُريد فأَرِد ما يكون!».

وليس ينبغي للعاقل أن يَسومَ [2] اللغاتِ ما ليس في طاقتها، ويسومَ النفوس ما ليس في جِبِلّتِها [3]. ولذلك صار يحتاج صاحبُ كتاب المنطق إلى أن يفسّرَه لمَن طلب مِن قِبَلِه علمَ المنطق، وإن كان المتكلمُ [4] رفيقَ اللسان حسَنَ البيان.

إلاّ أني لا أشك على حالٍ أنّ النفوسَ إذْ كانت إلى الطرائف أحنّ، وبالنوادر أشغف، وإلى قصار الأحاديث أميَل، وبها أصَبّ – أنها خليقةٌ لاستثقال الكثير [5]، وإن استحقّت تلك المعانيَ الكثيرة، وإن كان ذلك الطويلُ أنفعَ، وذلك الكثيرُ أرَدّ» [6].

فهذه الكلمة تكشف عن رأي الجاحظ في الأمور التالية:

---

(١) الملتبسة: المختلطة
(٢) سامه الأمر سوماً: كلّفه إياه.
(٣) الجبلة: الخِلقة والطبيعة
(٤) المتكلم: مَن صناعته علمُ الكلام.
(٥) فلان خليق لكذا: أي جدير به
(٦) كتاب الحيوان: ج ٦ ص ٧ – ٨. وفي لسان العرب: هذا الأمر أردّ عليه: أنفع له.

- إن الإطالة والاطناب في رأيه مترادفان ومقابلان للايجاز ، وهما عنده : كلٌّ ما جاوز مقدار الحاجة من الكلام ، ولم يقف عند منتهى البغية .
- توسّع هنا في مفهوم الإيجاز فلم يعد يقصره على « جمع المعاني الكثيرة بالألفاظ القليلة » وإنما صار الإيجاز عنده يعني « أداء حاجة المعنى ، سواء أكان ذلك الأداء في ألفاظ قليلة أم كثيرة » . فقد يطول الكلام وهو في رأيه إيجاز ؛ لأنه وقف عند منتهى البُغْية ، ولم يجاوز مقدار الحاجة .
- وعلى هذا فمقياس الإيجاز في نظره هو أداءُ حاجة المعنى وعدم تجاوز مقدار هذه الحاجة أو النكوصِ عنها طال الكلام أم قَصُر .
- إن كلامَه على الألفاظ ، ورأيَه في أن تكون على قياس المعاني وأقدارِها يوحي بأن الألفاظ ينبغي أن يُنظَر إليها على أنها قوالب المعاني حجماً ونوعاً . وعلى قدر مراعاة ذلك في الكلام يكون حظه من البلاغة .
- إن المعاني المفردة تحتاج من الألفاظ إلى أقلّ ما تحتاج إليه المعاني المشتركة المركبة المختلطة ، وهذه تتحدّى قدرَ البليغ الذي يحاول التعبير عنها بكلام وجيز .
- إن حديثه عن اللغة وطبيعتها والنفْسِ وجِبِلّتِها يوحي بضرورة الربط بين الأدب وحال النفس .

فهذه الأمور التي أبدى الجاحظ رأيه فيها تشكّل في الواقع جانباً من عناصر منهج النقد الفنيّ الذي يقوم على أُسس بلاغية ، وسوف نرى كيف أن بعض النقاد فيما بعد أفادوا منها في مناهجهم .

وللجاحظ إلى جانب ذلك رأي في الإسهاب أورده تعليقاً على رأي أياس[1] .

---

(١) هو إياس بن معاوية بن قُرّة المزنيّ ، ولاّه عمر بن عبد العزيز قضاء البصرة ، وتوفي سنة ١٢٢ هـ ، وهو معدود من البلغاء المعروفين بجودة الفراسة ، ولكثرة كلامه قال له عبدالله ابن شبرمة : أنا وأنت لا نتفق . أنت لا تشتهي أن تسكت وأنا لا أشتهي أن أسمع !

ذكر الجاحظ أنه « قيل لإياس : ما فيك عيبٌ إلا كثرةُ الكلام . قال : فتسمعون صواباً أم خطأً ؟ قالوا : لا ، بل صواباً . قال : فالزيادة في الخير خير » [1] .

وقد علق الجاحظ على كلام إياس هذا بقوله : « وليس كما قال . للكلام غاية ولنشاط السامعين نهاية . وما فضَل عن قدر الاحتمال ودعا إلى الاستثقال والمَلال ، فذلك الفاضلُ هو الهَذَر ، وهو الخطَل ، وهو الإسهاب الذي سمعتُ الحكماءَ يَعيبونه » [2] .



(٧) الجاحظ والبديع :

كان الرواة إلى عصر الجاحظ يطلقون لفظة « البديع » على الأساليب البلاغية التي كان الشعراء يُكثرون من استعمالها ويَفتَنّون في صور أدائها من تشبيه ومجاز بأنواعه ومُحسّنات تُضفي على الألفاظ والمعاني شيئاً من الجمال اللفظيّ والمعنويّ .

وأغلب الظن أن الرُّواةَ وحُذّاقَ الشعر لاحظوا ما أخذ يَشيع في شعر المحدثين من الاختراع والابتكار ، ومن التأنُّق في التعبير والتصرُّف في اللغة وأساليبها فعدُّوا ذلك ضرباً من الإبداع في القول ، وأطلقوا عليه لفظة « البديع » .

والجاحظ الذي يُقدِّر الأسلوبَ ويُعليه على المعنى قد اهتم بالبديع والنظر إليه من جوانب متعددة ، وذلك لأثره في الارتفاع بقيمة الأسلوب الفنية والتعبيرية .

فهو من ناحية يقرر أن « البديع مقصور على العرب ، ومن أجله فاقت

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٩٩ (٢) المرجع نفسه

لغتَهم كلَّ لغة ، وأرْبَتْ على كل لسان »[1] . وذلك لطواعية اللغة العربية وسَعة مفرداتها التي تُسعف الشاعرَ والأديبَ المنشىءَ وتعينه على التعبير عن أفكاره وخواطره بشتى أساليب البديع .

ومن ناحية أخرى نراه يؤرخ لمذهب البديع في الشعر ، ولمن أجادوا فيه ومَن اتبعوه وأخذوا به من الشعراء المحدَثين والمولّدين .

فبشارٌ هو إمامُ مذهب البديع ، والراعي كثيرُ البديع في شعره ، والعتّابيُّ يَذهب في شعره مذهبَ بشارٍ ، ويَحتَذي حَذْوَه فيه . وعلى ألفاظ العتّابيِّ الخطيبِ الشاعرِ المُترسِّل ، وعلى حَذْوه ومثالِه في البديع يقول جميعُ مَن يتكلّفُ مثلَ ذلك الشعرِ من الشعراء المولّدين ، كنحو منصورٍ النَّمَريِّ ، ومُسلمِ بن الوليد الأنصاري . ولم يكن في المولّدين أصوبُ بديعاً من بشارٍ وابنِ هَرْمَة[2] .

قضايا البديع :

اهتم الجاحظ بقضايا البديع لعلاقتها الوثيقة بصناعة الأسلوب وأثرِها فيه . وفيما يلي عَرْضٌ موجز لأهم القضايا البديعية التي تناولها بالبحث في كتبه :

● **السجع :** عُنِي الجاحظ بهذا المُحَسِّن اللفظيِّ ، وأورد له في « البيان والتبيين » أبواباً مختلفة نوَّه فيها بأثر السجع في الكلام وتأثيره في النفوس ، مع إيراد نماذجَ شتى له .

وقد استطرد في كلامه على السجع إلى ذِكْرِ مَن يُؤْثرونه على المنثور ، وإلى رأي بعض النقاد في موقف الرسول من السجع ، وإلى إبداء رأيه أيضاً في ذلك ، وفيمن يزعمون أن بعضَ القرآن وأحاديثِ الرسول شعرٌ .

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٥٥ - ٥٦ (٢) المرجع نفسه : ج ١ ص ٥١

فالجاحظ يذكر أن عبد الصمد الرقاشي كان ممن يؤثرون السجع على المنثور. وعن ذلك يقول: «وقيل لعبد الصمد بن الفضل بن عيسى الرقاشي: لِمَ تُؤْثِرُ السجعَ على المنثور، وتُلزِمُ نفسَكَ القوافيَ وإقامةَ الوزن؟ قال: إنّ كلامي لو كنتُ لا آمُلُ فيه إلاّ سماعَ الشاهدِ لَقَلَّ خلافي عليك، ولكني أريد الغائبَ والحاضرَ، والراهنَ والغابرَ، فالحفظُ إليه أسرعُ، والآذانُ لسماعه أنشطُ، وهو أحقُّ بالتقييدِ وبقلّةِ التّفلّتِ. وما تكلمتْ به العربُ من جيّد المنثور، أكثرُ مما تكلمتْ به من جيّد الموزون، فلم يُحفَظ من المنثور عُشْرُه، ولا ضاع من الموزون عُشْرُه»[1].

فهذه الكلمة تعبّر عن رأي الرقاشي وربما رأي الجاحظ أيضاً في بلاغة الكلام، وأنّ للصنعة أثرَها الفعّالَ في بقاء الأدب، وفي سهولة حفظه، وجريه على ألسنة الناس والرُّواة جيلاً بعد جيل، ولولاها لاندثر كما يندثر سائر الكلام المنثور، ولم يُحفَظ ويؤثَرْ إلاّ ما كساه التصنيع[2].

أما رأيُ الرسول في السجع وموقفُ النقاد منه إلى عصر الجاحظ، فيتمثّل في أنّ سائلاً سأل رسولَ الله قائلاً: «يا رسول الله، أرأيت مَن لا شرِبَ ولا أكل، ولا صاح واستهلّ، أليس مثلُ ذلك يُطَلّ؟ فقال رسول الله ﷺ: أسَجْعٌ كسجع الجاهلية»[3].

وقد علّق عبد الصمد الرقاشي على ذلك بقوله: «لو أن هذا المتكلم لم يُرِدْ إلاّ الإقامة لهذا الوزن، لما كان عليه بأس، ولكنه عسى أن يكون أراد إبطالَ حقٍّ فتشادَقَ في الكلام»[4].

---

(١) البيان والتبيين: ج ١ ص ٢٨٧

(٢) انظر كتاب دراسات في نقد الأدب العربي للدكتور بدوي طبانة: ص ١٣٦

(٣) البيان والتبيين: ج ١ ص ٢٨٧. ويُطَلّ: أي يُهدر دمُه.

(٤) المرجع نفسه: ج ١ ص ٢٨٧. وعبد الصمد هو ابن الفضل بن عيسى الرقاشي، الواعظ البصري، وأحد القدرية المعتزلة.

وقال غيرُ عبد الصمد : « وجدْنا الشعرَ : من القصيد والرَّجَز ، قد سمعه النبيُّ ﷺ فاستحسنه وأمرَ به شعراءَه . وعامّة أصحاب رسول الله ﷺ قد قالوا شعراً قليلاً كان ذلك أم كثيراً ، واستمعوا واستنشدوا . فالسجعُ والمزدوَجُ دونَ القصيد والرجز ، فكيف يَحِلّ ما هو أكثرُ ويَحرُم ما هو أقلّ ؟ » [1].

فهذا القولُ يُفهَم منه أنّ أصحابه يرون أن كلمة الرسول « أسجعٌ كسجع الجاهليّةِ ؟ » لا تعني بحال أنه ينهَى عن السجع أو يُحرّمه .

ويرى آخرون غيرُ هؤلاء وغيرُ الرقاشيّ أنّ القليل من السجع محمود ، أما الكثير منه فمدعاةٌ إلى التكلف والاستكراه . وهم يقولون في ذلك كلاماً فحواه أن السجع إذا لم يَطُل ولم تكن القوافي مطلوبةً مجتلبة ، أو مُلتمسةً متكلفة فلا اعتراض عليه ، لأن الكلام إذا قلّ وقع وقوعاً لا يجوز تغييرُه ، وإذا طال الكلام وَجدْتَ في القوافي ما يكون مُجتَلَباً ، ومطلوباً مُستكرَهاً [2].

أما الجاحظ فيبدو أنه كان يرى رأي القائلين بأن الرسول نهى عن السجع لعلّةٍ ، وأنه لما زالت العِلّةُ زال التحريم .

يقول الجاحظ : « وكان الذي كرّه الأسجاع بعينها وإنْ كانت دون الشعر في التكلف والصنعة أنّ كُهّانَ العرب الذين كان أكثرُ الجاهلية يتحاكمون إليهم ، وكانوا يدّعُون الكهانةَ وأنّ مع كلّ واحدٍ منهم رِئْياً من الجنّ مثل حَازِي جُهَيْنةَ ومثل شِقّ وسَطيح وعُزّى سَلَمة وأشباههم ، كانوا يتكهّنون ويحتكمون بالأسجاع ، كقوله : « والأرضِ والسماءِ والعُقابِ الصَقعاءِ ، واقعةً ببقعاء ، لقد نفّر المجدُ بني العُشَراءِ للمجْد والسناءِ » . وهذا الباب كثير . قالوا : فوقعَ النّهيُ في ذلك الدهر لقُرْبِ عهدِهم بالجاهلية ، ولبقيّتِها فيهم وفي صدور كثيرٍ منهم ، فلما زالت العِلّةُ زال التحريم . وقد كانتِ الخطباء

---

(١) البيان والتبيين : ج١ ص ٢٨٧ (٢) المرجع نفسه : ج ١ ص ٢٨٨

تتكلم عند الخلفاء الراشدين ، فيكونُ في تلك الخطب أسجاعٌ كثيرة ، فلا يَنهَونَهم [1] .

أما مَن يزعمون أن بعضَ القرآنِ وأحاديثِ الرسول شعر ، فإن الجاحظ يُورد مزاعمَهم ويعلّق عليها قائلاً : « ويُدخَل على مَن طعن في قوله : «تَبّتْ يدا أبي لهَبٍ » وزعم أنه شعر ، لأنه في تقدير مستفعلن مفاعلن ، وطعن في قوله في الحديث عنه : « هل أنتِ إلاّ إصبعٌ دَميتِ ؟ وفي سبيل الله ما لَقيتِ » - فيقال له : اِعلمْ أنك لو اعترضتَ أحاديثَ الناس وخطبَهم ورسائلَهم لوجدتَ فيها مثلَ مستفعِلن مستفعِلن كثيراً ، ومستفعِلن مفاعلن .

وليس أحد في الأرض يجعل ذلك المقدارَ شعراً . ولو أنّ رجُلاً من الباعة صاحَ : «مَن يَشتري باذنجانَ» لقد كان تكلّم بكلام في وزن : مستفعِلن مفعولاتُ . وكيف يكون هذا شعراً وصاحبُه لم يقصد إلى الشعر ؟ ومثلُ هذا المقدارِ من الوزن قد يتهيّأ في جميع الكلام . وإذا جاء المقدارُ الذي يُعلم أنه من نِتاج الشّعر والمعرفةِ بالأوزان والقصد إليها ، كان ذلك شعراً .

وسمعتُ غلاماً لصديق لي ، وكان قد سُقِيَ بطنُه [2] ، وهو يقول لغِلمان مولاه : « اِذهبُوا بي إلى الطبيب وقولوا قد اكتوى » . وهذا الكلام يخرج وزنُه على خروجَ : فاعلاتن مفاعلن ، فاعلاتن مفاعلن مرّتين . وقد علمتَ أنّ هذا الغلام لم يخطُر على باله قطُّ أن يقول بيتَ شعرٍ أبداً . ومثلُ

(١) المرجع نفسه : ص ٢٨٩ ، والرَّئِيُ : هو الذي يعتاد الانسانَ من الجن يحبه ويؤالفه ، وشِق بن أنمار بن نزار : زعموا أنه كان شِقّ إنسان له يد واحدة ، ورجل واحدة ، وعين واحدة . وعُزّى سَلمة بن أبي حيَّة : كان أكهن العرب وأسجعهم ، والصقعاء : التي في وسط رأسها بياض ، البقعاء : الأرض ذات الحصى.ونفرهم : حكم لهم بالغلبة على غيرهم ، وبنو العشراء: بنو مازن الفزاري الذبياني .

(٢) وسُقِيَ بطنُه : أي اجتمع فيه ماء أصفر.

هذا كثير ، ولو تتبعته في كلام حاشيتك وغلمانك لوجدته »[1] .

ومن الأمور التي ذكرها الجاحظ أيضاً عن السجع أن العرب ألفوا استعماله في المنافرة والمفاخرة، ولم يعبه أحد إلا بما عاب به غيره، أي بالتكلف أو التعسف الذي يفسد القول ويحط من قيمته الجمالية والبلاغية .

هذا عن السجع عند الجاحظ .

● **المزدوَج :** ويسمى أيضاً المزاوجة والازدواج . وهو ضرب من السجع تتفق فيه أجزاء الكلام أو فواصله في الحرف الأخير الذي يكون أشبه ما يكون برَوِيّ القافية في الشعر . ومن أمثلة ما زُووِج بينه بالفواصل في القرآن قولُه تعالى : « فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر » وقوله تعالى : « فإذا فرغت فانصب[2] وإلى ربك فارغب » .

وقد عقد الجاحظ في « البيان والتبيين » باباً خاصّاً لمزدوَج الكلام أورد فيه طائفةً من أمثلته توضيحاً له . من ذلك :

وقال النبي ﷺ في معاوية : « اللهمّ علّمه الكتاب والحساب وقِهِ العذاب » . وكان مالك بن الأخطل قد بعثه أبوه ليسمع شعر جرير والفرزدق ، فسأله أبوه عنهما فقال : « جرير يغرف من بحر ، والفرزدق ينحت من صخر » فقال : الذي يغرف من بحر أشعرُهما[3] .

والذي يتأمل أسلوب الجاحظ في كل ما كتب يجد أن المزدوج يشيع فيه ، مما يدل على إعجابه به ، ومعرفته بقيمته البلاغية .

● **المذهب الكلاميّ :** عدّه عبدُ الله بنُ المعتز أحدَ فنون البديع الخمسة

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٢٨٨ - ٢٨٩

(٢) فإذا فرغت فانصب : أي إذا فرغت من عملك الخاص بك وبأهلك وأصحابك فانصب، اي فاجتهد في كل عمل يقرّبك من ربك .

(٣) البيان والتبيين : ج ٢ ص ١١٦

الأساسية التي بنى كتابه « البديع » عليها . وعن هذا الفن قال: « وهو مذهب سماه عمرو الجاحظ المذهبَ الكلاميّ . وهذا باب ما أعلم اني وجدت في القرآن منه شيئاً ، وهو يُنسَب إلى التكلف ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » .

ولكن ابن المعتز لم يذكر مفهومَ الجاحظ لهذا الفن البديعي ، كما أنه هو لم يحاول تحديدَه ، وكلّ ما فعله أنه ذكر بعض أمثلة توضح المراد منه . ومن ذلك قول الفرزدق :

لكل امرىءٍ نفسان : نفسٌ كريمةٌ   وأخرى يعاصيها الفتى ويطيعُها
ونفسُك من نفسيك تشفع للنَّدى   إذا قَـلَّ من أحرارهن شفيعُها

وقول أبي نواس :

إنَّ هذا يَرَى - ولا رأى للأحمق - أني أعدُّه إنسانَا
ذاك في الظنّ عنده وهو عندي   كالذي لم يكنْ وإنْ كان كانا

وإذا تأملنا هذين المثالين وجدنا أن كلاَ الشاعرين يدّعي دَعوَى ثم يحاول التماسَ دليلٍ مقنعٍ عليها ، تماماً كما يفعل المتكلمون بإيراد الحجج العقلية القاطعة على دعاواهم .

ومن ثَمّ فأغلب الظن أن الجاحظَ وابنَ المعتز يريدان بالمذهب الكلامي : اصطناعَ مذهبِ المتكلمين العقلي في الاحتجاج والجدل والتماس العلل ، وذلك بأن يأتيَ البليغُ على صحة دعواه بحجة قاطعة أيًّا كان نوعها ، كما هو الشأن في المثالين السابقين .

ولعل مما يؤيد ذلك قولَ الجاحظ في معرض الاستدلال : « ولولا استعمال

---

(١) كتاب البديع لابن المعتز : ص ٥٣ - ٥٧

المعرفة لما كان للمعرفة معنىً ، كما أنه لولا الاستدلُ لما كان لوضع الدّلالة معنى .. وللعقل في خلال ذلك مجال ، وللرأي تقلب ، وتـنشر للخواطر أسباب ، ويتهيأ لصواب الرأي باب »[1] .

وقد انتقد الجاحظ مَن يتكلّفون أداءَ الكلام على طريقة المتكلمين ، على أساس أن هذا التكلّفَ من شأنه أن يُوقعهم في الإحالة والإتيانِ بالغريب من التراكيب .

● **التقسيم** : هو استيفاءُ المتكلم أقسامَ المعنى الذي هو آخذٌ فيه ، وذلك نحوُ قولِه تعالى : « هو الذي يُريكم البرقَ خوفاً وطمعاً » . فليس في رؤية البرق غيرُ الخوفِ من الصواعق والطمعِ في الأمطار ، ولا ثالثَ لهذين القسمين .

وقد فطِن الجاحظ إلى هذا الأسلوب البديعيّ ونوّهَ بجودته وعلّل بـه استحسانَ عمرَ بنِ الخطـاب لبعض شعرِ زهير بن أبي سُلمى وعَبْدَةَ بنِ الطبيب . قال الجاحظ : ولقد أنشدوه شعراً لزهير – وكان لشعره مُقدِّماً – فلما انتهَوْا إلى قوله :

وإنّ الحقّ مقطعُه ثلاثٌ : يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءُ

قال عمر كالمتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها ، وإقامة أقسامها :

وإنّ الحقّ مقطعُه ثلاثٌ : يمينٌ أو نِفارٌ أو جِلاءُ !

يُردّد البيت من التعجب . وأنشدوه قصيدةَ عَبْدَةَ بنِ الطبيب الطويلةَ على اللام ، فلما بلغ المنشدُ إلى قوله :

والمرءُ ساعٍ لشيءٍ ليس يُدركه والعيشُ : شحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ

---

(١) كتاب الحيوان : ج ٢ ص ١١٥ – ١١٦

قال عمر متعجباً : « والعيشُ : شُحٌّ وإشفاقٌ وتأميلُ » . يُعجِبُهم من حُسْنِ ما قسّم وفصّل »[1] .

● **الاحتراس** : كذلك فطن الجاحظ لما سماه البلاغيون من بعده باسم « الاحتراس » وهو كلامٌ يُؤتَى به في ثنايا كلامٍ آخرَ لتخليصه مما يُوهم خلافَ المقصود .

وقد أطلق عليه الجاحظ اسمَ « إصابةِ المقدار » . وعن ذلك يقول : « وقال طرَفَة في المقدار وإصابته :

فسقى ديارَكِ ـ غيرَ مفسدِها ـ صوبُ الربيع وديمةٌ تَهْمِي

طلب الغيث على قدر الحاجة ، لأن الفاضل ضارٌّ .

وقال النبي ﷺ : « اللهم اسقنا سَقْياً نافعاً » ، لأن المطر ربما جاء في غير إبّان الزراعات ، وربما جاء والتمر في الجُرْن ، والطعام في البيادر ، وربما كان مجاوزاً لمقدار الحاجة . وقال أيضاً : اللهم حوالينا ولا علينا »[2] . يريد اللهم أنزل الغيث علينا في مواضع النبات لا في مواضع الأبنية ، من قولهم رأيت الناس حواليه أي مُطيفين به من جوانبه .

● **الاقتباس** : وهو أن يضمّن المتكلم كلامه كلمةً من آيةٍ أو آيةً من كتاب الله خاصة . وقد أشار الجاحظ إلى اقتباس الخطباء من آي الذكر الحكيم ، وأنهم كانوا يستحسنون أن يكون في الخطب يومَ الحفْل ، وفي الكلام يوم الجَمْع

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٢٤٠ ، وكتاب الحيوان : ج ١ ص ٤٦ . والنفار : أن يتنافروا الى حاكم يحكم بينهم ، والجلاء : البينة والشهود .

(٢) البيان والتبيين : ج١ ص٢٢٨ ، والجُرن والجرين: موضع التمر الذي يجفّف فيه، ويطلق أيضاً على موضع البُرِّ والعنب ، والبيادر : جمع بيدر ، وهو الموضع الذي يداس فيه الطعام .

آيٌ من القرآن ، فإن ذلك مما يُورث الكلامَ البهاءَ والوقار ، والرّقّة وسَلَس الموقِـع .

كذلك ذكر أن الخطبـاء لا يتمثلون في خطبهم الطّوال بشيء من الشعر ، ولا يكرهونه في الرسائل إلاّ أن تكون إلى الخلفاء . كما أشار إلى أن خطباءَ السّلَفِ الطيّب وأهلَ البيان من التابعين بإحسان ، كانوا يُسمّون الخطبة التي لم تُوَشّح بالقرآن وتُزيّن بالصلاة على النبيّ « الشّوْهاء » . ومن هذا ما رُوِي عن عِمران بن حِطّان قال : « خطبت عند زيادٍ خطبـة ظننتُ أني لم أُقصّر فيها عن غاية ، ولم أدَعْ لطاعنٍ عِلّةً ، فمررتُ ببعض المجـالس فسمعتُ شيخاً يقول : هذا الفتى أخطبُ العربِ لو كان في خطبته شيءٌ من القرآن »[1].

● **أسلوب الحكيم :** يُقصَدُ بأسلوب الحكيم تلقّي المخاطبِ بغير مـا يترقّبه : إما بترك سؤاله والإجابةِ عن سؤال لم يسألـه ، وإما بحمل كلامـه على غير ما كان يقصد ، إشارةً إلى أنه كان ينبغي أن يسأل هـذا السؤال أو يقصد هذا المعنى .

ومن أمثلة ذلك قوله تعـالى : « يسألونك عن الأهِلّة قلْ هي مواقيتُ للناس والحج » . فالسؤال هنا عن حقيقة الأهلّة : لمَ تبدو صغيرةً ، ثم تزداد حتى يتـكامل نورُها ثم تتضاءلُ حتى لا تُرَى ؟

ولما كانت هذه مسألةً من مسائل الفلك ، وفهمُها وقتئذ يحتـاج إلى دراسة علمية عويصة ، فإن القرآن قد عدل عن الإجابة عنها إلى بيان أن الأهلّة وسائلُ للتوقيت في المعاملات والعبادات . وفي هذا إشارة إلى أن ما كان ينبغي أن يُسألَ عنـه هو فائدةُ الأهلّةِ لا حقيقتُها ، إلى أن تتيسر لهم الحقائقُ العلمية التي تُعينهم على فهم هذه الظاهرةِ الكونية .

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ١١٨ ، وانظر كذلك : ج ٢ ص ٦

وأسلوب الحكيم هـذا من فنون البديع ، وقد فطِن إليه الجاحظ وأطلق عليه « اللغزَ في الجواب » وعَقد له باباً خاصًّا في « البيان والتبيين » أورد فيه كثيراً من الأمثلة نجتزىء منها ما يلي :

سأل رجلٌ بِلالاً مولى أبي بكر رحمه الله وقد أقبل من جهة الحلْبة فقال له : مَن سبَق ؟ قال : سبَق المقرَّبون . قال : إنما أسألك عن الخيـل . قال : وأنا أجيبك عن الخير . فترك بِلالٌ جوابَ لفظه إلى خبر هو أنفع له [(١)] .

وقالوا : كان الحطيئةُ يرعى غنماً له وفي يده عصاً ، فمرّ به رجل فقال: يا أعرابيُّ ما عندك ؟ قال : عجراءُ من سَلَمٍ . يعني عصاه .قال : إني ضيف . فقال الحطيئة : للضيفان أعدَدْتُها [(٢)] .

وقال الحجّاج لرجل من الخوارج : أجمعتَ القرآن ، قال : أمتفرقاً كان فأجمعَه : قال : أتقرؤه ظاهراً ؟ قال : بـــل أقرؤه وأنا أنظر إليه . قال : أفتحفظُه ؟ قال : أفخشيتُ فرارَه فأحفظَه ؟ قال: ما تقول في أمير المؤمنين عبدِ الملك ؟ قال : لعنه الله ولعنك معه . قال : إنك مقتول ، فكيف تلقى الله ؟ قال : ألقى اللهَ بعملي ، وتلقاه أنت بدمي [(٣)] .

ومن الأمثلة السابقة يتضح أن هذا الأسلوب الذي أطلق عليه الجاحظ «اللغز في الجواب » كان يستعمله العرب لأغراض مختلفة كتقديم الأهم أو التخلص من إحراج السائل أو التظرف أو التهكم .

وما من شك في أن ما قدّمه الجاحظ من أمثلة شتى في هذا الباب قـد لفت أنظار البلاغيين من بعده لهـــذا النوع من الكلام ، وأعطاهم الأساس لاثنين من فنون البديع هما : اللغز ، وأسلوب الحكيم .

---

(١) البيان والتبيين : ج ٢ ص ٢٨٢ (٢) المرجع نفسه : ج ٢ ص ١٤٧
(٣) البيان والتبيين : ج ١ ص ١٤٨

وبعد .. فهذه خلاصةٌ لأهم ما أُثِر عن الجاحظ من آراء ونظرات في شئون البيان العربي والنقد : منها ما استوحاه من سابقيه ومعاصريه ، ومنها ما عَنْ له شخصياً . ولا رَيْبَ في أن مَن جاء بعده من البلاغيين والنقاد قد أفادوا كثيراً من هذه الآراء والنظرات .

ولكن إلى جانب ما تقدم نرى الجاحظ قد خاض بالبحث في بعض قضايا خاصة بالنقد الأدبي ، وأبدى فيها آراءً جديرةً بالنظر . وفيما يلي عرض موجز لهذه القضايا النقدية من وجهة نظر الجاحظ .

*

(١) رأي الجاحظ في الشعر :

يرى الجاحظ أن الشعر « صناعة » وهذا يعني أنه يُؤْثِر اللفظَ على المعنى ، ويقدِّر الشعر ويقيسه بمقياس جودة الأسلوب وصحة الطبع .

نفهم ذلك من قوله : « وذهب الشيخ – أبو عمرو الشيباني – إلى استحسان المعنى . والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجميُّ والعربيُّ ، والبدويُّ والقَرَويُّ والمدنيُّ . وإنما الشأن في إقامة الوزن وتخيُّرِ اللفظ ، وسهولة المَخرج ، وكثرةِ الماء ، وفي صحة الطبع وجودة السبك ، فإنما الشعرُ صناعةٌ ، وضربٌ من النسج ، وجنسٌ من التصوير »[١] .

(٢) رأيه في الشعر الوسط :

لم يَثبُت الجاحظ على رأي واحد بالنسبة للشعر الوسط ، فهو في مرة يؤثره وفي مرة أخرى يذمه .

---

(١) كتاب الحيوان : ج ٣ ص ١٣٢

وقـــد جاء إيثارُه للشعر الوسط في معرض التعقيب على موعظة لبعض الرّبانيّين [١] من الأدباء ، وأهلِ المعرفة من البلغاء ممن يكره التشادق والتعمق ، ويُبغض الإغراق في القول ، والتكلّف والاجتلاب [٢] ، ويعرف أكثر أدواءِ الكلام ودوائِه ، وما يَعتري المتكلمَ من الفتنة بحُسْنِ ما يقول ، وما يعرض للسامع من الافتتان بما يسمع .

ولعل من المفيد هنا أن نورد أولاً موعظة الرّبانيّ في الأديب البليغ ، قال : « أُنذِرُكم حُسْنَ الألفاظِ ، وحلاوةَ مخارج الكلام ، فإنّ المعنى إذا اكتسى لفظاً حَسَناً وأعاره البليغُ مَخرجاً سهلاً ، ومنحَه المتكلمُ دَلاًّ مُتَعشقاً ، صار في قلبك أحلى ، ولصدرك أملا .

والمعاني إذا كُسِيَت الألفاظَ الكريمة ، وأُلبِسَت الأوصافَ الرفيعة ، تحوّلتْ في العيون عن مقاديرِ صُوَرها ، وأرْبَتْ على حقائق أقدارها ، بقدر ما زُيِّنَتْ ، وحَسَبِ ما زُخرِفَتْ . فقد صارتِ الألفاظُ في معـــاني المعارض [٣] ، وصارت المعاني في معنى الجواري ... » [٤] .

وقد عقّبَ الجاحظ على هذه الموعظة بقوله : « فالقصدُ في ذلك أن تجتنبَ السّوقيّ والوَحشِيّ ، ولا تجعـــلَ همّك في تهذيب الألفاظ ، وشُغلَكَ في التخلّص الى غرائب المعـــاني . وفي الاقتصاد بلاغٌ ، وفي التوسّط مجانبةٌ للوعورة ، وخروجٌ مِن سبيل مَن لا يحاسب نفسه . وقد قال الشاعر :

عليك بأوساط الأمور فإنّهـــا نجاةٌ ولا تركب ذلولاً ولا صعْبَا

---

(١) الربانيّ : العالم الراسخ العلم ، أو العالم العامل المعلم .

(٢) الاجتلاب : أن يجتلب معانيَ سواه ، أي يسرقها لفقره في معانيه .

(٣) المعارض : جمع مِعرَض على وزن منبَر ، وهو ثوب تُجْلَى فيه الجارية أو العَروس .

(٤) البيان والتبيين : ج ١ ص ٢٥٤

وليكن كلامُك ما بين المُقصِّر والغالي ، فإنك تسلم من المحنة عند العلماء ، ومن فتنة الشيطان »[1] .

فالجاحظ هنا يأخذ في الكلام بمذهب الوسط ، فلا يسرف الأديب في تنقيح الألفاظ وتهذيبها ، ولا يُعَنِّي نفسه بالغَوْص وراء غرائب المعاني ، إذْ في الاقتصاد كما يقول بلاغٌ ، وفي التوسُّط مُجانبةٌ للوعورة ، وخروجٌ من سبيل مَن لا يحاسب نفسَه .

هذا عن إيثاره الكلام الوسط . أما عن ذَمِّه الشعرَ الوسط فقد جاء في مَعرِض إبداء رأيه في كلام الأعراب العقلاء الفُصحاء ، والعلماء البلغاء ، قال : « وأنا أقول : إنه ليس في الأرض كلامٌ هو أمتَعُ ولا آنَقُ ، ولا ألذُّ في الأسماع ، ولا أشدُّ اتصالاً بالعقول السليمة ، ولا أفتَقُ للّسان ، ولا أجودُ تقويماً للبيان من طول استماعِ حديثِ الأعرابِ العقلاء الفصحاء ، والعلماءِ البلغاء .

وقد أصاب القومُ في عامّةِ ما وصفوا ، إلاّ أني أزعم أنّ سخيفَ الألفاظ مُشاكِلٌ لسخيف المعاني . وقد يُحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربّما أمتَعَ بأكثرَ من إمتاعِ الجزْلِ الفخْم من الألفاظ ، والشريف الكريم من المعاني .

كما أن النادرةَ الباردةَ جدًّا قد تكون أطيبَ من النادرة الحارّةِ جدًّا . وإنما الكَرْبُ الذي يَختِمُ على القلوب ، ويأخذ بالأنفاس ، النادرةُ الفاترةُ التي لا هي حارّةٌ ولا باردة . وكذلك **الشعر الوسط** ، والغناء الوسط . وإنما الشأنُ في الحار جدًّا والبارد جدًّا »[2] .

وهذا كلام يُغني عن كل وصف وتعليق بالنسبة لرأي الجاحظ في الشعر الوسط ، أو الشعر الفاتر الذي لا هو حارٌّ ولا بارد .

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٢٥٥ (٢) المرجع نفسه : ج ١ ص ١٤٥

(٣) رأيه في شعر العرب والمولَّدين :

والجاحظ الذي عاش في عصر كانت الخصومة فيه على أشدها بين أنصار القديم والحديث من الشعر ، أو بين العرب والمولَّدين من الشعراء لم يتحرَّجْ من أبداء رأيه في هذه القضية .

وعنده أنَّ عامَّةَ العرب في مجموعهم أشعر من عامة الشعراء المولَّدين في مجموعهم ، وإنْ كان ذلك الحكم لا يستوجب التفضيل في كل ما قالوه . كذلك يرى أن راوية الشعر البصير بجوهره لا يخفى عليه صحيح الشعر وزائفه ، وأنه يعرف موضع الجيِّد عند أي شاعر كان ، وفي أيِّ زمانٍ كان .

وفي ذلك يقول: «والقضيةُ التي لا أحتشم منها ، ولا أهاب الخصومة فيها أن عامَّة العربِ والأعرابِ والبَدْوِ والحَضَرِ من سائر العرب ، أشعر من عامة شعراء الأمصار والقُرَى من المولَّدَةِ والناتية . وليس ذلك بواجب لهم في كل ما قالوه .

وقد رأيت أناساً منهم يُبهرجون أشعار المولَّدين ، ويستسقطون مَن رَواها. ولم أرَ ذلك قطُّ إلاّ في راويةٍ للشعر غيرِ بصيرٍ بجوهرِ ما يَروي . ولو كان له بَصَرٌ لعرَف موضعَ الجيِّد ممَّن كان ، وفي أيِّ زمان كان » [1] .

كذلك يفرِّقُ بين المولَّد والأعرابيِّ من جهة جودة الشعر ، ويقرِّر أن المولَّد يلحق بالأعرابيِّ في الأبيات لا في القصائد الطوال .

وفي ذلك يقول أيضاً : « ونقول : إن الفرق بين المولَّد والأعرابيِّ : أن المولَّد يقول بنشاطه وجَمْع بالِه الأبياتَ اللاحقةَ بأشعار أهل البدو ، فإذا

(١) كتاب الحيوان : ج ٣ ص ١٣٠ ، والناتية : مخفَّف الناتئة، ولعله أراد بهم الطارئين، واحتشم من الأمر : استحيَ منه :

أمعَنَ انحلّت قوّته واضطرب كلامه »[1] .

(٤) موقفه من نقد النحاة والرواة :

يقلّل الجاحظ من شأن النحاة ورُواة الأخبـار والأشعار في النقد ويُعلي عليهم في ذلك عامّةَ الرُّواة من رُواة الكتّاب وحُذّاق الشعر . وفي هـذا الموضوع يقول : « وقد جلستُ إلى أبي عبيدة، والأصمعيّ ، ويحيى بن نُجَيم[2]، وأبي مالك عمرو بن كِركِرَة[3] مع مَن جالستُ مِن رُواة البغداديين ، فمـا رأيت أحداً منهم قصد إلى شعرٍ في النسيب فأنشده . وكان خلفٌ يجمع ذلك كلّه .

ولم أرَ غايةَ النحويين إلاّ كلّ شعر فيه إعراب . ولم أرَ غايةَ رُواةِ الأشعار إلاّ كلّ شعرٍ فيه غريبُ أو معنىً صعبٌ يحتاج إلى الاستخراج . ولم أرَ غايةَ رُواةِ الأخبار الاّ كلّ شعرٍ فيه الشاهدُ والمثل .

ورأيتُ عامّتَهم — فقد طالت مشاهدتي لهم — لا يقفون إلاّ على الألفاظ المتخيّرة ، والمعاني المنتخَبة ، وعلى الألفاظ العذبة والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له مـاء ورونق ، وعلى المعانى التي إذا صارت في الصدور عمرتهـا وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للّسان بابَ البلاغة ، ودلّت الأقلام على مدافن الألفـاظ ، وأشارت إلى حسان المعانى . ورأيت البصَر بهذا الجوهرِ من الكلام في رُواة الكتّاب أعمّ ، وعلى ألسنة حُذّاقِ الشعراء أظهرَ »[4] .

---

(١) كتاب الحيوان : ج ٣ ص١٣٢

(٢) أحد رواة البصرة .

(٣) كان من أحفظ الرواة للغة .

(٤) البيان والتبيين : ج٤ ص ٢٣ - ٢٤

فمعرفة النحو وحده ، أو غريب الشعر وحده ، أو المستغلق من معانيه وحده، أو الشعر الذي يتضمن الشاهد أو المثل وحده لا يكفي عند الجاحظ ، وإنما كان عامة الرُّواة وحُذّاق الشعر ممن يتمتعون بثقافة منوعة ، هم أهل العلم بالشعر وأحق الناس بتقديره ونقده في رأي الجاحظ.

(٥) المطبوعون من المولّدين :

عرض الجاحظ بالذكر للمطبوعين من الشعراء المولّدين عنده وعند الناس ، وفاضل بينهم في الطبع ، وعيّن أطبعهم في نظره .

وفي كل ذلك يقول : « والمطبوعون على الشعر من المولّدين بشّارٌ العُقَيلي ، والسيّد الحِمْيري ، وأبو العتاهية ، وابنُ عُيَيْنة . وقد ذكر الناسُ في هذا الباب يحيي بنَ نوفل ، وسَلْماً الخاسرَ ، وخلَفَ بنَ خليفة . وأبانُ بنُ عبد الحميد اللاحقى أوْلَى بالطبع من هؤلاء ، وبشّارٌ أطبعُهم كلّهم »[١] .

ولكنه ينقد بشّاراً ويأخذ عليه مناظرته لحمّاد عَجْرَد في الشعر ، فيقول : « وما كان ينبغى لبشّار أن يناظر حمّاداً من جهة الشعر وما يتعلقُ بالشعر ، لأن حمّاداً في الحضيض ، وبشّاراً مع العَيُّوق . وليس في الأرض مولّد قَرَوِيٌّ يُعَدُّ شعرُه في المحدث إلاّ وبشّارٌ أشعرُ منه »[٢] .

(٦) رأيه في أبي نواس :

يقرر الجاحظ أنه لا يعرف بعد بشارٍ أشعرَ من أبي نواس[٣] ، كما يرى أن

---

(١) البيان والتبيين : ج ١ ص ٥٠

(٢) كتاب الحيوان : ج ٤ ص ٤٥٣ - ٤٥٤ ، والعَيُّوق : نجم أحمر مضيء في طرف المجرة الأيمن ، يتلو الثريا . يضرب به المثل في العلو .

(٣) كتاب الحيوان : ج ٤ ص ٤٥٧

المتأمل في شعره بروح بعيدة عن العصبية والهوى لا يسعه إلا أن يُفضّله .

وقد أورد الجاحظ هذا الرأيَ في مَعرِض حديثه عن معرفة أبي نواس بالكلاب ، وذلك حيث يقول : « وأنا أكتب لك رجزَه – أبي نواس – في هذا الباب ، لأنه كان عالماً راويةً ، وكان قد لعب بالكلاب زماناً ، وعرَف منها ما لا تعرفه الأعراب » .

«وذلك موجود في شعره ، وصفاتُ الكلاب مستقصاةٌ في أراجيزه ، هذا مع جودة الطبع وجودة السبك ، والحذق بالصنعة . وإن تأمّلْتَ شعرَه فضّلتَهُ ، إلا أنْ تعترضَ عليك فيه العصبيةُ ، أو ترى أنّ أهلَ البَدْوِ أبداً أشعرُ ، وأن المولّدين لا يقاربونَهم في شيء . فإنْ اعترضَ هذا البابُ عليك ، فإنك لا تُبصر الحقّ من الباطل ، ما دُمتَ مغلوباً » [1] .

ولكنه مع ذلك يعيب عليه « الغُلُوّ » الذي تمادى فيه إلى حدّ الكفر . فهو يروي أن أبا نواس قد كان يتعرض للقَتْل بجهدِه ، وأنه لما قال في مدح العباس بنِ عبيد الله بن أبي جعفر المنصور :

كيف لا يُدنيك من أملٍ مَن رسول الله مِن نَفَره ؟

أحدث هذا البيتُ ضجةً كبيرة بين الأدباء ، فأخذوا عليه قوله : « مَن رسولُ الله مِن نفره » لأن هذا كلامٌ مُستَهجَنٌ موضوعٌ في غير موضعه ، لأنّ حقّ رسولِ أن يُضاف إليه ، ولا يضافَ إلى غيره .

فلما قال في أحمد بن أبي صالح الذي كان يتعشّقه :

فاحبِبْ قريشا لحبِّ أحمدِها واشكرْ لها الجزْلَ من مواهبِها

جاء بشيء غطّى على الأول .

---

(١) كتاب الحيوان : ج ٢ ص ٢٧

ولما قال أيضاً في أحمدَ هذا :

يا أحمد المُرتجَى في كل نائبــةٍ   قُمْ سَيِّدِي نَعص ِجبَّارَ السماواتِ

غطَّى هذا على الأول . ويقرر الجاحظ أن هـذا البيت مع كفره مَقيتٌ جداً ، وأنّ أبا نواس كان يُكثر في هذا الباب [1] .

وقد جرَّه الحديث عن غُلوّ أبي نواس إلى ذكر ما أُخِذ عليه من الخطأ في شعره ، فقال : « وأما سوى هـــذا الفن – الغُلوّ – فلم يعرفوا له من الخطأ إلا قولَه :

أمستخبرَ الدَّارِ هل تنطقُ   أنا مكان الدار لا أنطِقُ [2]

كأنَّها إذْ خرِسَتْ جارِمٌ   بين ذوي تَفْنِيدِهِ مُطرقُ [3]

فعابوه بذلك ، وقالوا : لا يقول أحدٌ : لقد سكت هـذا الحجرُ ، كأنه إنسانٌ ساكت ، وإنما يُوصَف خَرَسُ الإنسان بخَرَس الدار ، ويُشَبَّه صَممُه بصمَمِ الصخر .

وعابوه بقوله حين وصف عينَ الأسد بالجُحوظِ ، فقال :

كأَنَّما عينه إذا ٱلتهبتْ   بارزةَ الجفن عينُ مخنوقِ

وهم يصفون عين الأسد بالغؤور . قال الراجز :

* كأنمـــا ينظر من جوف حَجَرْ *

---

(١) كتاب الحيوان : ج ٢ ص ٤٥٤

(٢) الشطر الأول في هذا البيت غير مستقيم الوزن ، ولكن هكذا ورد في كتاب الحيوان .

(٣) الجارم : الجاني ، والتفنيد : المراد به : اللوم والعَذْل ، وهو أيضاً التكذيب والتعجيز وتخطيء الرأي وتضعيفه .

وقال أبو زيد « الطائي » :

كأن عينيه في وَقْبَيْنِ من حَجَرٍ ... قِيضَا اقتياضاً بأطراف المناقيرِ [1]

وقال أبو زيد :

وعينان كالوَقْبين في ملء صَخْرَةٍ ... ترى فيهما كالجمْرَتين تسَعُّرا

ومع هذا فإنا لا نعرف بعد بشّارٍ أشعرَ منه » [2] .

ولأبي نواس رأيٌ في الشاعر أبانِ بن عبد الحميد اللاحقيّ عارضه فيه الجاحظ ولم يُقرّه عليه . وخبر ذلك أنه أورد في كتابه الحيوان قصيدةً لأبي نواس يهجو فيه أباناً والزنادقة مطلعها :

جالستُ يوماً أبانـاً ... لا درَّ درُّ أبانِ [3]

ومنها :

يُريد أنْ يَتسَوَّى ... بالعُصْبــةِ المُجَّانِ

بعَجْرَدٍ وعُبَـادٍ ... والوالبيِّ الهِجانِ

وقاسمٍ ومطيـعٍ ... رَيْحانــةِ النَّدْمانِ

ومن تعليق الجاحظ على هذه القصيدة قوله : « والعجيب أنه — أبا نواس — يقول في أبانٍ : إنه ممن يتشبه بعجرد ومطيع ، ووالبةَ بنِ الحباب ، وعلي بن

---

(١) الوَقْب : بفتح الواو : النقرة في الصخرة . قيضا : شُقتّا وحُفِرا ، واقتيـاضاً : استئصالاً ، والمناقير : جمع منقار ، وهو حديدة كالفأس يُنقَر بها .

(٢) كتاب الحيوان : ج ٤ ص ٤٥٦

(٣) لا دَرَّ درُّه : أي لا كثُر خيره ولا زكا عمله . وقالوا : لله دَرُّك أي لله عملك ! يقال هذا لمن يُمدَح ويُتعجَّب من عمله ، فإذا ذُمَّ عمله قيل : لا دَرَّ دَرُّه !

الخليل ، وأصبغ – وأبانٌ فوقَ مِلءِ الأرض من هؤلاء . ولقد كان أبانٌ وهو سكرانُ ، أصحَّ عقلاً من هؤلاء ، وهم صُحاة » [1] .

*

وبعد ... فهذا عرض لما جاء منثوراً في « البيان والتبيين » و « الحيوان » للجاحظ عن قضايا البلاغة والنقد العربي إلى عصره .

ولا جدال في أن الرجل من خلال هذا العَرْض يبدو مُعلّماً فذّاً وقمةً شاهقةً في تاريخ البلاغة وتاريخ النقد ، فالمساهمة التي أسهم بها في هذين الميدانين تمثّل في الواقع خلاصة معارف سابقيه ومعاصريه، هذا بالإضافة إلى الجديد الذي اهتدى إليه هو شخصياً فأثرى به البيان العربي والنقد العربي ، وانتقل بهما نقلة كبيرة على طريق نموهما وتطورهما .

وقد كان للجاحظ بما قدّم للبلاغة والنقد من مادة، وبما بَثَّ فيهما من أفكاره وآرائه الذاتية تأثيرٌ كبير على مَن جاء بعده من البلاغيين والنقاد .

ولم يكن هذا التأثير مقصوراً على ما دار من جدل بين هؤلاء العلماء حول آرائه ونظراته في شئون البلاغة والنقد ، وإنما تجاوز التأثير ذلك الى الاعتراف به كمرجع أصيل فيهما ، والى الاغتراف من محيط معارفه البلاغية والنقدية بطريقة أو بأخرى .

وعلى سبيل المثال فابن قتيبة « ٢٧٦هـ » لم ير بأساً في أنْ يستلهمَ روحَه وينهجَ نهجَه في كتابه عيون الأخبار ، وأبو العباس المبرد « ٢٨٥ هـ » تلميذ الجاحظ قد تأثر به في أدبه ، وابنُ المعتز في كتابه البديع أخذ عنه « المذهب الكلامي » الذي اعتبره أحدَ الفنون الخمسة الرئيسية لعلم البديع .

وفي كتاب العقد الفريد لابن عبد ربه « ٣٢٨ هـ » نُحِسُّ روحَ الجاحظ ونرى

---

(١) كتاب الحيوان : ج ٤ ص ٤٤٨ – ٤٥١

بعضَ أدبه مُرتَّباً بعضَ الترتيب ، وقدامةُ بن جعفر « ٣٣٧ هـ » في كتابيه : نقد الشعر ونقد النثر ، نقـــل كثيراً من الجاحظ . وعليُّ بنُ عيسى الرُّماني « ٣٨٦ هـ » تأثر به في كتابه « النُّكَت في إعجاز القرآن » .

وأبو هلالٍ العسكريُّ « ٣٩٥ هـ » يقرّر في كتابه الصناعتين أنه ليس إلاّ شارحاً للجاحظ ، جامعاً للمتفرّق عنده ، مُبوّباً له. وأبو علي الحسنُ بنُ رشيقٍ القيرواني « ٤٦٣ هـ » أفاد منه كثيراً في كتابه العمدة ، كما أفاد منه ابنُ سِنانٍ الخفاجيُّ « ٤٦٦ هـ » في كتابه سرّ الفصاحة . وغير هؤلاء كثيرون من البلغاء والأدباء والنقـــاد الذين كانوا ولا يزالون إلى اليوم يُفيدون من أدب الجاحظ ويرجعون إليه في كل ما يكتبون عن البلاغة العربية والنقد العربيّ .

ومن العجيب أن نرى بعض مَن حمَل على طريقتـه كعبد القاهر الجرجانى « ٤٧١ هـ » لم ينجُ من سلطانــه ، فنقل عنه كثيراً ، واضطرب في حديثه عن « اللفظ والمعنى » بين مخالفة الجاحظ وموافقته .

ومع إعجاب الكتّاب المعاصرين بالجاحظ وإجمـاعهم على الاعتراف بأثره وقيمة أدبه ، فإن منهم مَن يحمّلُه مسئوليةَ الفوضى التي تسود كتب الأدب العربىّ ، لأنّ مَن جاءوا بعده قد نسجوا على منواله وحذَوْا حَذْوَه .

ومنهم من يأخذ عليه كثرةَ المزاح والمجون الذي يصل أحياناً إلى درجـة الفُحش ، كما يأخذون عليه عدم القدرة على التركيز والصبر على موضوع واحد ، لأنه كثيراً ما يَدخل في موضوع ، ثم يَخرج منه قبل استيفاء الكلام عليه إلى موضوعات أخرى لأدنى مناسبة .

والواقع أن الحُكْمَ على الجاحظ بمقاييس العصر الحديث في البحث والتأليف فيه كثير من الإجحاف وعدم الإنصاف .

فالرجل كان يعيش في عصر يُنظَر فيه إلى المعرفة على أنها وَحدة متكاملة ، ولم تكن العلومُ بعدُ قد انفصل بعضها من بعد ، وأصبح كلٌّ منها علماً مستقلاً

بذاته ، له حدودُه ورسومُه ومعالمُه . فكان طبيعياً لمن يكتب أو يؤلف في هذا العصرِ أن يتنقّل في حرية بين فروع المعرفة ، وأنْ يستطرد ما شاء له الاستطراد من موضوع لموضوع .

هذا شيء ... وشيءٌ آخر أنّ الجاحظ ، كما يبدو ، قد قصد إلى الطريقة التي اتبعها في تأليف كتبه قصداً ، وعن علم ودراية بما يعمل .

فهو يقول عن منهاجه في تأليف كتاب الحيوان : « إني أوشّح هذا الكتاب بنوادرَ من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئُه من باب إلى باب ، ومن شكل إلى شكل ، فإني رأيتُ الأسماع تملُّ الأصواتَ المطربة ، والأغاني الحسنة ، والأوتارَ الفصيحة إذا طال عليها ذلك. وإذا كانت الأوائل قد سارتْ في صغار الكتب هذه السيرةَ ، كان هذا التدبيرُ لما طال وكثُر أصلح . وما غايتُنا من ذلك كلّه إلاّ أنْ تستفيدوا خيراً » .

ويقول أيضاً عن منهاجه : « وإنما أكتب لك من كل بابٍ طرَفاً ، لأنّ إخراجَك من باب إلى باب أبقى لنشاطك ، ولو كتبتُه بكماله لكان أكملَ وأنبلَ ، ولكنْ أخاف التطويلَ ، وأنت جديرٌ أن تعرِفَ بالجملة التفصيلَ ، والآخِرَ بالأول »[1] .

أما مَن يأخذون عليه كثرة الدُّعابة والمزاح والمجون ومَزْجَ الهزل بالجِدّ ، فإنا نترك الجاحظ يتولّى الردّ عليهم بكلامه هو ، والذي ردّ به من قبلُ على بعض نقاده من معاصريه ، وذلك إذ يقول :

« وهذا كتابُ موعظةٍ وتعريف ، وتفقُّهٍ وتنبيه . وأراكَ قد عِبْتَه قبلَ أن تقِفَ على حدوده ، وتتفكّرَ في أصوله ، وتعتبرَ آخرَه بأوّلِه ، ومصادرَه بموارده. وقد غلّطك فيه بعضُ ما رأيتَ في أثنائه من مَزْحٍ لم تعرِف معناه ، ومن بَطالةٍ لم تطّلِعْ على غَوْرها ، ولم تدر لم اجتُلِبَتْ ، ولا لأيِّ عِلّة

(١) كتاب الحيوان : ج ٧ ص ١٦٢

تـكلّفت ، وأيّ شيء أريغ بها ، ولأيّ جِدٍّ احتمل ذلك الهزل ، ولأيّ رياضة تجشّمت تلك البطالة ، ولم تدرِ أن المزاحَ جِدٌ إذا اجتُلِبَ ليكونَ علّةً للجِدّ ... »[1] .

وبعد فقد أطلنا وقفتنا مع الجاحظ وجولتنا في أدبه ، ولم يكن مفرٌّ من ذلك ، لأن الجاحظ متعدّدُ الجوانب ، غزير المادة ، أصيل الفكر . ولعلنا نرى الآن على ضوء ما تقدم مدى ما أسهم به براجح عقله وسَعة علمه وثقافته في نمو البلاغة العربية والنقد العربي ، وفي تمهيد سبيلهما أمام البلاغيين والنقـــاد من بعده ...

(١) كتاب الحيوان : ج ١ ص ٢٧ . وأريغ : أريد وطلِب وقصِد ، من أراغ الشيء يريغه، أي طلبه وقصده وأراده ، ويقال : ماذا تريغ ؟ أي ماذا تريد وتطلب ؟

ابـــن قتيبـــة

ذكرنا من قبل أن أكثر رجال القرن الثالث اشتغالاً بقضايا الأدب والشعر ، والبلاغة العربية والنقد ، هم العلماء الأدباء ممن تعمّقوا في الثقافة العربية وألمّوا بالمعارف الأجنبية التي أخذت تشيع في عصرهم .

كذلك ذكرنا أن أبا عثمان الجاحظ وابنَ قتيبة هما خير مَن يمثّل هذه الطائفةَ إنتاجاً وفكراً واتجاهاً . فكلٌ منهما كان لبحوثه الأدبية وأفكاره أثرٌ كبير في تطويرِ حركة النقد العربيّ ، وتوسيعِ مجاله ، وفتحِ آفاقٍ جديـــدة فيه ، وتعبيدِ طريقه أمامَ من جاء بعدهم من حُذّاق الأدب ونقاده .

وإذا كنا قد أتممنا جولتنا مع الجاحظ في كتبه التي عالج فيهـا الكثير من شئون الأدب والشعر والبلاغة والنقد ، وتعرّفنا إلى أهم آرائه ونظراته فيها ، فإننا ننتقل الآن للتعريف بمعاصره ابن قتيبة ، وللتعرُّف إلى الجهود العلمية التي أسهم بها في تطوير النقد العربي .

وابن قتيبة : هو أبو محمد عبدُ الله بنُ مُسْلِم ، أصله فارسيٌ من « مَرْو » . وُلِد بالكوفة سنة ٢١٣ هـ وتربّى في بغداد ، وتولّى القضاء بدِينَوَر فنُسِب إليها ، وصار يُعرَف بابن قتيبة الدينَوَرِيّ ، ثم كان معلماً ببغداد يُقرِىء كتبَه بها إلى حين وفاته سنة ٢٧٦ للهجرة .

قال عنه محمد بن إسحاق المعروف بابن النديم ، في كتابه « الفهرست » : « كان ابن قتيبة يغلو في البصريين ، إلاّ أنه خلط المذهبين وحكى في مذهبـه

عن الكوفيين . وكان صادقاً فيما يرويه ، عالماً باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه ، كثيرَ التصنيف والتأليف »[1] .

وكما سبق أن ذكرنا كان ابنُ قتيبة والجاحظُ خيرَ مَن يمثلان في عصرهما طائفةَ العلماء والأدباء الذين كانت عقليتهم مزيجاً من الثقافة العربية والثقافات الأجنبية . وكان ابنُ قتيبة لأهل السُّنة مثلَ الجاحظ للمعتزلة ، كان خطيبَ أهلِ السُّنة ، كما كان الجاحظُ خطيبَ المعتزلة .

وقد عاصر الجاحظَ شطراً كبيراً من عمره ، وكان يكرهه ، كما يدل على ذلك ما أورده في كتابه « تأويل مختلف الحديث » من نقدٍ له . فقد اتهمه بأنه يذكر حُجَجَ النصارى على المسلمين بأقوى مما يذكر الردَّ عليهم ، وبأنَّ كتبَه مُلِئتْ بالمضاحيك والعَبَث ، وأنه كذاب يضع الحديث وينصر الباطل[2] .

وإذا قارنا بين الرجلين في كتبهما وجدنا أن شخصية الجاحظ أقوى ، فهو لا يُخرج ما عَلِم إلاّ مهضوماً ، وأنه في جميع كتبه يَمَسُّ الحياة الاجتماعية في عصره ويتغلغل في ثناياها . أما ابنُ قتيبة فيفهم من التأليف أنه يجمع ، ويجمع عن سعة واطلاع ، ويختار ما يجمع من غير أن يُظهر نفسه فيما يجمع .

ومع هذا فإنه يَفضُل الجاحظَ في منهجه التأليفي ، ولعله أولُ مَن نقل التأليف في الأدب نقلةً جديدة من حيثُ الترتيبُ وقلة الاستطراد. وقد تعمد ذلك في كتبه وفخر به في مقدمة كتابه عيون الأخبار ، فقال : « وقرنتُ البابَ بشكله ، والخبرَ بمثله ، والكلمةَ بأختها ليسهلَ على المتعلم عِلمُها وعلى الدارس حفظها »[3] .

أما عن كتب ابن قتيبة فقد ذكر صاحبُ « كتاب التحديث بمناقب أهل

---

(١) كتاب الفهرست لابن النديم : ص ١٢١

(٢) ضحى الإسلام : ج ١ ص ٤٢٥ (٣) المرجع نفسه : ج ١ ص ٤٢٧

الحديث » أن له زهاءَ ثلاثمائةِ مُصنَّفٍ ، ووصفه بأنه أحدُ أعلام الأئمة والعلماء الفضلاء ، وأجودُهم تصنيفاً وأحسنُهم ترصيفاً [1] .

ولكنّ ابنَ النديم ذكر له في « الفِهرَست » ٣٣ كتاباً بأسمائها في علوم مختلفة من لغة ونحو وأدب وشعر وحديث وفقه وتاريخ ومذاهب دينية .

ومن مصنَّفاته في الأدب والشعر سواءٌ ما وصل منها إلينا أو لم يصل ، كتابُ معاني الشعر الكبير ، وكتاب عيون الشعر ، وكتاب العرب ، وكتاب عيون الأخبار ، وكتاب أدب الكاتب ، وكتاب الشعر والشعراء .

والكتابان الأخيران هنا : أدبُ الكاتب ، والشعرُ والشعراء ، هما من أكثر كتبه التي بين أيدينا اتصالاً بشئون الأدب والشعر ، والبلاغة والنقد العربي .



أدب الكاتب :

وأول شيء يسترعي النظر حقاً في هذا الكتاب هو تلك الصورةُ القاتمةُ التي رسمها ابنُ قتيبة في مقدمته لحال الأدب والأدباء والعلم والعلماء في عصره . ولولا ما تواتر عنه من أنه كان صادقاً فيما يرويه لتردد المرء طويلاً في قبول هذه الصورة القاتمة التي صوَّر فيها الحياة العلمية والثقافية للمجتمع الذي كان يعيش فيه .

فهو يستهل مقدمة « أدب الكاتب » بالشكوى من أهل زمانه ، إذْ يرى أكثرهم عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسمه متطيِّرين ، ولأهله كارهين .

أما الناشىءُ منهم فراغبٌ عن التعلم ، والشادِي تاركٌ للازدياد ، والمتأدب في عُنفوان الشباب ناسٍ أو متناسٍ ليدخلَ في جملة المجدودين ، ويخرج عن

(١) كتاب الشعر والشعراء لابن قتيبة : ج ١ ص ٥١

جملة المحدودين [1] .

وأما العلماءُ والعلمُ ففي حال يُرثَى لها . فالعلماء مغمورون بكثرة الجهل ، والعلمُ صار عاراً على صاحبه ، كما صار الفضلُ نقصاً ، وأموالُ الملوك وَقْفاً على النفوس ، وصارت المروءات في تشييد البنيان ،ولذاتُ النفوس في اصطفاقِ المزاهر ومُعاطاة النَّدمان ... [2] .

وأما الكاتبُ في عصره فأبعدُ غاياتِه في كتابته أن يكونَ حسَنَ الخط قويمَ الحروف ، وأعلى منازل أديبهم أن يقول من الشعر أبياتاً في مدح قَيْنَةٍ أو وصف كأس ، وأرفعُ درجاتِ لطيفهم أن يطالعَ شيئاً من تقويم الكواكب وينظرَ في شيء من حدّ المنطق ، ثم يتخذَ من ذلك وسيلةً للاعتراض على كتاب الله بالطعن ، وهو لا يعرف معناه ، وعلى حديث الرسول بالتكذيب وهو لا يدري مَن نقله . وقد استعاض بالله وبما عنده ، أن يقال : فلانٌ لطيف ، وفلان دقيقُ النظر . يذهب إلى أن لُطْف النظر قد أخرجه عن جملة الناس ، وبلغ به علمَ ما جهلوه ، فهو يَدْعُوهم الرَّعاعَ والغُثْاءَ والغُثْرَ [3] ، وهو بهذه الصفات أولى ، وهي به أليقُ ، لأنه جهِلَ وظن أنه قد علم ، فهاتان جهالتان ، ولأن هؤلاء جهِلوا وعلموا أنهم يجهلون [4].

فابنُ قتيبةَ هنا يتحدّث عن علماء عصره ممن عادَوْا الثقافةَ العربية الإسلامية فانحرفوا عنها إلى علم المنطق ، مفتونين بما فيه من ألفاظ الكون والفساد والكمية والكيفية والزمان وأشباهها مما يَهُول ويَروع ، وما هو عند البحث بهائل ولا رائع . هكذا صوَّرَ ابنُ قتيبة حالةَ العلم والعلماء في عصره هذه الصورة القاتمة !

---

(1) المحدودون : المحرومون . والمحدود : ضد المجدود .

(2) النَّدمان : قد يكون واحداً بمعنى النديم،وقد يكون جمعاً بمعنى النَّدامَى ،والندمان والنديم الجليس والسمير على الشراب .

(3) الغثر : سفلة الناس . (4) انظر هامش المثل السائر لابن الأثير : ص ٢ - ٣

ولكنْ لا ينبغي أن يُفهَم من ذلك أنّ ابنَ قتيبة كان يعادي المنطق لأنه يجهله ، فالواقع أنه كان علم به وبغيره من العلوم الأجنبية التي كانت منتشرة في عصره، ولكنه كان يَعيب على معاصريه انبهارَهم به وتوغُّلَهم فيه وانصرافَهم بسببه عن العناية بالثقافة العربية والإسلامية التي يجب أن يكون لها المحلُّ الأول.

فابنُ قتيبة بهذا النقد يُوَجِّه المُوغلين من علماء عصره في الثقافة الأجنبية إلى ضرورة الملاءمة بينها وبين الثقافة العربية ، والمَزْجِ بينهما مزجاً متناسباً ، فلا ينصرفون عن الثقافة الثانية من أجل الأولى ، ولا يسمحون للأذواق الأجنبية أن تطغى على أذواقهم العربية .

*

و « أدبُ الكاتب » كما يُفهَم من اسمه هو كتابٌ في ثقافة الكاتب كما يتصوّرها ابنُ قتيبة . لقد أخذتِ الكتابةُ في عصره تتحوّل إلى صناعة عتيدة وبالتالي إلى فنٍّ من فنون الأدب ، ولهذا رأى أن يقدّم في هذا الكتاب منهاجاً لمحبي الكتابة جمعَ فيه من فنون المعرفة وعلوم العربية وآداب الكتابة ما يُعينهم على بلوغ الغاية فيها .

وأدبُ الكاتب كما يقول في مقدمته ليس لمن لم يتعلق من الإنسانية إلا بالجسم، ومن الكتابة إلا بالاسم ، ولم يتقدم من الأدوات إلا بالقلم والدواة ، ولكنه لمن شَدَا شيئاً من العلم باللغة .

وأهمُّ ما يختاره للكاتب من أدواتٍ « ثقافةٌ عامّةٌ » تتمثّل في الرياضيات، وأصولِ الفقه ، ودراسةِ أخبار الناس ، وحفظِ عيون الحديث لِيُدخلَها في تضاعيف سطوره متمثّلاً بها إذا كتب ، ولِيصلَ بها كلامه إذا حاورَ ، كما تتمثل في تأديب نفسه قبل أن يؤدّبَ لسانَه ، وفي تهذيب ألفاظه ، وصيانةِ صناعتِه عن شَيْنِ الكذب .

ومن أدوات الكاتب عنده أيضاً تركُ التّقعُّرِ في الكلام ، عملاً بقول

الرسول : « إنّ أبغضَكم إليّ الثرثارون المتفيهقون المتشدّقون »[1] . ومنها إيثارُ سهْلِ الألفاظ ومستعمَلِ المعاني، والعدولُ عن وَحْشِيّ الغريب وتعقيدِ الكلام لاستكراهه ، وجعلُ ألفاظه على قدر الكاتب والمكتوب إليه ، وألا يعطيَ خسيس الناس رفيعَ الكلام ، مع مراعاة أن ما يُكتَب به إلى الأكفاء والمساوين ، لا يجوز أن يُكتَب به إلى الرؤساء والأساتذة[2] .

فهذه الآداب التي يأخذ بها الكاتب تحمل في ثناياها عناصر المقياس الذي يرتضيه ابنُ قتيبة لتقدير الكتابة ونقدها . ولعلها أولُ محاولةٍ من نوعها لوضع مقياس يقاس به النثر الفني في تاريخ النقد العربي . أما كتاب « الشعر والشعراء » فقد دخل به تاريخُ الأدب العربيّ ونقدُ الشعر طوراً جديداً نوضّحه فيما يلي :



كتاب الشعر والشعراء :

يحدثنا ابنُ قتيبة في مقدمة « الشعر والشعراء » عن موضوعه والغرض من تأليفه فيقول : « هذا كتاب ألّفته في الشعراء ، أخبرتُ فيه عن الشعراءِ وأزمانِهم وأقدارِهم ، وأحوالِهم في أشعارِهم ، وقبائلهم ، وأسماء آبائهم ، ومَن كان يُعرَف باللقب أو الكنية منهم ، وعمّا يُستحسَنُ من أخبار الرجل ويُستجاد من شعره ، وما أخذته العلماءُ عليهم من الغلط والخطأ في ألفاظهم أو معانيهم ، وما سبق إليه المتقدمون فأخذه عنهم المتأخرون . وأخبرتُ فيه عن أقسام الشعر وطبقاته ، وعن الوجوه التي يُختار الشعرُ عليها ويُستحسَنُ لها . إلى غير ذلك مما قدمته في هذا الجزء الأول »[3] .

---

(١) المتفهيق : الذي يتوسّع في كلامه ويفتح به فمه ، والمتشدّق : الذي يلوي شِدقه للتفصّح . (٢) انظر هامش المثل السائر لابن الأثير : ص٧ — ١٢

(٣) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٥٩

من هذه الكلمة الكاشفة عن موضوع الكتاب والغرض من تأليفه يمكن اعتبارُه مرجعاً من مراجع تاريخ الأدب ، وذلك لما يُورده فيه من أخبار الشعراء وعصورهم ومنازلهم ، وقبائلهم وأسماء آبائهم ، وما يُستحسَنُ من أخبار الرجل ويُستجاد من شعره ، وإن كان لم يلتزم في ذلك ترتيباً زمنياً . إذ كثيراً ما يذكر الجاهليَّ بعد المخضرم ، أو الإسلاميَّ قبل الجاهليِّ أو بعد العباسيِّ .

ويمكن اعتبارُه مرجعاً من مراجع الأدب ، فقد عرَّض فيه بالذكر لستةٍ ومائتين من الشعراء الجاهليين والمخضرَمين والإسلاميين والعباسيين ، وأورد لكل شاعرٍ منهم ما استجاده من شعره في أغراض وفنون مختلفة .

كذلك يمكن اعتبارُه مرجعاً من مراجع النقد العربي ، وذلك لما أثبته فيه من مآخذِ العلماء على هؤلاء الشعراءِ في ألفاظِهم أو معانِيهم ، ومن سرقاتِ بعضِهم من بعض ، ومن أقسام الشعر ووجوهِ استحسانِه . وقد أدَّى الكلامُ على هذه الموضوعات إلى كثير من الملاحظات النقدية التي تتصل بطبيعة الشعر وبواعثه وأساليبه .



ويُوَضِّح ابنُ قتيبة المنهج الذي رسمه واتبعه في « الشعر والشعراء » بأنه قصد أكثرَ ما قصد إلى المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جُلُّ أهلِ الأدب ، والذين يقع الاحتجاجُ بأشعارهم في الغريب والنحو ، وفي كتاب الله وحديثِ الرسول .

أما مَن خَفِي اسمُه ، وقلَّ ذكرُه ، وكَسَدَ شعرُه ، وكان لا يعرفه إلاَّ بعضُ الخواصّ ، فما أقلَّ مَن ذكره من هذه الطبقة ، إذْ كان لا يعرف منهم إلاّ القليل . وحتى ذلك القليلُ لا يعرف له أخباراً ، ولهذا لم يرَ ضرورةً لأن يُورد أسماءً لا يَدُلُّ عليها بخبرٍ أو زمانٍ ، أو نسبٍ أو نادرةٍ ، أو بيتٍ يُستجاد أو يُستغرَب .

وقد اعتذر عن ذلك بأن الشعراء المعروفين بالشعر عند عشائرهم وقبائلهم في الجاهلية والإسلام أكثرُ من أن يُحيط بهم مُحيط ، ولو أنفد عمره في البحث والسؤال عنهم .

كذلك يذكر أنه لم يَعرِض في كتابه لمن كان غلب عليه غيرُ الشعر ، كما فعل بعضُ مَن ألّف في هذا الفن ، ولو قصد إلى ذِكْر مثلِ هؤلاء في الشعر لكان عليه أن يذكرَ أكثرَ الناس ، لأنه قلّ أحدٌ له أدنى حظٍّ من أدب وطبعٍ ، إلاّ وقد قال من الشعر شيئاً .

مقياس ابن قتيبة في النقد :

وقد أبانَ ابنُ قتيبة في مقدمة « الشعر والشعراء » عن مقياسه في نقد الشعر ، وهو مقياس يختلف كلّ الاختلاف عن مقياس اللغويين والنحاة ممن كانوا بدافع العصبية للقديم يَحكُمون بين العصرين لا الشعرين .

فهو في مقياسه يدعو إلى عدم التفريق إلاّ بالقيمة بين قديم ومحدَث . فالشعر القديم قد يكون جيداً وقد يكون رديئاً ، والمحدَث قد يكون كذلك جيداً وقد يكون رديئاً ، وعلى رأيه كل قديم كان حديثاً في زمنه .

قال ابنُ قتيبة : « ولم أسلك ، فيما ذكرتُه من شعر كلّ شاعرٍ مختارٍ له ، سبيلَ مَن قلّد أو استحسنَ باستحسان غيره . ولا نظرتُ إلى المتقدم منهم بعين الجلالة لتقدمه ، وإلى المتأخر منهم بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظرتُ بعين العدل على الفريقين ، وأعطيتُ كُلاًّ حظّه ، ووَفّرتُ عليه حقّه .

فإني رأيت مِن علمائنا مَن يَستجيد الشعرَ السخيف لتقدُّمِ قائلِه ، ويضعه في متخيَّره ، ويُرذِلُ الشعرَ الرصين، ولا عيبَ عنده إلاّ أنه قِيلَ في زمانه، أو أنه رأى قائلَه .

ولم يقْصُرِ اللهُ العلمَ والشعرَ والبلاغةَ على زمنٍ دون زمن ، ولا خصّ

به قوماً دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركاً مقسوماً بين عباده في كل دهر ، وجعلَ كلَّ قديمٍ حديثاً في عصره ،وكلَّ شريفٍ خارجيّاً [1]في أوله،فقد كان جريرٌ والفرزدق والأخطل وأمثالُهم يُعَدُّون محدَثين .وكان أبوعمرو بن العلاء يقول : لقد كثُر هذا المحدَثُ وحسُنَ حتى لقد هَمَمْتُ بروايته .

ثم صار هؤلاء قُدَماءَ عندنا ببُعد العهدِ منهم،وكذلك يكون مَن بَعْدَهم لمن بعدَنا ، كالخُرَيْمِيِّ والعتّابيِّ والحسَنِ بنِ هانىء – أبي نواس –وأشباهِهم. فكلُّ مَن أتى بحسَنٍ مِن قولٍ أو فعلٍ ذكرناه له ، وأثنينا به عليه ، ولم يضَعْه عندنا تأخُّرُ قائلِه أو فاعلِه ، ولا حداثةُ سِنِّه . كما أنَّ الرديءَ إذا ورد علينا للمتقدِّمِ أو الشريفِ لم يرفعه عندنا شرفُ صاحبِه ولا تقدُّمه» [2].

فهذا المقياس الذي اقترحه ابنُ قتيبةلقياس الشعر ونقده، يكاد يكون أصحَّ مقياسٍ التقينا به حتى الآن في تاريخ النقد العربيّ .وقد وضع به أولَ أصلٍ من أصول النقد ، وهو ضرورة تَوَخّي الموضوعيةِ والحَيْدَةِ تجاهَ النصِّ الأدبيِّ الذي ينبغي أن يُقدَّر على أساس ما تضمّنه من قِيَم فنيّة وجمالية ، دون ما نظرٍ إلى اعتبارات القِدَم أو الحداثة أو شهرة صاحبه أو إعجاب الناس به .

*

والواقع أنَّ ابن قتيبة هو أولُ مَن توسّع في بحث الأدب بروح العلم،وأولُ مَن حاول الارتقاءَ بالنقد الأدبي إلى طور جديد يكون فيه علماً أو كالعلم له قواعدُ وأصولٌ عامةٌ محدَّدة يعرفها الناقدُ ويلتزم بها عند تصدِّيه لنقد العمل الأدبيِّ والحكم عليه .

ولهذا نراه يُقيم منهجَه النقديَّ على أصول استمدها من آرائه الخاصة ومن معارف سابقيه في النقد ، وقد كان مقياسُه السابقُ لتقدير الشعر ونقده أحدَ

---

(1) الخارجيّ هنا : الذي يخرج ويَشرف بنفسه من غير أن يكون له قديم .
(2) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٦٢ – ٦٣

أصولِ منهجه في النقد . أما الأصول الأخرى فنجملها فيما يلي :

تنوُّع الشعر :

ويعني ابن قتيبة بهذا الأصل « الصياغةَ الفنية ». فالشعرُ من حيثُ صناعتُه الفنية ليس نوعاً واحداً ، وإنما هو أربعةُ أنواع أو أضرب من وجهة نظره . ولهذا فإن على الناقد أن يراعيَ هــذا الأصلَ عند تقديره ونقده لأيِّ نصٍ شعريٍّ ، لأن لكل نوع صفاتٍ خاصةً بها يُحكَمُ له أو عليه .

وعن هذا الأصل يقول ابن قتيبة : « تدبَّرْتُ الشعر فوجدته أربعة أضرب :

(١) ضربٌ منه حَسُنَ لفظُه ، وجادَ معناه ، كقول أوْس بن حَجَر في ابتداء مرثية له :

أيَّتُهــا النفسُ أجملي جَزَعا ... إن الذي تَحْذَرِين قد وَقَعــا

وكقول أبي ذُؤَيب الهُذَليِّ من مرثية أولاده :

والنفسُ راغبةٌ إذا رَغَّبْتَهــا ... وإذا تُرَدُّ الى قَليــلٍ تَقْنَعُ

(٢) وضربٌ منه حَسُن لفظُه وحلاَ ، فإذا أنت فتَّشتَه لم تجد هنــاك فائدةً في المعنى ، كقول القائل :

ولمَّا قَضَيْنا من مِنىً كلَّ حاجةٍ ... ومسَّحَ بالأركانِ مَن هوَ مَاسِحُ

وشُدَّتْ على حُدْبِ المَهارِي رحالُنا ... ولا ينظر الغادِي الذي هوَ رَائحُ[1]

أخذْنا بأطرافِ الأحاديثِ بيْنَنا ... وسالتْ بأعناقِ المَطِيِّ الأباطحُ

---

(١) المهاري : بكسر الراء وتخفيف الياء ، ويجوز تشديدها وهو الأصل، لأنه جمع «مهرية» وهي الإبل المنسوبة الى قبيلة « مهرة بن حيدان » . ويجوز أيضاً في الجمع « مهارَى » بفتح الراء.

ويعلق ابن قتيبة على هذه الأبيات بقوله : « هذه الألفاظ كما ترى أحسنُ شيءٍ مخارجَ ومطالع ومقاطع ، وإنْ نظرتَ إلى ما تحتَها من المعاني وجدتَه : ولما قطعنا أيامَ مِنىً ، واستلمنا الأركان ، وعالينا إبِلَنا الأنضاء [1] ، ومضى الناسُ لا ينتظر الغادى الرائحَ ، ابتدأنا في الحديث ، وسارت المَطيُّ في الأبطح » .

(٣) وضربٌ منه جاد معناه وقصُرت ألفاظُه عنه ، كقول لبيد بن ربيعة :

ما عاتبَ المرءَ الكريمَ كنفسه والمرءُ يُصلِحُه الجليسُ الصالحُ

ويعلق عليه ابن قتيبة بقوله : « هذا وإن كان جيد المعنى والسبك فإنه قليل الماء والرَّونق » .

(٤) وضربُ منه تأخَّر معناه وتأخَّر لفظُه ، كقول الأعشى :

وقد غدوتُ الى الحانوتِ يتبَعُني شاوٍ مِشَلٌّ شَلُولٌ شُلْشَلٌ شَوِلُ [2]

وهذه الألفاظ الأربعة في معنى واحد ، وقد كان يُستغنَى بأحدها عن جميعها . وماذا يَزيد هذا البيت أن كان للأعشى أو ينقص ؟

وقد مثّل لكل ضرب من هذه الأضرب الأربعة بعدَّةِ أمثلة، منها ما نتفق معه فيه ، ومنها ما لا نُقرّه عليه . كذلك علّق على ما استحسنَ أو استقبح من هذه الأمثلة بعبارات بعيدة عن التعليل. كقوله: « هذا أبدع بيت قاله العرب» [3]

---

(١) الأنضاء : جمع نِضْو ، وهو الدابة التي أهزلتها الأسفار وأذهبتْ لحمَها .

(٢) الشاوي : الذي يشوي اللحم ، والمِشلّ : السواق ، من شلّ أي طرد وساق ، والشلول : الخفيف ، والشُّلْشَل : الخفيف في العمل السريع ، والشَّوِل : الذي يحمل الشيء.

(٣) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٦٥

أو هذا شعرٌ بَيِّنُ التكلُّف رديء الصنعة »[1] .

اللفظ والمعنى :

ولكل من اللفظ والمعنى في منهج ابن قتيبة مدلولٌ خاصٌ . ومدلول « اللفظ » عنده يعني النظمَ والتأليف الممثَّل في اللفظ المفرد والوزن والرَّوِيّ . وعلى هذا فعندما يُشير في الأضرب السابقة إلى « حُسْن اللفظ » فإنه يعني صحةَ الوزن ، وحُسْنَ الرَّوِيّ ، واللفظَ المفرد المتخيَّر ، أو بعبارة أخرى يعني « الأسلوب » . أما مدلول « المعنى » عنده فيعني الفكرة التي يَبين عنها البيتُ أو الأبيات .

وقد أوضح مفهومه هذا للفظ والمعنى في تعليقه على بيتين للمُرَقِّش عدَّهما الأصمعيُّ من مختاراته ، وهما :

هل بالديار أن تُجيب صَمَمْ   لو أنَّ حيًّا ناطقاً كَلَّمْ

يأْبِي الشبابُ الأَقْوَرِينَ ولا   تغبطْ أخاك أن يقالَ حَكَمْ[2]

ففي تعليقه على هذين البيتين يقول ابن قتيبة : « والعجيبُ عندي من الأصمعيّ إذْ أدخلَه في مُتَخيَّره ، وهو شعر ليس بصحيح الوزن ، ولا حسَنِ الرَّوِيّ ، ولا مُتخيَّر اللفظ ، ولا لطيفِ المعنى ... »[3] .

أما نعوت الحسن في اللفظ المفرد عنده فيتمثَّلها في كثرةِ الماء والرونق ، والسهولةِ ، وحُسْنِ المخارج والمطالع والمقاطع ، وقربِها من إفهام العوامّ ، وبُعدِها عن التعقيد والاستكراه .

---

(١) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٧٠

(٢) الأقْوَرِين : الدواهي العظام

(٣) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٧٢

الشعراء المتكلفون والمطبوعون :

وإذا كان اللفظ والمعنى من أصول النقد التي تتصل بصورة الشعر ، فإن هناك أمراً هامّاً يتصل بروحه وهو « الطبع » . ومن أجل هـذا نراه يقسّم الشعراء إلى : متكلّفين ومطبوعين ، ثم يفصّل القول عنهما من وجهة نظره .

وهو يبدأ بالتعريف فيقول: « ومن الشعراء المتكلّفُ والمطبوعُ. فالمتكلّفُ هو الذي قوّمَ شعرَه بالثّقاف ، ونقّحه بطول التفتيش ، وأعاد فيه النظر بعد النظر ، كزهيرٍ والحطيئة . وكان الأصمعيُّ يقول: « زهيرٌ والحطيئة وأشباهُهما من الشعراء عبيدُ الشعر ، لأنهم نقّحوه ، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين . وكان الحطيئة يقول : خيرُ الشعر الحَوليُّ المنقّحُ المُحَكّكُ . وكان زهيرٌ يسمّي كُبْرَ قصائده الحوليّات » [1] .

بعد ذلك يُقرّر أنّ المتكلّف من الشعر لا يخفى على ذوي العلم بالشعر ، فيقول : « والمتكلّفُ من الشعر وإنْ كان جيداً محكَماً ، فليس به خفاءٌ على ذوي العلم لتبيّنهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكّر ، وشدّةِ العَناء ، ورَشْحِ الجبين ، وكثرةِ الضرورات ، وحذفِ ما بالمعاني حاجةٌ إليه ، وزيادةِ ما بالمعاني غِنىً عنه » [2] . هذا مع إيراد أمثلة للشعر المتكلّف .

ثم يَدُلُّ على مظاهر التكلّف بقوله : « وتتَبيّنُ التكلّفَ في الشعر أيضاً بأنْ ترى البيتَ فيه مقروناً بغير جارِه ومَضموماً إلى غير لِفْقِه. ولذلك قال عمرُ بنُ لجإٍ لبعض الشعراء : أنا أشعر منك ، قال : وبِمَ ذلك ؟ فقال : لأني أقول البيتَ وأخاه ، ولأنك تقول البيتَ وابنَ عمّه » [3] . هـذا عن التكلّف في الشعر ومظاهره وأقدرِ الناس على إدراكِه وكَشْفِه عنده .

---

(١) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٧٨

(٢) المرجع نفسه : ج ١ ص ٨٨ (٣) المرجع نفسه : ص ٩٠

أما المطبوع من الشعراء فيُعرِّفه بقوله : « والمطبوع من الشعراء من سَمَح بالشعر واقتدر على القوافي ، وأراكَ في صدر بيته عَجُزَه ، وفي فاتحته قافيتَه ، وتبيَّنتَ على شعره رَوْنقَ الطبع ووَشْيَ الغريزة ، وإذا امتُحِن لم يتلَعْثَمْ ولم يَتَزَحَّر »[1] .

وعنده أنَّ الشعراء المطبوعين ليسوا سواءً في «الطبع» وإنما هم مختلفون فيه . وتوضيحاً لهذه الحقيقة يقول : « والشعراء أيضاً مختلفون في الطبع : منهم مَن يَسهُلُ عليه المديح ويَعسُر عليه الهجاء . ومنهم مَن يَتيسَّرُ له المراثي ويَتعذَّرُ عليه الغَزَلُ .

وقيل للعجّاج : إنك لا تُحسِنُ الهجاء . فقال : إن لنا أحلاماً تمنعنا من أنْ نَظلِمَ ، وأحساباً تمنعنا من أنْ نُظلَمَ . وهل رأيتَ بانياً لا يُحسِن الهدم ؟ »[2] .

ولكنَّ ابن قتيبة يأبَى أنْ يسلِّم برأي العجّاج هذا . ومن ثمَّ يعلِّق عليه تعليق الناقد الذكيِّ فيقول : « وليس هذا كما ذكر العجّاج ، ولا المثلُ الذي ضربه للهجاء والمديح بشكل ، لأنَّ المديح بِناء والهجاء بناء ، وليس كلُّ بانٍ بضربٍ بانياً بغيره .

ونحن نجد هذا بعينه في أشعارهم كثيراً . فهذا ذو الرُّمّة ، أحسَنُ الناس تشبيهاً ، وأجودُهم تشبيباً ، وأوصفُهم لرمل هاجرة وفَلاةٍ وماءٍ وقُرادٍ[3] وحَيَّةٍ ، فإذا صار إلى المديح والهجاء خانه الطبعُ . وذاك أخّره عن

---

(١) الشعر والشعراء : ج١ ص٩٩ . ولم يتزحّر : لم يئنّ : من الزحير ، وهو إخراج الصوت أو النفَس بأنينٍ عند عملٍ أو شدة . والغريزة : القريحة والسجية والطبيعة من خير أو شر . وسَمَح بالشعر : جاد به عن سخاء .

(٢) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٩٤

(٣) القُراد : واحد القِرْدان ، وهو دُوَيبّة تعضّ الإبل .

الفحول ، فقالوا : في شعره أبعارُ غِزلانٍ ونُقَطُ عَروسٍ ![1] .

وكان الفرزدق زيرَ نساءٍ وصاحبَ غَزَلٍ ، وكان مع ذلك لا يُجيد التشبيب . وكان جريرٌ عفيفاً عِزْهاةً[2] عن النساء ، وهو مع ذلك أحسَنُ الناس تشبيباً . وكان الفرزدق يقول : ما أحوجَه مع عِفّتِه إلى صلابة شعري ، وما أحوجَني إلى رِقّة شعره لما تَرَوْنَ » [3] .

*

وهناك أمور أخرى في النقد الأدبي عرض لها ابن قتيبة : من ذلك الدواعي والبواعث التي تحثُّ البطيء وتبعث المتكلّف على قول الشعر ، كالطمع ، والشوق ، والشراب ، والطرب ، والغضب ، والوفاء [4] .

ومنها أن الشاعر المطبوع قد تمر به لحظات يستدعي فيها الشعرَ فلا يجيبه لخُمود عاطفته . وفي ذلك يقول : وللشعر تارات – أوقات – يَبعُد فيها قريبُه ، ويستصعِب فيها رَيِّضُه . وكذلك الكلامُ المنثورُ في الرسائل والمقاماتِ والأجوبة ، فقد يتعذّر على الكاتب الأديب وعلى البليغ الخطيب ، ولا يُعرَف لذلك سببٌ إلاّ أنْ يكونَ مِن عارضٍ يعترض على الغريزة من سوءِ غذاء أو خاطر غَمٍّ » [5] . وقد استشهد على ذلك بقول الفرزدق : « ربما أتتْ عليّ ساعةٌ ونزعُ ضِرسٍ أسهلُ عليّ من قول بيت » .

ومنها أنسبُ الأوقات التي يَجُود فيها الشعرُ عن سخاء ويَهْطِل على قرائح الشعراء . قال ابن قتيبة : « وللشعر أوقاتٌ يُسرع فيها أتِيُّه ، ويسمَح فيها أبِيُّه : منها أوائل الليل قبل تَغَشّي الكَرَى ، ومنها صدرُ النهار قبلَ

---

(١) نُقط عروس : هي نقط سوداء تضعها العروس على خدّها تجميلاً وتحسيناً .

(٢) العِزهاة ، بكسر العين : العازف عن اللهو والنساء ، لا يطرب للّهو ويبعد عنه .

(٣) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٩٤

(٤) المرجع نفسه : ص ٧٨

(٥) الشعر والشعراء ص ٨٠

الغداء ، ومنها يومُ شُرب الدواء ، ومنها الخَلوةُ في الحبس والمسير . ولهذه العِلَل تختلف أشعار الشاعر ورسائلُ الكتّاب » (١) .

ومنها الإشارة إلى الطرائق المختلفة التي يلجأ إليها الناس لاستدعاء شاردِ الشعر ، من مِثل المياهِ الجارية ، والأماكن العالية والرياضِ المُعشِبة الخالية وغيرها ، مما يُحرّك عواطفَ الشعراء ، ويهيىء لهم بيئة صالحة يواتيهم فيها الشعرُ سهلاً ذلولا : كلُّ امرىء على تركيب طبعه واطّراد عادته .

ومنها أن الحُكْم عند المفاضلة بين المتقدمين المكثرين ينبغي أن يكون على أساس كثرة الجيد من الشعر . وفي ذلك يقول : « ولا أحسب أحداً من أهل التمييز والنظر ، نظر بعين العدل وترك طريق التقليد ، يستطيع أن يُقدّمَ أحداً من المتقدمين المُكثرين على أحد إلاّ بأن يَرى الجيدَ من شعره أكثرَ من الجيد في شعر غيره » (٢) .

ومنها لَفتُ النظر إلى أن جودةَ اللفظ والمعنى ليست السببَ الوحيد في كل ما يُختار ويُحفَظ من الشعر ، بل هناك بالإضافة إلى ذلك أسباب أخرى . وقد عبّر عن ذلك بقوله : « وليس كلُّ الشعر يُختار ويُحفَظ على جودة المعنى ، ولكنه قد يختار ويحفظ على أسباب : منها الإصابة في التشبيه ، ومنها أن قائله لم يقُل غيرَه ، أو لأن شعره قليل عزيز ، ومنها نُبْلُ قائله ، أو خِفّةُ رَوِيّه ، أو غرابةُ معناه » (٣) . وقد عزّز كلامه هذا بأمثلة مختلفة من الشعر .

*

كذلك عرض ابنُ قتيبة لبعض مآخذ المتقدمين والمعاصرين على الشعراء في شعرهم . وهذه المآخذُ والعيوبُ كما أوردها متصلةٌ بالوزن والإعراب ، ومنها

---

(١) الشعر والشعراء : ص ٨١ (٢) المرجع نفسه : ص ٨١
(٣) الشعر والشعراء : ص ٨٤ - ٨٧

ما شرحه أو أقرّه أو خطّأه .

وعيوب الوزن التي ذكرها كلّها خاصة بالقافيـــة ، وهي على التحديد : الإقواءُ ، والإكفاء ، والسّناد ، والإيطاء ، والإجازة .

أما العيوبُ في الإعراب ، فذكَـر منها ضروراتِ النظم ، كتسكين المتحرك ، وصرفِ الممنوع من الصرف ، وقصرِ الممدود ، وتركِ الهمْزِ من المهموز .

وقد نبّه أيضاً إلى بعض ما لا يجوز لِلمحدَث أن يتتّبع فيه المتقدم ، وذلك كاستعمال وَحشيِّ الكلام الذي لم يكثر ، واستعمالِ اللغـة القليلة في العرب ، وإبدالِ بعض الحروف من بعض ، كإبدال الجيم من الياء ، في مثل « يا ربِّ إن كنتَ قبلتَ حَجّتِجْ » أي « حجّتي » وكإبدال الياء من الحرف في الكلمـة المخفوضة ، من مثل قول الشاعر :

لها أشاريرُ من لحمٍ تُتَمِّرُهُ من الثعالى ووَخْزٌ من أرانيهَا[1]

*

وإذا كنا نعلم أن القصيدة العربية القديمة لها تقاليدُ وأصولٌ بُنِيت عليهـا من مقدمةٍ طللَيّةٍ ، فنسيبٍ ، فوصفِ الرحلة ، فتخلّصٍ إلى الممدوح ، فإن ابن قتيبة يلفت النظر إلى الأسس النفسية التي قامت عليها هذه التقاليدُ والأصول .

فهو يَروِي سماعاً عن بعض أهل الأدب أن مُقَصِّدَ القصيدِ إنما ابتدأ فيها بذكر الديار والدِّمن والآثار ، فبكى وشكا ، وخـاطب الرَّبْع واستوقف الرفيق ، ليجعلَ ذلك سبباً لذكر أهلها الظاعنين عنها انتجاعاً للكلأ وتتبّعـاً

---

(١) الأشارير : جمع « إشْرارة » وهي ما يُبسَط عليها اللحم والثوب ونحوهما في الشمس ليجف ، والأشارير أيضاً : قطع اللحم . وتتمره : تجفّفه بتقطيعه قطعاً كالتمر . ووخز من أرانيها : أي شيء ليس بالكثير من أرانبها . يشبه الشاعر راحلته بعُقباب هذا وصفها . انظر لسان العرب في مادة « تمر » .

للماء ومساقط الغيث حيث كان .

ثم وصل ذلك بالنسيب ، فشكا شدةَ الوجد وألمَ الفراق ، وفرْطَ الصّبابة والشوق ، لِيُميلَ نحوه القلوبَ ، ويَصْرِفَ إليه الوجوه ، ويستدعيَ به إصغاءَ الأسماع إليه ، لأن التشبيب قريبٌ من النفوس ، لائطٌ بالقلوب ، لما قد جعل الله في تركيب العباد من محبة الغزَل ، وإلْفِ النساء ، فليس يكاد أحدٌ يخلو من أن يكون متعلقاً به بسبب ، وضارباً فيه بسَهْمٍ ، حلالٍ أو حرام .

فإذا عَلِم أنه قد استوثق من الإصغاء إليه والاستماع له ، عقّبَ بإيجاب الحقوق ، فرحلَ في شعره ، وشكا النّصَبَ والسّهَرَ ، وسُرَى الليل وحَرّ الهجير ، وإنضاءَ الراحلةِ والبعير .

فإذا عَلِم أنه قد أوجب على صاحبه المقصودِ حقّ الرجاء والتأميل ، وقرّر عنده ما ناله من المكاره في المسير ، بدأ في المديح ، فبعثه على المكافأة ، وهزّه للسّماح ، وفضّله على الأشباه [١] .

وقد ذكر ابن قتيبة ما ذكر هنا من الأسس النفسية لتقاليد القصيدة العربية القديمة ، ليبنيَ عليه أصلاً من أصول النقد الأدبي ، خلاصتُه « أن الشاعر المجيد مَن سلك هذه الأساليب ، وعدّل بين الأقسام ، فلم يجعل واحداً منها أغلبَ على الشعر ، ولم يُطِل فيُمِلّ السامعين ، ولم يقطعْ وبالنفوس ظَماءٌ إلى المزيد » [٢] .

وعلى هذا فهو يرى أن عدمَ مراعاةِ التناسب بين هذه الأقسام في القصيد مَدْعاةٌ للانتقاد ، كبعض الرُّجّاز الذي أتى نصرَ بنَ سَيّار واليَ خراسان لبني أمية ، فمدحه بقصيدة تشبيبُها مائةُ بيت ، ومديحُها عشرةُ أبيات، فقال

---

(١) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٧٤ – ٧٥ (٢) نفس المرجع : ص ٧٥ – ٧٦

له نصر : والله ما بقّيت كلمةً عَذْبة ولا معنى لطيفاً إلاّ وقد شغلتَه عن مديحي بتشبيبك . فإن أردتَ مديحي فاقتصدْ في النسيب .

ثم أتاه هذا الراجز فأنشده :

هل تعرفُ الدارَ لأُمِّ الغَمْرِ ؟ دَعْ ذا وَحبِّرْ مِدْحةً في نصرِ

فقال نصر : لا ذلك ولا هذا ولكنْ بين الأمرين [١] .

وترتيباً على ما تقدم ذِكْرُه من أقسام القصيدة العربية القديمة يطالب ابنُ قتيبة متأخرَ الشعراء بالتزامِ هذه الأقسامِ وعدمِ الخروج عنها . وفي ذلك يقول : « وليس لمتأخر الشعر أن يخرج عن مذهب المتقدمين في هذه الأقسام ، فيقفَ على منزل عامر ، أو يبكيَ عند مُشيَّد البنيان ، لأنّ المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر ، والرسم العافي . أو يرحلَ على حمار أو بغل ويصفَهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير . أو يَرِدَ على المياه العِذاب الجواري ، لأن المتقدمين وَرَدوا على الأواجن الطوامي . أو يقطعَ إلى الممدوح منابتَ النرجس والآسِ والورد ، لأن المتقدمين جرَوْا على قطع منابت الشّيح والحَنْوَةِ والعَرارة » [٢] .

والعجيب أن ابن قتيبة الذي سبق فوضع مقياساً للنقد يقوم على عدم التفريق إلاّ بالقيمة بين قديم ومحدَث ، لأن من القديم والحديث ما قد يكون جيداً وما قد يكون رديئاً ، يعود فيناقض نفسه هنا بتقرير أنه ليس لمتأخر الشعراء أن

---

(١) الشعر والشعراء : ج ١ ص ٧٦ - ٧٧

(٢) المرجع نفسه. والشيح نبات له رائحة طيبة وطعم مرّ ، وهو مرعى للخيل والنَّعَم ، ومنابته القيعان والرياض . والحَنْوَةُ نبات سهليّ طيب الريح ، ويقال : هو الريحان . والعَرَارة : واحدة العَرار وهو نبت طيب الريح أيضاً ، ويقال : هو النرجس البري ، والآس: ضرب من الرياحين ، وقال أبو حنيفة : الآس بأرض العرب كثير ، ينبت في السهل والجبل وخضرته دائمة أبداً ، ويسمو حتى يكون شجراً عُظاماً.

يخرج عن مذهب المتقدمين فيما تواضعوا عليه وتوارثوه من تقاليد القصيدة العربية القديمة .

ولست أرى لماذا لا يصح لمتأخر الشعراء في رأي ابن قتيبة أن يخرج عن مذهب المتقدمين ، طالما أن البلاغة هي في مطابقة الكلام لمقتضى الواقع ، وطالما كان هذا المتأخر صادقاً أميناً في التعبير عن مشاعره أيّاً كانت هذه المشاعر ؟

*

وبعد .. فهذا عرض لأهم الجهود التي أسهم بها ابنُ قتيبة في ميدان النقد العربيّ وتطوير دراسته والبحث فيه ، وهذه كما رأينا مستخلصةٌ من كتابيه : أدب الكاتب ، والشعر والشعراء .

وقد رأيناه في « أدب الكاتب » مُعلّماً أكثر منه ناقداً ، فهو كتاب في « ثقافة الكاتب » وَضع فيه لمحبي الكتابة منهاجاً ضمَّنَه من فنون المعرفة وعلوم العربية وأدوات الكتابة كلّ ما يراه مُعيناً لهم على بلوغ الغاية فيها . وهو وإن لم يكن بمحتواه داخلاً كل الدخول في باب النقد، فإنه قد صار فيما بعد من المراجع التي يستعين بها نقاد الكتابة والنثر الفنيّ .

أما كتاب « الشعر والشعراء » فهو مرجع في تاريخ الأدب ، وفي الأدب والنقد . فهو يُعَدُّ من مراجع تاريخ الأدب العربي ، لما ورد فيه من أخبار الشعراء وعصورهم ومنازلهم وقبائلهم وأنسابهم ، وما يُستحسن من أخبار الرجل ويُستجاد من شعره ، وإن كان لم يلتزم في ذكر الشعراء ترتيباً زمنياً معيناً ، إذ كثيراً ما يورد الجاهليّ بعد المخضرم ، أو الإسلاميّ قبل الجاهليّ أو بعد العباسيّ .

وهو يُعدُّ من مراجع الأدب لما جاء فيه من مختارات شعرية في أغراض

مختلفة لأكثر من مائتي شاعر ما بين جاهليٍّ ومخضرَمٍ وإسلاميٍّ وعباسيٍّ .

كما يُعَدُّ من مراجع النقد العربيِّ لما أثبته من مآخذ العلماء على هؤلاء الشعراء في ألفاظهم ومعانيهم وسرقات بعضهم من بعض ، ولما عرض له فيه من أقسام الشعر ووجوه استحسانه ، ولما حاول بروحه العلميـة أن يضعه من قواعدَ وأصولٍ للنقد العربي استوحى عناصرَها واستمدَّها من ملاحظات نقدية متفرقة توصَّل إليها سابقوه .

وقد طلع ابنُ قتيبة على القرن الثالث بمقياس جديد في النقد الأدبي خالف به مقياس دُعاةِ القديم ممن يحكمون بين العصرين لا الشعرين ، ويستجيدون الشعر السخيف لتقدم صاحبه ويضعونه في متخيَّرهم ، ويُرذلون الشعر الرصين ولا عيب له عندهم إلاّ أنه قِيل في زمانهم أو رأوا قائله .

أما مقياسه هو فقد بناه على أساس فنيٍّ خالص ، وهو الحكم على الشعر بما فيه من قِيَم شعورية وتعبيرية من غير ما نظر إلى صفة القدم والحداثة ، لأن من الشعر القديم والحديث ما قد يكون جيداً ومـا قد يكون رديئاً . ولكننا نراه في موضع آخر من كتابه يرجع عن هـذا الرأي التقدميِّ مقرراً أنه ليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين !

وقـد حام ابنُ قتيبة بكلامه حول « العاطفة » التي هي أحدُ عناصر الأدب . وإن لم يُسَمِّهـا باسمها . وذلك عندما تكلم على بواعث الشعر ، وعلى الأوقات التي يَبعُد فيها قريبُه ، والأوقات التي يجود فيهـا عن سخاء ويَهطِل على قرائح الشعراء .

ولعله من أوائل من بحثوا في قضية « التكلف والطبع في الشعر » ولكن حديثه عن التكلف فيـه نظر ، لأنه أدخلَ تنقيحَ الشعر وتهذيبَه في باب التكلف ، على حين أنه ليس من التكلف في شيء .

فالتكلُّف بمعنى التكلف هو مـا كان ناشئاً عن ضعف ملكة الشاعر

وقصور أدواته عن إصابة الغرض أو الوفــاء به . ومن أماراته كما يقول ابن قتيبة أن ترى البيت فيه مقروناً بغير جاره ، ومضموماً إلى غير لِفقه ، وأن تكثر فيه الضرورات .

أما تقويمُ الشعر وتثقيفُه وتنقيحُه بطول التفتيش وإعادةِ النظر فيه بَعْدَ النظر من شعراء كزهير والحطيئة مشهودٍ لهم بالطبع والشاعرية فليس تكلفاً بحـال من الأحوال ، وإنما هو مذهب في الأدب تبنّاه شعراء مطبوعون يرون الشعرَ فنّاً وصناعةً ، ويحاولون أن يبلغوا بالتعبير فيه أقصى ما يستطيعون من درجات الإتقان والكمال الفنيّ .

كذلك عرض ابنُ قتيبة لبعض قضايا النقد الأخرى ، كالأساس الذي يُبنَى عليه الحكم في المفاضلة بين متقدّمي الشعراء المُكثرين ، وكمآخذ العلمـاء المتقدمين عليه والمعاصرين له على الشعراء في الوزن والإعراب، وكالأسس النفسية التي قامت عليها تقاليدُ القصة العربية القديمة .

حقـاً إن الكثير مما أسهم به ابنُ قتيبة في تدعيم حركة النقد الأدبي في عصره كان مسبوقـاً إليه ، ولكنه استطاع بفضل روحه العلمية أن يرتبه وينظمه ، وأن يضع منه قواعد للنقد . هـذا إلى جانب ما أضافه للأدب وتاريخه بالنسبة للشعراء الذين ترجم لهم في كتـابه . وكلُّ ذلك كان له أثره وقيمته لدى من أتـوْا بعده من النقاد والأدباء ومؤرخي الأدب . . .

ابـــن المعتـــز

ذكرنا في في مستهل حديثنا عن حركة النقد في القرن الثالث أن هذا العصر قد شهد أربع طوائف من النقاد لكلٍ منها منهاجُها النقديُّ الخاصُّ ومقياسُها الذي تقيس به الشعرَ وتحكم عليه .

وقد عرضنا حتى الآن لثلاثٍ من هذه الطوائف : طائفة اللغويين والنحاة ، وطائفة الشعراء المحدَثين ، وطائفة العلماء الذين أخذوا بحظ يسير من المعارف والثقافات الأجنبية .

أما الطائفة الرابعة والأخيرة والتي نشرع الآن في التعرف إلى جهودها وأثرها في النقد العربيّ ، فطائفةُ مَن أخذوا القديم من اللغويين ، ولكنهم عُنُوا أكثر منهم بالمحدَثين . وخيرُ مَن يمثّل هذه الطائفة ابنُ المعتز .

وهو أبو العباس عبد الله بن المعتز بن المتوكل بن المعتصم بن هارون الرشيد « ٢٤٧ – ٢٩٦ هـ » . أخذ الأدب عن أبي العباس المبرد وأبي العباس ثعلب وأبي علي العنزي وغيرهم ، وروى عنه شعرَه محمدُ بنُ يحيى الصولي وغيرُه ، كما روى عنه أدبَه أحمدُ بنُ سعيد الدمشقي .

لم يكن ابنُ المعتز شاعراً مطبوعاً مقتدِراً على الشعر فحسب ، وإنما كان أيضاً أديباً بليغاً مخالطاً للعلماء والأدباء معدوداً من جملتهم ، وله بضعةَ عشرَ

مؤلـّفاً في فنون شتى ، من الشعر والأدب والبلاغة .

ومن مؤلـّفاته النقديةِ التي لم تصلنا : كتابُ السرقات ، ورسالةٌ في محاسن شعر أبي تمام ومساويه ، أورد منها أبو عبيد الله محمدُ بنُ عِمرانَ المرزباني بضعَ صفحاتٍ في كتابه « الموشح » في مآخذ العلماء على الشعراء في عدة نواح من صناعة الشعر [1]

أمـــا كتبُه التي وصلت إلينا فهي : ديوانه ، وكتاب « الآداب » نشره كراتشكوفسكي ، وأرجوزة في تاريخ المعتضد الأميرِ والخليفة [2] ، وطبقاتُ الشعراء المحدَثين ، وكتـابُ « البديع » موضوعُ حديثنا الآن ، والذي يُعَدُّ أولَ بحثٍ منهجيٍّ في الشعر والبلاغة والنقد .

وإذا كان عبد القاهر الجرجانيُّ « ٤٧١ هـ » صاحبُ كتابي « دلائل الإعجاز » و « أسرار البلاغة » هو واضعَ نظرية علم المعاني وعلم البيان ، فإنَّ ابنَ المعتز هو واضعُ أساس « علم البديع » كما يُفهَم ذلك من كتاب « البديع » الذي ألـّفه سنة ٢٧٤ للهجرة .

ومن مقدمة كتاب « البديع » يبدو أنه ألـّفه ردّاً على من زعم من معاصريه أن بشّارَ بنَ بُرد ، ومُسْلمَ بنَ الوليد ، وأبا نواس هم السابقون إلى استعمال البديع في شعرهم .

فهو يقول في المقدمة : « قد قدّمنا في أبواب كتابنا هذا بعضَ ما وجدنا في القرآنِ واللغةِ وأحاديثِ رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكلامِ الصحابـــة والأعرابِ وغيرِهم وأشعار المتقدمين ، من الكلام الذي سمّاه المحدَثون « البديع »

---

(١) انظر كتاب الموشح للمرزباني : ص ٤٧٠ - ٤٧٤

(٢) نشرت في القاهرة سنة ١٣٢٩ هـ.

ليُعلمَ أن بشّاراً ومُسلماً وأبا نواس ومن تقيّلَهم [1] وسلك سبيلهم لم يسبقوا إلى هذا الفنّ ، ولكنه كثُر في شعرهم فعُرِف في زمانهم ، حتى سُمّيَ بهذا الاسم ، فأعربَ عنه ودَلّ عليه » .

« وقد كان بعضُ العلماء يشبّه الطائيّ في البديع بصالح بن عبد القدوس في الأمثال ، ويقول : لو أنّ صالحاً نثرَ أمثالَه في شعره ، وجعل بينها فصولاً من كلامه لسبق أهلَ زمانه ، وغلبَ على مَدّ ميدانه . وهذا أعدلُ كلامٍ سمعته في هذا المعنى » [2] .

وفي موضع آخر يشير إلى غرضه من تأليف كتاب البديع بقوله : « وإنما غرضُنا من هذا الكتابِ تعريفُ الناس أن المحدَثين لم يسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع » [3] .

وفي موضع ثالث يشير إلى أنه أولُ من نظم وجمع فنون هذا العلم ، فيقول : « وما جمع فنون البديع ولا سبقني إليه أحدٌ . وألّفته سنة أربع وسبعين ومائتين » [4] .

من ذلك نرى أن دُعاةَ التجديد من الشعراء المحدثين كانوا يزعمون أن البديع من صُنعهم واختراعهم ، وأنّ ابنَ المعتز لهذا وضع كتابه ليُدلّل به على بُطلان هذا الزعم ، وليُثبت بالأمثلة الكثيرة من الأدب القديم أن العرب قد عرفوا هذه الأساليبَ البديعية من قبلهم . وإذن فالمحدثون لم يسبقوا إلى هذا ولكنه كثُر في أشعارهم فعُرِف في زمانهم .

---

(١) تقيّلهم : حاول التشبه بهم .

(٢) كتاب البديع : ص١ ، وصالح بن عبد القدوس : شاعر عباسيّ من حكماء الشعراء ، اشتهر بالزندقة فأمر الخليفة المهدي بقتله وصلبه على جسر بغداد سنة ١٦٧ هـ .

(٣) كتاب البديع : ص ٣ (٤) المرجع نفسه : ص ٥٨

والحقيقة أن القضية لم تكن قضية فنون بديعية تُجمَع وتُحصَى بمقدار ما كانت قضية خصومةٍ بين القدماء والمحدَثين . فابن المعتز في المحل الأول قد وضع كتابه « البديع » دفاعاً عن القدماء ، وذلك بإرجاع الفضل إليهم فيما ادّعاه المحدَثون لأنفسهم مِن سَبْق إلى فنون البديع ، وكل ما هنالك من فرق أنها جاءت عند القدماء قليلة طبيعية ، وعند المحدَثين كثيرةً باديةَ التكلف .

*

وكتاب البديع يشتمل أولاً على خمسة أبواب تحدّث فيها ابنُ المعتز عن فنون البديع الأساسية من وجهة نظره ، وهي : الاستعارة، والجناس، والمطابقة، وردُّ أعجازِ الكلام على ما تقدمها ، والمذهب الكلامي .

وعن المذهب الكلامي يقول : « وهو مذهب سمّاه عمرو الجاحظ . وهذا باب ما أَعلم أني وجدت في القرآن منه شيئاً وهو يُنسَب إلى التكلف . تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً » [1] .

وينبّه ابنُ المعتز في كتابه على أنه اقتصر بالبديع على الفنون الخمسة السابقة . اختياراً من غير جهل بمحاسن الكلام ولا ضيق في المعرفة . فمن أحبّ أن يقتديَ بنا ويقتصرَ بالبديع على تلك الخمسة فليفعلْ . ومَن أضاف من هذه المحاسن أو غيرِها شيئاً إلى البديع ولم يأت غيرَ رأينا فله اختيارُه . [2]

ولكنْ رغبةً منه في أن تكثر فوائدُ كتابه للمتأدبين أتبَعَ هذه الفنونَ الخمسةَ الأساسية التي اعتمدها أصولاً لعلم البديع ، بذكر ثلاثة

---

(١) كتاب البديع : ص ٥٣ (٢) المرجع نفسه : ص ٥٨

عشرَ باباً آخر هي : الالتفاتُ ، واعتراضُ كلام في كلام لم يُتمّ الشاعر معناه ثم يعود إليه فيتمّه في بيت واحد ، والرجوعُ ، وحسنُ الخروج من معنى إلى معنى ، وتأكيدُ المدح بما يشبه الذم ، وتجاهلُ العارف ، وهَزْلٌ يراد به الجد ، وحسْنُ التضمين ، والتعريضُ والكناية ، والإفراطُ في الصفة ، وحسنُ التشبيه ، وإعناتُ الشاعر نفسَه في القوافي وتكلّفُه من ذلك ما ليس له ، وحسْنُ الابتداءات .

وقد ذكر ابنُ المعتز أن هذه الأنواعَ الثلاثة عشرة هي بعضُ محاسن الكلام والشعر « ومحاسنُها كثيرة لا ينبغي للعالم أن يدّعِيَ الإحاطة بها حتى يتبرّأ من شذوذِ بعضِها عن علمه وذِكْره »[1] . فإذا أضفنا إلى ذلك فنونَ البديع الخمسة الأساسية ، كان معنى ذلك أنّ ابنَ المعتز قد توصّل إلى ثمانية عشر فنّاً من فنون البديع جمعها في كتابه ، وعرّف بها ومثّل لها .

هذا وليس في كتاب ابن المعتز ذِكْرٌ لباحثٍ قبله في فنون البديع سوى الأصمعيّ الذي قال عنه : « إن له بحثاً في الجناس »وسوى الجاحظ الذي اهتدى إلى ما سمّاه « المذهبَ الكلاميّ » .

وكأني بابن المعتز وقد قام بالمحاولة الأولى في وضع أسس « علم البديع » أدرك أن هناك مَن قد يقلّل من هذه المحاولة أو يُغيّر في بعض المصطلحات التي اختارها ، أو يَزيد في بعض الأبواب ، أو يأخذ عليه تقصيراً في تفسير بعض الشواهد الشعرية التي استدلّ بها . ومن أجل هذا كله يقول : « ولعل بعضَ مَن قصّر عن السبق إلى تأليف هذا الكتاب ستحدّثه نفسُه ، وتُمَنّيه مشاركتَنا في فضيلته ، فيسمّيَ فنّاً من فنون البديع بغير ما سميناه به ، أو

---

(١) كتاب البديع : ص ٥٨

يَزيدَ في الباب من أبوابه كلاماً منثوراً ، او يفسّرَ شعراً لم نفسّره ، أو يذكرَ شعراً قد تركناه ولم نذكره : إمّا لأنّ بعضَ ذلك لم يبلغ في الباب مَبلغَ غيره فألقيناه، أو لأنّ فيما ذكرناه كافياً ومُغنياً . وليس من كِتابٍ إلاّ وهذا ممكنٌ فيه لمن أراده . وإنمـــا غرَضُنا في هذا الكتاب تعريفُ الناس أن المحدَثين لم يَسبقوا المتقدمين إلى شيء من أبواب البديع . وفي دون ما ذكرنا مبلغُ الغاية التي قصدناها »[1] .

ومما سبق نستخلص الحقائق التالية :

- إن ابن المعتز أولُ من وضع كتابـــاً في البديع ضمّنه ما توصل إليه من فنون بديعية ، وبذلك يُعَدُّ المؤسسَ الأول لعلم البديع .
- وهو أول مَن لفت الأنظـــار إلى أن البديع الذي أخذ يشيع في عصره وقبله بقليل ، والذي يدّعِي المحدَثون أنهم سبقوا إليه ، كان موجوداً في القرآن وأحاديث الرسول والأدب الجاهلي والإسلامي ، وأنه كان يأتي في كل ذلك عفوَ الخاطر بغير قصدٍ أو تعمُّل .
- إن الشعراء المحدَثين أمثـــال بشار ومُسلم بن الوليد وأبي نواس وأبي تمام وغيرهم لم يسبقوا إلى البديع ، وإنما فُتِنوا به فأكثروا منه ، وتوسّعوا في استعماله ، وقصدوا إليه قصداً .
- استحدث مصطلحات لما اهتدي إليه من الفنون البديعية ، ونقَدَ ما أتى معيباً من كل فنّ .

*

والمتصفح لكتاب البديع يرى أن ابنَ المعتز لم يسِرْ فيه على منهج

(١) كتاب البديع : ص ٢ — ٣

واحد ، فهو في بحثه لفنون البديع الخمسة الأصلية عنده يبدأ بتعريف الفنّ البديعيّ ، ثم يُثنّي بإيراد الأمثلة عليه من مأثور كلام القدماء والمحدثين ، ثم يختم بذكر أمثلة للمعيب منه . ومن الأمثلة ما يشرحه أو يعيّن موضع الشاهد فيه ويعلّق عليه ، ومنها ما يورده إيراداً من غير شرح أو تعليق .

أما محاسن الكلام والشعر الكثيرة التي ذكر بعضها ، فلم يتوسع كثيراً في بحثها ، مكتفياً غالباً بتعريفها والتمثيل لها .

ولكتاب البديع مكانته في تاريخ البلاغة والنقد ؛ فهو أولُ كتاب من نوعه يتناول الأدب تناولاً فنياً ، ويعرض بالشرح للعناصر التي تزيده حُسْناً . وقد انتقل النقد العربي به إلى طورٍ جديد ، طورِ العناية بدراسة العبارة ونقدها ، على حين كان الاهتمام من قبل مركزاً أكثر على نقد الأفكار والمعاني . أما الصور التعبيرية ُ أو الأساليبُ فلم يكن يُنظر إلى شيء فيها خارجَ حدود الصحة من الأخطاء اللغوية والإعرابية ، ومن عيوب الوزن والقافية .

ومحاولةُ ابن المعتز هذه كانت نواةً لظهور مقياس جديد في النقد الأدبي هو « المقياسُ البديعيُّ » الذي أخذ يقيس الأدب بما يرد فيه من بديعٍ لا يكتسب صفةَ القبولِ والحسْنِ حتى يكون المعنى هو الذي طلبَه واستدعاه وساقَ نحوه ، بحيث لا يبتغي به بدَلاً ولا يجد عنه حِوَلاً ، أي أن المعنى هو الذي يقود البديع نحوه ، لا أن يقود هو المعنى إليه . فما طابق هذا المقياس منه فحسَنٌ مقبول وما شذ عنه فقبيح مرفوض .

وقد التقط البلاغيون ما توصّلَ إليه ابنُ المعتز من فنون البديع وراحوا من بعده يضيفون إليها جيلاً بعد جيل حتى بلغوا بها أكثر من مائة وخمسين فناً بديعياً .

وكان لقياس الأدب بالمقياس البديعي أثرٌ في نفوس الأدباء فأخذوا يتفننون في استخدام المحسنات البديعية ، ويكدُّون أذهانهم في اختراع فنون جديدة تحسَب لهم في ميزان النقد .

وكان طبيعياً لكل ذلك أن يصطبغ الشعر والنثر بصبغة البديع ، وأن يغاليَ الشعراءُ والكتّاب في استعماله إلى الحد الذي قضى تدريجياً على روح الأدب وأحاله إلى معرض كبير للحُلَى والزخارف اللفظية !

وإذا عدنا إلى الطائفة التي يمثلها ابن المعتز من نقاد الأدباء والشعراء الذين أخذوا القديم من اللغويين وعُنُوا أكثر منهم بالحديث رأينا أن مذهبَهم يتميَّز بنقد عناصرِ الشعر المحدَث ، والتنويهِ بالمقبول وغير المقبول منها ، والموازنة بينه وبين الشعر القديم في عبارات موجزة ، وإبداءِ الرأي أو إصدار الحكم في كثير من الأحيان مجرداً من العلل والأسباب .

ومن أمثلة هذا النقد ما أورده المرزباني في كتابه « الموشح » من نقد ابن المعتز لأبي تمام . وفيما يلي ثلاثُ صور من نقده توضح منهجه وطريقته في النقد [١] . قال أبو تمام :

تسعينَ ألفاً كآسادِ الشَّرَى نَضِجَتْ   أعمارُهم قبل نُضْجِ التّينِ والعنب

وقد سبق الناسُ إلى عيب هذا البيت قبلي ، وهو من خسيس الكلام .

وقال أبو تمام :

شاب رأسي وما رأيت مشيبَ الرَّ   أس إلَّا من فضل شَيْبِ الفؤادِ

فيا سبحان الله : ما أقبح شيبَ الفؤاد ! وما كان أجرأه على الأسماع في

---

(١) الموشح للمرزباني : ص ٤٧٠ — ٤٧٤

هذا وأمثاله .

وقال أبو تمام :

كان في الأَجفَلَى وفي النَّقَرَى عُرْ ... فُكَ نَضْرَ العموم نَضْرَ الوِحادِ

يقال : « دعاهم الجَفَلَى » : إذا دعاهم كلّهم فأجفلوا . ويقال : « دعاهم النَّقَرَى » : إذا دعاهم واحداً واحداً . وهذا من الكلام البغيض والغريب المستكره من البَدويّ ، فكيف إذا جاء من ابن قرية متأدّب ..؟





فهرس الموضوعات

تصويبات

الصفحة	السطر	خطأ	صواب
٢٠	١	الفصر	العصر
٦٢	١٩	الفصائل	الفضائل
٧٦	٢٢	٢٠١	٢٩١
٨٣	٢١	بى	في
٩٦	١٠	لحيرتُه	لحيرتِه
٩٧	٢٢	وافق الخير	وافق الحق
١٠٧	١٧	لذة العين	لذة العيش
١١٨	١٢	ابن عتيق	ابن أبي عتيق
١٢٨	٤	خادمه	خادم صاحبته
١٥٣	١٢	الفُحسن	الفُحش
١٥٤	١١	مراعات	مراعاة
١٦٠	١٤	جَلَمَةٌ	جَلَبَةٌ
١٦٢	١٣	طبقان	طبقتان
١٦٨	٢٢	ذلال الثوب	ذلاذل الثوب
١٧٣	٨	لمعنى	المعنى
١٨٢	١٧	شمالِ	شمالَ
٢٠٢	١٨	نزعتِه	نزعتُه
٢١٣	٨	الجريئة	الجزئية
٢١٧	٦	حَلَماءَ	حُلَماءَ
٢٧٥	١١	مررتُ ...الفرزدقَ	مررتَ ... الفرزدقُ
٢٨٨	١٥	كان يفتعل	كان يفتعل الشعر
٢٨٩	٨	أضمِرُ ... أظهِرُ	أُضمِرُ ... أُظهِرُ
٣٠٨	١٤	سُمَيِّتُ	سُمَيَّةُ

٧١/١٥٠٠/١٩٨٧


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com


رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com